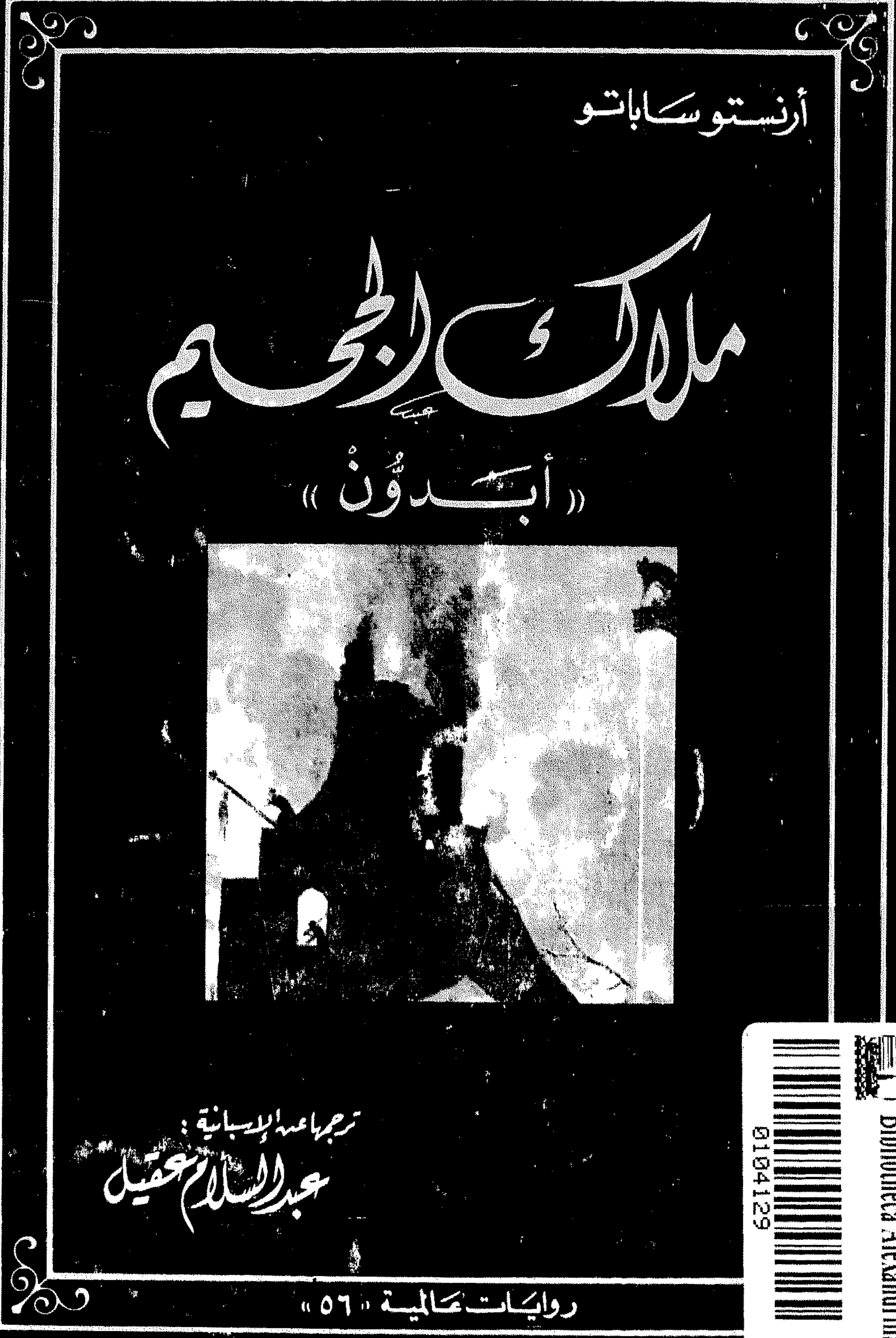
أرنستو ساباتو

ملاك الجحيم

« أبدُّونْ »

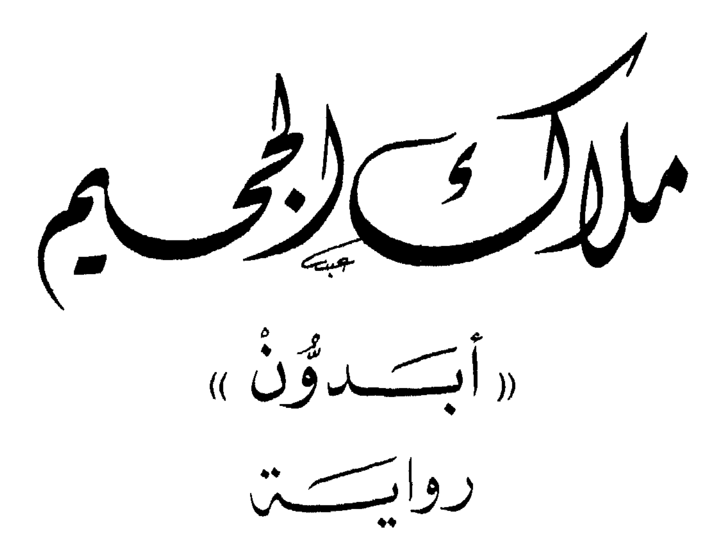


ترجمها عن الإسبانية:

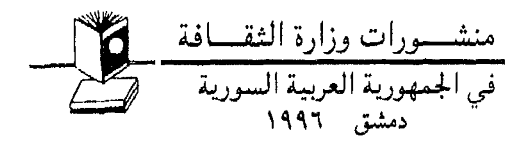
عبد السلام عقيل

روايات عالمية « ٥٦ »

أرنستو ساباتو



ترجمها عن الإسبانية :
عبد السلام عقيل


منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٦

العنوان الأصلي للكتاب :

ERNESTO SABATO

ABADDÓN EL EXTERMINADOR

Edición definitiva en conmemoración
del 80º aniversario de
ERNESTO SABATO

ملاك الجحيم «أبدون» رواية =Abaddon el exterminodor
أرنستو ساباتو؛ ترجمها عن الاسبانية عبد السلام عقيل . -
دمشق: وزارة الثقافة ، ١٩٩٦ . - ٥٨٤ ص ؛ ٢٤سم . -
(روايات عالمية ؛ ٥٦).

١- ٨٦٣ أ ج س ا ب م ٢- العنوان ٣- العنوان الموازي
٤- ساباتو ٥- عقيل ٦- السلسلة
مكتبة الأسد

الايداع القانوني : ع - ١٧٩/ ٢ / ١٩٩٦

عن هذه الرواية

الدكتور خالد محيي الدين البرادعي

- ١ -

بدأ أدب أمريكا اللاتينية يلفت أنظار النقاد والمهتمين مع أوائل هذا القرن. ومع انتصاف القرن أثبت هذا الأدب وجوده ليس في القارة الأمريكية وحسب، بل على مستوى العالم. والتمعت أسماء كبيرة في الرواية والشعر بين المكسيك وكولومبيا والبرازيل والأرغواي والأرجنتين.

وبقدر ماأهتم كتاب أمريكا اللاتينية بتياراتهم الأدبية المتفردة، أهتم نقادها بتوصيل هذا الأدب إلى العالم. حتى عَرَّف النقد العالمي أدب أمريكا اللاتينية بأنه الأدب الجديد الذي بلغ سن الرشد. ليتوهج بين آداب أمم الدنيا بنكهة جديدة وزخم خاص.

والأرجنتين جزء من تلك القارة، بل ثاني أكبر أجزائها بعد البرازيل، تمتد على مساحة ثلاثة ملايين كيلومتراً مربعاً إلا قليلاً. تتفاوت بها المناخات، وتتعدد عليها الأنواء، وهي بين جبل شاهق وسهل فسيح وواد سحيق وساحل لانهاية له. وقد عاشت ماعاشته أجزاء القارة بين الهزات السياسية والعنف العسكري وثورات التحرير وانتفاضات الردة والإصلاح. وتقلب إنسانها بدءاً من أول القرن السادس عشر بين سيطرة إسبانية، وتسلل إيطالي وهجرات إفريقية كما هجرات من أجناس شتى.

عاش كتابها قلق التفرد في الكتابة، وتهيأ لهم ماأردوا من أدب عقدت من أجله لقاءات للنقد خارج بلدهم اعترافاً بقيمته وإجماعاً نقدياً على تفرده. قد تكون الرواية في مقدمته. لكن أي رواية تلك التي بدأت تشغل النقد العالمي؟

يقول المتابعون وهم المهتمون بمسيرة الرواية وتطورها. إن كتاب أمريكا اللاتينية تنبهوا إلى خاصية التفرد، ولم يكتفوا بأن قدموا للعالم شعراً يتطور عضوياً كما يصفه الناقد المكسيكي خوسيه لويس مارتنيث. وأن ذلك الشعر الذي يتدفق بصورة طبيعية حاملاً خصوصيته وعالميته. ومن حين إلى حين يتألق شعراء عظام مثل: داريو، وفابييخو، وباث ونيرودا. وبالمقابل يظل خلق الرواية الكبيرة التي تتجاوز التيارات السائدة والمذاهب المألوفة، واحداً من أهم الطموحات المقلقة لأجيال من الكتاب في أمريكا اللاتينية[1] ويظهر في الأرجنتين روائيون كبار يقدمون سلسلة من الأعمال الروائية ذات الدرامية المؤثرة والمتطورة، لافتين إليهم أنظار النقاد في أوروبا وأمريكا على حد سواء من هؤلاء: بينيتولينش Benitolynch المتوفى عام ١٩٥٢ والذي ركز على النزاعات الإنسانية في رواياته. و ريكاردو جوير الديس Ricardo Guirlades الذي حوّل اللقاء مع الطبيعة إلى خيال شعري أو إلى حالة شعرية متفردة في رواياته. وفي عقد الأربعينات من هذا القرن - العشرين - يظهر خورخي لويس بورخس Jorge Luis Borges وأدولفي بويس كاساريس Adolfo Boioy Casares والروائي الاستثنائي كما وصفه النقاد وخوليو كورتاثار Julio Cortazar الذي شغل النقد طويلاً بروايته الاستثنائية: الحجلة Rayuela التي ظهرت في أوائل الستينات. وإرنستوساباتو

(١) خوسيه لويس مارتينث ناقد مكسيكي معاصر ولد عام ١٩١٨ وأستاذ في الجامعة الوطنية المستقلة في المكسيك. له عدد من كتب النقد التي شغلها الأدب في أمريكا اللاتينية. ومن أهم كتبه: الوحدة والتنوع في الأدب الأمريكي اللاتيني وفيه يستعرض ويحلل التيارات الأدبية، ويتوقف أمام عدد من الكتاب الكبار. ويخصص للرواية حيزاً عريضاً فيه

Ernesto Sabato صاحبنا مؤلف هذه الرواية.

- ٢ -

ولد إرنستوساباتو عام ١٩١١ في إحدى نواحي محافظة بيونيس آيرس وتلقى تعليمه فيها ثم حاز شهادة الدكتوراه في الفيزياء. وعمل في مجال الفيزياء في فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية. ثم عكف على دراسة الفلسفة التي سوف تظهر آثارها في رواياته فيما بعد. لكنه هجر الفيزياء والتفت إلى عالم الأدب الذي سيتحول إلى هاجسه الكبير بدءاً من عام ١٩٤٥ . فألف الكثير من الدراسات الفكرية والفلسفية التي تعالج أزمة الإنسان في العصر الراهن، إلى جانب رواياته التي تحتل الموقع الأرفع في أدب أمريكا اللاتينية.

ورواياته شغلت النقاد في بلاده وفي العالم بعد أن ترجمت إلى معظم لغات الدنيا. ونال عدداً من الجوائز. ومازال سابا توحيّاً شحيح البصر يتخذ من الرسم هواية له. وقد أقيم للوحاته معرض في باريس مؤخراً.

ومتتبع حياة ساباتو يرى أنه عاصر حقبة من الزمن كانت حافلة بالأحداث السياسية في وطنه الأرجنتين التي نالت استقلالها وتخلت عن الولاء للعرش الإسباني في أوائل القرن التاسع عشر. لتبحث عن هويتها القومية كأمة بعد ذلك التاريخ. فتمر بسلسلة من الهزات السياسية الداخلية، والحروب الأهلية، والمنازعات الحزبية الدموية، والخضوع ثم التمرد على الديكتاتوريات الفردية العسكرية منها والمدنية. ولم تتمكن من الوصول إلى صيغة الحكم الديمقراطي الذي تعيشه الآن إلا منذ عقدين من الزمن، على رغم وجود البرلمانات فيها.

ليكون ساباتو احد شهود عصره يعيش نزاعاته ويشهد جملة

الصراعات التي عاشتها بلاده. إلى جانب كونه عالماً يفهم ماتعنيه التقانة الحديثة والكشوف العلمية المعاصرة والتي اولاها كثيراً من اهتمامه في رواياته. كما شجب جانبها المادي وسخر أيما سخرية من آثارها المدمرة على الطبيعة والإنسان في وقت معاً. وتهكم من الأثر الوحشي غير الإنساني الذي تركته الأسلحة المدمرة وخاصة في اليابان. وظل متعاطفاً مع النزوع الإنساني الذي يحرر الإنسانية من الهمجية المدمرة التي هدمت جسور التواصل بين الإنسان والإنسان بدون أن ينسى أن قيام كيان سياسي بالعنف و القهر كالكيان الإستيطاني الصهيوني شر يزول مع زوال أدواته.

وساباتو من جهة أخرى شهد زوال تيارات أدبية في أوروبا وأمريكا وولادة أساليب وتيارات على انقاضها. وكان لابد له أن يبحث عن تيار روائي خاص لاينتمي لأي تيار آخر، تبعاً لحالة القلق التي كونتها الفترة الزمنية العاصفة التي عاشها سواء في بلاده أم في أوروبا والولايات المتحدة. ألم يعش وحشية الحرب العالمية الثانية وهو بين الثلاثين والأربعين من عمره؟ وعندما بدأ كتابة الرواية كان أدب أمريكا اللاتينية قد تجاوز سن الرشد على حد تعبير بعض النقاد. ليصل إلى مرحلة تهديم أو تدمير الأشكال الأدبية. فيصل كل أديب كبير إلى فلك خاص به. ويتحول أسلوبه الفردي إلى تيار أدبي خاص. وهذا مانشهده اليوم في البرازيل والأرجنتين. ولابد أن يكون ساباتو واحداً من أصحاب هذه التيارات الخاصة في خلق الرواية. حيث لايستطيع الناقد وعبر كافة المعايير النقدية أن ينسب روايات ساباتو إلى أي مذهب أو مدرسة. وربما هذا التفرد بإبداع النمط الفردي البحت هو الذي دفع أحد النقاد ليقول: «يوجد حالياً عدد كبير من الكتاب في المكسيك وكوبا، والبرازيل، والأرجنتين، يمارسون فن الكتابة الروائية بأقصى مستوى ممكن،

وبدون احترام أي قانون أو تقاليد باستثناء قانون التجريب...»[1].

وساباتو أجدر من ينطبق عليه هذا الوصف. فقد تجاوز التقاليد والأنماط، والتيارات المألوفة منذ نشأة الرواية في القرن السابع عشر وحتى الآن. وقفز قفزة خاصة في الكتابة، يوم تحول هو كاتب الرواية إلى واحد من شخصياتها وصانعي أحداثها. عن قصد وتصميم، ويرى أن اندماج الكاتب في أحداث الرواية أحد شروط نجاح هذه اللعبة. وإتماماً لهذه القفزة حوَّل شخصيات إحدى رواياته إلى كائنات حية تعيش معه وتحاور الآخرين وتدافع عن وجودها بصورة تثير الدهشة والغرابة. فشخصيات روايته «أبطال وقبور» التي وصفها النقاد بأنها رواية ضد الرواية، تتحرك بشوارع بيونس آيريس وتعايش الأحداث التي يعيشها ساباتو ويتفاعل معها. فنرى امرأة شغلت حيزاً في رواية أبطال وقبور، تتحرك وتحاور وتحب وتكره في رواية: ملاك الجحيم. وكأنها مخلوق حقيقي خرج من بين السطور ليعيش بين الأحياء. وهذا مارأيناه في معظم الشخصيات التي رسمها ساباتو على الورق أمس، تنهض من تكوينها اللغوي المرسوم بالحبر، لتتحول إلى كائنات حية تصنع المشاهد الدرامية العنيفة التي حفلت بها الرواية التالية.

وإذا كان تلاقح الملكة الإبداعية بالثقافة العميقة هو الذي ينتج أدباً كبيراً يتجاوز عصره ليبقى حياً على مدى عصور لاحقة، فساباتو حقق مثل هذا التلاقح بين الملكة المبدعة وبين الثقافة، ودفع قارئه ليعيش في مناخ معرفي مثقل بالفكر الفلسفي والثقافة الشمولية التي تمثلت الأدب والتاريخ والأديان والأساطير والمعتقدات الشعبية في المشرق

---

(١) من دراسة للناقد: إمير رودريحت مونيجال Emir Rodrigues Monegal من الأورغواي بعنوان التقليد والتجديد في أدب أمريكا اللاتينية. وهو استاذ الأدب المقارن والأدب الأمريكي اللاتيني في جامعة بيل بالولايات المتحدة وله عدد من الكتب النقدية المهمة، بعضها منشور في باريس

والمغرب، إضافة إلى كونه عالم فيزياء تمكن من إدخال شذرات من هذا العلم في نسيج رواياته. بدون أن يظهر معلماً أو واعظاً بالطبع. ولا يمكن لقارئه أن يتجاوز مجالات الحياة النفسية التي أتقن ساباتو الخوض في ظواهرها وخفاياها، والتي مكنته من الغوص في أعماق النفس البشرية حتى القرار المكين.

- ٣ -

وملاك الجحيم آخر رواية كتبها ساباتو لايمكن وصفها كما لايمكن تلخيصها لكنها من الروايات الصعبة التي لابداية ولانهاية لها كما الحياة، فهي تغص بالأحداث المتشابكة، والمشاهد المتقاطعة، وتتراكم فيها المشاهد المثيرة للرعب، والتي تشكلت في كوابيس مخيفة لاتخرج من ذاكرة قارئها ولاتفارق بصيرة مُشاهدها، ولأن ساباتو ليس متصالحاً مع واقعه، ولأنه رافض عصره الساحق الذي حول الإنسان إلى أداة تستهلك منتجات العصر ذاته، حول عالمه الروائي إلى كابوس يملأ صاحبه رعباً فهنا عصابة للتزوير وهناك عصابة للتهريب وبينهما عصابة لارتكاب الموبقات وأهونها القتل بدون عذاب، ومن حول هذه وتلك عرافات ومشعوذون ونساء يسترقن النظر شهوة إلى الجنس بعيون مفترسة متوحشة.

وخلال القراءة لاتكاد تصدق أن هذه الأحداث تتخلق في مدينة هائلة الاتساع كثيرة السكان كعاصمة الأرجنتين بل يراودك باستمرار شعور موغل في الغرابة، لأنك تعيش في أمكنة تملؤها الغرائب.

ومن بين مخلوقات تشبه مخلوقات كافكا، وأحداث تذكرك بعذاب اليوم الآخر، ودوران ضمن حدود بيونس أيرس يذكرك بَقسَم نجيب محفوظ الذي لم يغادر مدينة القاهرة في رواياته كلها، وتداعيات متباعدة

تذكرك بأسلوب وليم فوكنر. وسخرية حزينة تذكرك بسرفانتس خالق دون كيشوته، وشطحات صوفية تذكرك بالعرفانيين عبر كل الأديان. ومتانة في السرد تذكرك بأندريه مالرو، مروراً بالروائيين الكلاسيكيين العظام كتولستوي، ودوستوفسكي، وأحياناً برشاقة السرد في الدون الهادىء بين يدي ميخائيل شولوخوف .. تعثر على ساباتو الإنسان العابث حيناً والمتمرد حيناً. وهو يوحي إليك برؤية عالم جميل لاحرب ولا عنف ولا آلة تسحق الإنسان فيه. لكنك لاتستطيع رؤية هذا العالم الحلم، أو الوصول إليه، إلا بعد معاناة العيش في الكوابيس والأحلام المفزعة التي يفرزها القهر والاستلاب في هذا العالم المرفوض.

ألم ترافقه في عالم الظلمات الذي نقل إليه أناساً يلاقون فيه ألواناً من العذاب كذلك الذي وصفته الكتب السماوية والذي أُعد للكفرة والمنافقين؟ ألم تصحبه إلى غرف التحقيق البشعة التي يلوذ بأدواتها المخيفة أناس خلعوا جلد الإنسان ولبسوا جلود الوحوش؟ وأسلحتهم القيود والسواطير والمخارز وأسلاك الكهرباء وزرد الحديد؟ ألم يقرأ عليك صفحات من نضال غيفارا الذي صحبه قوم أقسموا أَيْمانَ الولاء بين يديه إيماناً بضرورة رفع القهر والعسف والاستلاب عن الإنسان في أمريكا اللاتينية؟ ثم رسم لك المشهد الأكثر عنفاً عن مقتل غيفارا؟ وكيف سحقوه بالرصاص ثم شوهوه بالحرق والتقطيع؟ ألم يرسم أمامك تلك الصور الساخرة للسطحيين والمفرغين من القيم الإنسانية كدلالة أو تدليل على ما وصل إليه إنسان بلده في ظل الاستهلاك الذي يراه ابتزازاً للإنسان لتحويله إلى رقم في قطيع؟ وبسخرية نادرة الشبه يقول لك إن المخلوقات التي لاتأكل اللحم هي الأكثر شفافية والأغنى إنسانية من الإنسان؟

ولا أظنك تنسى سخريته من الإيديولوجيات التي تتحول إلى وسائل

للتسلط والقمع والإذلال على أيدي معتنقيها.

إن ساباتو يعري بعنف، ويرفض بعنف، ويسخر بعنف، حتى يوصلك إلى نقطة لاتتمنى أن تصحب معك شيئاً من هذا الواقع الذي يدمره. لتنظر معه نحو الأمام. بحثاً عن فردوس لاشر ولاطغيان فيه. فردوس بلا حكام ولا أوصياء. وإن كان يعلم أنه حلم طوباوي للحياة في مدينة فاضلة لايتحقق وجودها إلا إذا تطهر الإنسان من نوازعه الخاطئة والشريرة.

والذي يحيرك وأنت مستغرق في هذه الرحلة. هو إدخال المألوف في الغرائبي. وتشابك المحسوس بالخيالي ببراعة ورشاقة نادرتين. ففي مشاهد الرواية أناس حقيقيون، تاريخيون ومعاصرون. وظفهم ساباتو في صنع أحداثه الغريبة ومشهدياته المتوترة، يتعايشون مع شخصياته الخيالية التي صنعها وحملها مسؤلية صنع الأحداث وهؤلاء كثر إلى حد التخمة. فروائيون وشعراء وسياسيون وعلماء تعرفهم أنت وقرأت لهم أو قرأت عنهم يحولهم ساباتو إلى شخصيات تندغم في نسيج روايته العجيبة حتى تتساءل: أكنت أقرأ واقعة تاريخية؟ أم حدثاً سياسياً؟ أم نصاً من كتاب مطبوع؟ أم سيرة ذاتية؟

وماتراه غرائبياً وخارجاً على المألوف في مثل هذه النصوص المثقلة بفرادتها، هو الطبيعي المألوف لدى هؤلاء الكتاب. ألم يلجأ الروائي الكولومبي غارثيا ماركيث إلى إدخال الأسطورة في التاريخ في إحدى رواياته المهمة ثم يُهَرِّبُ إلى روايته «مقاطع بارزة من ألف ليلة وليلة أو من أكثر أجزاء الإنجيل قدما.....»[1] هذا مافعله ساباتو في ملاك

(١) أنظر كتاب: أدب أمريكا اللاتينية ـ قضايا ومشكلات ـ المجلد الأول ص ٢٦١ وهذا الكتاب صدر في مجلدين عن سلسلة عالم معرفة في الكويت. كما ننصح بقراءة كتاب الدكتور شاكر مصطفى: الأدب في البرازيل

الجحيم. إدخال الأسطورة في التاريخ وتهريب الشخصيات الحقيقية إلى عالم الشخصيات الخيالية حتى يلفك دوار صاخب وأنت ترافقه.

وساباتو لم يخادعك في السرد، ولم يحاول استغفال قارئة في صنع التلافيف والدخول فيها وهو مزود بكل حمولة عصره. إنما طرح رؤيته الروائية بالتفصيل في أحد فصول: ملاك الجحيم عندما صاغ طبيعته في صنع الرواية على لسان أحد المتحاورين «... لذلك فإنهم سيهزأون منك... ولكن كن ثابتاً وتذكر: مايبدو أنه قديم جداً الآن، كان يبدو أنه حديث جداً».

ربما لن تكون على هذا النحو كاتباً لوقت قصير، ولكنك ستكون فنان عصرك، عصر الرؤيا التي سيتعين عليك أن تستمد منها على نحو ما، شاهِدَكَ، لتخلص روحك، تقع الرواية بين بدء الأزمنة الحديثة ونهايتها، وتساير بالتوازي: التدنيس ـ يالها من كلمة معبرة ـ المتنامي للكائن البشري، وعليه تحطيم عالم الأساطير المريعة، ولذلك فإن محاولات الحكم على رواية اليوم بعبارات تقليدية قاطعة، هي محاولات عقيمة تماماً. يجب وضع الرواية في سياق الأزمنة الكبرى الشاملة التي تتناول الإنسان، ودوره في هذه المرحلة الهائلة التي بدأت بالمسيحية، فلو لم توجد المسيحية لما وجد الضمير القلق، ولو لم توجد التقنية التي تميزت بها أيامنا المعاصرة هذه، لما كان هنالك تحطيم للمقدس ولاشكٌ كونيٌ ولاعزلةٌ ولاجنون. وهكذا فإن أوروبا حقنت الحكاية الأسطورية أو المغامرة البطولية البسيطة بالقلق النفسي والغيبي، لإنتاج نوع جديد. سيكون مصيره الكشف عن حقل خيالي هو: وعي الإنسان...» ذلك إذن هو المذهب أو التيار الفني الذي صمم ساباتو ابتكاره والدخول فيه هو وعي الإنسان. ليتحول هذا الوعي الإنساني خلال الرواية إلى عروض عجائبية وإلى رسوم مدهشة وإلى تساؤلات لا إجابة عليها.

في ملاك الجحيم تفاجئك كائنات لاتعرفها. يوظفها ساباتو في صنع الأحداث وتوترها وتصعيدها كما لو كنت قارئة وعلى علم مسبق بحقيقتها. مثل العميان. ومثل أسماء شخصيات لها أهمية في مسيرة الحدث تفجؤك بحضورها. ويقول لك ساباتو إنها فعلت كذا. أو قالت كذا في رواية أبطال وقبور. أو تشاهد أشخاصاً يشاركون كشهود في هذه الرواية. ويسألون ساباتو أسئلة تتعلق بأدوار محددة في روايته السابقة: أبطال وقبور وقد يساورك القلق حيناً. وتحس بأن قطعاً أو بتراً وصل إليك وأنت تسمع إجابة هنا عن سؤال طرح بعيداً عنك. أظن هذا لايؤثر على مسيرة الأحداث سواء عدت إلى قراءة روايته السابقة: أبطال وقبور أم لم تعد. لأن المنطق وتسلسل الأحداث وتتابع السرد لاتتوفر أصلاً في رواية ملاك الجحيم. لأنك تستطيع قراءة فصول منها بمعزل عن الفصول الأخرى. أمام تراكم الوصف وتمازج الأحداث واختلاط الفعل بالفعل. وساباتو صمم روايته هكذا وكأن القلق يجيب عن القلق والفوضى تحمل الفوضى. لافاصل بين الأزمنة. لافواصل بين الأمكنة. إنك في حلم ثقيل يحدث فيه مالايمكن أن يحدث في عالم الوعي واليقظة. فأنت هنا الآن وقبل الآن. وأنت هناك وهنا في وقت معاً. وكأن الروائي الصعب ساباتو أراد أن يضعك في دوامة مواجهة وخضم كشوفاته وتراكم ثقافته وتشعباتها دفعة واحدة. ليقول لك بعد قراءة الرواية: هذا هو العصر المتأزم المجنون المحقون بالمفاجآت. وقد وضعته أمامك أو وضعتك أمامه وجهاً لوجه. تلك هي الرواية.

وفي الصفحات الأخيرة من الرواية والتي تقارب الأربعين، قبل النهاية، يعود ساباتو إلى رواية الأحداث بنظام السرد الرصين، فيتخلى عن تلافيفه وكوابيسه ومتشابكاته، ويراوده هدوء يشبه الهدوء الذي تألفه في روايات إرنست همنغواي. فيسرد مأساوية الحياة وعبث الوجود.

لينهي الرواية التي لابداية لها بقصيدة من شعره، يترجم بصورها قلقة وشجنه وتساؤلاته المرة التي طرحها في بداية النص بمشهدياته الدرامية العنيفة.

صحيح إن ساباتو يوظف شخصيات رواية سابقة في رواية لاحقة. لكن هذا الترابط لايعني اعتبار الروايتين عملاً واحداً. وإن قراءة إحداهما مرتبطة بالأخرى ارتباط الجزء بالجزء. بقدر مايحاول إثبات رؤيته عن عالم واحد هو يرفضه بالأصل. ويظل لكل رواية من رواياته استقلالها الفني التام.

- ٥ -

معاذ الله إن قلت إني أتحدث عن الرواية. لأنها من الروايات الصعبة التي تستعصي على الوصف والتقييم. وأفضل مانصنعه حيالها. هو قراءتها.

ومترجم ملاك الجحيم الأستاذ عبد السلام عقيل. ليس بعيداً لا عن الرواية ولاعن مناخاتها ولغتها. فهو قد شغل منصب سفير لسورية لعشر سنين في البقعة التي تخلقت فيها أحداث الرواية، فأتقن الإسبانية لغة عن كثب من أهلها. وخبر عادات القوم وتقاليد الجماعة، وكان قريباً حتى الملاصقة من إرنستو ساباتو. يرى حبره يسيل على ورقه، ويسمع خفقات قلبه، ويشاهده يرسل البصر الكليل في الأفق البعيد، وعاصر كما قرأ، تاريخ حقبة من حياة الأرجنتين، وهو المزود بالطاقة الأدبية التي تؤهله - وقد فعل - لنقل كل أعمال ساباتو من لغته الثانية الإسبانية إلى اللسان العربي المبين.

وأؤكد أنه لولا صعوبة أسماء الأشخاص وأسماء الأمكنة التي غصت

بها الرواية، لكان قارؤها يعيش أحداثها لا إخباراً بل تعايشاً حياً كما لو كان في بيئتها.

ونتساءل، كم نحن بحاجة إلى هذه الأنماط الأدبية العالية؟

يبرود/ كانون الثاني/ ١٩٩٦

الدكتور خالد البرادعي

أرنستو ساباتو

ملاك الجحيم

«أبَدّون»

في هذه الطبعة من «ملاك الجحيم» «أبدّون» التي اعتبرها هي الطبعة النهائية، أدخلت عدة تعديلات وتغييرات مهمة

ارنستو ساباتو آذار/ مارس ١٩٩١

«... وكان لها مَلِك هو ملاك الهاوية وأسمه أبَدّون ويعني المهلك»...

«رؤيا القديس يوحنا»

... يمكن أن أموت غداً، وأن لايبقى أحدٌ على وجه الأرض قد فهمني تماماً... سيعتبرني بعضهم أسوأ مما أنا.. وسيعتبرني البعض الآخر أفضل... سيقول بعضهم إنني كنت شخصاً طيباً. وسيقول آخرون إنني كنت وغداً، ولكن كلا الرأيين سيكونان خاطئين.

ميخائيل أورفيتش ليرمونتوف
«بطل من هذا الزمان»

بعض الأحداث التي وقعت في مدينـة «بـوينس أيـرس» في أوائـل ١٩٧٣

عصر الخامس من كانون الثاني / يناير

بينما كان «برونو»[1] يقف في مدخل المقهى الواقع عند تقاطع شارعي «غيدو» و«خونين»، رأى «ساباتو» أتيا. وحينما كان يستعد ليحدثه، شعر بأن أمراً غريباً قد حدث: على الرغم من أن «ساباتو» كان ينظر نحوه لكنه مرّ لايبالي، وكما لو أنه لم يره. كانت تلك، أول مرة يحدث فيها أمرٌ كهذا، وإذا ماأخذنا بعين الاعتبار طبيعة العلاقة التي تربط بينهما، لكان يجب استبعاد التفكير بأن ذلك كان أمراً مقصوداً، ونتيجة لأي سوء فهم.

تابعه باهتمام، ورأى كيف كان يعبر تقاطع الشارعين الخطر، لايعير أي اهتمام للسيارات، ولايتلفت ذات اليمين أو الشمال، ولايتردد، كما يفعل أي شخصٍ صاحٍ يعي الأخطار.

كان خجل «برونو» بالغاً، ولذلك فإنه نادراً ماتجاسر على أن يهتف ولكن بعد أن مضى زمن طويل ولم يعثر عليه في «لاببيلا» ولا في «روسيليون» قرر أن يهتف إلى بيته، فأجابوه على نحو مبهم (إنه ليس على مايرام).

(لا. لن يخرج لبعض الوقت). كان «برونو» يعلم أنه في مناسبات تستغرق أشهراً كان يسقط في ماكان يسميه هو غفلة ولكن لم يشعر من قبل قط، مثلما شعر في تلك اللحظة بأن تلك العبارة تنطوي على حقيقة مريعة. بدأ يتذكر بعض القصص التي رواها له عن أذى السحر وعن شخص يدعى «شنايدر» وعن التفاسير، وأخذ يستحوذ على روحه قلق عظيم يستولي عليه ضربٌ من القلق، وكما لو أن الظلمة حلت في منطقة مجهولة، وكان وإنه لابد من الاسترشاد بأضواء خافتة تأتي من

---

(١) برونو: أحد شخصيات رواية «أبطال وقبور» ترجمناها ونشرتها دار الأهالي في عام ١٩٩١ (المترجم)

اكواخ نائية لأناس يتعين عليه أن يهتدي متسعيناً بضوء خافت آت من أكواخ أناس مجهولين، وبوميض حريق يلوح من مناطق قصِّية وعصِّية.

في صبيحة تلك الليلة ذاتها

وقعت ثلاثة أحداث تستحق الذكر، من بين الأحداث التي لاتحصى التي تقع في مدينة ضخمة، لأنه كان يربط بينها تلك العلاقة التي تقوم دائماً بين شخصيات مسرحية مأساوية، وإن كان يجهل بعضهم أحياناً البعض الآخر، وإن كان أحدهم مجرد سكير.

بينما كان المالك الجديد للحانة القديمة «تشيتشين» التي تقع في شارع «الميرانتي» براون «عند تقاطعه مع شارع «بينسون»، يستعد لإغلاق محله قال للزبون الوحيد الذي بقي جالساً إلى الخوان

- هيا أيها المعتوه، ينبغي إغلاق المحل.

أسرع «ناتا ليسيو بارّاغان» في شرب كأس خمرة القصب وخرج يترنح وتكررت في الشارع المعجزة اليومية، حيث عبر شارداً هادئاً الطريق المزدحم في تلك الساعة من الليل بالسيارات والباصات المنطلقة بسرعة جنونية. ثم انحدر، كأنه يسير على ظهر مركب غير آمن بحراً عميقاً، نحو الرصيف الجنوبي عبر شارع «براندسن».

حينما وصل إلى شارع «بيدرودي مندوسا» بدت له مياه نهر «رياتشويلو» في الأماكن التي تعكس أضواء السفن مصبوغة بالدم. أمرٌ ما حمله على أن يرفع ناظريه، فرأى فوق الصواري تنيناً أحمر اللون يغطي السماء حتى مصب «رياتشويلو» حيث يغوص ذيله الهائل ذو الحراشيف.

اتكأ على جدار التوتياء وأطبق اجفانه واستراح وهو مهتاجاً. وبعد

لحظات من التفكير القلق ـ حاولت أفكاره خلالها أن تشق طريقاً في عقل مملوء بالقمامة والأعشاب ـ عاد ليفتحها، فرآى ثانية، إنما الآن على نحو أوضح، التنين يغطي أفق ذلك الصباح كأنه أفعى غاضبة تنفث لهيباً في جحيم من حبر صينيّ.

لبث مذعوراً.

أحدٌ ما ـ لحسن حظه ـ اقترب من. بحّار.

قال بصوت مرتعش

ـ أنظر.

فسأله الرجل بتلك الرقة التي يخاطب بها الناس الطيبون السكارى

ـ ماذا؟....

ـ هناك....

نظر الرجل نحو الأتجاه الذي أشار إليه وكرر القول وهو يراقب باهتمام

ـ ماذا...؟

ـ ذاك..

وبعد أن تفحص البحّار تلك الناحية من السماء بعض الوقت، ابتعد وهو يبتسم برقة، فتابعه المعتوه بعينيه، ثم عاد يتكىء على جدار التوتياء، وأطبق جفنيه، وفكر ملياً بتركيز مرتعد. وعندما نظر ثانية اشتد رعبه. كأن التنين الآن ينفث ناراً من اشداق رؤوسه السبعة، سقط مغمياً عليه. وحينما استيقظ ـ وهو ملقى على رصيف الشارع ـ كان

النهار قد حلَّ. وكان طلائع العمال يتجهون إلى أعمالهم، فسار متثاقلاً إلى غرفته في المنزل، بدون أن يتذكر الرؤيا في ذلك الحين.

الحادثة الثانية تتعلق بالفتى «ناتشوليساغيرّي»[1]، فمن موقعه في الظلمة التي كانت توفرها له أشجار شارع «ليبرتادور» رأى سيارة «تشيفي سبورت» فخمة تقف، وتنزل منها شقيقته «أغوستينا» والسيد «روبين بيريس ناصف» رئيس شركة العقارات «بيريناس». كانت الساعة حوالي الثانية صباحاً. دخلا أحد أبنية السكن الطابقية ومكث «ناتشو» في موقعه الذي يراقب منه، حتى الساعة الرابعة تقريباً، ثم غادره بعد ذلك متجهاً نحو «بلغرانو» ليذهب - على الأغلب - إلى بيته. كان يسير ويديه في جيبي بنطاله الـ «بلوجينز» الرث، محدودب الظهر مطأطيء الرأس.

في تلك الأثناء، كان «مارسيلو كأرانسا» الذي لم يتجاوز واحداً وعشرين ربيعاً، يقضي نحبه في الأقبية القذرة لأحد مخافر الضواحي، بعد معاناة ألآم التعذيب طيلة أيام عديدة، مهشماً من شدة الضربات وهو في كيس يغمره الدم واللعاب، متهماً بالانضمام إلى إحدى مجموعات الإرهابيين guerrillerol.

شاهد، شاهد ذو أهمية

قال «برونو» في دخيلته بعد أن توقف في ذلك المكان من الشاطيء الجنوبي للنهر، حيث - منذ خمسة عشر عاماً مضت - قال له «مارتن» (هنا كنا مع أليخاندرا)[2]. كأنما السماء المشبعة بالغيوم ذاتها، وحر الصيف نفسه قاداً خطاه خلسة، وبلا وعي، حتى ذلك المكان الذي لم

---

(١) ناتشو تصغير لأسم إغناسيو، يطلق على الصغار عادة (المترجم)

(٢) مارتين واليخاندرا هما أبرز شخصيات رواية «ابطال وقبور»

يكن قد ارتاده منذ ذلك الحين قط. وكأنما أرادت بعض المشاعر أن تنبثق من إحدى زوايا نفسه، على ذلك النحو، غير المباشر، كعادتها في أن تفعل، عبر أماكن يشعر المرء أنه ميال إلى ارتيادها من دون أن يعي تماماً وبوضوح الأمر المقصود. ولكن كيف لايمكن لأي شيء فينا أن يبقى كما كان من قبل...؟ كان يعزي نفسه، ذلك أننا لانكون عندئذ من كنا من قبل، لأي مساكن جديدة شيدت على أنقاض تلك التي أتت عليها النار والمعركة، أو بقيت وحيدة فعفى عليها الزمن، وإن بقي من الكائنات التي سكنتها نزر يسير من الذكرى الملتبسة أو الأسطورة، فسرعان ماتطفئهما، أو تلقي بهما في غياهب النسيان، أحزان جديدة ومصائب جديدة: المحنة المأساوية لفتيان مثل «ناتشو» وتعذيب وموت أبرياء مثل «مارسيلو».

وفيما هو متكىء على الحاجز يسمع تلاطم أمواج النهر الرتيب من وراء ظهره، عاد يتأمل «بوينس أيرس» عبر الضباب وناطحات السحاب المنتصبة أمام السماء الكالحة.

كانت النوارس تروح وتجيء كعادتها دائماً، بلا اكتراث القوى الطبيعية المريعة. حتى إنه لمن الممكن أن يكون ذلك الطفل الذي مرّ بجانبه مع مربيته في ذلك الحين، عندما كان «مارتين» يحدثه عن حبه لـ «اليخاندرا» هو «مارسيلو» نفسه. والآن بينما كان جسمه، جسم ذلك الفتى المعوز الخجول أو بقايا جسمه، تشكل جزءاً من كتلة أسمنتية ما، أو هي مجرد رماد في فرن كهربائي ما، فإن نوارس بعينها تقوم في سماء مشابهة بالحركات السلفية ذاتها. وهكذا فإن كل شيء كان يمضي، وكلّ شيء يصبح نسياً منسياً، بينما ظلت المياه تلطم شواطيء المدينة المجهولة على نحو رتيب.

أن يكتب، في أقل تقدير، لتخليد شيء ما: حب أو عمل بطولي كعمل

«مارسيلو»، أو نشوة. أن يستسلم لما هو مطلق. أو ربما (فكر بشكه المعهود وبتلك الاستقامة التي كانت تجعل منه متردداً، وفي نهاية المطاف عاجزاً)، ربما كانت الكتابة ضرورية لأناس مثله يعجزون عن القيام بتلك الأعمال المطلقة من التضحية والبطولة. إذ، لاذلك الفتى الذي أضرم النار يوماً ما في إحدى ساحات «براغ»، ولا «أرنستو غيفارا»، ولا «مارسيلو كارّانسا» كان بحاجة إلى أن يكتب. وفكر لحظة بأن الكتابة قد تكون ملاذ العاجزين. أليس أولئك الفتيان الذين كانوا يستنكرون الأدب الآن على حق؟ لم يكن يدري، فكلّ شيء كان بالغ التعقيد، لأن الأمر لو كان كذلك، لكان يتعين، كما قال «ساباتو» استنكار الموسيقى والشعر كله تقريباً، لأنهما لم يساعدا على الثورة التي كان اولئك الفتيان يتوقون إليها. أضف إلى ذلك، أن أي شخصية حقيقية، ليست مظهراً مشيداً بالكلمات: لقد كانوا مجبولين من دم، وأوهام، وآمال، وأشواق حقيقية، وكانوا يبدون، على نحو مبهم أنهم يساعدون، كي نتمكن جميعاً من العثور على هذه الحياة الملتبسة على معنى للوجود، أو في أسوأ الحالات، على وميضه البعيد.

وشعر مرة أخرى في حياته المديدة بتلك الحاجة إلى أن يكتب وإن لم يكن بوسعه أن يدرك لماذا تأتى له ذلك الآن، في ذلك اللقاء مع «ساباتو» عند تقاطع شارعي «خونين» و «غيدو». لكنه شعر في الوقت ذاته بعجزه المزمن أمام اللامحدود، كان العالم بالغ الامتداد. وكانت الكوارث والمآسي والحب والفراق والآمال والموت تمنحه مظهر مالا يقاس. عن أي شيء يتعين عليه أن يكتب؟ أي حدث من تلك الأحداث اللامتناهية هو الجوهري؟ كان قد قال «لمارتين» إنه يمكن أن تكون قد حدثت كوارث في بلاد نائية، ومع ذلك فإنها لاتعني شيئاً للبعض: لذلك الفتى: لـ «اليخاندرا» له نفسه. لكن مجرد تغريد عصفور، أو نظرة رجل يمرّ، أو وصول رسالة، هي أحداث موجودة حقاً، تكتسي فجأة أهمية بالنسبة

لذلك الكائن، لايكتسبها تفشي وباء الكوليرا في الهند. لا، لم يكن الأمر مجردّ لامبالاة بالعالم، ولم يكن أنانية، بالنسبة إليه في أقل تقدير: كان أكثر دقة. ماأغرب طبيعة الكائن البشري، كي يكون حدث مروع حقيقة. قال في دخيلته، يموت في هذا الوقت بالذات أطفال أبرياء في فيتنام حرقاً بقنابل النابالم: أليست الكتابة عن بعض قليل من الكائنات في ركن ما من العالم طيشاً فاضحاً؟ عاد مفجوعاً ليراقب النوارس في السماء. ولكن لا؛ تراجع. إن قصة آمال وبؤس أمريء واحد، مجرد قصة فتى مجهول يمكن أن تشمل الإنسانية بأسرها ويمكن أن تنفع في العثور على معنى للوجود، بل ويمكن لها أن تواسي، على نحو ما، تلك الأم الفينامية التي تندب ابنها المحروق. طبعاً، لقد كان فيه من النزاهة على جانب مايكفي لأن يعرف (لأن يخشى) انّ مايمكن أن يكتبه هو، لن يكون أهلاً لبلوغ قيمة مشابهة. ولكن تلك المعجزة أمر ممكن، وكان بوسع آخرين أن يحققوا مالم يكن يشعر بأنه أهل لبلوغه، أو لم يكن بوسعه أن يعرفه أبداً. ان يكتب عن بعض الفتيان، أشد الكائنات معاناة في هذا العالم الذي لايرحم وأولى من يستحق مايصف مأساتهم، وفي الوقت ذاته، معنى ألآمه. هذا، إن كان لها أي معنى: «ناتشو»، «أغوستينا، «مارسيلو». ولكن ماذا كان يعرف عنهم...؟ لاشيء سوى أنه كاد يلمح وسط الظلال بعض الأحداث ذات المغزى في حياته هو، وذكريات طفولته ومراهقته ودرب عواطفه الكئيب.

وإذن، ماذا كان في الواقع، يعرف، ليس عن «مارسيلو كارّانسا» أو «ناتشوا إيساغيرّي» وإنما عن «ساباتو» نفسه الذي كان دائماً أحد أقرب الكائنات إلى حياته؟ كثير لامتناه، وقليل لامتناه أيضاً. كان في مناسبات يشعر بأنه يشكل جزءاً من روحه نفسها، وإن بوسعه أن يتصور بالتفصيل تقريباً مايشعر به تجاه بعض الأحداث، ولكن سرعان ماكان يبدو له مبهماً، وكان بعضُ بريق عابر في عينيه يثير لديه الشك

في ماكان يدور في أعماق نفسه، ولكن تلك كانت مجرد شكوك من تلك التي نلقيها جزافاً على العالم السريّ للآخرين. ماذا كان يعرف مثلاً، عن حقيقة علاقته بذلك الفتى العنيف «ناتشوا يساغيري» وعن علاقته بشقيقته الغامضة بخاصة؟ وأما عن علاقته «بمارسيلو»، فقد كان يعرف بالطبع أنه كان يعلم كيف ظهر في حياته عبر تلك السلسلة من الأحداث التي تبدو عارضة، ولكنها ـ كما كان «ساباتو» يردد دائماً ـ تبدو كذلك من حيث الظاهر فقط. حتى إنه كان بوسعه أن يتصور، أن موت ذلك الفتى تحت التعذيب، وتقيؤ «ناتشو» بالكراهية الضارية لاخته (كي نقول ذلك على نحو ما) وتلك الغفلة التي مني بها «ساباتو»، لم تكن حوادث مترابطة وحسب، بل يربط بينها شيء ما بالغ القوة، بحيث يشكل بذاته السبب السريّ لواحدة من تلك المآسي التي تختصر، أو تشبه، مايمكن أن يحدث للبشرية بأسرها في زمن كهذا.

رواية عن ذلك الجري وراء المطلق، ذلك الجنون، جنون فتيان، لكنه جنون كبار أيضاً، لايودون أو لا يستطيعون إلاّ أن يكونوا كذلك: كائنات تطلق صرخات يائسة وسط الطين والروث، أو تموت وهي تلقي قنابل في أحد أرجاء العالم. حكاية عن فتيان مثل «مارسيلو» و «ناتشو»، وعن فنان يشعر في أعماق حنايا روحه بارتعاد تلك المخلوقات (كان بعضها يَومِضُ خارج نفسه، وكان بعضها يهتز في أعمق حنايا قلبه) تنشد خلوداً ومطلقاً، لكي لايضيع استشهاد بعضهم وسط الصخب والفوضى، وإنما يستطيع الوصول إلى قلوب أناس آخرين ليحركهم ويخلصهم. لعلّ أحداً مثل «ساباتو» نفسه لايهيمن عليه، في مواجهة ذلك الطراز الذي لايهدأ من الفتيان، توقه إلى المطلق وحسب، بل والشياطين التي يثابر ضغطها عليه، شخصيات ظهرت يوماً ما في كتبه، لكنها تشعر بالغدر من بلادة أو جبن وسيطها. وهو نفسه: «ساباتو» ذاته، يشعر بالخجل، لإبقائه على قيد الحياة تلك المخلوقات

القادرة على أن تموت أو تميت بدافع من كره أو حب أو من أجل اضطلاعها بحلّ لغز الوجود. وهو يخجل، لا لأنه نجّاها وحسب، بل لأنه فعل ذلك بخسة، ولقاء تعويضات ضحلة، لقاء النجاح المثير للاشمئزاز والحزن.

نعم، لو أن صديقه يموت، ولو أنه هو «برونو» يتمكن من كتابة تلك القصة، لو أنه لم يكن لسوء الحظ كما كان: إنساناً ضعيفاً، عدمياً، رجل محاولات محضة وفاشلة.

وعاد ينظر ثانية إلى النوارس وسط السماء المنحسرة، أجسام ناطحات السحاب المظلمة ترتفع وسط سناء بنفسجي، وكنائس من دخان، ثم شيئاً فشيئاً، بين الألوان البنفسجية الكئيبة التي ستُعِدُّ مسرح الليل الجنائزي. كانت المدينة بأسرها تحتضر، أحدٌ كان في حياته صخّاباً بوقاحة لكنه الآن يموت في صمت مأساوي، منكفئاً على نفسه وحيداً مفكراً، ويصبح أشد حدة كلما تقدم الليل، كأنه يستقبل دائماً بشائر الظلمات.

وهكذا انقضى يوم آخر في «بوينس أيرس» شيء لا يمكن استرداده أبداً، شيء يقربه أكثر قليلاً إلى حتفه.

اعترافات، حوارات وبعض الأحلام التي سبقت الوقائع المعنية ولكنها يمكن أن تكون الممهدة لها، وان لم تكن واضحة وذات معنى واحد دائماً. الجزء الأساسي يحدث بين أوائل وأواخر ١٩٧٢ . ومع ذلك، تظهر وقائع أقدم حدثت في «لابلاتا»، وفي باريس ماقبل الحرب، وفي «روخاس» وفي «كابيتن أولموس». (وهاتان الأخيرتان قريتان في محافظة بوينس إيرس).

بعض الأسرار التي باح بها لـ «برونو»

نشرت الرواية برغم إرادتي، والوقائع (ليس وقائع النشر وإنما وقائع أخرى أشد غموضاً) أثبتت لي فيما بعد ذلك الشك الغريزي، تعين عليّ، طيلة سنوات أن أعاني من أذى السحر، كانت سنوات عذاب، فأي قوى أثرت عليّ، لاأستطيع أن أفسر ذلك تماما، ولكن مصدرها - كان ولاشك - تلك المنطقة التي يحكمها العميان، الذين حولوا حياتي في هذه السنوات العشر إلى جحيم، تعين عليّ أن أستسلم له مقيد اليدين والساقين حين أصحو كلّ يوم كأنني في حلم مقلوب، أشعر به وأحتمله بوعي من هو مستيقظ تماماً، وبقلق من يعلم أنه ليس بوسعه أن يفعل شيئاً لاجتنابه، بل وفوق ذلك فإنه يتعين عليه أن يحتفظ في نفسه بالمخاوف. لقد كانت «مدام نورماند» على حق حين كتبت إليّ من باريس مذعورة، ماأن قرأت الترجمة «لقد لامست موضوعاً خطيراً، آمل - من أجل سلامتك - أن لاتمسه أبداً...»[1].

كم كنت بليداً، وكم كنت ضعيفاً.

أتى إلى منزلي في أيار / مايو ١٩٦١ «خاكوبو كوتشنيك» لينتزع (الفعل ليس فيه مبالغة) الوعد بتسليم المخطوط الأصلي. ولقد تمسكت بتلك الصفحات التي كتب جزء كبير منها بخوف، وكما لو أن غريزة كانت تحذرني من الأخطاء التي أتعرض لها من جراء نشرها، بل وأكثر من ذلك، وهذا تعرفه أنت، فقد قدرت مرات عديدة أنه يتعين عليّ أن أمزق «التقرير حول العميان»[2] مثلما أحرقت النار أجزاء، وحتى كتباً كاملة، كانت تاتي على ذكره. لماذا؟ لم أعرف السبب على الأطلاق، لقد

(١) العبارة في الأصل باللغة الفرنسية (المترجم)

(٢) تقرير عن العميان» هذا الفصل الرئيسي من رواية «أبطال وقبور» كتبه «فرناندو فيدال أولموس» وهو شخص شبه مجنون حاول أن يبرهن على أن طائفة العميان السرية هي التي تحرك العالم (المترجم)

اعتقدت دائماً، وذلك ماأدليت به علناً. بوجود نزعة ما إلى التدمير الذاتي هي التي حملتني على أن أحرق بالنار، الجزء الأكبر من كلّ ماكتبته مدى حياتي، إنني أحدثك عن قصص خيالية. لقد نشرت روايتين فقط كانت «النفق» هي الوحيدة منهما التي كتبتها بكلّ تصميم، وقد يكون سبب ذلك هو أنني كنت ماأزال في ذلك الحين بالغ السذاجة، أو أن غريزة حب البقاء لديّ لم تكن بعد نامية كثيراً، أو لأنني لم أكن قد نفذت في ذلك الكتاب بعمق إلى القارة المحرمة: نعم، شخصية واحدة غامضة (أود القول إنها غامضة بالنسبة لي) اتيت على ذكرها على نحو يكاد لايدرك، كما لو أن امرءاً ينطق في مقهى، كلمات قد تكون جوهرية، لكنها تضيع في الضجيج أو بين كلمات أخرى أشد أهمية كما يبدو.

ومع ذلك، فإنني لم أسلمه في ذلك اليوم، المخطوط الأصلي، يوم أتذكره تماماً بسبب ما سأقوله لك فيما بعد عن يوم ميلادي. لم ينجح «موتشنيك» في أخذ المخطوط ولكنه حصل على عهد - أدليت به أمام أصدقاء ساعدوه - بأن اسلمه إياه بعد شهر، حين أنتهي من تصحيح بعض الصفحات، ولم يكن ذلك سوى وسيلة لألتقط أنفاسي، واحتمال أن لاتأخذ الرواية طريقها إلى الطباعة.

هاتفني «موتشنيك» يوم ٢٤ حزيران/يونيو ليذكرني بالعهد. فخجلت أن أخلف وعدي، أو لعل وعيي كان يصارع غريزتي، ويرى أنها غير معقولة. ورضخت للضغط الودي كأنما هو حجة أواجه بها نفسي، وكأنني أقول: انظروا ياسادة (سادة...؟ من هم..؟) إنني لست مسؤولاً مسؤولية كاملة. أجبته بأنني سوف أذهب في ذلك اليوم لأسلمه المخطوط، وما أن علمت (م) حتى سألتني إن كنت قدْ نسيت أن ذلك كان يوم ميلادي، وأن بعض الأصدقاء يأتون كما كانت الحال دائماً. يوم ميلادي. كان هذا أخر مابقي لكي أحسب حسابه..! ولكنني لم أقل لها أي كلمة. كانت

والدتي مريضة حين ولدت. وسجلوني في الثالث من تموز / يوليو، وكأنما لم يكن قد استقر رأيهم، ولم أعرف فيما بعد تماماً إن كان يوم ميلادي هو ٢٣ أو ٢٤ حزيران/ يونيو، ولكن عندما لاحقتها ملحاً في أحد الأيام، اعترفت بأن ميلادي كان مساء، وكانت مشاعل كنيسة القديس يوحنا مشتعلة.

قلت لها: وإذن ليس هناك شك: كان يوم ٢٤ يوم عيد القديس يوحنا. فهزت والدتي رأسها.

- في بعض الأنحاء يضرمون مشاعل أيضاً في العشية.

كانت تلك الريبة تمضي دائماً، وتحول دون أن يكون لي برج يمكن التنبؤ به بدقة. وكنت أعود لاستجوابها أكثر من مرة، لأنني كنت أشك في أنها تخفي عني أمراً ما. فكيف يمكن أن لا تتذكر أمٌ يوم ميلاد ابنها...؟.

كنت أحملق إلى عينيها، ولكنها كانت تكتفي بالإجابة على نحو مريب.

كانت قد أنقضت بضعة أعوام على موتها عندما ماعرفت، وأنا أقرأ أحد كتب التنجيم، أن يوم ٢٤ حزيران/يونيو هو يوم شؤم، لأنه أحد أيام السنة الذي تجتمع فيه الساحرات. كانت والدتي تحاول، بوعي أو بلا وعي، أن تنكر ذلك التاريخ، وإن لم يكن بوسعها أن تنكر أمر الغسق: ساعة مريعة.

لم تكن تلك الواقعة الشؤم الوحيدة المرتبطة بتاريخ ميلادي، فقد أعقبه موت أخي الأكبر مني مباشرة، عن عمر بلغ السنتين. فسموني باسمه. وكان هاجسي طيلة حياتي هو موت ذلك الطفل الذي كان اسمه كاسمي، والذي كانوا يتذكرونه باجلال واحترام، إذ كما كانت تروي

والدتي و«دونيا أولوخيا كارّانسيا»، صديقة والدتي، وقريبة «دن بانشو سييرّا»، ذلك الطفل لايمكن أن يعيش. لماذا؟ كانت تجيبني دائماً على نحو مبهم. كانت تحدثني عن نظرته، وعن ذكائه الخارق، يبدو أنه يأتي موسوماً ببرجه المنكود. حسناً، ولكن لماذا إذن ارتكبو حماقة تسميتي باسمه؟ كما لو أنه لم يكن يكفيني اللقب، المشتق من «ساتورنو« إله العزلة في الـ«قبالا»، روح الشر عند بعض المنجمين، «سبت السحرة».

كذبت على (م):

ـ كلا، لم أنس يوم ميلادي، سأعود باكراً.

حدث في ذلك المساء أمر هدّأ من روعي إلى حدّ ما. عندما كنت أسلم «موتشنيك» ملفات المخطوط قلت له إنني سأحتفظ بآخرها لأصحح بعض المقاطع. فاغتاظ وقال لي: إن ذلك حماقة، وإنني على هذا النحو سأمضي حياتي كلها عقيماً دون أن أنشر شيئاً. وعلى كلّ حال، طلبت منه أن يدعني أصحح، هناك بالذات، بعض الصفحات. عندئذ، فتحت لا على التعيين، آخر ملف في الجزء الذي يستعد فيه «دانيل» لسلخ جثمان «لافاجي»[1]. بدأت أطمس بعض النعوت والظروف، النعت يعدل الموصوف، والظرف يعدل النعت: تعديل التعديل، هذا مافكرت به وأنا أتذكر بسخرية وكآبة وأنا أتذكر درساً قديماً في قواعد اللغة لهيزيكيس أورينيا. كلّ ذلك الجهد الذي بذلته لإضفاء مظهر على حصان أو شجرة أو ميت، لأبدأ فيما بعد بهدمه بتلك التعاريف، لكي أدع تلك الخيول والأشجار والأموات، على نحو موحش من العري، والخشونة والقسوة، والاقتضاب، وكما لو أن تلك النعوت والظروف كانت أقنعة مخجلة تستخدم لتغيير أو إخفاء تلك الموصوفات. قمت بالمهمة بلا اكتراث. فتلك الصفحة

---

(١) دانيل ولافاجي: من شخصيات رواية «أبطال وقبور» وهما شخصيتان معروفتان في التاريخ الأرجنتيني أيضاً. (المترجم)

كغيرها: كلها كانت معابة ومشوشة، ذلك أنني حين أكتب قصصاً خيالية، غالبا ماتهيمن عليّ قوى تجبرني أن أكتب، وأخرى تكبحني عن ذلك، أو تجعلني أتعثر. من أين أتت تلك القشور وذلك الخلل وتلك الأجزاء الزائفة التي يمكن لأي قارىء مثقف أن ينتبه إليها.

طويت الملف يائساً سئِماً وسلمته للمصحح، ثم خرجت، كان يوماً بارداً ومكفهراً، وكان المطر يتساقط.

كان قد بقي لدي بعض الوقت، وخطر لي أن أسير في شارع «خوان دي غاراي» باتجاه حديقة «باتريسيوس». لم أكن قد رأيتها منذ أن كنت طفلاً، حين وصلت في ١٩٢٤ أول مرة إلى «بيونس أيرس» قادماً من قريتي. وتذكرت فجأة أنني نمت تلك الليلة في بيت في شارع «ايتشاغوري»، نفسه الذي ظهر في فيلق «لافاجي». ألم يكن أمراً عجيباً أن أتذكره في تلك اللحظة، بعد مافرغت من تصحيح صفحة عن الفيلق، وحين كنت أمرّ على بعد بضع خطوات من ذلك الحيّ الذي لم أكن قد زرته منذ تلك الطفولة البعيدة؟

وصلت إلى الحديقة، وقررت أن أنزل لكي أتمشى بين الأشجار، وعندما تحول الرذاذ إلى مطر غزير، لجأت إلى جوسق صغير لبيع الصحف والتبغ، وبينما كنت أنتظر توقف المطر، راقبت المالك الذي كان يشرب الـ «ماتي» في كأس من فخار. إنه رجل، ربما كان في شبابه إنساناً قديراً.

قال لي وهو يشير إلى السحاب والـ «ماتي» في يده:

- طقس سيىء.

كانت السنون قد حنت كتفيه، وكان شعره أبيض، ولكن عينيه كانتا

عيني طقل، وفوق النافذة الصغيرة كتبت بأحرف مشوشة عبارة

(جوسق س. ساليرنو)

وكان قد حشر في الداخل أيضاً طفل عمره حوالي ثمانية أو تسعة أعوام، وكلب من تلك الكلاب الضالة، لونه كالقهوة بالحليب، ومرقط ببقع بيضاء. ولكي أرد بطريقة ما، على مبادرته الودية المتواضعة، سألته إن كان الطفل ابنه أم حفيده.

أجابني بقوله:

- لا ياسيد، هذا الطفل صديق. إن اسمه «ناتشو»، وهو يساعدني مابين حين وآخر.

كان الطفل يبدو كأنه ابنٌ لـ «فان كوخ» ذي الأذن المقطوعة، وكان ينظر إليّ بالعينين المبهمتين الخضراوين ذاتهما. طفل كان يذكرني - على نحو ما - «بمارتين» ولكن «بمارتين» متمرد وعنيف، بأمرىء وعنيف، بأمرىء يمكنه في يوم من الأيام أن يفجر مصرفاً أو ماخوراً. وكانت حدة كآبة ملامحه تؤثر على نحو أشد، لكونه طفلاًصغيراً.

كان «برونو» يفكر (إيقاف الزمن عند الطفولة. كان يراهم متجمعين في أحد المنعطفات، يديرون تلك المحادثات السحرية التي يرى الكبار أنها ليست ذات معنى. بأي شيء يلعبون؟ لم يعد هنالك دوامات، ولا عصي، أين هي صور تلك علب سجائر «دولار»؟ أين أصبحت تلك الصور جوائز علب الشوكولاته؟ كلّ شيء كان مختلفاً ولكن كلّ شيء كان في الأعماق على حاله. كانوا سيكبرون، سيتوهمون، وسيحبون وسيتنازعون على الحياة بقسوة، وستصبح زوجاتهم بدينات وستتحولن إلى مبتذلات، وهم سيعودون للمقهى ولحلقة الأصدقاء القديمة (إنهم الآن شيب بدينون،

صلع مرتابون) ثم سيتزوج أولادهم أيضاً، وستحل في نهاية المطاف ساعة الموت، اللحظة الوحيدة، لحظة مفارقة هذه الأرض الملتبسة: وحيدين.

كان أحدهم (بافيس ربما؟) قد قال إنه لمن المحزن جداً أن يشيخ المرء ويتعرف العالم. بينهم، وبين الشيوخ، وقد يكون واحد مثله، مثل «برونو».

ثم سيعود كلّ شيء ليبدأ: ذلك التآمل ذاته، تلك الكآبة الأصلية، تلك النظرة، إلى الأرض الذين يلعبون على رصيف ببراءة، وإلى طفل مثل «ناتشو» الذي يراقب الغريب بحدة وإبهام من صدر جوسق صغير، كما لو أن خبرة مبكرة ورهيبة قد اقتلعته من ذاك العالم الطفولي ليراقب عالم الكبار بحقد. أجل، كان يشعر أنه بحاجة إلى أن يوقف جريان الزمن. قف، ـ أيها الزمن! هكذا كان يقول بسذاجة محاولاً أن يقوم بعمل سحري غير معقول. قف أيها الزمن!

ـ عاد يتمتم، كما لو أن الصيغة الشعرية بوسعها أن تحقق ما لا تستطيع تحقيقه الكلمات البسيطة ـ دع أولئك الأطفال هنا، إلى الأبد، على هذا الرصيف، في هذا العالم السحري. لا تسمح للرجال ومجتمعاتهم بإلحاق الأذى والوهن بهم.

كان المطر قد هدأ، وعلى الرغم من أن أمراً غريباً كان يدفعني إلى أن أكلم ذلك الطفل، دون أن أعلم أنه سيظهر في حياتي ثانية في يوم من الأيام (وعلى أي نحو؟)، لكنني حييت وركضت إلى حيث كانت سيارتي. اتجهت إلى وسط المدينة سالكاً أحد الشوارع العرضية. كنت أقود السيارة شارداً بأمر تسليم الكتاب وبتأثير نظرة ذلك الطفل، فوجدت نفسي ـ من دون أن أدري كيف حدث ذلك ـ في أحد الشوراع المغلقة.

كان الظلام قد حلّ، وتعين عليّ أن أضيء مصابيح السيارة لكي أرى اسم الشارع. فأصبت بالذعر. لقد كان شارع «اليخاندور دانيل».

مكثت بعض الوقت لا أقوى على عمل أي شيء، فلم يكن بوسعي أن أتصور أبداً، عثوري على شارع صغير باسم تلك الشخصية الثانوية في ماضينا. وحتى لو أنني كنت أعرف ذلك، فكيف أعزو للمصادفة عثوري عليه في مدينة قطرها خمسين كيلو متراً، بعد أن صححت مباشرة الجزء من الرواية الذي يقوم فيه «اليخاندرو دانيل» بسلخ لحم «لافاجي». عندما رويت الحادثة فيما بعد لـ (م) أكدت لي بتفاؤلها الذي لايلين، أنه يتعين عليّ أن أعتبرها فأل خير. هدّأت أحاديثها في ذلك الوقت، على أقل تقدير، من روعي، لأنني فكرت بعدئذ بزمن طويل أنه كان يمكن لذلك الفأل أن يكون عكس ماكانت هي تتصور، لكن تفسيرها، في ذلك الحين، طمأنني طمأنينة، تحولت إلى إنشراح دام طيلة الأشهر التي تلت ظهور الكتاب في الأرجنيتين أولاً، ثم في أوروبا. ولقد جعلني ذلك الانشراح أنسى الهواجس التي كانت - على امتداد سنوات - تنصحني بالتزام الصمت المطلق. إن مايمكن أن يطلق على ذلك هو، قصر نظر. لايمكن أن نرى إلى البعيد بما فيه الكفاية أبداً. هذا كلّ شيء.

وقعت بعد ذلك، شيئاً فشيئاً وباصرار مخادع، الأحداث التي كانت ستعكر تلك السنوات الأخيرة من حياتي. وإن كان من قبيل المبالغة أحياناً تسمية الجزء الأكبر منها هكذا. فقد كادت تكون مثل تلك الخشخشة الخفيفة القلقة التي نسمعها ليلاً عندما نكون مسهدين.

وبدأت من جديد أنكفىء على نفسي، وطيلة عشر سنوات تقريباً، لم أكن أود معرفة أي شيء عن الروايات الخيالية حتى وقعت حادثتان أو ثلاث، بدأت تمدني بأمل ضعيف، كأضواء ضئيلة وخافتة جداً، يمكنها أن تهدي إلى الشاطىء الذي قد يتمكن أن يهبط فيه - في نهاية المطاف

ـ طيار وحيد يكافح طويلاً وسط عاصفة هوجاء، وعندما ينفد منه الوقود، يبدأ برؤية الأضواء (أو يعتقد أنه يراها) من بعيد، وسط الظلمات.

أجل، يمكن الهبوط، على الرغم من أن المكان قفز مجهول، وعلى الرغم من أن الأضواء الخافتة التي قادتني وأيقظت في نفسي أملاً مريعاً يمكن أن تعود إلى بلاد آكلي لحوم البشر.

هكذا تمكنت من أن أشعر ثانية بأنني بين الناس أسير مثلهم، بعد أن كنت أعتقد أنني لن أستطيع أن أفعل ذلك أبداً.

لكنني أتساءل، كم من الوقت سيستمر ذلك، وعلى أي نحو.

لم أكن أعرف تماماً، كيف ظهر «خيلبرتو»،

من أتى به أو نصح، كانوا يحتاجون إلى من يصلح بابا، كيف كان قد وصل؟ في لحظات من الريبة، أراد فيما بعد، أن يتحرى عن ذلك، وكانت النتيجة أن أحداً لم يكن متأكداً. لم يحظ في البدء بإعجاب زوجته كثيراً، كان يلف ويدور، وكان يبدو بليداً، وكان يتردد على تلك الناحية، وكان وجهه غامضاً، ولكن لم يكن لذلك كبير أهمية، لأن جميع الأشخاص ذوي السمات الهندية هم كذلك. بدأ بعدئذ يعمل ببطء ولكن بجدارة وبذلك المكر الصامت الذي يتميز به بعض أبناء البلد. بسببه أتى الآخرون بعد ذلك. الآن فهم إن لاشيء كان من قبيل الصدفة، ومن يعلم كم من الوقت كانوا قد وضعوه قيد المراقبة. شيئاً فشيئاً، راح ذلك الرجل يدخل في عالمه. أوحى أثناء حوار مع زوجته، «أنهم» يعرفون وضعه، وأنهم على استعداد لتقديم المساعدة له لمحاربة تلك «الجماعات» التي تقيد حركته. أوضح أن السيد «أرونوف» كان يسخّر كل قواه لكي يتقدم السيد «ساباتو» في إنجاز كتابه، فكّر «ساباتو» بأنهم ربما كانوا يتصورون أنه كان أحد الأعمال الرائدة في سبيل الخير، وأخذ هذا

التفكير يشعره بأنه ثرثار وكمن يخدع قرويين. ولكن، ماذا لوأنهم كانوا على حق؟ إنهم برغم كل شيء مبصرون، كانوا واثقين من بعض مآثره الساذجة. وماذا لو كان هو - دون أن يدري - يقصد الدفاع عن الخير، ويقف إلى جانب القوى المنيرة؟ كان يمتحن نفسه، ولم يستطع أن يفهم، كيف يمكن أن يكون ذلك ممكناً، ومن أية وجهة نظر، وبفضل أي اعتبار يمكن لوجدانه أن يتجلّى في عمل خيريّ. ومع ذلك، أو من أجل ذلك، أثر في نفسه طلب أولئك الناس. وعندما كان «خيلبرتو» يسأله بما امتاز به من فطنة: «وكيف يسير ذلك..» كان يجيبه بأنه أفضل، وأنه بدأ يشعر بشيء إيجابي، ويمكن بالتأكيد أن يعود إلى الكتابة بسرعة. وكان يوافق بصمت وبأمارة تنم على التواضع والمكر، ويؤكد له أنهم سيستمرون بالكفاح، ولكن «هو، يجب أن يساعد».

نزل في أحد الأيام إلى القبو، حيث كان يتعين عليه أن يعاين أحد الأنابيب كما قال. نزل «س» معه دون أن يعرف لماذا. كان ينظر إلى كل شيء، بدا أنه يقوم بإحصاء خفي، توفقت نظراته طويلاً على «البيانو» المهمل وعلى صورة لـ «خورخي فيديريكو». وعندما عاد بعد بضعة أيام طرح بعض الأسئلة على «س» وطلب منه معلومات عن «أمر ما حدث في ١٩٤٩»، وعن شخصٍ غريب صفاته كذا وكذا. فكر «ساباتو» إنه «شنايدر».

سأل «خيليرتو»

- صورة ابنه هذه

مـاأمر تلك الصورة؟، لاشيء، كان يود، بكل بساطة، أن يعرف من الذي رسمها. كان السيد «أرونوف» قد قال شيئاً عن هولندا. فكر «ساباتو» مستغرباً «بوب جيسينوس..!» ولكن لا، لاشك أنهم كانوا

مخطئين، «جيسينوس» هو مصمم اللوحة، كان هولندياً ولكن لايمكن أن يكون «ذلك الشخص كذا، وكذا، ذلك الأجنبي» الذي يقود تلك القوى. كانوا مخطئين لأن الصورة لم تكن واضحة: ولأن «بوب» و«شنايدر» أجنبيان، ومن نفس الحقبة.

فكر أنه سيكون أمراً مفاجئاً (سيكون مريعاً) إن كان «بوب» عميلاً لقوى الظلمات. ولكن لماذا أصروا على عقد الجلسات في القبو؟ حسناً، لقد كان «فاجي» في الواقع قد حوله إلى مايشبه المنزل. «دون فيد يريكو فاجي..!» إنها أول مرة يخطر اسمه بباله مرتبطاً بذلك كلّه: أجنبي، رجل متقدم بالسن. لكنه لم يكن يعتمر قبعة قط. أم أن ذلك كان معلومة غير صحيحة لأولئك الناس، بسبب التشويش الذي ينجم، في كثير من الأحيان، عن الرؤّية؟ ومع ذلك، فكر بأن «فاجي»، على الرغم من أنه لايمكن أن يكون عميل القوى السلبية، لكن ميله المعهود للكهوف والأنفاق منذ عمل مع «ميليه» في أحد أقبية باريس أمرٌ ذو مغزى وحتى أنه بنى (حفر) في قرطبة، ملجأ وسط الجبل، وصفه هو بأنه «كهف»، وفيما بعد، عندما أجّره المنزل في ضاحية «سانتوس لوغاريس»، ألم يكن قد احتفظ بالقبو ليسكن فيه؟ على أي حال، أصر «أرونوف» على عقد الجلسة هناك في القبو، في المكان نفسه الذي وضع فيه «البيانو» الذي كان يعزف عليه «خورخي فيديريكو» عندما كان صغيراً، والذي بقي مغلقاً منذ ذلك الحين، وفتكت به الرطوبة. كانت الصورة التي رسمها له «بوب» في ١٩٤٩ ، فوقه، لقد انتبه الآن إلى أن هذا التاريخ هو الذي ذكره «خيلبرتو».! ولكن يستحيل، فلم يكن قد حدث في ذلك الحين مايمكن أن يدعو إلى التفكير بأن «بوب» هو أحد أعضاء الجماعة، حتى، على نحو غير مباشر.

كان أفظع ماحدث، حين دخلت الشقراء في غيبوبة، وأمرها «أرونوف»

بغطرسة، أن تأتي له بإشارة من ذلك الزمن. كانت الفتاة تقاوم وتنوح، وتلوي ذارعيها ويتصبب منها العرق، وتتمتم بكلمات متقطعة، إن ذلك محال، لكن السيد «أرونوف» كان يكرر الطلب بصيغة الأمر، ويقول إنه يتعين عليها أن تنقل للسيد «ساباتو» رسالة بواسطة البيانو كبرهان على أن القوى الشريرة وجدت نفسها مجبرة على أن تبدأ تقهقرها. وبينما كانت الشقراء ماتزال تبكي وتلوي ذراعيها، اتجه الرجل الضخم العاجز، برجله المقطوعة وعكازه نحو النساء الأخريات اللواتي كنّ مستغرقات في مراحل مختلفة في غيبوبتهن، ونحو الطفل «دانيل» الذي كانت عيناه الحولاوان ترتعشان وهو يصيح بأن شيئاً مريعاً يتحرك في بطنه، قال له السيد «أرونوف»، بينما مدّ يده اليمنى فوق رأسه، أجل، أجل، يجب أن تنبذه. كان الطفل يتلوى وبيده كأنه على وشك أن يتقيأ، حتى قام بذلك فعلاً، وكان لابدّ من تنظيفه ومسح الأرض بخرقة أيضاً، في حين كانت الشقراء قد فتحت البيانو، وأخذت تضرب على مفاتيحه بقبضتي يديها المطبقتين، ضربات عشوائية وتتأوه قائلة: إنه أمر مستحيل ولا تستطيع. ولكن السيد «أرونوف» عاد يمدّ ذراعه فوقها، وكرر بصوته الحاد القوي أوامره بأن تأتي برسالة للسيد «ساباتو». كانت السيدة «إستر» أثناء ذلك تتنفس بعمق وصخب، ووجهها يتصبب عرقاً، وكان السيد «أرونوف» يأمرها بقوله: تكلمي، تلكمي..! إنك الآن واقعة تحت نفوذ «الجماعة» التي تحارب السيد «ساباتو»، تكلمي، قولي مايتعين عليك قوله.. لكنها كانت ترتعد، وتتنفس على نحو كأنه حشرجة إلى أن انتابتها، في نهاية المطاف، نوبة جنون، وكان يتعين أن يقوم شخصان بالامساك بها كي لاتحطم ما كان في متناول يدها. وما أن هدأت قليلاً، حتى عاد «أرونوف» يردد أمره إلى الشقراء: يتعين عليك أن تعزفي على البيانو..! كان يقول لها بصوت صارم، يجب أن تأتي بالرسالة التي يحتاجها السيد «ساباتو». ولكن، على الرغم من أن الفتاة

كانت تحاول يائسة، فقد كانت تغلّ يديها قوى أقوى من إرادتها. كانت تضرب على المفاتيح، ولكن الأصوات التي تحدثها كانت خرقاء كأصوات طفل صغير. وكان «أرونوف» يأمرها: افعلي.. ويصوغ جمله كأنه إسباني أصيل (ولم يكن بوسع «ساباتو» إلاّ أن يتعجب)، يمكنكِ ويتعين عليكِ أن تفعلي.. يجب أن تبذلي جهداً. استحلفك الله، وأطلب منك وآمرك..! كانت الفتاة تثير الشفقة في قلب «ساباتو»، لأنه كان يراها تئن، وعيناها شاردتان، ورأسها يهتزّ من جانب إلى آخر، وتحاول أن تفرد أصابعها المقبوضة. رأى حينئذ كيف وقفت «بيتي» وذراعاها ممدودتان، مثلما يفعل من يتعين عليه أن يصلب. كانت تتمتم بكلمات غير مفهومة، وجهها متجه نحو السقف وعيناها مغمضتان. صاح «أرونوف» أجل، أجل، أجل، وَوَجّهَ جسمه الضخم نحوها، بعد أن عَدَل عكازته لكي يضع يده اليمنى الممدودة نحو جبهة المرأة. نعم يا «بيتي»، نعم.. هكذا.. قولي مايتعين عليك قوله..! اجعلي السيد «ساباتو» يعرف مايحتاج إلى معرفته. لكنها بقيت تتمتم بكلمات غير مفهومة.

حتى سمعوا فجأة نغمات البيانو، فالتفت «ساباتو» كما التفت «أرونوف» إلى الشقراء، التي كانت تعزف، شيئاً فشيئاً، وبقدر ما أخذت أصابعها تنفرد، («أين ديرناخت» في الليل) لـ «شومان» وكانت تلك هي إحدى المقطوعات التي كان، يعزفها « خورخي فيديريكو» في ذلك الحين.. صاح «أرونوف» منتشيا نعم، نعم..! ووضع يده اليمنى المشحونة بالسيالة باتجاه «سيلفيا» التي كانت في كل لحظة تعزف على نحو أشد إتقاناً، حتى تمكنت من فعل ذلك على نحو لايمكن انتظار أفضل منه من بيانو مهجور في قبو رطب منذ عشرين عاما.

أغمض «ساباتو» عينيه رغماً عنه، وشعر بأن شيئاً مايهزّ جسمه، ثم يعيده ثانية إلى توازنه، كان يتعين عليهم أن يسندوه كي لا يسقط.

أيظهر «شنايدر» ثانية؟

نهض في اليوم الثاني وكأنه قد أستحم في نهر جبلي شفاف، بعد أن كان يتخبط طيلة قرون في مستنقع مملوء بالأفاعي، كان على ثقة بأنه سينجح فكتب رسائل لم يتلقَّ رداً عليها، قال لـ «فوستر» إنه سيوافق على دعوة الجامعة الأمريكية. لبى دعوات ومقابلات صحفيّة مؤجّلة. وشعر ـ ما أن وفّى تلك الواجبات الثانوية ـ أصبح بوسعه تعهد الرواية من جديد.

كان قد خرج من محطة إذاعة «راديو ناسيونال» وسار منشرحاً في شارع «أجاكوتشو» عندما تراءى له الدكتور «شنايدر» في الرصيف الآخر، عند تقاطع شارع «لاس ايراس» تقريباً، لكنه دخل بسرعة إلى المقهى الموجود في منعطف الشارع. أكان قد رآه؟ أكان ينتظره؟ أكان هو حقاً، أم أنه شخص آخر يشبهه؟. من تلك المسافة، من السهل أن يقع المرء في الخطأ، وبخاصة عندما يكون ميالاً إلى إضفاء صورة وهمية على دمى عرض للأزياء، كما حدث له في كثير من الأحيان.

اقترب ببطء من المنعطف متردداً، بين ما كان يود، وما لم يكن يود أن يفعل. ولكن ما أن وصل إلى بعد عدة خطوات حتى توقف ثم قفل راجعاً في الاتجاه المعاكس. هرب تقريباً. هذا هو التعبير الصحيح. فإن كان ذلك الرجل قد عاد إلى «بوينس أيرس» أو إن كان قد مكث فيها خلال مواسم، مهما كانت سفراته، وإن كان معروفاً من قبل أشخاص يعرفهم هو أيضاً، فكيف لم تكن هناك أي أخبار عنه، وحتى غير مباشرة..؟

أيمكن أن يكون ظهوره ثانية الآن مرتبطاً بجلسة السيد «أرونوف» وجماعته؟ كاد يبدو أن تصور ذلك أمر مبالغ فيه جداً، ثم إن كان من جهة أخرى قد بقي متوارياً طيلة سنوات عن الأنظار، أنظاره هو في

أقل تقدير، ثم وضع نفسه فجأة في متناول يده، قاصداً - ربما - أن يُرى أو يُلمح، ألم يكن ذلك من قبيل العمد. تحذيراً مثلاً..؟

راودته كلّ هذه الأفكار، ولكنه حين فكر في الأمر ملياً فيما بعد، قال في دخيلته إنه ليس بوسعه، في جميع الأحوال، أن يكون متأكداً من أن ذلك الشخص البدين كان في الواقع «شنايدر».

لقد كان هنالك طريقة واحدة للتحقيق. عاد، بعد أن تغلب على خوفه، نحو المقهى، ولكن عندما كان على وشك أن يدخل، تردد وتوقف، ثم عبر الشارع ووقف يراقب محتمياً بشجرة موز. ظل هناك حوالي ساعة، حتى رأى الصبي «كوستا» يصل بجسمه الغضروفي كأنه رضيع سرطاني البنية، نما كالفطور، حتى أصبح ضخماً مترهلاً، دون أن تنمو عظامه أو شبه الغضروفيه: كان يوحي له دائماً بانطباع، (ليس الخوف، لأن أحداًلم يكن يحبه) وهو أنه إن لم يستند إلى شيء ما كجدار أو كرسي يمكن أن ينهار كقطعة «كريم كاراميل» لايتناسب ارتفاعها البالغ من تماسكها ووزنها. وإن كان الوزن - فكر أكثر من مرة - أو مايسمى وزنه، لايمكن بالتأكيد أن يكون كبيراً جداً، بسبب الطبيعة الإسفنجية للمادة التي يتشكل منها، والناجمة عن كمية العنصر السائل أو الغازي الكبيرة، في مسامه وأمعائه ومعدته ورئتيه، وفي كلّ فجوة أو ثلمة من الفجوات أو الثلمات التي توجد في الجسم البشري. كان وجهه الذي يشبه وجه رضيع يجعل ذلك الانطباع عن الضخامة الهلامية أشد تركيزاً، كما لو أُلبس أحدُ أولئك الأطفال البدينين ذوي الشعر الأشقر، والبشرة البيضاء، والعيون الزرقاء الفاتحة، الذين يشاهدون عادة في لوحات الميلاد للرسامين الفلمنك ثياب رجل، ثم أوقف بصعوبة بالغة على قدميه، ونُظِرَ إليه عبر عدسات مكبرة هائلة. يمكن برأيه، أن يكشف الخطأ الفاحش، أمر واحد: ملامح وجهه. إنها ليست ملامح طفل، بل شيخ شرير عبقري

عالم مستهتر، انتقل من المهد إلى الشيخوخة الروحية قبل أن يعرف الإيمان والشباب والحماس والسذاجة من قبل. هذا، إن لم يكن قد ولد مزوداً بتلك الصفاة النهائية، بفضل، هات من يعلم أي تقمص غريب، بحيث أنه ـ ماأن بدأ بالرضاعة من ثدي أمه ـ حتى كان بوسعه أن يتابعها بتينك العينين ذاتهما، عيني الشرير، الارتيابي المستهتر.

رآه يصل إلى المقهى، يمشي كعادته منحرفاً نحو الجانب قليلاً، ورأسه الأشقر مائل قليلاً، ينظر جانباً، كأنما الواقع لم يكن أمامه أبداً وإنما إلى اليسار والأسفل قليلاً. عندما دخل، تذكر «ساباتو» فوراً ـ علاقته بـ «هيدويج». إحدى علاقات «كوستا» التي كان يحددها ـ قبل أن تكون جنسية أو لاتكون ـ إعجاب المتملق اللامحدود المتأجج في نفسه (لعله الشيء الوحيد المتأجج فيه) والذي كان بوسعه أن يؤهله للعملية الجنسية، لأنه لم يكن أمراً ممكناً، تصور امرأة في فراش مع تلك الكتلة من المادة اللبنية، وهو، وإن كان يفكر، ولكن أحداً لايعرف، لأن قلب الكائنات البشرية مجهولة تماماً، وسلطة الروح على الجسد معجزة من المعجزات. ومهما كان الأمر، ففي تلك العلاقات مع النساء، التي كانت تنتهي دائماً إلى طلاق الزوجين، لايمكن أن يكون الجسد هو الذي يتفوق، وإنما الروح. وأعمال الشرّ والسادية والشيطانية، لايمكن اعتبارها في جيمع الحالات سوى ظاهرات روحية. ولكن إن كان بوسع هذه الصفات أن تجذب امرأة متكلّفة، إلا أنه من الصعب تصور أنها يمكن أن تجذب «هيدويج» التي لم تكن متكلّفة ولاطائشة، ولم تكن تجري وراء مشكلات شخصية. بقي هنالك تفسير واحد: إنه كان مجرد مصدر معلومات بسيط (ولكن، رجاء فقد كان من الضروري وضع تلك الصفة بين قوسين) للدكتور «شنايدر». إن تباهي «كوستا» وجرمانيته، وعنصريته كانت تعزز أو تشجع العلاقة المبهمة.

عاد إلى منزله يهيمن عليه غم عميق، لكنه لم يكن يرغب في أن يستسلم بسرعة، فخطر له أن ينهي مشروع الرواية. ولكن، ما أن فتح الأدراج وبدأ بتصفح أوراقه، حتى تساءل بارتياب ممزوج بالتهكم، أيه رواية؟ قلّب تلك المئات من الأوراق، والمخططات، وبدائل المخططات وبدائل البدائل: كلّ شيء كان متناقضاً وغير منسّق، مثل نفسه. عشرات الشخصيات كانت تنتظر في تلك المستودعات، كالزواحف التي تخلد للنوم، فتغفو طيلة فصول البرد، تعيش حياة خفية خافتة كامنة، وما أن تعيدها الحرارة إلى حياتها العادية حتى تتحفّز للهجوم بسمومها.

وصل - كعادته دائماً عندما كان يقوم بتلك الحملة التفتيشية - إلى ملف قصاصات الصحف عن تلك العصابة، عصابة «كالسن باس»، ومرة أخرى استغرق في ملامح وجهه الـ «دوستويفسكية». ماالذي كانت تثير في نفسه تلك الشخصية..؟ تذكر لحظات مشابهة، لحظات تأمل، منذ خمسة عشر عاماً مضت، مشابهة إنما غير مشجعة، عندما شعر بأن نظرة المثقف المجرم تلك، كانت توقظ في نفسه وحوشاً غامضة هائلة تزمجر وسط الظلمة والطين. شيء ما وسوس في صدره عندئذ بأنه كان النذير المشؤوم لأحد ملوك الظلمات. وعندما وصل «فرناندو فيدال أولموس»، ذلك المجرم القروي الصغير، كانت قد انتهت، على ما يبدو، مهمة ذاك التبشيرية، فعاد إلى الملف الذي خرج منه في أحد الأيام.

والآن، ماذا بعد؟ تأمل ملياً وجهه جامد المشاعر، وحاول أن يفهم معنى صلته بالرواية التي كان يحاول بناءها وهو يتعثر كما كان يحدث دائما: كل شيء كان ملتبساً في نفسه. كان يبني ثم يهدم، ولم يكن بوسعه أن يدرك أبداً ماذا يريد وإلى أين يتجه. كانت الملامح العامة للشخصيات ترتسم شيئاً فشيئاً، وكانت بقدر ماتخرج من الظل، تكتسي

وضوحاً. ثم، سرعان ماتتبخر، وتعود إلى معاقلها في الظلال التي كانت قد انسلت منها. ماالذي كان يود قوله بتخيلاته؟ بعد عشر سنوات تقريباً من نشر «أبطال وقبور» ثابر على استجوابه باستمرار تلاميذ وسيدات، ومستخدمو وزارات، وفتيان يؤلفون أطروحات في «ميشيجن» أو «فلورنسا» وكاتبات على الآلات الطابعة، وضباط في سلاح البحرية، ممن كانوا يرون بحماس بالغ حين دخولهم إلى نادي البحرية، ذلك الأعمى بمظهر سيد أنكليزي، يشيخ وينحني ظهره يوماً بعد يوم، وهو يبيع عظمات قبات القمصان، حتى يختفي إلى الأبد، إلى الأبد؟ ميت؟ في أي معقل؟ أجل، وكان أولئك البحارون يودون أيضاً معرفة ماذا كان يعني ذلك «التقرير عن العميان»، وعندما كان يجيبهم بأنه ليس بوسعه أن يضيف أي شيء آخر إلى ماكان قد كتبه فيه، كانوا لا يقتنعون وينظرون إليه كما ينظرون إلى غشاش، إذ كيف يمكن أن يجهل المؤلف نفسه، بعض الأشياء المعينة؟ وكان من غير المفيد أن يشرح لهم أن بعض الحقائق لايمكن التعبير عنها إلاّ برموز غامضة فقط. مثلما لايستطيع من يحلم، فهم معنى الكوابيس التي يراها في أحلامه.

تفحص الملفات وشعر بتفاهة دقته: إنها كدقة ساعاتي مجنون يعمل في ساعة بصبر لاينفذ، كي تشير في نهاية الأمر إلى الثالثة واثنتي عشرة دقيقة، عند منتصف النهار. كان يعيد دراسة الأخبار الغامضة، والصور، والتصريحات الماكرة، والاتهامات المتبادلة: إن كان «كالسن» نفسه هو الذي غرز المخرز وحركة في قلب الطفل المربوط، إن كان «غوداس» تحت إمرته، إن كانت تلك الفتاة «دورا فورتي» ابنة الثمانية عشر عاماً عشيقة «كالسن» أم لا، وإن كان هذا لوطياً. مهما كان الأمر، فإن «دورا» أغوت صالح، وذهبت إلى «كالسن» وجعلته ينضم إلى العصابة، وأخيراً تظاهرا بالقيام بعملية الاختطاف (هذا ماكان صالح يظنه) لسلب العجوز مايملك، وعندما قاموا فيما بعد، بربطه ووضع

خرقة في فمه، أدرك أنهم سيقتلونه حقاً، كان ينظر بعينين مندهشتين إلى ذلك المنظر، كأنه تحت وطأة كابوس، وهو يسمع أمر «كالسن» الحازم بأن يبدأو بحفر القبر في قطعة الأرض، وبعد ذلك وقّع على الرسالة التي كانوا قد حضّروها من قبل.

تساءل «ساباتو»، لماذا لم تكن تلك الرسالة موقعة من قبل ذلك لأنه كان يعتقد أن الأمر كان مجرد تظاهر بعملية الاختطاف. ولماذا يوقعها الآن إن كان يرى أنهم في جميع الحالات سيقتلونه. ولكن، قد تقدّم الجرائم الحقيقية دائماً، تلك العناصر غير المتماسكة الفظة. كان هنالك أمران يصفان سادية «كالسن» واستهتاره: احتفاظه بالرسالة فخفيه حتى تلك اللحظة خلف صورة لوحة «صلاة البشارة» لـ «ميلي»، ووجوب تسليم المال في فناء كنيسة «الرحمة» تبأ له..! نظر ثانية إلى صورته، وعلى الرغم من أن وجهه قاسي القسمات، لم يكن ينطوي على أي وجه شبه به، فكر في الصبي «كوستا».

حينما كان يعيد قراءة التصريحات كان كل شيء يبدأ بالتدفق في ذهنه: كانت الصور تأخذ بتغيير ملامحها وتبدأ تتشكل ببطء إنما على نحو حتمي، وجوه أخرى كانت تستولي على تفكيره، وبخاصة وجه «ر» البغيض الذي كان يبدو أنه يحكم - كخبير شرير - على أخطاء أولئك الذين يرتكبون جنحاً بسيطة.

«ر» في المؤخرة، في الظل دائماً، وهو مهووس بفكرة طرد روحه الشريرة، بكتابة رواية يكون فيها ذلك الرجل هو الشخصية الرئيسية. حين ظهر له من جديد، في باريس ذلك العام ١٩٣٨ عندما عكر صفو حياته، وبذلك المشروع الفاشل: «مذكرات مجهول». لم يكن يملك الشجاعة أبداً ليحدّث «م» عنه. حدثها دائماً عن شخص صفاته كذا وكذا، وعن فوضوي رجعي، عن شخص كان يسميه «باتريسيو

دوغاس». تلك القصة الخيالية كانت تنطلق من جريمة «كالسن» ولكنها كانت تحوّر شيئاً فشيئاً حتى تضيع معالمها وتصبح غير معروفة: فلم تكن «دورا فورتي» فتاة حي فقيرة جميلة، وإنما فتاة متكلّفة. و«باتريسيو» كان رئيس العصابة، عشيق الفتاة في البدء، ثم شقيقها، وربما عشيقها أيضاً. أجهضت أيضاً وبعد سنوات، نتيجة لإلحاح (ر) الدائم كتب «أبطار وقبور» حيث تحول «باتريسيو» إلى «فرناندو فيدال أولموس»، والفتاة إلى شقيقته أولاً، ثم إلى ابنته غير الشرعية، لاشيء يمت بصلة لقضيته «كالسن» ولا لتلك الجريمة الغامضة.

والآن، بدأ ثانية بمتاهة زنا المحارم النتنة، والجرائم. متاهة أخذت تغوص تدريجياً في المستنقع الذي كان يعتقد أنه خرج منه بفضل تعاويذ خياطات وسباكين بريئة. كان يرى من وسط الظلمات كيف كانوا يقومون بحركات سخرية بمخالبهم، إلى أن أخذ يغرق ثانية في البلبلة واليأس، وفي الأوهام الخادعة، وفي رذيلة تصور نوازع جهنمية. كانت الوحوش الهائلة المعهودة، وقد استيقظت على ذلك النحو المتلبس كالتباس الكوابيس، وبقوة كقوة الكوابيس أيضاً، وفي مقدمتها الصورة الغامضة المعهودة التي كانت تراقبه من أعماق الظلمة، بعينيها الخضراوين ونظرتها التي تشبه نظرة الخفافيش، وملامحها التي تحاكي ملامح طائر ليلي جارح. كان مأخوذاً بظهورها ثانية فوقع تحت تأثير مخدر وسط تلك الأسرة المشؤومة، وكأنه واقع تحت تأثير عقار شرير. وعندما استرد، بعد ساعات، وعيه، لم يعد مثلما كان، ذلك الرجل الذي نهض منذ أيام متفائلاً.

بدأ يلف ويدور، أراد أن يصرف انتباهه، فتصفح مجلة. هنالك طالعه وجه ذلك الحشرة، تعلوه ابتسامة رجل ينظر بعينيه المفتوحتين على مصراعيهما مستعد للفهم والمساعدة، أما وراء ذلك، فكان يرى مثل

خبير في حلّ الرموز يقوم بحلّ رموز الرسالة الأصيلة المكتوبة على صفحة وردية اللون بروز الملامح الحقيقية لعاهر عجوز حقيرة، عاهر كاذبة منافقة، ماذا كان يصرح عن جائزة البلدية؟

كم كان ذلك مثيراً للاشمئزاز، وكم كان محزناً..! جلس خجلاً: إنه، أولاً وأخيراً، ينتمي هو أيضاً إلى تلك السلالة البغيضة.

انطوى على نفسه، وعاد يستسلم مرة أخرى للوهم كما هي عادته دائماً: أن يهجر الأدب ويفتح مشغلاً في حيٍّ مجهول من أحياء «بوينس أيرس». حي مجهول من أحياء بوينس أيرس..؟ كم كان ذلك مثيراً للضحك. وياله من طريق مسدود. وزاد الأمر سوءاً انزعاجه، لأنه كان قد تكلم في الـ «اليانس» وعانى طيلة ساعتين، ثم الليل كله، وكما لو أنه كان عرياناً وسط حشد من الناس ليعرض أمامهم دماملە، حشد يضم كثيراً من الأشخاص التافهين.

وأخذ من جديد يرى كل شيء أسود، وبدت له الرواية، الرواية المشهورة، تافهة وتثير في النفس الغمّ ماذا كان يعني كتابة رواية أخرى؟ لقد فعل ذلك في مناسبتين عصيبتين، أو كانتا في أقل تقديرهما الروايتان الوحيدتان اللتان قرر نشرهما دون أن يعرف تماماً لماذا. ولكنه الآن يشعر بحاجة إلى شيء مختلف، شيء، كرواية عن القدرة الثانية. نعم إن أمراً ما كان يضغط عليه. ولكن ما هو؟ وكان يعود كئيباً إلى تلك الصفحات المتناقضة التي لاتروقه، والتي تبدو أنها ليست هي ماكان يريد.

ثم يأتي فيما بعد، ذلك التمزق بين عالميه، عالم المفاهيم، والعالم التحتي. كان قد هجر العلوم ليكتب روايات، كربة بيت محترمة تقرر فجأة أن تستلم للمخدرات والبغاء. ماالذي حمله على تصور تلك القصص؟

وماذا كان حقاً؟

كانت الرواية الخيالية تعتبر بصورة عامة ضرباً من التزوير، او عملاً غير جدّي. وعند ماعلم «البروفسور هوساي» الحائز على جائزة نوبل بقراره، حياه بحرارة.

وجد نفسه يطوف من دون أن يعي، حول مقبرة «لاركوليتا». كانت تأسره تلك البيوت الجماعية[1] في شارع «فيسنتي لويس» وبخاصة حين كان يتصور أن «ر» يمكن أن يكون قاطناً إحدى الغرف الوضيعة هناك، في تلك العلية التي تكاد تحجبها الألبسة المنشورة لتجف.

و «شنايدر» ماعلاقته بالرواية؟ ومن تكون تلك «الجماعة» التي كانت تمنعه من أن ينجزها؟

كان يظن أن «شنايدر» قوة من تلك القوى التي تعمل في مكان ما، وهو مازال يعمل، على الرغم من اختفائه طيلة سنوات، وكما لو أنه قد أجبر على أن يغيب بعض الوقت. كان يراقب من بعيد، لكنه الآن كما يبدو يراقب من «بوينس أيرس».

الحضور الآخر كان يعرفه وسرعان ماأدرك أن قلقه على «سارتر» لم يكن عبثاً وإنما نتيجة فعل تلك القوى ذاتها التي كانت تعكر صفو حياته. ألم تكن المشكلة مشكلة النظرة، مشكلة العينين؟

العينان «فيكتور براونر». لوحاته مملوءة بالعيون، عينه التي اقتلعها «دومينغيس».

بينما كان يسير على غير هدى، لايثق بأحد، كان الجواسيس ينطلقون

(١) البيوت الجماعية ترجمة للكلمة الاسبانية Conventillos وهي عبارة عن دور كبيرة تقطنها أسر فقيرة حيث تستأجر كلّ منها غرفة من غرفها (المترجم)

من مكان ما من انكلترا، يتكلمون الأنكليزية بطلاقة، ويتمتعون ويلبسون كخريجي «أوكسفورد».

كيف نميز العدو؟ ذلك الفتى الذي يبيع المثلجات على سبيل المثال: كان من الضروري مراقبته باهتمام. اشترى منه قطعة من مثلج «الشكولاته» وذهب. تظاهر أنه ذاهب، ليعود إليه فجأة ويراقب عينيه. استغرب الفتى ولكن ذلك الاستغراب يمكن أن يكون ناجماً عن براءته، أو عن تدريب دقيق. كانت مهمة ليس لها نهاية: ذلك الشخص الذي يحمل السلم، تلك المعاملة على الآلة الطابعة، أو المستخدمة البسيطة، ذلك الفتى الصغير الذي يلعب أو يتظاهر بأنه كان يلعب. ألا تستخدم أنظمة الحكم المطلق أطفالاً؟

وجد نفسه أمام منزل آل «كارّانسا» على الرغم من أنه لم يتذكر أنه فكر بأن يذهب إلى هناك.

غرق في المقعد، سمع شيئاً عن «بي بي نا». كيف كيف؟ المحاضرة في الـ «اليانس». الـ «اليانس» و «بي بي نا»؟. ولكن أية شياطين كان كل ذلك؟

ضحكت «بيبا»: ولكن لأيها الأحمق، كانت تعني «سارتر». ولكن ألم تكن تحدثه عن «بي بي نا». لا يارجل «كانت تحدثه عن «سارتر».

حسناً، ماذا، إن كان يتحدث السوء.

شعر بالقنوط. نزع نظارتيه. مرّر يده على جبينه وفرك عينيه، ثم أخذ يحصي ما في الأرض الخشبية من عيوب، بينما كانت «بيبا» تتفحصه بعيني قاض في محاكم التفتيش، وأمها بالمظهر ذاته الذي تبدو فيه دائماً، كأنما نهضت من فراشها منذ لحظات، شعرها مشعث، تمعن

التفكير في روافد الغانج، والرخويات والألقاب.

فكر وهو مطرق، «شنايدر».

ـ متى وصل إلى «بوينس أيرس»؟

سألت «بيبا» مستغربة:

ـ من؟

ـ «شنايدر».

ـ «شنايدر»... ياللشياطين، ماالذي يثير اهتمامك بهذا الثرثار بعد كلّ هذه السنوات؟

ولكن متى أتى؟

ـ عند انتهاء الحرب. لست أدري.

ـ و «هيدويج»؟

ـ أيضاً.

ـ ولكنني أتساءل إن كانا قد تعارفا هناك. في «هنغاريا».

ـ يبدو أنهما تعارفا في حانة في «زوريخ».

غضب: يبدو، يبدو، الغموض ذاته دائماً. كانت «بيبا» تنظر إليه بحيرة. وكانت تقول له، ذلك المهرج كان ينقصه الأفعى، وإحدى تلك الأدوات التي تصلح لإدخال الخيط في ثقب الإبرة، وتقشير البطاطا، وتقطيع الزجاج. وتلك العجائز اللواتي كن يتبعنه.

ـ نعم، فعلاً، كان يبدو مثل ثرثار معرض، وماذا يضير ذلك....

ـ كيف تقول وماذا يضير ذلك.

كان غضب «بيبا» برأي «ساباتو» ناجماً عن عقيلتها الـ «ديكارتيه». كانت تتشاجر والدكتور «أرآميبيدي»، ولكن عقلتيهما في الأساس واحدة. لم يكن يرغب في تفسير أي شيء.

ألحت «بيبا».

ـ كيف نقول وماذا يضير ذلك.

تأملها «ساباتو» متعباً. «بودلير» في قضية الشيطان.

ـ «بودلير»؟

لكنه لم يفسر شيئاً. كان يشعر بأن ذلك عبث لا جدوى منه، إن أسوأ الإساءات: ترسيخ الاعتقاد بأنه غير موجود. كان «شنايدر» مضحكاً، لكنه عبوس، وصخّاباً، لكنه بالغ الغموض، كانت قهقهاته تحجب وراءها روحاً خفية، كرسم هزلي وقناع مضحك، ومظهر وجه قاسي كأنه رمز غامض للجحيم، كان كمن يروي دعابات فاحشة لضحيته المقبلة، في حين يحضّر لارتكاب الجريمة المحسوبة بأعصاب باردة. كانت «ماروخا» تسأل عن نوع من الرخويات مؤلف من خمسة حروف. وكان يتصوره يدير من الظلمة الخيوط التي تحرك تلك العصابة. ولكن ماذا كان يفكر؟ كان «باتريسيو» وآل «كريستنسين» من إبداع الخيال: كيف كان بوسع ذلك الرجل الحقيقي أن يوجه بعض خيالاته أو يهيمن عليها «غوستافو كريستنسين» كان يعود للتفكير بأن الصبي «كوستا» يمكن أن يكون «غوستافو كريستنسين» تماماً. ولم لا؟ كان قد تصوره نحيلاً و «الصبي» بدين مترهل. ولم لا؟

قال:

ـ الصبي «كوستا».

رمقته «بيبا» بنظرة يتطاير منها الشرر. ماأمر ذلك الشخص؟

ـ رأيته يدخل مقهى عند تقاطع شارعي «لاس هيراس» و«أجاكوتشو» وهي، ماذا يعنيها؟ كان يعلم تماماً أن ذلك الشخص لايعنيها بشيء أبداً. منذ سنوات وهي تعتبره ميتاً.

ـ أقول لك...

ـ لايهمني قيد أنملة. أنت تعلم.

ـ أقول لك، لأنني أخاله دخل ليرى «شنايدر».

ـ ماذا تقول؟ إن «شنايدر» موجود في البرازيل، لاأدري منذ متى.

ـ خلت أنه كان يدخل إلى ذلك المقهى، ثم، كانا صديقين حميمين.

ـ من.

ـ هو والصبي «كوستا» أليس كذلك؟

ـ ضحكت «بيبا»: الصبي صديق أحد ما..

ـ أعني أنهما كانا يشاهدان سويا في ذلك الحين.

ـ إنني أتساءل، من كان يلحق ضرراً بمن.

ـ ليس من الضروري أن يكونا صديقين، يمكن أن يكونا متواطئين.

نظرت إليه «بيبا» مستغربة، ولكن «ساباتو» لم يضف أي شيء آخر

إلى تلك الكلمات. سأل بعد قليل، وهو ينظر إلى الكأس:

ـ برأيك إذن «شنايدر» ذهب إلى البرازيل.

ـ هذا ماقالته «مابيل». والجميع علم بذلك. ذهب هو و «١٥٨يدويج» كان «ساباتو» ينظر إلى الكأس دائماً فسأل إن كان «كيكي» مايزال يرى الصبي «كوستا».

ـ أتصور ذلك. ولا أرى كيف يمكن حرمانه من تلك المتعة، من ذلك الكنز.

ـ ألم يقل لك مؤخراً أي شيء عن «شنايدر»؟ فإن كان قد عاد من البرازيل ورأى «الصبي»، لاشك أن «كيكي» يعلم.

كلا، لم يكن قد قال لها أي شيء، ثم إن «كيكي» كان يعلم تماماً أنه لم يكن يروقها أن يذكروها بالصبي. هيمن الغم على «ساباتو» أكثر من ذي قبل، لأن ذلك كان يؤكد له أن هذا الرجل، إن كان قد عاد من البرازيل أو من أي مكان كان، فإن تلك العودة لم تكن علنية وإنما سرية. أكانت اتصالاته بـ «كوستا» مرتبطة إذن بالمشكلة التي تؤرقه؟ كان يبدو، لأول وهلة، انه لمن العبث تصور اشتراك التافه «كوستا» في عملية من هذا النوع. ولكن ذلك لم يكن أمراً غير معقول إذا مافكر المرء بانحطاطه الشيطاني. ولكن لماذا كانا ـ والحالة هذه ـ يلتقيان في حانة وسط المدينة؟ حسناً، لم يكن، «ساباتو» يذهب إلى تلك الحانة أبداً، فيمكن أن يكون الأمر مجرد مصادفة. مصادفة من هذا النوع؟. كلا، كان من الضروري استبعاد ذلك. بل كان يجب التفكير بأن «شنايدر» كان يعرف، على نحو آخر، أنه هو، سيذهب إلى «راديو ناسيونال» فانتظر في الشارع حتى يراه)أو يلمحه(، ثم دخل. ولكن، لماذا؟ لكي يخيفه؟. وبدأ من جديد شكه الكبير: من كان يتابع من؟

حاول أن يتذكر، ولكن كلّ شيء كان يؤدي به إلى الالتباس. نعم. كانت «مابيل» قد عرّفته بـ «تيليكي»[1]، و «تيليكي» عرفه بـ «شنايدر» كانت النفق[2] قد صدرت، أي أن ذلك كان حوالي ١٩٤٨ ، لم يعرفي ذلك الحين أهمية للسؤال الذي طرحه عن «أجيندي: لماذا هو أعمى؟ كان يبدو أنه سؤال بريء.

كان قد قال بضحكته الفظة:

- أعمى وديوث.

ماعساه كان يفعل طيلة تلك السنوات من ٤٨ إلى ٦٢ .....؟ ألم يكن أمراً ينطوي على مغزى، ظهوره في ٦٢ حين صدور «أبطال وقبور»؟ يمكن - في مدينة شاسعة - أن تمضي سنوات دون أن يرى المرء شخصاً يعرفه. فلماذا عاد ليلتقيه، عندما نشرت روايته الجديدة؟

كان يحاول أن يتذكر كلمات ذلك اللقاء الثاني: حول «فرناندو فيدال أولموس» ماذا، لم يجب بأي شيء؟

- كيف؟

ان كان قد تكلم بالسوء عن سارتر. نعم أم لا.

إنها «بيبا» كعادتها في تلوين صوتها، وكأس الويسكي في يدها دائماً، وعيناها المتفحصتان يتطاير منهما الشرر، بالسوء عن سارتر؟ ومن أتاها بهذه الحماقة؟

---

(١) اندريه تيليكي: أحد أفراد أسرة الكونت تيليكي ذات النفود الكبيرة في هنغاريا قبل استيلاء الشيوعيين على السلطة، وقد هاجر كثير من هؤلاء إلى الأرجنتين مثلهم مثل كثير من النبلاء وأقاموا فيها (المترجم)

(٢) النفق: رواية «ساباتا» الأولى. ترجمناها الى العربية ونشرتها دار الأهالي في العام ١٩٨٦ (المترجم)

لم تكن تتذكره أحد ما.

أحد ما، أحد ما دائماً، أولئك الأعداء الذين لاوجود لهم، والكل يتساءل لماذا لايزال يتكلم أمام الجمهور.

كان يتكلم لأن ذلك كان يروقه.

لماذا لم يدع قول الترهات؟ كان يتكلم لأنه ضعيف، لأن صديقاً كان يطلب منه، لأنه لم يكن يروقه أن يبدو متعجرفاً، لأنهم كانوا فتياناً مساكين من منتدى «فياسولداتي» أو «ماتاديروس»[1] ولايمكن إهانتهم: أولئك الفتيان الذين كانوا يعملون كهربائيين في النهار، أما في الليل فكانوا يحلون رموز «ماركس».

هيا... الـ «اليانس» ليست في «فياسولداتي» وألآف النساء محترفات سماع المحاضرات كن يذهبن.

- حسناً، لقد حزرت، تحدثت إلى نساء بدينات، لم أفعل أي شيء آخر في حياتي، دعيني الآن أحسو بهدوء، كأس الويسكي التي أتيت من أجلها.

- لاتصرخوا، دعوني أفكر، نهر في آسيا مؤلف من أربعة حروف.

- وهكذا إذن الأمر الوحيد الذي رووه هو أنني تحدثت بالسوء عن «سارتر».

نهض وسار في القاعة، ثم اقترب من المكتبة، تفحص سيوف الفرسان القديمة، وقرأ شارد الذهن بعض العناوين. كان غاضباً على الجميع وحانقاً على نفسه. أفكار لاذعة او تثير الهزء حول ندوات، محاضرات،

---

(١) فياسولداتي وماتاد يروس: ضاحيتان عماليتان في بوينس ايرس (المترحم)

الـ «اليانس» الفرنسية وذكريات الطفولة، كم كانت «بيبا» نحيلة مؤخراً، عناوين روايات (في ظل فتيات الورد... كيف كان ذلك ممكناً؟) أفكار حول الغبار والتجليد. وأخيراً عاد إلى مقعده حيث غرق فيه، كما لو أنه يزن ضعف أو ضعفي وزنه.

شيء عند الحدود، بين كينيا وأثيوبيا يشبه الجاموس، ولكنه ليس جاموساً: ستة حروف.

- تحدثت بالسوء... نعم أم لا؟

انفجر «س» فقالت له «بيبا» بقسوة... إنه كان بوسعه ان يقدم معلومات بدلاً من أن يصرخ، لم يكن يبدو مثقفاً بل مجنوناً.

- ولكن من هو ذلك الأبله الذي أتاك بهذه القصة؟

- إنه ليس أبله أبداً.

- لقد قلت لي منذ برهة إنك لاتتذكرين من هو.

- اجل، ولكنني تذكرت الآن.

- ومن هو؟

- لايتعين عليّ ان أقول. بعد ذلك تثير قضايا.

- طبعاً، طبعاً، لماذا؟

عاد يغرق في صمت مر. «سارتر». ماكان يدافع عنه دائماً، هو العكس تماماً. مامغزى أن يتعين عليه دوماً أن يدافع عن الناس الأصلاء، أثناء الثورة في هنغاريا، حين اتهمه الستالينيون بأنه «بورجوازي صغير معاد للثورة في خدمة الأمبريالية الأمريكية». وبعد ذلك ضد

«المكارثيين» الذين اتهموه بأنه «أحمق في خدمة الشيوعية العالمية»، وطبعاً، لوطي أيضاً: ومعروف أنهم لم يستطيعوا أن يكتشفوا له صلة قربى باليهود.

- ولكن، هات قل، ألا ترى أنه كان خيراً لك، أن تفسر لي ماقلت، بدلاً من إضاعة هذا الوقت في الغضب؟

- وما هو الهدف؟

- آه، أيبدو لك أنني لاأستحق أن أعرف؟

- إن كنت مهتمة كلّ هذا الاهتمام، كان بوسعك أن تذهبي لسماع المحاضرة.

- لدي «بي بينا» مصابة بالإسهال.

- حسناً، كفى

- كفى.... كيف. إن هذه المشكلة تثير اهتمامي كثيراً.

- تودين أن أشرح لك الآن في أربع كلمات ماحلّلته هناك في ساعتين. وبعد ذلك تتحدثين عن الطيش.

- لاأريد أن تشرح لي كلّ شيء. فكرة واحدة فقط. الفكرة الأساسية. ثم، يجب أن تقرّ بأن رأسي ينطوي على ماهو أكثر من تلك السيدات البدينات اللواتي تدافعن لسماعك.

- كفى، كانت القاعة تغص بالتلاميذ.

- أذكر، إن لم تخنّي الذاكرة أنك قلت لي مرة إن الفلسفة بأسرها هي تطور حدس أولي بل وحتى مجاز: كلّ شيء. نهر «هرقليس» نطاق

«بارمنيدس» نعم أم لا؟

ـ نعم.

ـ الآن تخرج علي بحكاية تقول إن نظريتك عن «سارتر» تحتاج إلى ثلاث ساعات. ماذا، أهي تفوق فلسفة «بارمنيدس» أهمية؟

قال متعباً: تقرير «سارتر» ذاك عن الغثيان.

ـ تقرير؟ أي تقرير؟

ذلك الذي صدر منذ وقت، لاشك أنه حصيلة شعوره بالذنب.

ـ شعور بالذنب؟

ـ طبعاً، يوجد أطفال يموتون من الجوع هنا وهناك. ويكتب تلك الرواية، في حين أن.........

ـ أي طفل يموت جوعاً؟

ـ ولكن لا ياأمي. حسناً، وماذا؟

ـ انطلقت من تلك الفكرة.

ـ وتبدو لك تلك الفكرة سيئة.

ـ لاتبدأي من جديد.

ـ إذن.

ـ إذن، ماذا؟ أيمكنك أن تقولي لي متى كانت الرواية، أية رواية، ليس «الغثيان» وحسب، بل أية رواية أخرى، أفضل رواية في العالم، سواء

دون كيخوته، أو عوليس، أو المحاكمة، ذات فائدة لدفع الموت عن طفل واحد فقط؟. إن لم يكن المرء متأكداً من نزاهة «سارتر» لكان يتعين عليه أن يفكر بأن ذلك كلام دهمائي، بل، أقول لك أكثر من ذلك: كيف ومتى، وعلى أي نحو كان لأي قطعة من موسيقي «باخ» أو أي لوحة من لوحات «فان كوخ» فائدة لدرء الموت عن طفل جائع. هل يتعين علينا نبذ الأدب بأجمعه، والموسيقا بأسرها، والرسم كله؟

ـ منذ مدة رأيت في فيلم عن الهند بعض الصبيان يموتون من الجوع في الشارع.

ـ نعم، ياأمي.

ـ رأيت المشهد أنت أيضاً.

ـ لا، ياأمي.

ـ قرأت أيضاً كتاباً لكاتب فرنسي «جولي رومان»... لا، لحظة...لعله «رومان رولاند»؟ تختلط الأسماء عندي دائماً، إنني ظاهرة غريبة... المهم، شيء من هذا القبيل.

ـ عن أي شيء، ياأمي.

ـ عن طفل صغير يموت جوعاً، ما اسمه؟

ـ من؟

ـ ذلك الكاتب.

ـ لست أدري ياأمي، إنهما كاتبان، ولم اقرأ لأي منهما.

ـ كان بوسعك ان تقرئي قليلاً، بدلاً من ان تناقشي كثيراً، وتشربي

«الويسكي». وأنت يا «أرنستو» ألا تعرف أنت أيضاً؟

- لا يا «ماروخا».

- إذن، يبدو لك أن «سارتر» كان مخطئاً. ألا ترى أن الذي أتاني بالمعلومات، كان يقول الحقيقة. نعم أم لا؟

- هذا لايعني أيتها الحمقاء أنني تكلمت بالسوء، بل إنني كدت أدافع عنه ضد نقطة ضعف، أعني الدفاع عن «سارتر» الأفضل.

- إذن «سارتر»، لمن يؤلمه موت طفل، هو «سارتر» سيء.

- هذه سفسطة بحجم خزانة الملابس، يجب أن لانهبط بمستوى النقاش.

- حسناً، لنعد إلى حجتك، أتود القول إن «سارتر» يفكر خطأ، وإنه لايتمتع بقوى عقلية سليمة.

- لا أقول ذلك، ليس الأمر أنه يفكر خطأ، وإنما يشعر بأنه مذنب.

- وما هو ذنبه.

- ذلك المزيج من شيطاني وبروتستانتي.

- وماذا أيضاً.

- لاشيء، لعل اللقب هو أحد الدلالات، «شويتزر»، الدلالة الثانية هي القبح.

- القبح، وما علاقة ذلك بالتقرير؟

- طفل قبيح، ضفدعة، هل قرأت «الكلمات».

- نعم، وماذا.

- كان يصاب بالذعر عندما ينظرون إليه.

- وماذا في ذلك.

- ماالذي يمكن أن يرونه فيك؟ الجسم. الجحيم هو نظرة إلى الآخرين. النظر إلينا هو تحويلنا إلى حجر، هو استبعادنا. أليست تلك هي موضوعات فلسفته وأدبه؟

- يالك من متعسف، سوف تختزل في هذه الكلمات الأربع فكر «سارتر» كله.

- منذ لحظات - إن لم تخني الذاكرة - طلبت أن أفعل ذلك. كل شيء.

- حسناً، سوف تجعل الآن من عقدة نفسية أساساً لنظرية فلسفية، حبذا لو أن البولشفيك يقبضون عليك.

- ليس الخجل أمراً مبتذلاً، وخجل الطفل على نحو خاص، يمكن أن تكون له أبعاد وجودية كبيرة. أنا أخجل، ولذلك فأنا موجود. ومن هنا يأتي كلّ شيء.

- كلّ شيء؟ يبدو لي أنك تذهب بعيداً جداً.

- ولماذا؟ إن ماهو جوهري في عمل أي مبدع يأتي من أحد هواجس طفولته. فكري في أدبه، هل يدع أحدٌ الآخرين يرونه عرياناً؟

- إنك تفترض انني لاأعمل شيئاً سوى تذكر شخصيات «سارتر»، كيف يرتدون ثيابهم وكيف ينضونها عنهم.

- أقول ذلك لأنك كنت تعذبينني. واحد يحب أن يرى الناس من أعلى

فهكذا يشعر بأنه كلي القدرة. وأخرى تحب أن تراقب صديقتها دون أن تتمكن تلك من رؤيتها. وآخر يتلذذ بتصوره أنه خفي لايُرى، وإحدى متعه التلصص من خصاص الباب. وآخر يتصور الجحيم كأنه نظرة تنفذ إليه كله. الجحيم في عمل من الأعمال، هو نظرة امرأة، نظرة يتعين عليهم أن يعانوا منها إلى الأبد.

ـ حسناً، كفى. أين سينتهي بك المطاف. لكن الفلسفة.

ـ يبدو لي أنك تقرئين الكتب على نحو سطحي. أم أنك لم تقرئي الوجود والعدم.

ـ وكيف لا، كان ذلك في القرن التاسع عشر.

ـ ولذلك أقول لك.

ـ تقول ماذا.

ـ إنك تقرئين كلّ شيء على نحو سطحي، إن لم تتذكري في كلّ حين الأمر الخفي والذي يُحام حوله. صفحات عن الجسم، والنظرة، والخجل.

في تلك اللحظة دخل «كيكي»، وقال: يا «ماروخا» تبدين في كلّ يوم أكثر رشاقة، ثم اتجه نحو «س» وقال له: «عم مساء يامعلم». فادعى «س» أنه تأخر ثم ذهب.

ما أن خرج حتى اتجهت «بيبا» غاضبة نحو «كيكي»:

ـ لقد حذرتك بأن لاتحشر نفسك في أموره، وبخاصة عندما أكون حاضرة.

كان كيكي متجهماً

أن تمنعه من الحديث بالسوء عن الناس، برأي «بيبا»، كأنك تمنع «غاليلي» من إذاعة نظريته المشهورة. ولكن وصول «سيلفينا» مع رفيقاتها في المعهد سرعان ماشجعه فوراً، حين قلن له إنهن رأين الفتى «مولينا» على دراجة نارية مرتدياً سترة جلدية.

ـ هذا حسن جداً... ياله من كاهن يرتدي جبة.. كهنة يرتدون «شورت»، وراهبات ترتدين «بيكيني». أولئك الكهنة اللينينيون الذين يتلون ـ بدلاً من إنجيل القديس توما ـ عبارات ماركس وانجلز المبتكرة. ومع ذلك فالمسيحية تبحث دائماً عن الشعبية، وإلاّ، فكرن أيتها الفتيات في التعميد بالماء، وهو الأرخص. إلاّ إذا خطر لكنّ التبشير في «الصحارى». تذكرن أولئك البلهاء الذين ابتدعوا التعميد بدماء ثور. أي دين ذاك الذي يمكن الترويج له بمثل هذا التبذير. إن كان يتعين القضاء على ثور كلما احتاج الأمر تعميد طفل مسيحي. إنه دين الصفوة من الرومان. وهنا، من آل «أنشورينا»، او أغنياء طليان كآل «بيغيلاغوا»[1] سألت «ماروخا» وقد رفعت رأسها عن الكلمات المتقاطعة:

ـ ماذا دهى «بيغيلاغوا» هل اشترى ثوراً؟

ـ ولكن ماذا يبقى لمدقع من أمثالنا سوى الكنيسة الرسولية المقدسة؟ إنه في أقل تقدير دين «سوبر ماركت»، إنه..

حالات عزلة قليلة كعزلة المصعد ومرآته.

(فكر برونو)، ذلك الصامت الذي يتلقى الاعتراف على نحو لا يرحم،

(١) أنشورينا أسم اسرة يرمز في الأرجنتين إلى استقراطية كبار ملاك الأرض المتحدرين من أصل اسباني. أما بيغيلاغو فاسم اسرة يرمز إلى فقراء المهاجرين الطليان ممن أثروا ويحاولون محاكاة طبقة كبار الملاك. (المترجم)

وذلك المكان، مقصورة اعتراف عالم بلا قدسية، عالم البلاستيك والحاسوب.

كان يتصور «س»، وهو يراقب وجهه بلا رحمة، فعليه أخذت تترك بصماتها ـ ببطء أنما بتصميم ـ المشاعر والآلام، والحب والبغضاء، والايمان والوهم والأحزان، والميتات التي شاهدها أو توقعها، وفصول الخريف التي أثارت في نفسه الكآبة او القنوط، ولحظات الحب التي سحرته، والأشباح التي زارته أو طاردته في أحلامه أو أوهامه. في تينك العينين اللتين كانتا تبكيان من الألم، تينك العينين اللتين كانتا تطبقان من شدة النعاس، ومن شدة الخجل والمكر أيضاً، في تينك الشفتين اللتين كان يعضّ عليهما من شدة الحماسة أو من شدة القسوة كذلك، في ذينك الحاجبين اللذين كانا يقطبان من شدة القلق أو الاستغراب، أو يرتفعان للاستفهام والريبة، في تلك الأوداج التي كانت تنتفخ من شدة الغضب أو الشهوة. في ذلك كله كانت تتعمق خطوط الجغرافيا المتحركة التي قامت الروح ببنائها فوق لحم الوجه الغض المطواع، كيما تتجلى، حسب حتميتها الخاصة (لأنها يمكن أن توجد متجسدة فقط) عبر تلك المادة التي هي سجنها وفرصتها الوحيدة للوجود في الوقت ذاته.

أجل هاكم إياه: الوجه الذي كانت فيه روح «ساباتو» تعاين (وتتألم) كمحكوم عليه بالإعدام، الكون من وراء القضبان.

كان يسير نحو «لار يكوليتا»

لم المناقشات والمحاضرات

كلّ ذلك كان سوء فهم فظيع

ذلك الأحمق، لست أدري ماذا كان اسمه، يفسر الدين بفائض القيمة

هات نرى، كيف يفسر قيام عمال «نيويورك» بتأييد نيكسون ضد الطلاب المتمردين.

«سارتر» ممزق بين العواطف والعادات السيئة.

لكنه يدافع عن العدالة الاجتماعية

«روكيتين» ودعاياته ضد الوعظ الذاتي والانسانية الاشتراكية جلس على مقعد.

نظر إليه. همس فتى أسمر اللون بشيء ما لفتاته، مشيراً إليه بايماءة، ظن أنها خفية، لكن «ساباتو» أدرك مغزاها مثلما تميز العصافير بين أمريء يتمشى ببراءة، وآخر يسير ليصطاد. تذكر بكآبة، حين كان مثل ذلك الفتى، يمكنه أن يذهب إلى حديقة ما ليقرأ كتاباً، يجهله الجميع ولايراقبه أو يتناوله أحد.

«سقراط» و «سارتر»، كلاهما بشعان، كلاهما كره جسمه، وشعر بالاشتئزاز من لحمه، وتاقه لعالم شفاف وخالد. من الذي يستطيع اختراع الافلاطونية سوى امريء أمعاؤه محشوة بالغائط؟

نبدع مالا يتوفر لدينا، مانحتاج إليه بشدة.

حسناً، لم تكن جميعهن سيدات بدينات، ولم تكن جميع السيدات بدينات، ياللخداع. كان يوجد طلاب كثيرون، أناس مهتمون حقاً.

أناس مهتمون حقاً؟ دعك من هذا.

كان يتعين عليه أن يقرر، أن يسجن نفسه في المشغل الشهير الصغير. ولكن لا، لا.... ليس ذلك سوى ضرب من الجبن وفرار من أبناء العاهرة. أسْوَدُ «الغثيان» في تلك الغرفة القذرة في صيف «نيويورك»، يخلصه

دائماً لحن أغنيته الخالد، إنه الخلود عبر القمامة. سار نحو المقبرة. قرأ ثانية «رحمه الله»، وكأنما يعود ليشاهد في واجهة متجر السلعة التي سحرتنا، والتي يتعين علينا، مهما كان سعرها، أن نتشريها في يوم من الأيام. طاف حول السور في شارع «فيسنتي لوبس»، ووقف ليلمح مابداخل إحدى تلك الدور الجماعية: الألبسة معلقةعلى حبل، الكلاب الضالة، الصبية القذرون. فكر من خصائص «ر» المعروفة أن يعيش في حجرة وضيعة من تلك الغرف، هناك في الأعلى.

أحلام «م» مسخ هائج محصور في وعاء زجاجي، يبحث بيديه عن نقطة ضعيفة في ذلك السطح الشفاف الذي لايلين، طوله حوالي عشرين سنتيميتراً كأنه نسخة مصغرة لانكليزي في فيلم أميركي: نحيل، يرتدي معطفاً صوفياً خشناً ويعتمر قبعة من تلك القعبات التي مازالت ترى في انكلترا فقط. كانت حركاته كأنها تهديد. وكان يتحرك من جانب لآخر، بسرعة، وغضب، ولكنه سرعان مااستقر وهدأ وأخذ ينظر نحو الأعلى، حيث كانت (م) تراقبه. ثم صرخ فجأة، لكنها بالطبع، لم تستطع سماع ماقال، لأن كلّ شيء كان يحدث كما في فيلم صامت. إلا أنها ذعرت من ذلك الصوت اللامسموع ومن تلك الأسارير المريعة كما قالت.

ماالذي كانت تعنيه بتلك الكلمة؟ طرح عليها ذلك السؤال بقلق حاول أن يداريه، كأنما لايعير الحلم كبير أهمية. لم تكن تعرف، لم يكن بوسعها أن تفسر، الشيء الوحيد الذي كانت متأكدة منه هو أساريره المريعة.

ـ لقد كان تلك الشخصية التي حَدَّثْتَني عنها. «باتريسيو». إني مقتنعة وأضافت تقول إنها تابعت النظر إليه كمن ينتظر شيئاً.

ـ نعم، نعم، سأهتم بذلك.

لكنه قال تلك الكلمات بلا قناعة، إذ لم يكن بوسعه أن يبين لها ماهي

القوى التي كانت تكبله، وهي كانت تعرف الأشياء سطحية: وشايات، نمائم، إشاعات ملتبسة ... الخ.. كانت تجهل أن كلّ ذلك تحركه قوة خفيفة جداً، ولهذا فإنه كان أشد رعباً.

وهكذا كانت تنقضي الأشهر إلى أن روت له «م» حلماً آخر: كان يتعين على «ريكاردو» أن يجري عملية جراحية لامرىء كان يراه ممدداً على سرير،، يضيء جسده عاكس النور في غرفة العمليات. نزع «ريكاردو» عنه الغطاء، فرأى أنه كان ملفوفاً بضمادات مومياء، قام بشق القماش المغْبَرّ العتيق بالمشرط، ثم شق الجلد المشدود كالرق من أعلى الصدر حتى البطن، فلم تخرج قطرة دم واحدة، بل ظهرت، بدلاً من الاحشاء حشرة ضخمة سوداء بحجم التجويف المفتوح، طولها حوالي عشرين سنتيميتراً، وبدأت تتحرك وتكون شبه انتفاخات تحولت بسرعة إلى أطراف تتحرك بعصبية بالغة. وخلال بضع ثوان تحولت الحشرة إلى مسخ شيطان أسود قفز إلى وجه «م».

قالت «م» إنها تعتقد أنه كان لذلك علاقة بـ (باتريسيو).

مكث «ساباتو» ينظر إليها حائراً، لأنه كان يعرف مواهبها التنبوئية، فلبث مضطرباً مذعوراً.

كان أمام «لابيلا». جلس في ركن منعزل متصوراً أنهم كانوا يراقبونه، ويحاولون معرفته (تبأ له من فعل متغطرس وخداع)، وأنهم كانوا يتابعون تقلباته من خلال تحقيقات صحفية حسب ذلك التصور الشائع في العالم الحديث، والذي يجعل الناس يعتقدون أنه يمكن كشف إنسان ما أثناء ساعة من حوار كتب على نحو سيء. وكلّ ذلك لم يكن يعني شيئاً. كان كالجميع، يعيش في الأعماق حياة الأحلام والعيوب الخفية التي قلما يشتبه أحد بوجودها. وكان على السطح، يذهب إلى السفارة

الفرنسية حيث تذاع وتستقبل الأكاذيب والأحاديث العامة التي يمكن، ويجب أن تقال في سفارة: على نحو وديّ، بتفهم وتهذيب وبامتنان إن لم يكن، إلى جانب ذلك، بذكاء وألمعية. لأن المرء ما أن يستلقي بعدئذ وينضو عنه بنطاله حتى يتذكر «كير كيغارد» وهو يفعل ذلك ويقول: «هيمنت على الحضور، وحين وجدت نفسي وحيداً في غرفتي كان بودي أن أطلق رصاصة على رأسي».

حتى رأى الفتيين.

طلب تأدية حسابات

كان قد جلس في أحد الأركان كعادته دائماً، ومن هناك أخذ يراقب ذينك الجالسين حول منضدة صغيرة تطل على شارع «كينتانا». كان بوسعه أن يرى الفتاة بوضوح، لأنها كانت تواجهه، ولأن ضوء العصر كان يغمر وجهها: أما الفتى فكان يراه من الخلف، وكان من خلال حركات رأسه، يمين، على نحو عابر، شكله.

كانت تلك أول مرة يلقاهما هناك. كان واثقاً من ذلك، لأن أسارير الفتاة لايمكن أن تنسى. لماذا؟ لم يتمكّن في البدء من فهم السبب.

كان شعرها قصيراً جداً، برونزياً داكن اللون، كالبرونز الكامد. وكانت عيناها تبدوان، لأول وهلة، غامقتين أيضاً، ولكنه أدرك فيما بعد، أنهما كانتا زيتونتي اللون، وكان وجهها قاسي الأسارير، بارزة عظامه، وفكها مشدوداً، أما فمها فكان من تلك الأفواه البارزة، نتيجة امتداد اللثة إلى الأمام حتماً، وكان يوحي بعناد من هو أهل لكتمان السر، حتى ولو كان تحت التعذيب. وكان عمرها ثمانية عشرة عاماً، لا: عشرين. لم تكن تتكلم، كانت تصغى لما يقوله الفتى، وترمقه بنظرة عميقة ونائية، كأنها شاردة قليلاً. وهذا ماجعل أساريرها لاتنسى.

ماالذي كان في نظرتها؟ فكر بأنها ربما كانت مصابة بانحراف طفيف في عينيها.

لا، لم يكن قد رآها من قبل قط، ومع ذلك، يشعر بأنه يرى إنساناً يعرفه. لعله التقى مرة أختها؟ أو أنها؟ إحساسه بـ «رأيت ذلك من قبل»، كما كان يحدث له دائماً، أثار في نفسه كآبة، ضاعف منها يقينة أنهما كانا يتحدثان عنه. فكر بمرارة، إن ذلك الشعور بالكآبة يعاني منه الكتّاب فقط، بُوسعهم هم لاغير أن يفهموه. فلا يكفي أن يكون المرء معروفاً (كالممثل أو السياسي) حتى يشعر بذلك المشيج من الكآبة: لابدّ أن يكون روائياً، إنساناً لايحاكم على المآخذ التي تؤخذ على الأشخاص البارزين وحسب، بل وعلى مايؤخذ على شخصيات رواية أو ويبدر منها.

أجل، كانا يتحدثان عنه. بل يفضل أن يقول، إنه كان من الواضح أن الفتى كان يفعل، حتى وصل به الأمر حد النظر إليه شزراً، في لحظة، تمكن هو فيها من أن يدرس شكله على نحو أفضل: فمه، فمها ذاته (بارز نحو الأمام) وشعره شعرها البرونزوي الكامد نفسه، وأنفه، عظامه بارزة ومعقوف قليلاً، فم كبير تعترضه شفتان مكتنزتان لحماً.

كانا شقيقين بلا أدنى شك. وهو أصغر منها بسنة أو سنتين، كانت أسارير وجهه تبدو له مضحكة، ويداه الطويلتان بعظامهما البارزة كانتا تتناقضان مع قوة غير مناسبة: كان فيه، فيه كلّه شيء من عدم التناسيق. حركاته فظة، رتيبة، وخرقاء.

كن قلقه يشتد بقدر ما كان الزمن يمضي. وأخذ مزاجه يتعكر حينما اتضح له أحد تلك الالغاز: «فان كوخ» بالأذن المقطوعة. كان قد اعترضه اختلاف الجنس، والرسن وعصابة الرأس وقبعة الفرو والغليون. ولكن

الانحراف في العينين كان ذاته، وكذلك طريقة تأمل الواقع بشرود وكآبة. كان يتضح له الآن ذلك الاحساس بأن العينين سوداوان، بينما كانتا في واقع الأمر زيتونيتي اللون.

ضاعف ذلك الاكتشاف من توقه لمعرفة ما كانا يناقشانه.

أيشعر كتاب آخرون بما كان يشعر به أمام شخص مجهول قرأ كتبه؟ مزيج من الخجل والفضول والخوف. أحياناً، كما هو الحال الآن، يكون ذلك المجهول، فتىً أو طالباً يحمل سمات محنته ومرارته، فكان هو يحاول عندئذ أن يتصور لماذا يقرأ كتبه وأي صفحات يمكنها مساعدته على التغلب على قلقه، وأي صفحات كانت على النقيض من ذلك لاتؤدي إلاّ إلى تأججه، أي مقاطع كان يشدد عليها بغضب أو سرور، كبرهان على حقده على العالم، أو كتأكيد على شكه بالحب أو العزلة. وقد يكون في أحيان أخرى رجلاً أو مالكة بيت، أو امرأة دنيوية تعرف كثيراً عن العالم. أشد ماكان يثير دهشته هو تلك الكثرة من الناس الذين يمكن أن يقرأوا الكتاب ذاته، كأنه كتبٌ كثيرة أو حتى كتب مختلفة لاحصر لها. نص وحيد واحد، لكنه مع ذلك، يسمح بتفسيرات لاتحصى، متباينة ومتعارضة أيضاً، حول الحياة والموت، وحول معنى الوجود. ولو لم يكن الأمر كذلك، لما كان مفهوماً كيف يلهب حماس فتى يفكر في إمكانية السطو على مصرف، وحماس رجل أعمال نجح في ميدان التجارة. كان يقول «كإلقاء زجاجة في البحر». ولكنها تحمل رسالة ملتبسة يمكن أن تفسر بأشكال مختلفة يتعذر منها العثور على الغريق، أو أنها مثل ملكية واسعة ذات حصن باد للعيان لكنها تضم أيضاً أقساماً مختلفة للخدم والرعية (لعلّ ماهو أشد أهمية موجود في بعضها) وحدائق منسقة وأجمات متشابكة كذلك، وبحيرات ومستنقعات وكهوف مريعة، حيث يشعر كلّ زائر بأنه مشدود إلى أنحاء مختلفة من تلك الملكية الواسعة،

المتنوعة، الكهوف المظلة تسحره والحدائق المنسقة تكدره، أو أنه بينما يجتاز مذعوراً المستنقعات الكبيرة الغاصة بالأفاعي يستمع آخرون إلى تفاهات في الصالنات المرمرية.

وفي إحدى اللحظات بدا أن ماكان يقوله يقلق أخته، التي تبدو أنها اقترحت عليه أمراً بصوت خافت إلى حد ما، فهّم عندئذ بالوقوف، ولكنها أمسكت بإحدى ذراعيه وأرغمته على الجلوس ثانية. ولاحظ أثناء تلك الحركة أن يديها كانتا قويتين وعظامهما بارزة أيضاً، وأن قوة ملحوظة تبدو في عضلاتها. لكن المناقشة استمرت، أو الأصح أن يقول، إن الفتى تابع تقديم حججه بينما كانت هي تعارض أمراً يدور حوله الحديث. أخيراً، وقف الفتى، واتجه حيث كان «ساباتو».

كثيراً ماأسعف طالباً في مقهى، يتردد كثيراً، قبل أن يقرر في نهاية المطاف، أن يقترب منه. قدّر، بما كان قد اكتسبه من خبرة طويلة، أن أمراً منغصاً سيحدث.

كان الفتى بالنسبة إلى سنه، طويلاً أكثر مما هو مألوف. وقد أكدت حركاته الانطباع الذي كونه عنه عندما كان مايزال جالساً: كان فظاً وعنيفاً، تنم تصرفاته كلها عن الحقد، ليس على «ساباتو» وحسب: على الواقع بأسره.

عندما أصبح أمامه، قال بصوت مرتفع لايتلاءم مع الحديث الذي أتى من أجله، وعلى نحو أقرب إلى الصياح:

- رأينا صورتك في تلك المجلة «الناس»[١].

حينما قال «تلك المجلّة» علت وجهه تلك الأسارير التي تهيمن على

(١) (الناس) مجلة اسبوعية مصورة تصدر في بوينس أيرس وتهتم بأخبار الناس والطبقة العليا في المجتمع بخاصة (المترجم)

وجوه بعض الأشخاص عندما يتعين عليهم أن يمروا قرب غائط.

نظر إليه «ساباتو» كأنما يسأل ماالذي تعنيه ملاحظته.

أضاف الفتى يقول وكأنه يتهمه:

ـ ومنذ زمن قصير نشر تحقيق صحفي.

تظاهر «ساباتو» بأنه لم يدرك مغزى لهجته، وقال:

ـ أجل، حقاً.

ـ والآن، في العدد الأخير، رأيتك تحضر افتتاح «بوتيك» في شارع «الغيار» كان «ساباتو» على وشك أن ينفجر، إلاّ أنه بذل أقصى جهد كي يبقى هادئاً، وأجاب:

ـ نعم، «بوتيك» صديقة رسامة.

قال الفتى بهدوء ممزوج بالسخرية.

ـ صديقة تملك «بوتيك»».

عندئذ، هب «ساباتو» ناهضاً وصاح:

ـ ومن تكون أنت كي تحكم عليّ وعلى صديقتي.

ـ أنا؟ لدي ملء الحق، وأكثر بكثير مما يمكن أن يتصور شخص من أمثالك.

وجد «ساباتو» نفسه دون وعي يتناوله بلكمة كادت تؤدي به أرضاً، وصرخ:

ـ أيها المتطاول السفيه.

حينئذ تدخل الجميع. جرّ أحدهم الفتى من ذراعه نحو منضدته. وكانت أخته قد نهضت وركضت نحو مكان الحادث. وحين عادت إلى مكانها، لاحظ «ساباتو» انها كانت تحدث شقيقها بصوت خافت إنما بقسوة. عندئذ نهض الفتى وأسارير القسوة التي امتاز بها تعلو محياه وخرج من المقهى راكضاً. ومكث «ساباتو» حزيناً خجلاً. كانت أنظار الجميع مصوبة نحوه، وكان بعض النسوة يتهامسن هناك. دفع الحساب، وذهب بدون أن ينظر ذات اليمين أو الشمال.

بدأ يتمشى في «لاركوليتا»[1] محاولاً أن يهدىء من روعه. كان يشعر بغضب لاحدّ له، ولكن الأمر الغريب هو أن غضبه لم يكن ينصّب على ذلك الفتى وإنما على ذاته، وعلى الواقع بأسره. «الواقع»، أي واقع؟ أيّ واقع من الوقائع الكثيرة الموجودة؟ لعله أنساني الأسوأ، الأكثر سطحية: واقع «البوتيك»، والمحلات الشعبية. شعر باشمئزاز من نفسه، كما شعر بالسخط من ذلك التصرف الاستعراضي السهل الذي قام به الفتى: كان يبدو أن الأشمئزاز من نفسه يمتد حتى يطال الفتى، ثم يتغلغل فيه، ويدنسه، على نحو لم يتمكن في تلك اللحظة من أن يدركه، لكي يرتد فيما بعد من جديد إليه هو، إلى وجهه، بعنف وإذلال.

جلس على المقعد المستدير الذي يحيط بجذور شجرة المطاط الضخمة.

أخذت الحديقة تتشح بظلال السماء، فأغمض عينيه، وبدأ يفكر ملياً بحياته كلها عندما سمع صوت امرأة تناديه بخجل، فتح عينيه فرآها امامه حائرة أو، ربما كانت تشعر بأنها مذنبة، فنهض.

(١) لاركوليتا: حديقة من حدائق بونيس ايرس القديمة تقع قرب مقبرة تحمل الأسم ذاته (المترجم)

أمعنت الفتاة النظر إليه بعض الوقت ملياً، تعلو محياها تلك الأسارير التي تبدو في لوحة «فان كوخ» ثم تشجعت لتقول له في نهاية المطاف:

ـ لايُعبِّر سلوك «ناتشو» عن الحقيقة كلها.

نظر إليها «ساباتو» ملياً، ثم قال بهدوء ممزوج بالسخرية:

ـ عجباً، وماذا بعد.

توترّ فمها، وبعد لحظة، أدركت أن عبارتها لم تكن ملائمة، فحاولت أن تلطف من وقعها.

ـ حسناً، لم أكن أود، في الواقع قول ذلك. كما ترى، إننا جميعاً معرضون للخطأ، نتفوه بكلمات، لاتعبر عن حقيقة نوايانا تماماً.... أود أن أقول...

شعر «ساباتو» بالاضطراب، لأنها كانت ماتزال ترمقه بتلك النظرة التي لايدرك ماوراءها. وخيم جوّ غريب، إلى أن قالت الفتاة:

ـ حسناً، إنني أسفة جدّاً... أنا... ناتشو.... أستودعك الله..... ثم ذهبت..

لكنها سرعان ماتوقفت. ترددت، وأخيراً عادت لتقول بصوت مرتعش:

ـ ياسيد «ساباتو» أود أن أقول.... أنا وشقيقي.... بطلا رواياتك.. أقول، كاستيل، اليخاندرا[١] ......

أمسكت عن الكلام، وبقيا للحظات ينظر كل منهما إلى الآخر، لكنها أضافت بعد ذلك تقول، وهي ماتزال تتردد:

---

(١) كاستيل بطل رواية (ساباتو) النفق، أما أليخاندرا فهي بطلة رواية (أبطال وقبور)(المترجم)

- لن تستنتج من ذلك فكرة خاطئة... تلك الشخصيات المثالية... أنت تدرك.. أنت... تلك الشخصيات.. ذلك الصنف من المجلات.

صمتت

ثم صاحت بلا تردد تقريباً. مثلما كان شقيقها بتصميم قد فعل، «إنه لفظيع» وخرجت مسرعة. مكث «ساباتو» كالمشلول من تصرفها، ومن كلماتها، ومن كآبة وخشونة جمالها. ثم أخذ يسير في الحديقة على نحو آلي سالكاً الممر الذي يحاذي جدار مأوى العجزة، الضخم.

عند الغسق

فكر «برونو» بأن التماثيل كانت تتأمله هناك من الأعلى، بكآبتها التي لاتطاق، وبدأ يهيمن عليه حتماً ذلك الشعور بالتشرد وقصور الفهم الذي أحس به «كاستيل» مرة وهو يتمشى في ذلك الممر. لكن ذينك الفتيين اللذين كانا يدركان معنى تشرد ذلك البائس، لم يكونا قادرين على الشك أبداً بأنه موجود في نفسه هو أيضاً، ولم يكونا قد أدركا بعد أن ذلك الشعور بالوحدة وبالمطلق بقي بشكل مايشغل حيزاً من ذاته، مختبئاً أو يصارع كائنات أخرى مريعة ورعديدة، كانت تحيا هناك أيضاً، وتقاتل كي تأخذ مكاناً لها، تطالب بالرحمة أو الفهم مهما يكن حظها في الروايات، في حين كان قلب (س) مايزال يتحمل في تلك الحياة المضطربة السطحية التي يسميها الأغبياء «الواقع».

دخل «باتشو» إلى غرفته

فتش عن صورة «ساباتو» في السفارة الفرنسية، اقتطعها وثبتها بدبابيس على الجدار، بجانب صورتين: إحداهما لـ «أنويل» وهو يدخل إلى الكنيسة بلباس الـ «سموكن» ممسكاً ذراع أبنته التي ترتدي ثوب

العروس الأبيض، وتحت الصورة كتب بقلم عريض باللون الأحمر، كما في قصص الدعايات المصورة عبارة تقول: ابن العاهرة، وصورة أخرى لـ «فلوبير» وبجانبه «ناتشو» صغير يصرخ في وجهه: لكنها قد انتحرت، أيها الكريه...!

مد بالقلم الملون ذاته خطاً من صورة أحد المشاهدين الذين ظهروا إلى جانب «ساباتو»، ورسم دائرة صغيرة وكتب ضمنها كلمة واحدة فقط: وغد..... كلمة واحدة فقط، لكنها بدت له ذات معنى مضاعف، لأنها كانت تنتمي إلى ترسانة ذلك النبيل. ثم رجع قليلاً إلى الوراء كأنه يتفحص لوحة في معرض. كان فمه المشدود بشدقيه المزموين نحو الأسفل، ينم عن أنفة، واشمئزاز مريرين في آن واحد. وأخيراً بصق، ومسح فمه بظاهر يده، ثم استلقى على السرير مستغرقاً في التفكير، ينظر إلى السقف.

عندما كاد الليل أن ينتصف، سمع وقع أقدام «أغوستينا» في الممر، ثم حركة المفتاح. فنهض وأشعل مصباح الغرفة.

قالت وهي تدخل:

- اطفيء هذا النور، تعلم أنه يؤذيني.

أثاره جرس صوتها الآمر الكئيب. لكنه لم يتمكن من تمييز أسارير وجهها في ضوء مصباح السرير، وإن كان يعرف ذلك الوجه، وكان بوسعه أن يطوف في أرجائه مثلما تطوف أتان في الليل وهاداً دون أن تسقط في الهاوية. أرتمت «أغوستينا» على السرير بملابسها، وراحت تنظر إلى الجدار، خرج «ناتشو».

فيما كان يتمشى، حاول أن يهدىء من روعه، قائلاً في سريرته إن

ذلك المشهد في «لابييلا» قد أثارها، وأنها حكمت على سلوكه إزاء ذلك الرجل بأنه صبياني وفاضح، وأنه كان مثاراً للسخرية، وربما كانت تشعر بخجل بالغ.

ولكنه تساءل فجأة (وكانت تلك الفكرة العابرة كشبيهة بوجود الخطر في خضم الظلمة) أكانت ستشعر بمثل ذلك الخجل وتلك الإثارة لو كان الأمر يتعلق بشخص آخر غيره.

مشى طويلاً في الشوارع ذات الأنوار الخافتة التي تحيط بسكة القطار، ثم عاد. كان تحليل بعض التفاصيل يقلقه بدلاً من أن يهدئ من روعه، وفي المقام الأول عبارة نطقت بها (بل صرخت....) في ذلك الحين عندما كانا يقرآن روايته معاً.

حينما دخل إلى الشقة وجد أن «أغوستينا» قد نامت بملابسها، كما كانت حينما وصلت، دون أن تطفىء المصباح قرب السرير، لكنها كانت الآن متجهة نحو المصباح، فتأملها ملياً، وجلس على الأرض قريباً منها. كان نومها قلقاً، تمتمت بشيء وهي تقطب حاجبيها، وبدت أنها تعاني من صعوبة في التنفس. قرّب «ناتشو» يده بهدوء وخوف وقلق من المجهول، إلى وجهها ودغدغ بطرف أصابعه شفتيها الكبيرتين المكتنزتين لحماً، فارتعشت قليلاً، وعادت تتمتم، ثم استدارت نحو الجدار وتابعت رحلتها الليلية وحيدة.

كان يوّد أن يقبلها. ولكن، من كل سيقبل؟ كانت روحها في تلك اللحظات قد هجرت جسدها. إلى أي نواح نائية، ياترى..؟

قال:

إيه «الكترا»، لاينساك حتى «أبولو».

ملك «كريسيا»، الغنية بالقطعان.

ولا ملك الظلام الأسود «أكيرونتي»[1].

الدكتور «لودويج شنايدر»

أعتقد أنني رويت لك كيف التقيت أول مرة ذلك الشخص، بعد زمن قصير من نشر «النفق» حوالي ١٩٤٨ . أتدري ماالأمر الوحيد الذي سألني عنه؟ عمى «أجنيدي».

لم أكن لأعير ذلك السؤال أي أهمية لو لم يكن ـ بعد كلّ هذه السنوات التي لم أره فيها ـ قد مرّ ثانية في العام ١٩٦٢ تقريباً في طريقي. تصور... مرَّ... هذه اللغة التي نستخدمها في الحياة اليومية، كما تعلم. لأنني لاأعتقد أنه مرَّ بمعنى المصادفة الذي يُضفّى عادة على هذا التعبير.. ذلك الرجل كان يبحث عني، أتفهم؟ بل وأكثر من ذلك: كان يتتبعني من بعيد، ومن يعرف من أيّ وقت ياترى، كيف أعرف أنه كان يتتبعني؟ ذلك أمر يتعلق بحاسة الشم، إنها غريزة لم تخدعني قط. ربما كان يتتبعني منذ أن قرأ روايتي الأولى، بل ومن دون «ربما» كذلك. فكرت قليلاً بما رواه لي في ذلك الحين، عن الوصف الذي ينعت به كاستيل العميان:

ـ ذوو الجلد البارد، إيه؟

قال ذلك ضاحكاً، طبعاً. ولكن فيما بعد، وبمضي السنين اكتسبت تلك الضحكة معنى مشؤوماً. وأحذرك، إن ذلك الرجل يضحك مثلما يمكن لكسيح أن يرقص.

بعد مضي اثني عشر عاماً مرَّ في طريقي ثانية، ليقول لي شيئاً ما،

---

(١) أكيرونتي: نهر اسطوري اغريقي يمثل الغم والحزن، والمقطع الشعري من التراجيديا الاغريقية (المترجم)

لكي يروي لي، ماذا؟ شيئاً عن «فرناندو فيدال أولموس». أترى؟ ولكن قبل ذلك أود أن أشرح لك كيف عرفته.

إن أكثر الكائنات البشرية حباً للمرء، يمكن أن تكون قد سخرتها القوى الشريرة لخداعنا. ولو فكرت في الأمر قليلاً لكان مفهوماً. كانت «مابيل» شقيقة «بيبا» هي التي عرفت بوساطتها الدكتور «شنايدر». وأقول دكتور، لأنهم قدموه لي هكذا. وإن كنا لا يمكن أن نعرف أبداً، أي نوع من شهادات الدكتوراه، قد حصل، وأين حصل عليها. لم تكن «مابيل»، في الواقع، هي التي قامت بذلك مباشرة وإنما بوساطة أحد أولئك الذين ينتمون إلى ما نسميه فيلق مابيل الأجنبي: مجموعة من الهنغار، والتشيك، والبلغار، والألمان، والصرب (أو الكروات: ياللعجب. هنا لا يستطيع أحد أن يميز بينهم، وهناك تقطع الأعناق بسبب اختلافاتهم). وفي نهاية المطاف، كل ذلك الطراز من الناس الذين هبطوا على بونيس أيرس كالمظليين، أثناء، او بعد الحرب العالمية الثانية، مغامرون، نبلاء حقيقيون، أو مزيفون، فنانات ونبلاء يعملون في الجاسوسية (تطوعاً او إلزاماً) أساتذة رومانيون، متعاونون مع الأعداء أو نازيون... الخ. والذين كان بينهم أيضاً، أشخاص ممتازون جرفتهم الدوامة.. ولكن هذا المزيج من أناس طيبين ومغامرين هو ماجعل الوضع أشد خطراً.

أحد المنتمين إلى «الفيلق الأجنبي»، وقد اختفى فيما بعد، في غابة «ماتوغروسو» كما يقولون، هو الذي اضطلع (هذه هي الكلمة الصحيحة) بمهمة تعرّفي أنا بالدكتور «شنايدر»، وكانت روايتي كما قلت لك قد نشرت، فذلك كان إذن حوالي ١٩٤٨ . وأحد الأحداث الذي تذكرته بقلق، بعد سنوات، حين نشرت «أبطال وقبور» هو أن أجنبياً لا يهتم بالأدب الأرجنتيني، قال لصديق «مابيل» إنه يهمه جداً أن يتعرف مؤلف «النفق».

التقينا في الـ «زور ـ بوست»، بدا لي أنه أحد الذين أتوا من الشرق

الأوسط ولايمكن أن نميز إن كانوا سفرديين أو أرمن أو سوريين. كان بديناً جداً، عريض المنكبين إلى حد يبدو فيه شبه أحدب. ظهره عريض جداً، وساعداه قويان، ويغطي ظاهر يديه شعر كث أسود فاحم. وباستثناء وجهه الحليق وذقنه التي يشرع شعرها بالنمو ما أن تمر آلة الحلاقة عليها، كان ينبت في جميع أنحاء جسمه، شعر أسود غليظ ومجعد، كالأذنين مثلا. وكان حاجباه ضخمين ومتصلبين تقريباً، يغطيان، كشرفة مملوءة بعشب قذر أسود، عينين واسعتين كغابة البندق. وكانت شفتاه بين هذه المجموعة، كما يُنْظَر: لو لم تكونا ثخينتين وشهوانيتين لأمكن التفكير بأن تزويراً ما قد حصل. كان فمه عندما يضحك يتكشف عن أسنان اخضر لونهما من جراء تدخين السيكار باستمرار. أما الأنف فكان معكوفاً وعريضاً جداً، لم يكن ينقصه سوى الأجنحة. مرزبان شرقي من اولئك الذين نقع عليهم في قصص «ماليت» أو عضو في فريق البارون الأرمني «كاراداخيان»[١]، أو القرصان السوري أو اليهودي الملثم.

كان يشرب الجمعة بنهم وبمتعة تتناسب مع شفتيه الغليظتين وأنفه الضخم وعينيه المخمليتين الشهوانيتين.

طرح عليّ، بعد أن مرّر ظاهر إحدى يديه كثتي الشعر على شفتيه، لمسح ماتبقى من رغوة نصف الليتر الذي فرغ من شربه حسوة واحدة، أسئلة عن «النفق» ، لماذا جعلتُ زوج ماريا أعمى؟ هل كان لذلك أي مغزى؟ كانت عيناه الغامضتان السوداوان خلف شعر حاجبيه الكث المنفوش، تتفحصاني كالوحوش المفترسة، المتحفزة في الغابة بين النباتات المتسلقة، حتى سأل: ومسألة الجلد البارد تلك؟

كم كنت بعيداً عن الواقع عندما لم أقدّر في ذلك الحين أسئلته حق

---

(١) فريق مصارعة حرة مشهور في بوينس أيرس (المؤلف)

قدرها.. قال وهو يطلق ضحكة صلتها بضحكة الفرح، كصلة الحب بالمتعة مع عاهر:

- ديوث وأعمى!...

كان لابد أن تمضي أعوام كثيرة لكي أعود إلى تلك الدعابة التي تمجّها الأسماع من حيث الظاهر، ولكي أستنتج أنه أراد، على ذلك النحو، إزالة أي قلق يمكن أن تكون أسئلته قد تركته في نفسي.

نسيت أن أقول لك إنه أعرب لي عن عجبه الأخير ذاك، أمام المرأة التي وصلت حديثاً: «هيدويج روزنبرغ»، تأملت بفضول مثير ملامحها الجميلة الكالحة كما لو أنني، بينما أتأمل صورة محفورة على قطعة نقد ذهبية متداولة منذ قرن، أتصور ماكان عليه بريقها الأولي. وحينما قال «شنايدر»، بضحكته الفظة ماقال عن الديوث الأعمى، تمكنت من أن ألاحظ أنها اضطربت. وما أن حدث ذلك الأمر المنغص، حتى طلب مني ذلك الرجل أن أسمح له ببضع دقائق، لأنه يجب أن يتحدث مع الهنغاري على انفراد، حول أمر معلق. وذهبا معاً إلى منضدة أخرى وتركاني مع المرأة. فيما بعد فكرت أن تلك المناورة لم تكن من قبيل المصادفة.

سألتها إن كانت تقطن في البلاد منذ زمن طويل.

- وصلت في ١٩٤٤ . هربت من هنغاريا أثناء دخول القوات الروسية.

فوجئت، على الرغم من أنني فكرت أن كثيراً من اليهود الأثرياء هربوا خوفاً من الشيوعية بعد أن تمكنوا من التواري عن أعين النازي.

سألتني:

- أتستغرب؟

- أثناء دخول القوات الروسية؟

- أجل.

مكثت أطيل النظر إليها. ثم قلت:

- ظننت أنك هربت قبل ذلك.

- متى؟

- أثناء دخول الجيش الهتلري.

دأبت تنظر إلى الكأس، ثم قالت بعد قليل:

- لم نكن نازيين قط، ومع ذلك لم يتعرضوا لنا بسوء.

أعربت عن الدهشة ثانية.

- ماذا، أيبدو لك ذلك أمراً غريباً؟ لم نكن نمثل حالة وحيدة. لعله فكر باستخدامنا.

- باستخدامكم. من؟

- هتلر. كان يبحث دائماً عن مساعدة بعض الأسر. أنت تعلم.

- مساعدة أسرة يهودية؟

تضرج وجهها

فبادرتها قائلاً بسرعة:

ـ استميحك عذراً، لم أكن أود أن سيء إليك، لاأرى أن ذلك سبباً يدعو للخجل.

ـ وأنا أيضاً. إنما الأمر ليس كذلك.

ثم أضافت بعد لحظات من الريبة تقول:

ـ إنني لست يهودية.

كان «شنايدر» قد سمع كلمات المرأة الأخيرة. فأوضح لي بضحكته المتبذلة إنها هي «الكونتيسة هيدويج فون روزنبرغ».

هيمن عليّ انزعاج بالغ، لكنني تمكنت برغم ذلك من ملاحظة ظاهرة غريبة، تأكدت لي في لقاءات لاحقة: إن اقتراب ذلك الرجل من تلك المرأة كان يحولها إلى شخص آخر. وعلى الرغم من أن الأمر لم يصل بها إلى أن تصبح وسيطاً في جلسة تنويم مغناطيسي تقف على المسرح مع الساحر الذي يوجهها، إلا أنني شعرت بأن شيئاً من هذا القبيل قد حدث في روحها. وفيما بعد، تأكدت في مناسبات أخرى، من هذا الانطباع الذي لم يكن مثيراً للانزعاج وحسب، بل وينطوي على شيء من الاشمئزاز قد يعود إلى أنني كنت أشهد خضوع مخلوق بالغ الرقة لرجل مبتذل من رأسه حتى أخمص قدميه.

ماذا كان سرّ تلك العلاقة؟

وبعد مضي سنوات طويلة، عندما عاد ذلك الرجل في ١٩٦٢ للظهور في طريقي، توفرت لدي الفرصة للتأكد والتعمق في الظاهرة، وكان لابدّ من أن أتوصل إلى نتيجة مفادها أن العلاقة بينهما لايمكن أن تكون إلا علاقة ساحر ووسيط. فقد كانت تكفي إشارة خفية من «شنايدر»، لكي تنفذ ماكان يريده. والأمر الغريب هو أنه لم يكن تبدو عليه أي صفة من

تلك الصفات البارزة التي يفترض أن تتوفر لدى من يتمتعون بقدرات عقلية: عينان نفاذتان، وحاجبان مقطبان، وفم مشدود. كان يتابع دائماً سخريته الفظة، بشفتيه الغليظتين المواربتين. أما الحب فليس أمراً وارداً أبداً. وكائنة ماكانت العلاقة القائمة بينهما، فإنه كان من الواضح أن «شنايدر» لم يكن يحب أحداً. وكلمة أداة هي أفضل مايمكن أن يطلق على «هيدويج». ولكن أي أداة، تكون من أجل شيء ما، ولذلك فإنني سأتساءل (بدءاً من ذلك اللقاء في ١٩٦٢) من أجل أي أمر كان «شنايدر» يستخدم «الكونتيسة». لم يكن بوسعي في البداية أن أتصور. أمن أجل الحصول على أموال من بعض الناس؟. كنت أنزع إلى التفكير في العلاقة التي يمكن أن تقوم بين رئيس جهاز تجسسي وأحد العملاء. ولكن أي ضرب من التجسس؟ ولصالح أي بلد؟ لم يكن أمراً يمكن تصوره، أن يسمح الرئيس، والحالة هذه، بتبديد كل هذا الوقت مع شخص مثلي، لايمكن أن يفيد في أمور الحرب أبداً. وكان من الواضح أنه لم يكن يسمح وحسب، بل كان يشجع على تمتين علاقاتهما بي. فكرت في ذلك الحين كثيراً بالمشكلة، وبدا لي أن هناك خيارين: إما أنه لم تكن هنالك مهمة تجسس، بل هواية غريبة، وإما أن المهمة هي مهمة تجسس، إنما ليس تجسساً من أجل الحرب، بل من أجل أمر مختلف، وإذن يمكن أن أكون والحالة هذه، قد جررت للانخراط في شبكة خفية ولكنها جبارة.

حدث اللقاء الثاني مع «شنايدر» في ١٩٦٢ ، بعد بضعة أشهر من ظهور «أبطال وقبور» في المكتبات. وكان بوساطة «هيدويج». ولقد فوجئت كثيراً لأنني لم أكن قدر رأيتها ثانية، وكنت أفترض أنها عادت إلى أوربا، كما فعل كثير من المهاجرين الآخرين. أجل، لقد قالت لي حقاً إنها قضت بضعة أعوام في «نيويورك» حيث كان لها ابن عم مقيم هناك. حدث اللقاء في مقهى لم أذهب إليه من قبل قط، بحيث أنه كان يتعين، لأول وهلة، اعتباره من قبيل المصادفة. ولكنني فكرت فيما بعد

ملياً بأن تلك المصادفة كانت كبيرة إلى درجة يتعذر معها أن تكون ممكنة الحدوث: كان واضحاً أنهما كانا يتتبعاني. بعد قليل وصل «شنايدر» الذي حدثني، كما قلت، عن روايتي. لم يحدثني عن «التقرير حول العميان» في البدء، وإنما بعد أن روى أموراً متنوعة: عن «لافاجي» مثلاً، ثم سألني بعد ذلك عن «فيدال أولموس» وكأنه أمر غريب.

قال وهو يضحك بفظاظة:

ـ يبدو أن لديك هوساً بالعميان؟

ـ وقلت له: «فيدال أولموس»، إنسان أهوس. سوف لن تقع في سذاجة إلقاء عبء إلي كلّ مايفكر به ذلك الرجل أو يفعله على كاهلي.

عاد ليضحك ثانية. كان وجه «هيدويج» كوجه من يسير وهو نائم. ثم استطرد يقول:

ـ هيا ياصديقي «ساباتو». ستكون أنت قد قرأت أيضاً «تشيستوف» ألس كذلك؟

ـ تشيستوف؟

اذهلني أنه يعرف كاتباً مغموراً جداً، فقلت خجلاً:

ـ بلى، طبعاً.

شرب جرعة كبيرة من الجعة، ثم مسح فمه بظاهر كفه.

وعندما حملقت عيناه إليّ، خلت أنهما كانتا تلمعان على نحو لم أرَ مثيلاً له حتى تلك اللحظة قط. ولكن ربما دامتا كذلك عشر ثانية فقط، لأنهما سرعان ما عادتا لتصبحا ذابلتين، هازلتين، مبتذلتين.

أضاف على نحو مبهم:

ـ طبعاً، طبعاً.

شعرت بأنني لست على مايرام، ادعيت أنني مرتبط بموعد آخر، وبعد أن سألته كم كانت الساعة نهضت، واعداً (وعداً لم أفكر بالوفاء به) بأن أعود للقائهما. وفيما كنت أودع «هيدويج» خلت أنني ألمح في أساريرها بقايا توسل. ماذا يمكن أن تتوسل إلي؟ ربما كنت قد ارتكبت خطأ ما، ولكن ذلك التعبير العابر حملني على العودة لرؤيتها. طلب منها رقم هاتفها.

قال «شنايدر»، بجرس خلته ينطوي على السخرية:

ـ حسناً، اعطه رقم هاتفك.

وما أن افترقت عنهما حتى اسرعت إلى إحدى المكتبات، لأراجع موسوعة أنساب النبلاء: إن كانا قد كذبا عليّ، فيما يتعلق بشخصية «هيدويج» الحقيقية، لكان يتعين أن ألتزم ببالغ الحذر. أتى الجزء الثاني على ذكر الأسرة: كاثوليك، ينحدرون من «كونراد أب ديم روزنبرغ»، ١٣٢٢ ، تلا ذلك قائمة بارونات كونتات، سيدات جنوب النمسا، أمراء الامبراطورية المقدسة.. الخ.. بين آخر المنحدرين كانت «الكونتيسة هيدويج ماريا ـ هينريت ـ غابرييل فون روزنبرغ»، مولودة في بودابستَ في ١٩٢٢ .

هدّأت تلك المعلومات من روعي، ولكن للحظة واحدة فقط، إذ سرعان ما فكرت بأن «شنايدر» لايمكن أن يكون غبياً بحيث يخدعني في أمر من السهل التأكد من صحته. أجل، لقد كانت هي حقاً «الكونتيسة فون روزنبرغ»، ولكن ماذا كان يثبت ذلك، وعلى كل حال، فإن أول مافعلته

حين التقيتها ثانية، كان توجيه اللوم إليها، لأنها لم تكشف لي عن حقيقة شخصيتها.

فردت بقولها:

- ولماذا؟ وماأهمية ذلك..؟

لم يكن بوسعي طبعاً أن أبوح لها بما يعنيه، بالنسبة لي، تأكدي المطلق من حقيقة الأشخاص الذين يقيمون صلات معي.

أضافت وهي تبتسم:

- وأما مايتعلق باليهود، فإن «روزنبرغ» هو عادة اسم أسرة يهودية حقاً. ولكن، إلى جانب ذلك، فإن أحد أقربائي وهو الكونت «هيدويج» تزوج في مطلع القرن من يهودية أمريكية تدعى «كاثلين وولف» مطلقة سيد يدعى «سبوتسوود» وكلاهما يهوديان.

عشت طيلة أشهر مهووساً بالفرضية التي كنت قد صغتها. كانت معرفتي بأن شخصاً مثل «شنايدر» يراقبني، أمراً مريعاً، وكان يبدو لي على نحو ما، أن الأمر لوكان ضرباً من الرذيلة لكان أفضل. مخدرات؟ ربما كان رئيس منظمة من هذا القبيل والكونتيسة أداة. كان هذا الاحتمال مفضلاً، لكن طمأنينتي كانت نسبية، إذ لو أن الأمر كان كذلك، فلماذا كانا يبحثان عني؟ كان «شنايدر» يقلقني لما يمكن أن يفعله بي في أحلامي أو في أحلام يحدثها. إنني أومن بانفراق الجسد والروح، ولو لم يكن الأمر كذلك لاستحال تفسير الأحاسيس الباطنية التي تسبق الأحداث، (كتبت بحثاً عن ذلك، أنت تعرفه)، وتذكُر خبرات حياة ماضية أيضاً. كنت في بيت لحم منذ سنوات حين اقترب مني عجوز ذو لحية بيضاء يرتدي «البرنس» فشعرت على نحو ملتبس، إنما أكيد، أن ذلك

المشهد قد عشته ذات مرة على الرغم من أنني لم أكن هناك من قبل قط. ومنذ الطفولة، كثيراً ماشعرت فجأة بأنني أتكلم وأتحرك كأنما أنا شخص آخر. يوجد أشخاص ممن لديهم القدرة على أن يحدثوا الانفراق لدى من هم على شاكلتي بخاصة، ممن يميلون إلى المعاناة على نحو تلقائي. عندما رأيت «شنايدر» تأكدت أنه يتمتع بتلك القدرة. صحيح أنه كان يبدو لغافل ثرثاراً ومبتذلاً. أما أنا فكنت أرى في ذلك سبباً آخر للحذر.

ماالذي حملني على التفكير بأنه كان يتمتع بقدرات من هذا القبيل؟ أو أنه كان جزءاً من طائفة خطيرة؟ بعض الكلمات التي يبدو ـ من حيث الظاهر ـ أنه لاضرر منها وما كان يسكت عنه بخاصة، ونظرات وإيماءات عابرة أيضاً. سألته في أحد الأيام مراراً، إن كان يعرف «هاوشوفير». نظر إليّ مستغرباً، ونظر إلى «هيدويج».

ـ «هاوشوفير»؟

بدا كأنه يتذكر وبعدئذ سألها:

ـ ألم يكن ذلك الرجل استاذ الفلسفة في «زوريخ»؟

وكان وجه «هيدويج» قد اكتسى أمارات الدهشة أيضاً، إلا أنهما لم يكونا يعرفانه. أم لأنني باغتهما على حين غرة بأمر هام؟

سألني «شنايدر» إن كنت أقصد أحد أساتذة الفلسفة.

ـ أجبته: شخص آخر. خلت أن أحدكما، أنت، أو «هيدويج» قد أتى على ذكره مرة.

حـلق كلّ منهما إلى الآخر. كأنهما شريكان يلعبان بورق الشدة،

وبعدئذ أضاف يقول:

ـ لاأعتقد، ولا أخال أيضاً أن ذلك الاستاذ الذي يدرس في «زوريخ» يدعى «هاوشوفين».

قلت له إن ذلك لايكتسب أهمية تذكر. وكان مجرد أمر تعلق بجنرال يطلق عليه ذلك الاسم.

استدار ليناردي النادل ويطلب منه كأس جعة آخر، في حين كانت رفيقته تبحث عن شيء ما في حقيبة يدها. لم يبد لي أي من التصرفين طبيعياً.

الدكتور «أرّامبيدي» واحد من مجموعة أشخاص يتخذون من «شنايدر» وسيلة للتسلية. اقترح اصطحابه إلى إحدى جلسات تحضير الأرواح التي تنظمها «ميمي فاليرا» وأعلم أنه كان، من خلفي، يهزأ مني. لن يفهم أبداً ذلك «الديكارتي» النفعي أن فضح أولئك العملاء يتطلب مؤمناً مثلي وليس ارتيابياً مثله. (لقد قلت ديكارتي ولكن كان يجب أن أقول» أناتول فرانسي» نفعي: من المؤكد أنه أحد كتابه المفضلين) ليس لفضحه كما كان متعوداً، طبعاً، وإنما لفضحه بمعنى مقلوب، بالمعنى الوحيد المربع: للبرهان على أنه ليس مزيفاً مبتذلاً، وإنما كان في الواقع، مرتبطاً بقوى الظلمات.

يمكن أن يكون اللقب مزوراً، لاشك في ذلك. ثم، حتى إن كان حقيقياً، فإنه ليس من الضروري أن يكون يهودياً، مهما كان شكله. هنالك آلاف السويسريين ممن يطلق عليهم هذا الاسم. ولكن حتى إن كان يهودياً حقاً، فإن قيام صلة وثيقة بين يهودي وكونتيسة، ابنة جنرال من جنرالات الجيش النازي يمكن أن يكون أمراً غريباً. لاأرى ضيراً في ذلك. هنالك يهود أشد عداء للسامية من الألمان الأصلاء، وذلك مفهوم، سيكولوجياً

على نحو ما. ألا يقال إن «توركيمادا»[1] كان يهودياً؟ وأحد أجداد هتلر - أو جداته - كان يهودياً. كان كلّ مايحيط بـ «شنايدر» غامضاً فلم استطع أن أعرف قط أين يسكن، وكلّ مرة تتبعته فيها كان الأمر ينتهي بي إلى فقدان أثره. فكرت حيناً أنه كان يسكن في حيّ «بلغرانو»، وفي حين آخر استنتجت أنه كان يسكن في ناحية «أوليفوس»، كما يستدل من الباص رقم ٦٠ الذي كان يستقلّه في بعض الأحيان.

انصرفت، منذ أن بدأت أستريبه، إلى دراسة كلّ ما كنت أعثر عليه من المحافل والطوائف السرية أثناء النظام النازي، وبخاصة حين لاحظت رد فعله عندما ذكرت اسم «هاوشوفير». فأماراتهما والنظرة التي تبادلاها، كل ذلك، كان يجعلني أرتاب بأنهما لم يكونا يجهلان قط، من هو. وأعتقد أن «شنايدر» قد افتضح هنا. بما أنه كان ماكراً فعلاً، كان يتعين عليه أن يسيطر على الموقف، فيجيب، أنه يعرف طبعاً الجنرال «هاوشوفير» بالاسم فقط، ولكن لم تتح له الفرصة قط ليتعرفه، فمن يمكن أن يقتنع بأن شخصاً مثله يمكن أن يجهل جهلاً تاماً شخصية بهذه الأهمية؟ كانت تلك الزلة هي التي نبهتني إلى الخطر أكثر من أي شيء آخر، وحثتني على التعمق في ذلك الاتجاه.

أمضى «هاوشوفير» فترات طويلة في آسيا، من المؤكد أنه كان يتصل بتجمعات سرية هناك. استرعى الانتباه لأول مرة، أثناء الحرب الـ ١٤ ببعض التنبؤات التي حدثت فعلاً. ثم كرس نفسه بعد ذلك للجغرافيا السياسية ولدراسة «شوبنهاور» و «ايغناسيو دي لويولا». ومن المعروف أنه اسس في ذلك الحين محفلاً في ألمانيا اتخذ الصليب القديم المعكوف شعاراً له. إلاّ أن الأمر الغريب الذي يسترعي الانتباه هو أن كثيرين ممن تجمعوا أثناء النظام النازي في محافل للتنجيم، بدءاً من

---

(١) توركيمادا: شخصية اسبانية ارتبط اسمها بمحاكم التفتيش في القرن السادس عشر (المترجم).

هتلر نفسه، كانت لهم صلات كالجنرال «هاوشوفير»، مع أناس ينتمون إلى «طائفة الكف الأيسر»، كان هتلر قد ارتبط به عندما كان مايزال عريفاً لاقيمة له، بوساطة مساعد سابق لـ «هاوشوفير» يدعى «رودولف هيس». نذكر أن «هيس» هو أحد أشد الشخصيات الهتلرية كتماناً والذي احتفظ أثناء عقود قضاها في السجن بأعمق سرّ عن أفكاره ونواياه ومصيره. إنه قد يكون أكثر من علّمني من بين جميع كبار النازيين، فبينما ينتمي «غورينغ» إلى صنف المهرجين الذي ينتمي إليه «شنايدر» فإن «هيس» ينتمي إلى الصنف المأساوي الصبور.

إن «هاوشوفير» أداة أخرى من الأدوات الغامضة لتلك العملية الشيطانية، ولم أحصل إلا على بعض المعلومات الجزئية عنه. أحدها، الشعر الذي عثر عليه في إحدى جيوب سترة إبنة «البريخت»، عندما أعدم نتيجة لمشاركته في مؤامرة الجنرالات ضد هتلر، كان قد كتبه في لحظات سبقت - ولاشك - إعدامه كما يستدل من الخط المضطرب المبتاين:

كان «القدر» قد نطق بوساطة والدي

فعليه كان يتوقف مرة أخرى،

سجن «الشيطان» في زنزانته

لكن والدي حطم «الخاتم»

لم يشعر بمدى جرأة «الشرير»

وتركه طليقاً يسرح في العالم.

عندما علم الجنرال بموت ابنه، انتحر على طريقة «الهاراكيري»، بعد أن قتل زوجته. كل تلك وقائع، لكن التفسيرات الممكنة كثيرة ومتناقضة. ولقد تفحصتها وأعتقد أنني أستطيع تلخيصها على هذا

النحو:

١ ـ كان يتوقف عليه مرة أخرى «سجن الشيطان في زنزانته»، هذا البيت غامض جداً. إن كان «هاوشوفير» مجرد عميل لقوى «الشر»، فلم يكن ممكناً أن تكون لديه القدرة على طرد «الشيطان»، ولاسجنه في زنزانة: كان يتعين عليه أن يطيعه. لكن البيت مع ذلك، يوضح أنه صدّه ومرة أو مرات متعددة («فعليه كان يتوقف مرة أخرى») مما يثبت أن «هوشوفير» كان يملك قدرات هائلة. ولكن يصدّ من؟ أعتقد أن الإبن لم يكن يقصد «الشيطان» الحقيقي وإنما هتلر الذي كان أحد عملائه.

٢ ـ إن كان المقصود هو «الشيطان» الحقيقي، وكان «هاوشوفير» يحوز قدرات يستطيع معها صدّه. وحتى سجنه. لكان من الواضح أنه لايمكن أن يكون من جماعة (طائفة الكف الأيسر) وإنما (طائفة الكف الأيمن)، أو (طريق الخير)، وهذا الإفتراض ينهار إذا ما فكرنا بأن «هاوشوفير» كان يتخذ من هتلر عميلاً له.

٣ ـ إن كان أمراً ممكناً أنه في أيامه الأخيرة. كان يعاني من مأساة دفينة، توّجت بإعدام إبنه، فذلك يعني أنه لم يكن مجرد عميل «للشر»، وإنما إنسان من لحم وعظام، غير معصوم، وحائر.

٤ ـ الإحتمال الآخر الذي يستنتج، على مايبدو، من البيت نفسه (صد الشيطان) ومن الأبيات التالية (لم يشعر بمدى جرأة الشرير وترك الشيطان طليقاً يسرح في العالم) يمكن أن يكون التالي: إن «هاوشوفير» كان فعلاً من جماعة طريق اليمين، متحدر من الآريين الذين تمكنوا من الفرار من الإنفجار الذرّي الذي ارتكبه أتباع الكهوف. فقد هربوا ـ بعد أن حذرتهم، قبل وقت كافٍ، قبل وقت كافٍ، إحدى القوات الإيجابية ـ نحو مناطق الشمال الأوربي، قبل الإنفجار بوقت طويل، بعد أن زوّدوا

بألبسة من «الأميانط» وخزانات من الأوكسجين. إلا أن جماعة «الكف الأيسر» انتقمت على نحو شيطاني من أولئك، بتقريبهم إلى «هتلر»، وجعلهم يرونه من منظور ليس هو أشد ما في العرق والتقليد كراهة. تثبت لهم أعمال هتلر فيما بعد، الخطأ الفظيع. وعندئذ يحاول أتباع، من أمثال ابن «هاوشوفير» القضاء على عميل «الشيطان»، الذي كان الأب (قد تركه طليقاً يسرح في العالم).

ومع ذلك، فإنه لأمر مشروع أن نتساءل، لماذا أمكن خداع منتم إلى محفل سري، ويصير مثل «هاوشوفير»، على نحو طفولي في اللحظة التي يأتي بها «هيس» بذلك العريف المجهول. وكيف لم يتمكن من رؤية السبيل الذي كان سيشقه في مستقبله الدموي.

أميل إلى الإعتقاد إذن، أن «هاوشوفير» كان أداة «الشيطان» فعلاً وأن هتلر كان وسيطه، كان ببساطة، إنما على نحو مريع، وسيطه. يعلمنا السحر أنه بعد اجتذاب قوى «الشر» بموجب عهد، يمكن أن يعمل أفراد المجموعة بوساطة «ساحر» يعمل هو من خلال وسيط. أكان هتلر هو وسيط تلك الطائفة المريعة؟.

إن لم يكن الجنرال «هاوشوفير» ساحراً شريراً، فلماذا يتخذ من شخصية كتلك وسيطاً؟ لا يمكن للمرء أن يصدق أنه لم ير أو يتوقع صفاته الشيطانية. أو أنه عندما كشفه، لم يعد يتمكن من السيطرة عليه.

ما أن انهارت السلطة الهتلرية، حتى تشتت أعضاء تلك الجمعية السرية في أنحاء العالم، ليس طائفة «هاوشوفير» وحسب، بل وأخرى كالطائفة التي يرأسها الكولونيل «سيفس». أنظمة مرتبط بعضها بالبعض الآخر بوساطة رئاسة عليا سرية، وإن كان أمراً ممكناً أيضاً أن تكون قد نشأت صراعات فيما بينها. لماذا يجب أن تكون سلطة الشر ذات

طبيعة أحادية؟. عندما تشتتوا بعد الحرب، وصلِ كثير منهم بغواصات إلى شواطىء «باتاغونيا»، وكما كان حال «إيخمان» و «منخل»، ولكننا لانعرف شيئاً عن أشخاص أشد غرابة. إذن قد يكون «شنايدر» أحد أولئل، وقد تكون الكونتيسة والحالة هذه وسيطة. فعلى الرغم من أن والده قد أعدمه النازيون أيضاً، يجب أن لاننسى أن ابن «هاوشوفير» ذاته قد أعدموه أيضاً. وكما قلت لك منذ قليل إنه لايجب البحث عن التماسك في السلطة الشيطانية لأن التماسك من سمات المعرفة النيرة. بشكلها الأعلى، على الأخص، وهو الرياضيات. السلطة الشيطانية، كما أرى ذات طبيعة تعددية وغامضة.

هذا أفظع ما يكون يا «برونو».

من تلك الملصقة الجدارية

«مارسيلو» وحده كان يرى إسم والده، مع أنه لم يكن مكتوباً بحروف بارزة كما كان إسم «كريخر فاسينا» وأسماء محامي الـ «تروست» الآخرين. كاد لايظهر، كأنه ضائع بين أسماء كثيرة، لكنه كان هو فقط يرى: دكتور خوان باوتيستا كارآنسا باس [1]

اتجه نحو منزله، ولكن الأمر كان بالغ الصعوبة: كان يتعين عليه أن يتقدم في مستنقع ينوء كاهله بحمل من رصاص وروث، وصور العشاء

---

(١) كانت بونيوس أيرس في الحقبة التي تقع فيها أحداث هذا الفصل من الرواية تضطرم بإتهامات شتى ضد الشركات متعددة الجنسيات التي كان كثير من علية القوم وحتى وزراء منغمسين فيها. وجيل الشباب في أمريكا اللاتينية كما في بلدان أخرى كان يتمتع بحساسية خاصة من ذلك التورط ويعتبره خيانة وطنية.
وكانت أسماء أسر كبيرة من طبقة كبار ملاك الأراضي مثل كارآنسا وباس تظهر عادة مقترنة بتلك القضايا. ومن المفارقات المألوفة أن كثيراً من أبناء تلك الأسر كانوا يتحولون إلى ثوريين، ومثال على ذلك «تشي غيفارا» أحد أبناء واحدة من تلك الأسر. (المترجم)

الرباني، ومزق من الراية الأرجنتينية. كان أثناء ذلك يفكر، ولكنه كان أيضاً، كمن يتلمس الطريق وسط الظلمات بين قاذورات وأواني قمامة. إلا أنه صاغ بعدئذ فكرة: لعل تلك المهمة الصعبة لم تكن سوى مهمة العيش (فيما بعد، كان يتساءل «ولاشيء سوى ذلك؟»)

عندما اقترب من ساحة «غراند بورغ» استراح قليلاً. استلقى على العشب، ينظر إلى منظر «الجنرال سان مارتين» ثم عاد يرى تلك الصورة المدرسية، عجوز جالس مفكر، هناك في فرنسا، كان يخرج من رأسه دخان، ضمنه عبور «لوس اندس» والمعارك.

وراء نادي السيارات وفي الأعلى كان يخيم جوٌ قاتم، وشيء ماكان سيموت ما بين لحظة وأخرى، بدأ اليوم بالزوال، وكان كإنتظار نهاية العالم، ليس على نحو مأساوي بل هادىء لكنه كلّي وكوني. مجموعة على وشك أن تصبح جثثاً. أناس هيمن عليهم الجزع في عيادة مشفى سرطان شهير، وسط صمت متبادل مطبق، وبلا كبير أمل، مازالوا أحياء، حتى بنسمة حياة.

ثم عاد إلى المسيرة الصعبة. وعندما وصل إلى المنزل، استقل مصعد الخدم ودخل إلى غرفته من الخلف. جلس على حافة سريره، يسمع ضجيج الحفل. بأيّ عام من عمرها كانت والدته تحتفل ياترى؟. وفجأة - دون أن يدري لماذا - فكر بحنان، فيها وفي كلماتها المتقاطعة، وفي ذلك الرأس الصغير المحشو بأنهار آسيا الصغرى، وبرخويات من أربعة حروف، وبحب أولادها، وإن كان حباً يتسم باللامعقولية والشرود: تدغدغ «بيبا» كما لو أنها «سيلفينا» و«سيلفينا» كما لو أنها «مابيل» أو ذلك الإلتباس بالأسماء والألقاب والمهن.

لماذا كان يفكر في والدته وليس في والده؟

كانت الظلمة توشك أن تخيم على الغرفة، وكاد لايستطيع أن يميز صورة «ميغيل هرناندس» المواجهة، وجه «ريلكي» و «تراكل» بلباسه العسكري اللامعقول وصورة «ماتشارو» و«غيفارا» شبه عارٍ، مطرق الرأس، وعيناه مفتوحتان يفكر في الإنسانية. «الرحمة» لـ «ميغيل انخل» وجسم المسيح في حضن «الأم»، ورأسه مائل أيضاً نحو الخلف.

عادت نظرته إلى وجه «ريلكي»، ذلك الرجعي، كما كان أراوخو يقول بإزدراء. أكان كذلك؟. كان كل شيء ملتبساً في نفسه دائماً. أو في أقل تقدير، ذلك ما كان أراوخو يأخذه عليه. أكان يمكن الإعجاب بـ «ميغيل أنخل» و «ريلكي» بآن واحد؟.

نظر شارداً إلى مكتبة طفولته: خوليو فيرني، رحلة إلى مركز الأرض. بيت البخار. رحلة عشرين ألف فرسخ في غواصة. شعر بألم شديد في صدره، وتعين عليه أن يستلقي ثانية.

حفل استقبال

كان الدكتور «كارّانسا» ينظر نحو الباب منتظراً «مارسيلو» بمزيج من القلق والحزن. في حين كانت «ببيا» تصرّ على الحديث عن ألماسة «أمل».

- مليونان.

- وما اسم تلك المرأة؟

- ميكلين، ايفلين ميكلين. إنهم صم؟

- هكذا إذن عثروا عليها ميتة في الحمام.

- أجل، الجيران. كانوا قلقين لأنها لم تخرج بسيارتها.

ـ ميتة أمريكية جداً، تلك الميتة في الحمام.

ـ بلا أي علاقة عنف، ولا أقراص منومة، ولا «مارتيني». حياة هادئة جداً حتى حيازة الماسة. وحين وصلت إلى الولايات المتحدة، أقامت صلاة لمباركتها.

سأل الدكتور «آرامبيدي» بشكه المعهود، فيما كان يتناول شطيرة ضخمة من لحم الخنزير والخس.

ـ مباركة ماذا يا «ببيا»؟

ـ الماسة يارجل.

ـ مباركة ماسة؟ ولكنهم جميعاً مجانين؟

ـ مجانين، كيف؟ ألا تعلم أنها كانت مشهورة بأنها مشؤومة.

ـ ولكن لماذا اشترتها تلك البلهاء إذن؟

ـ هات من يعلم، جنون «تكساسي».

ـ ولكن كيف؟ ألم يقولوا إنهم كانوا من خيرة أسر مجتمع واشنطن؟

ـ نعم، ولم لا، يمكن لشخص من واشنطن أن يكون مالك مزرعة في تكساس نعم أم لا؟ أم أنه يجب أن أعيد ذلك على مسمعك مرتين دائماً كما في برامج التلفزيون؟

ـ حسناً، حسناً، مباركة الماسة. أولئك القسيسون أيضاً..؟

ـ آه، لقد نسيت: كانت قد اشترتها، لأنها تعتقد أي «مكلين»، أن الأشياء التي تكون نذير شؤم للآخرين تكون بشير خير لها. أرأيتم أولئك الذين

يعيشون في الطبقة ١٣ عمداً؟.

اعترض «أرّامبيدي» بحدة، ودون أن يدع أكل الشطيرة:

ـ وإذن، لماذا ذلك الإصرار على مباركتها؟

ـ يالك من رجل مقيت.

دار الحديث حول المباركات، واللعنات، والتعاويذ.

ألح الدكتور «أرّامبيدي» وأسارير الدهشة منقوشة على وجهه باستمرار، كأنه يشهد دائماً ظواهر غريبة:

ـ حسناً، ولكن ماالذي جرى لتلك الأمريكية المجنونة؟

ـ كيف، أيبدو لك موتها هكذا أمراً بسيطاً؟

ـ حسناً، حسناً، جميعنا نموت، ولايحتاج الأمر إلى ماسات مشؤومة.

ـ ولكن، لا أيها المغفل، لقد ماتت هي ميتة غريبة.

سأل الدكتور «أرّامبيدي» وهو يتناول شطيرة أخرى:

ـ ميتة غريبة؟

ـ ألم أقل لك منذ قليل إنهم عثروا عليها عارية في الحمام؟ وبلا أي علامات تدل على أنها ماتت مسمومة؟

ـ هكذا إذن، برأيك أن الناس يموتون مرتدين ثيابهم، وبالسم.

ـ هيا، دعك من ترديد الدعابات المبتذلة، فالقضية مشهورة وبالغة الغرابة. أليس كل ذلك غريباً؟

ـ كل ذلك. ماذا تعنين بكل ذلك؟

ـ لم يكن هناك سم، لم تكن هناك علامات كحول، ولاأقراص مهدئة ولا ما يدل على العنف. أيبدو لك ذلك قليلاً؟. ثم، إن الإبن الأول مات في حادثة سيارة، بعد شراء الماسة.

سأل الدكتور ببرود:

ـ كم من الوقت كان قد مضى؟

ـ كم؟ بعد ثماني سنوات.

ـ عجباً. يبدو أن الشؤم يمهل كثيراً. ولِمَ ينبغي أن نعزو ذلك الحادث إلى الماسة؟. هنا في بوينس أيرس يموت في كل عام آلاف الناس في حوادث سيارات ممن لايملكون ماسة «الأمل»، هذا، إن لم نتحدث عن المساكين الذين ليس لديهم سيارات، ويموتون بكل تواضع، دهساً بسيارات الآخرين.

استشاطت «ببيا» غضباً. ذلك لم يكن كل شيء...

ـ ماذا تبقى أيضاً؟

ـ أدخل الزوج مستشفى الأمراض العقلية.

ـ إسمعي يا «بيبا»، إن كانت زوجتي أهلاً لتبديد مليوني دولار ثمناً لماسة، مشؤومة كذلك، فأنا أيضاً سيأخذونني إلى مستشفى الأمراض العقلية. وهذا الإسم: غريب جداً أن يطلق على ماسة لاينجم عنها سوى صدامات، ونوبات قلبية وجنون.

ـ مازلت أروي لك. الإبنة الأخرى ماتت بأقراص منومة.

- ولكن، هذه الميتة طبيعية جداً في الولايات المتحدة ومشهورة كلعبة «البيسبول».

كان الشرر يتطاير من عيني «ببيا» مثلما يتطاير من زجاجات «ليدن» حين تعبأ حتى عنقها. عددت الكوارث التي وقعت من قبل بسبب الماسة: الأمير «كانيتوفيتسكي» قتل، السلطان عبد الحميد فقد عرشه، ومحظيته المفضلة...

- عبد الـ ... ماذا؟

سأل كما لو أن الاسم الكامل أمر له أهميته: إحدى دعاباته.

- الحميد. عبد الحميد.

- ماالذي فقده؟

- العرش والمحظية؟

- هيا، دعك من إضافة كوارث كأنها أسماء إشارة. فقدانه العرش يكفي.

- التركية تركته بسبب ذلك.

وتابعت القائمة: «زوبايابا» ماتت مقتولة، سيمون مونتاريدز «مات هو وزوجته وابنه عندما جنحت خيولهم.

- أين قرأت ذلك؟ كأنك واثقة أنه حقيقة؟

- لقد طال أناساً معروفين. كما طال آل «تافيرنيير».

- «تافيرنيير»؟ من يكون ذلك السيد؟

ـ الناس كلهم يعرفونه. الرجل الذي استخرج الماسة سنة ١٩١٢ من عين صنم هندي. الجميع يعرفون ذلك. نعم أم لا؟

لكنه هو «آرامبدي»، واحد من الجميع، إنما لم تكن لديه أدنى فكرة. هكذا يمكنكم أن تروا كيف تختلق هذه الحكايات. وأما «تافير نيير» فلم يسمع بذكره قط. كيف كانت واثقة إذن من وجود ذلك السيد؟.

ـ كان مغامراً فرنسياً، وحتى الخادمات كن يعرفنه. ولكنك أنت لا تقرأ سوى كتب عن المعدة والأمعاء. وما حدث فيما بعد لـ «تافير نيير»، فظيع.

ـ ماذا

ـ التهمة قطيع من الكلاب الجائعة في سهوب روسيا.

مكث الدكتور «آرامبيدي» مندهشاً، قطعة الشطيرة في يده، وفمه مواربا، كتلك الصور التي يفاجأ الناس بالتقاطها وتنشرها المجلات الإسبوعية. لا، ذلك تجاوز الحد: كلاب جائعة، سهوب روسيا «ترويسكا»، أصنام هندية.

قالت سيلفيتا «مارسيلو» وكان وجهها كله رجاء

نعم، نعم، طبعاً.

دخل إلى القاعة يمشي كأخرق. كان يتعثر بالأشياء بإستمرار. ذلك الوهن في قواه دائماً. قبّل والدته ثم مكث في ركن وسط تلك الجلبة لايدري ماذا يفعل، وعيناه تنظران إلى الأرض. وشيئاً فشيئاً حاول أن لايسترعي الإنتباه ثم ذهب.

شعر الدكتور «كارّانسا» برغبة في أن يذهب خلفه ويلحق به. ولكنه

تمكن من أن يتأمله بصمت فقط، عبر الضجيج والناس، وحنجرته تغص بالألم. وتذكر الوقت الذي كان ينهض فيه باكراً ليدرس وإياه مواد إمتحان القبول في الكلية.

حينئذ، ذهب هو أيضاً، وانزوى في مخدعه.

ببساطة، نتيجة ضعف، كان «س» يفكر

غاضباً سلفاً، وحزيناً يشعر مرة أخرى أنه مذنب يتحمل المسؤولية عن كل شيء تقريباً: عن فعل أشياء، وعن عدم فعلها. ستقول له «ببيا» طبعاً، يجعل من نفسه مثار الإهتمام، لايذهب إلى الإجتماعات، يتحكم فيه جانب التعالي، هكذا كان، مابين حين وآخر، يجب أن يذهب. ثم المسكينة «ماروخا».

كان ينظر إلى تلك الجماعات التي تجمعها «ماروخا» بسذاجتها البالغة: تجمع أشد الناس تباغضاً بما انطوت عليه من سذاجة اتسمت بالكمال والإنصاف.

كانت تجادل قائلة:

- ذلك، لأنك لاتعرفه.

لم يكن يجدي معها القول إن الكراهية التي تضمر لذلك الشخص كانت تعود بالدرجة الأولى إلى أنه كان معروفاً، فقد كانت مصرّة على إعتقادها بأن هنالك حروباً تنشب، بسبب عدم معرفة الناس بعضهم البعض الآخر، ولم يكن يجدي ذكر الحروب الأهلية التي لايمكن التغلب عليها، وحروب الحموات، والإخوة «كارامازوف»، وهكذا كانت تأخذ كأساً من الويسكي وتذهب إلى أحد الأركان، في حين كان الدكتور «آرّامبيدي» ينظر بوجه الذي ارتسمت عليه إمارات دهشة لاتتغير (عينان

مفتوحتان جداً، حاجبان مرتفعان، جبهة مجعدة تمتد عليها خطوط أفقية كبيرة) كما لو أنهم في تلك اللحظة بالذات، أخبروه نبأ منح جائزة نوبل لقزم. وفجأة دون أن يدري لماذا وجد نفسه في خضم مناقشة، لأن أحدهم قال إن الحياة شيء رائع، فذكرت «مارغوت» بمسحة الفم التي لاتفارقها أبداً، وبحاجبيها المقطّبين، السرطان والسرقات، والمخدرات والجنون وموت «بارودي».

اعترض «أرآمبيدي» قائلاً:

- ولكن العلم يتقدم دائماً، كان يموت من قبل مئات الآلاف بوباء الحمى الصفراء. كان (س) ينتظر لحظة مناسبة ليذهب دون أن يجرح مشاعر «ماروخا» ولكن لم يتمكن حينئذ بسبب مزاجه، ووجد نفسه يقوم بما أقسم أن لايقوم به أبداً: مناقشة «أرآمبيدي» . وقال: طبعاً، كل هذا لحسن الحظ، قد انتهى وبدلاً من الكوليرا فإن الحمى الآسيوية والسرطان ونوبات القلب أفضل. وكان الدكتور «أرآمبيدي» سيرد على ذلك بضحكة ساخرة، حين أخذ أحدهم يعدد الكوارث في معسكرات الإعتقال، وذكرت بعض الأسئلة.

ذكّرت إحدى السيدات بأن «النفق» أتت على ذكر عازف البيانو الذي أجبروه على أكل فأرة حية.

فصاحت سيدة أخرى

- ياللقذارة..

وأضافت المرأة التي أتت على ذكر المثال، مفترضة أن المؤلف في مكان آخر، أو أنه كان هنالك بالذات:

- مثير للإشمئزاز ولكنه الأمر الحسن الوحيد في تلك الرواية.

حينئذ تدخل ذلك الشخص. بدا لـ «س» أنهم سبق وقدموه على أنه أستاذ مادة ما في كلية الفلسفة.

ـ هل قرأتم مقال «غويانس» في «سور»؟

قالت المرأة التي امتدحت ميزة الرواية الوحيدة:

ـ لاتحدثني عن «فيكتوريا»[1]

أوضح الاستاذ:

ـ ولكنني لاأتكلم عن «فيكتوريا»، إنني أتكلم عن مقالة «فيكتور غويانس»

ـ حسناً، وماذا لدى ذلك السيد

ـ يروي ماجرى في كوريا بقنابل نابالم.

ـ قنابل ماذا؟

ـ نابالم؟

قال الدكتور «أرآمبيدي» :

ـ قنابل النابالم، لم تستخدم في كوريا فقط. إنها تستخدم في كل مكان.

سألت السيدة صاحبة الفأرة:

ـ حسناً، وما الذي جرى؟

---

(١) فيكتوريا أوكامبو: كاتبة أرجنتينية معاصرة ومشهورة (المترجم)

لم يكن جرس صوتها مشجعاً، ولا شك أنها لم تكن مستعدة للعثور على أي شيء مثير للإهتمام في مقال إن كانت له صلة بـ «فيكتوريا» على نحو أو آخر.

- يروي أن شكلاً غريباً كان يقف أمامهم، يميل قليلاً نحو الأمام. ساقاه مفتوحتان وذراعاه ممدودتان كي لاتلامسا جانبيه، شيء يشبه إلى حدٍ ما الصور التقليدية التي يبدأون بها عرض تمرين الرياضة السويدية. لم تكن له عينان، وكان مغطى تقريباً بمزق محترقة. والجسم، الذي كان يُرى القسم الأعظم منه، كان مغطى بقشرة سوداء سميكة ملطخة ببقع صفراء من قيح.

صرخت المرأة صاحبة الفأرة:

- ماأفظع ذلك.. ما أكرهه..

سألت المرأة التي لاتروق لها «فيكتوريا أوكامبو»:

- ولماذا كان هكذا، ذارعاه مفتوحتان وثابتتان.

- لأنه لم يكن يستطيع أن يمس أي جزء من أجزاء جسمه. كان سيتمزق في أية لحظة، من أي لمسة.

سألت يراودها الشك.

- ماالذي كان سيتمزق؟

- الجلد، ألا تدركين؟ لأنه يشكل قشرة هلامية هشة، ولاتستطيع الضحية الاضطجاع ولا الجلوس، يتعين عليها أن تبقى واقفة باستمرار وذارعاها متصالبان.

ـ قالت المرأة التي تبدي الهلع دائماً.

ـ ولكن، ياللهول..

أما الأخرى التي دأبها «فيكتوريا أوكامبو» فقالت: لاتضطجع..؟ ولاتجلس..؟ وهل يمكن أن نعرف ماذا تفعل حين تتعب؟.

ردّ البروفسور قائلاً:

ـ يبدو لي ياسيدة أن أسوأ ما في الأمر ليس التعب.

ثم تابع يقول:

ـ تلك القنبلة مركبة من بترول هلامي. عندما تنفجر، يلتصق البترول بالجسم بشدة وبالجلد، بحيث الإنسان والبترول كأنهما جزء واحد لايتجزأ. حسناً، كما كنت أقول لكم، «غويانس»، يذكر حالة أخرى: رأى ضبّين ضخمين مخيفين ينجران ببطء ويطلقان زمجرات وتأوهات، وتتبعهما ضباء أخرى. لبث «غويانس» كالمشلول بعض الوقت من شدة الاشمئزاز والرعب. من أين يمكن أن تكون قد أتت تلك الزواحف القذرة؟ وعندما اشتد الضوء قليلاً انكشف اللغز: كانت مخلوقات بشرية انسلخ جلدها بفعل النار والحرارة، وانهرست من أجسامها الأجزاء التي اصطدمت بأشياء صلبة. وبعد قليل، شاهد في الطريق الذي يمر محاذياً للنهر، شيئاً يقترب، بدا كأنه رتل دجاج حبشي مشوي. كان بعضهم يطلب ماء بصوت مبحوح يكاد لايسمع. كانوا عريانين وجلودهم مسلوخة، وكان جلد أيديهم قد انتزع ابتداء من المعصم، وعلق في رؤوس الأصابع خلف الأظافر، وقُلب كأنه قفاز. وخيل إليه أنه يرى بين الظلال أيضاً، كثيراً من الأطفال، في الفناء يعانون من الحالة ذاتها.

بدأت أصوات كثيرة تعرب عن الرعب. وذهبت بعض السيدات إلى

ركن آخر تعبيراً عن استيائهن من ذلك العرض الذي ينم عن سماجة ذوق ذلك الشخص الذي بدا، برغم ذلك مسروراً من الأثر الذي خلفه حديثه.

كان سروره يوشك أن لايُرى، لكنه حقيقياً. تأمله «س» ملياً: كان فيه شيء منفّر. أثار مظهره الشكوك في نفسه، وسأل أحد الذين كانوا قريباً منه، بصوت خافت عن اسمه:

ـ أعتقد أنه مهندس يدعى «غاتّي» أو «براتي» أو شيء من هذا القبيل.

ـ ولكن كيف؟ ألا يقولون إنه استاذ في كلية الفلسفة؟

ـ لا، لا، أعتقد أنه مهندس طلياني.

عاد الحديث الآن إلى معسكرات الاعتقال الألمانية.

قالت (ل) المعروفة بأفكارها القومية:

ـ يجب التمييز بين ماهو حقيقي، وماهو مجرد دعاية حلفاء.

فردت صاحبة الفأرة:

ـ لو أقروا ذلك بصراحة يكون أفضل. ففي أقل تقدير سيكون كلّ منهم واعياً لعقيدته.

فأجابت (ل):

ـ وما رواه السيد ـ وأومأت برأسها للمهندس أو الاستاذ ـ لم يحدث في معسكرات اعتقال ألمانية: كان أهوالاً ناجمة عن قنابل ديمقراطية وأمريكية، وماذا تقولين ياسيدتي عن التعذيب، الذي مارسه المظليون الفرنسيون في الجزائر؟

عاد النقاش ليصبح عنيفاً وملتبساً، إلى أن قال أحدهم:

- حسناً، بربرية. لقد وجدت البربرية دائماً منذ وجد الإنسان، تذكروا، محمد الثاني و«باياسيتو» والآشوريين والرومان. كان محمد الثاني ينشر السجناء كالخشب، بالطول. وآلاف المصلوبين في «فيا أبيا»؟... أثناء ثورة «سبارتاكوس»؟.. وأهرامات الجماجم التي كان يصنعها الآشوريون؟ وكسوة أسوار بكاملها بجلود مسلوخة من سجناء أحياء؟

عددت بعض أنواع التعذيب، مثل الطريقة الصينية التقليدية حيث يوضع الضحية عرياناً فوق فوهة قدر من المعدن، بداخله فأرة ضخمة جائعة، ثم يسخن القدر بالنار، لتشق الفأرة طريقها عبر الجسم.

علت من جديد صيحات الرعب، وقال كثيرون إن ذلك كله أصبح كريهاً جداً، لكن أحداً هذه المرة لم يتحرك: كان واضحاً أنهم ينتظرون سماع أمثلة جديدة. جرى إحصاؤها ذكر المهندس أو الاستاذ أساليب التعذيب المعروفة جداً: مسامير تحت الأظافر. الخازوق. وبتر الأعضاء. وتوجه (س) نحو الدكتور «أرّامبيدي» بطل العلوم والتقدم ليضيف المهماز الكهربائي المشهور جداً في المخافر الأرجنتينية، وليأتي الحديث طبعاً عن مكبرات المذياع التي تمكّن من الرقص في بوينس أيرس الكبرى، ومن اندماج الأرواح أيضاً.

غضبت «لولو»، والتي كانت قد وصلت حديثاً وتمكنت من سماع آخر الأهوال التي رويت وقالت معترضة:

- لست أدري لماذ يجب النظر إلى الأمور السوداء وحسب. في الحياة لحظات رائعة أيضاً: الأولاد، الأصدقاء، العمل المشترك عندما يستند إلى إيمان بمثل أعلى، لحظات الحنان، والفرح، والسعادة...

فقال المهندس أو الاستاذ:

ـ قد يكون ذلك هو أشد شرور الحياة. ولو عشنا أبداً في الرعب والقسوة والهول ربما أدى بنا الأمر إلى الاعتياد.

ـ أتود أن تقول إن تلك اللحظات من السعادة لا توجد إلاّ لتأكيد أهوال الحروب والتعذيب والأوبئة والكوارث؟

ضحك المهندس، ورفع حاجبيه على نحو يفهم منه «بكل تأكيد».

صاحت «لولو»:

ـ لكن الحياة ليست سوى جحيم حقيقي إذن...

فسأل المهندس:

ـ أوتشكين في ذلك؟

ـ وادي الدموع المشهور.

ـ لاأكثر ولا أقل.

ثم أضاف المهندس كما لو أنه قد أسيء فهمه:

ـ لا، ليس ذلك تماماً.

ـ كيف؟

فأجاب المهندس على نحو غامض وهو يرفع إحدى يديه:

ـ مسألة أخرى

عادت المرأة التي كادت تموت من الفضول لتقول:

- أي مسألة أخرى؟

لكن «لولو» قاطعتها، وقالت بإصرار:

- يمكن أن يكون الأمر كما يقول السيد، على الرغم من أن الحياة، كما يبدو لي، تنطوي على نواح رائعة.

فقاطعها المهندس قائلاً:

- ولكن، لاينكر أحد أنها تنطوي على نواحٍ رائعةٍ.

- نعم، نعم، نعم، كما تشاء. ولكن كانت هذه الحياة بأسرها مريعة، وهي ليست كذلك، فسيوجد دائماً العزاء بالجنة لمن يستطيعون مواجهة الحياة الدنيوية، بالمحبة والإيمان والأمل.

بدا أن عيني المهندس أو الأستاذ تلمعان ببريق ساحر.

فأردفت «لولو» تقول بمرارة:

- يبدو أنك تضع ذلك موضع الشك.

فلجأ الآخر بلطف:

- ولكن هنالك إمكانية أخرى ياسيدتي.

- أي إمكانية أخرى؟

- هي أننا الآن أموات ومدانون، وهذا هو الجحيم الذي حكم علينا بأن يبقى فيه إلى الأبد.

تدخل أحدهم ممن لم يفتح فمه من قبل فقال:

ـ ولكن هانحن أحياء.

ـ هذا ما تؤمن به أنت. هذا ماتؤمنون به جميعاً، أعني: ماتؤمنون به جميعاً، إن كانت فرضيتي صحيحة. أفهمتم؟

ـ لا لم نفهم شيئاً، في أقل تقدير، أنا لم أفهم شيئاً.

ـ هذا الوهم بأنكم أحياء، هذا الأمل في الموت، وإن كان الحديث عن الأمل في الموت خدعة، هذا الوهم وهذا الأمل، ماهما إلا جزء من المهزلة الجهنمية.

قال الدكتور «أرآمبيدي»

ـ يبدو أنه أمر يحتاج إلى تمحيص كبير لكي نتصور أننا لسنا أحياء. والأموات إذن..؟ ومهنة تنظيم المآتم الفخمة؟

اكتسى وجه المهندس ـ الذي بدأ الجميع ينظرون إليه باستياء بسبب تحذلقه ـ بأمارات الازدراء فقال:

ـ هذه حجة غريبة جدّاً ولكنها ضعيفة. ففي الأحلام أيضاً، ناس يموتون، ومآتم. ومكاتب لدفن الموتى وتنظيم المآتم الفخمة كذلك.

خيم صت، لكن المهندس استطرد بعدئذ:

ـ أظن أن من هو كلّي القدرة، لايكلفه كبير عناء تنظيم ملهاة كهذه، لكي نبقى مؤمنين بإمكانية الموت، ومن ثم الراحة الأبدية. ماالذي يكلفه أن يتصنع ميتات ومآتم؟ ماالذي يكلفه أن يتصنع موت ميت؟ أو جعل جثة تخرج من باب، ـ إن صح القول ـ لكي تدخل من باب آخر، في قسم آخر من الجحيم، لكي تبدأ الملهاة من جديد بجثة شخص مولود حديثاً؟ بمهد بدلاً من تابوت؟ فالهنود الذين كانوا أقل منّا خشونة، راودهم

الشك عندما كانو يؤكدون أن كلّ حياة تطهّر الذنوب التي ارتكبت في الحياة التي سبقتها. شيء من هذا القبيل. ليس هذا تماماً، ولكن المساكين كانوا يقتربون من ذلك كثيراً.

قالت المرأة التي تكره «فيكتوريا أوكامبو»:

ـ حسناً، حتى وإن كان الأمر كذلك، فما الفرق إن كان حقيقة أو وهماً؟ فإن كنا لانعني كلّ هذا، ولانتذكر حياتنا الماضية، فالأمر في نهاية المطاف سيان وكما لو أننا نولد ونموت فعلاً. الذي يقضي على الأمل هو الوعي لتلك الملهاة الجهنمية. كما لو أن المرء يحلم حلماً جميلاً ولا يستيقظ أبداً.

عمّ الارتياح الناس الذين يؤيدون مايسمى في الفلسفة بالواقعية الساذجة. أما المهندس أو الأستاذ الطلياني فكان محط نظرات حقد هذه العقيدة الفلسفية السائدة.

أدرك المهندس بوضوح أن الجوّ أصبح معادياً. تنحنح ونظر إلى ساعته، وأبدى مايدل على أنه سيذهب. وفيما كان يودع أضاف، وقد علت وجهه تصعيرة ازدراء خفيفة:

ـ تماماً ياسيدة، تماماً. ولكن يمكن أن يقوم ذلك الذي ينظم هذا الوهم المشؤوم، مابين وقت وآخر، بارسال أحد ما لإيقاظ الناس وجعلهم يدركون أنهم كانوا يحلمون. أليس ذلك ممكناً؟.

سار «مارسيلو» طيلة تلك الليلة على غير هدى

دخل مقهى، عاد إلى شوارع لاتكترث بأحد، جلس على مقاعد ساحات يخيم عليها الصمت. وكان الصباح قد حلّ عندم عاد إلى غرفته، واضطجع لينام. حينما استيعظ عند العصر، فكر في «أمانسيو»، شقيق جدّه، ولما

كان في طريقه إلى بيته، فكر أنه قد يفاجأ جداً، وقد يطرح أسئلة: ولن يكون هو قادراً على إجابته، وعلى أن يقول له الحقيقة، وعلى جعله يحزن. فكر في أن يدّعي أسباباً أخرى: ليعيش مطمئناً أكثر، ويفكر بنفسه أكثر قليلاً، الناس، هو كان يعلم.

صعد درجات السلم العتيقة تملأ رأسه أفكار متناقضة، وفكر مرة أخرى كيف كان بوسع العجوز المسكين أن يستسلم للحياة محصوراً بين أربعة جدران، في ذلك الجزء الأمامي الصغير من بيت من تلك البيوت ذات الطبقتين التي شيدت في أواخر القرن المنصرم، لكنها أصبحت الآن مقسمة إلى بيوت صغيرة قذرة. وجده غاصاً باللفاعات، والقمصان، والمعاطف، وحتى معطفه الرث بياقته المخملية الخضراء، قال وهو يشير إلى الأسفل:

- ستصاب الأشجار المثمرة بالصقيع.

نظر «مارسيلو» عبر النافذة، كما لو أن أشجار الفاكهة كات تحت، في الشارع. لقد كانت مجاملته أقوى من منطقه.

أما «دون اديلميرو لاغوس» فأكد على نحو مبهم:

- إن رياح الجنوب هي رياح الجنوب [١]

كان يبدو ببذته السوداء، وياقته الصلبة العالية وأكمام قميصه المنشاة، كأنه مستعدّ لتوقيع صك في مكتبه، مكتب توثيق العقود (في ١٩١٥). كان وهو جالس ويده اليسرى على المقبض الفضّي لعكازه، يشبه إلى حدّ بعيد طوطماً هندياً نعساناً، موارب العينين. وكان وجهه الترابي كسطح جغرافي، واسع مملوء بالأكمات والشعر والشامات.

---

(١) رياح باردة جداً تهب من منطقة «لاباميا» الجنوبية في الأرجنتين (المترجم)

أخاديد جيولوجية. وكانت تخرق صمته المعهود، مابين حين وآخر، تلك الحكم التي تجعل منه، برأي «دون أمانسيو» ، «رجل نصيحة».

«لا هذا الطرف ولا ذاك: الوسط تماماً»

«الزمن يمسح كلّ شيء»

«يجب أن لانفقد الثقة بالأمة»

أحكام لم تكن تطلق، في الواقع، كيفما اتفق، بل كانت تسبقها إشارات خفية، ولكنها لاتفوت أحداً ممن يتابع حديثه عن قرب. كان، كما لو أن ذلك الطوطم الأسود شرع فجأة بابداء بعض مظاهر الحياة التي كانت تأخذ شكل ارتجاف عابر في يديه الضخمتين، وأنفه الكبير. بعد النطق بالحكمة كان يعود إلى صمته الجليل. أخذ «دون أمانسيو» يحاول بصعوبة أن يقف، لكن «مارسيلو» لم يدعه يفعل. كان يودّ أن يأتي «بالماتي»[1] ذلك ماكان يريده.

قال وهو يعود ليجلس:

- أعاني من مرض في الركبة.

حضّر الماتي برصانة وهو يقول:

- هكذا يا «أديليميرو» لم أشعر بمثل هذه الحالة من قبل قط.

بعد لحظات من الصمت، أعرب عن دهشته لما دفعه ثمناً لمزرعة في «بونتاديل اينديو» شخص يدعى، كما كان يبدو له «فيشر».

«التوركيتو»[2] فتح «دون اديلميرو» جفنيه قليلاً، كان الأمر بالغ

(١) الماتي منقوع أوراق شجيرة تدعى الماتي. تزرع في الأرغواي، ومازالت عادة شرب هذا المنقوع سائدة في الريف الأرجنتيني. (المترجم)

الغرابة.

ـ ذلك التركي الذي كان يملك حانوتاً في «ماجدالينا». ولكنها ليست سوى مستنقع سيغرسون فيه، لايدري أي أشجار مستوردة، صفقة كبرى: هكذا كما سمع، صفقة كبرى. ياله من أمر.

نظر نحو الشارع وهزّ رأسه.

وخيم الصمت طيلة عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة. كان لايسمع سوى حركات كأس الماتي الفضي والرشقات. بعدئذ سأل «دون أمانسيو»:

ـ هل تذكر يا «أديلميرو» ذلك الفتى «خاسينتو إينساورّالدي»؟

عاد «دون اديلميرو» ليفتح عينيه قليلاً.

وردد «دون أمانسيو» قائلاً:

ـ ولكن نعم، ذلك الفتى الأنيق.د

أغمض صديقه عينيه. ربما كان يبحث بين ذكرياته.

ـ إنه يموت الآن من السرطان. في الكبد، لسوء الطالع.

فتح «دون اديلميور لاغوس» عينيه قليلاً، وظلّ هكذا بعض الوقت، ربما لأنه تذكر «إينساورالدي» أو لأنه فوجيء. وإن لم يكن بوسع أحد أن يستخلص من تلك المساحة القاحلة الصامتة التي هي وجهه، شيئاً. قال بعد مضي لحظات:

---

(٣) توركيتو: تصغير كلمة تركي وهو اسم كان يطلق على المهاجرين العرب في أمريكا اللاتينية وينطوي على شيء من الازدراء، لكنه الآن يطلق على العرب للتحبب (المترجم).

- السرطان هو كارثة المدنية.

ثم تناول من جيب صدارته ساعة الـ «لونجين» ذات الأغطية الثلاثة المعلقة في طرف سلسلة ذهبية، ونظر إليها كأنه يقرأ وثيقة هامة في مكتب توثيق العقود. ثم أغلق الغطاء، ووضع الساعة في جيبه بتؤدة، ونهض لكي يذهب.

كان الظلام قد بدأ يخيم.

ووجد «مارسيلو» نفسه يقول، كما لو أن أحداً قد دفعه إلى ذلك دفعاً:

- جدّي «أمانسيو».

- نعم، يابنيّ.

شعر بأن موجة من الدم صعدت حتى وجهه، وأدرك أنه لن يستطيع أبداً أن يحدثه عن تلك الغرفة الفارغة الصغيرة في صدر الدار.

كان «دون أمانسيو» ينتظر كلماته بشغف ودهشة، كما لو أن بعض قطرات من المطر بدأت تهطل في منطقة معروفة بجفافها.

- لا.. أعني.. نعم، إن كان الجليد سيحلّ، كما يقول..

لبث العجوز ينظر إليه مستغرباً، وهو يردد على نحو آلي تقريباً، «لقد قلت لك، نعم الرياح الجنوبية»، في حين كان يفكر «ماالذي جرى لـ مارسيلو».

أما «مارسيلو» فكان يفكر، جدي «أمانسيو» بمعطفه الرث، وفقره، فقر الفاضل المستقيم وكرمه، كرم النبيل المسكين، وحسن تصرفه ولياقته.

كان «دون أمانسيو» قد شرع بكياسته المعهودة، يغيّر مجرى الحديث، فأشار بسبابته إلى «لاناسيون»[1] وسأله إن كان قد قرأ الافتتاحية حول القنبلة الذريّة. كلا، لم يكن قد قرأها. ولكنه فكر بحنان «وصراحة» كأنما تسأله إن كان قد قرأ مؤخراً خطابات (بليساريو رولدان)[2]. حرك العجوز رأسه ببطء.

- كل شيء يتوقف على.. أعني.. ياجدي «أمانسيو»..

نظر إليه العجوز مستغرباً.

قال مارسيلو بعد لأي:

- أقول.. ربما، يوماً ما، يمكن أن تستخدم من أجل شيء حسن.

- شيء حسن؟

- لست أدري.. أعني.. صحراء، مثلاً..

- صحراء..؟

- أقول.. لتغيير الطقس..

- وسيكون ذلك حسن «يا مارسيلو» الصغير؟

كان الفتى يشعر بالخجل أكثر من ذي قبل، كان يمقت الإيحاء بأنه يعرف أكثر من الآخرين، ويمقت إملاء الدروس والشروح، كان يبدو له أمراً فظاً، وبخاصة عندما يتعلق بامرىء بائس مثل «دون أمانسيو» ولكنه لم يتمكن من التراجع.

---

(١) صحيفة تقليدية تشبه إلى حدّ ما صحيفة «التايمز» اللندنية (المؤلف)

(٢) برلماني أرجنتيني ليبرالي من أواخر القرن المنصرم، كان خطيباً مشهوراً (المترجم)

ـ أعتقد.. ربما... بلاد تعاني من الجوع... قرأت مرة.... في تلك المناطق حيث لاتمطر تقريباً... عند حدود الحبشة... كما يبدو لي.

عاد «دون أمانسيو» ينظر إلى الصحيفة، كما انه يمكن العثور فيها على مفتاح سر تلك المعضلة الكبرى.

قال:

ـ أجل، صحيح، إنني عجوز جاهل.

أسرع «مارسيلو» يصحح خجلاً.

ـ لا، لا، لا ليس هذا ياجدي، أود أن أقول... إن.... نظر إليه «دون أمانسيو»، لكن «مارسيلو» لم يتمكن من أن يضيف شيئاً. بعد مضي وقت قصير، هدأ كلّ شيء، وعاد العجوز يتأمل الشارع عبر النافذة.

قال فجأة:

ـ «فيشر، الآن أتذكر جيداً.

ـ كيف ياجدّي..

ـ صاحب ذلك الحقل. ألماني أو شيء من هذا القبيل، أولئك الناس الذين أتو مع الحرب الأخيرة.... اناس يعملون بجدّ، وَفَهْم...

وعاد ينظر نحو أشجار الشارع، تحت، وهو يفكر.

ـ نعم أولئك الناس يعرفون ماذا يفعلون. أناس تقدم، لاشك في ذلك أبداً. ثم أضاف بعد لحظات:

ـ إلاّ أن تلك كانت أياماً جميلة... لم تكن تتوفر علوم كثيرة.. ولكن

كانت هنالك طيبة... لاأحد على عجلة من أمره... كنا نقضي الوقت ونحن نشرب «الماتي» ونتأمل الغروب من الرواق.... لم تكن هنالك أماكن للتسلية كما هو الحال الآن. لم تكن هنك سينما ولا تلفزيونات. ولكن كان لدينا أشياء أخرى جميلة: احتفالات التعميد، ويوم التحديد، وعيد هذا القديس أو ذاك.

خيم الصمت طويلاً، مرة أخرى.

- لم يكن الناس يعرفون أموراً كثيرة كما هو الحال في أيامنا هذه، ولكنهم كانوا أكثر نزاهة. والريف كان فقيراً جداً، وبخاصة ريفنا في ذلك الشاطىء، في «ماجد الينا». ولكنه كان كبيراً ومعطاء. وحتى المدينة نفسها كانت مختلفة، والناس كانوا مهذبين ولطفاء.

وبقدر ماكان الظلام يخيم كانت لحظات الصمت تصبح أطول وأعمق. نظر «مارسيلو» إلى العجوز الجالس أمام النافذة. بماذا كان يفكر، في ليالي وحدته الطويلة ياترى؟

- العالم أصبح مليئاً بالأكاذيب يابنيّ. كلهم لايثقون عندما ذهبنا مع عمي إلى «الأورغواي» بمناسبة وفاة العم «ساتورينو» لم يتطلب الأمر حتى وثائق سفر.

ثم عاد يلوذ الصمت.

بعد أن نقر على الجريدة بهدوء أضاف:

- والآن ذلك القصف بالقنابل.... أولئك الأطفال في فيتنام.. وأنت يا «مارسيلو» الصغير ماذا تفكر...؟

- أنا... ربما يوماً ما.... الأمور ستتغير.

كان العجوز ينظر إليه باهتمام وكآبة... ثم قال كما لو أنه يخاطب نفسه:

- كل شيء ممكن، يا «مارسيلو» الصغير.... ولكن يبدو لي إنه لمن الصعب أن يعود الريف كما كان من قبل، ببحيراته، وطيوره الملونة، وبطه البري.

وخيم الليل.

المهرج

قلد «كيكي» وهو يتحدث عن سجلات الوفيات، روى دعابات، تذكر قصصاً مضحكة من الحقبة التي كان يُعلّم فيها الرياضيات. وجد أحسن من أيّ وقت مضى، مفعماً بالحيوية والنشاط.

وسرعان ماحدس بأن ذلك سيبدأ بقوة لاتقهر، إذ لم يكن بوسع أيّ شيء إذا مابدأت العملية أن يوقفه. لم يكن الأمر يتعلق بشيء مريع ولم تكن تظهر أهوال. ومع ذلك، كان يصيبه ذلك الرعب الذي لايشعر المرء به إلاّ في بعض الأحلام فقط. راح يهيمن عليه شيئاً فشيئاً شعور بأنهم بدأوا جميعاً يصبحون غرباء، شيء من قبيل مايشعر به أحد، يشاهد حفلة ليلية عبر نافذة: يراهم يضحكون، ويتحدثون، ويرقصون في صمت، ولا يعرفون أن أحداً يراقبهم. ولكن الأمر لم يكن كذلك تماماً: ربما كان إلى جانب هذا، كما لو أن مايفصل الناس عنه، ليس زجاج نافذة ما، أو مجرد المسافة التي يمكن اجتيازها سيراً على الأقدام قبل فتح باب، وإنما امتداد لانهاية له. كأنه شبح بين أناس أحياء يمكن أن يراهم ويسمعهم، لكنهم لايرونه أو يسمعونه، حتى أن الأمر لم يكن كذلك أيضاً، لأنه لم يكن يسمعهم وحسب، بل كانوا هم يسمعونه ويتحدثون معه، ولم يبدر منهم في أي وقت أي إشارة استغراب، جاهلين

أن الذي كان يتحدث إليهم لم يكن (س)، وإنما ضرب من بديل ما، أو مهرج غاصب ما. في حين كان الآخر، الأصلي ينعزل تدريجياً وعلى نحو مربع. وهو، وإن كان يموت من الخوف، كمن يرى المركب الأخير الذي يمكن أن ينقذه يبتعد، إلاّ أنه يعجز على إبداء أي إشارة قلق، أو إعطاء فكرة عن تنامي بعده وعزلته. وهكذا، بينما كان المركب ينأي عن الجزيرة، أخذ يروي قصة مسلية من أيام دراسته، عندما ابتدعوا شاعراً هنغارياً تحميه أميرة ليس لها وجود أيضاً. لقد ملوا الحديث عن «ريلكي» والتعالي «الريلكاني» كانوا يزدادون مبالغة، بقدر ماكانوا يكتسبون الثقة، طبعوا قصيدتين بالفرنسية في «تيسو»، وبعض المقاطع من مذكرات، ثم أكدوا بأنه كان مجذوماً. كانت الفكرة هي التوصل إلى أن ينشر «غير مودي تورّى» عنه مقالاً في «ناسيون»[١].

كاد الجميع يموتون من الضحك، والمهرج أيضاً، أما الآخر فكان يرى، كيف كان المركب يصغر أكثر فأكثر.

ظهور الأخوان

بين أكاذيب ولهيب، بين النشوة والغثيان، كانت الحياة تعود لتبدو أشد إبهاماً، وحفل الاستقبال أشد كآبة، أين أصبحت المُطْلقات؟ من الداخل كان المتمردون يضغطون عليه، كانوا يودون ان يعملوا ويلفظوا كلمات قاطعة ويقاتلوا ويموتوا، أو يقتلوا قبل أن يروا أنفسهم منخرطين في «الكرنفال». وقحون أمثال «ناتشو» وخشنات مثيلات «أغوستينا» و «أليخاندرا»؟ إن كانت حية حقاً، وأين، إن كانت في ذلك البيت، أو في البيت الآخر، إن كانت في «البرج». ذهبوا إلى ملف محفوظات الصحف، كانوا يودون أن يعرفوا. كم يتوق الناس إلى هذا «الكرنفال» من أجل

(١) غير مودي توري: ناقد أسباني عاش في الأرجنتين، وهو قريب الكاتب الأرجنتيني «بورخس»، كان الكتاب الشباب يهجونه كثيراً (المترجم)

المطلق، ياله من عطش لايرتوي. أكان ذلك النبأ صحيحاً؟ كأنما أكثر الأمور تزويراً لم يكن مايتجمع في ملف المحفوظات. ولكن لم يكن أمراً ذا أهمية: كان طرح الأسئلة مستمراً، إن كانت تلك الشخصيات حية، كيف، وأين.... لم يفهموا أنها لم تمت قط.

وأنها من معاقلها التحتية تلاحقه من جديد، وتبحث عنه، وتشتمه. أو ربما كان العكس هو الصحيح، ربما كان هو الذي يحتاجها ليتمكن من النجاة. وهكذا ينتظر «أغوستينا» ويترقب تواقاً ظهورها ثانية.

قناع المحاضر إلى نسوة يتكلم، يبتسم، يقدم وجوها زائفة.

لرجل محترم،

حسن التربية،

لسيد قوم جميل الملبس يأكل أكلاً عادياً،

سيداتي سادتي، هيا لاتخشوا

هذه ضارية مروضة،

أسنانها بردت،

واقتلعت وسوست ووهنت

بوجبات طعام عصرية

لم تعد الآن كما كانت

حيواناً يزدرد اللحم النيء،

ويفترس ويعمل في الغابة قتلا.

قد ضاع جلال توحشه

سيداتي وسادتي تفضلوا.

عرض للأسر مخصص،

تعال وعمتك في يوم العمة،

تعال وأمك في يوم الأم.

فهنا يمكنكم رؤيته،

نحو اليمين قليلاً دُرْ

هوب...

حيّ الجمهور المحترم،

هكذا،

حسن جدّاً،

خذ قطعتك الآن من السكر،

هوب ، هوب...

سيداتي وسادتي

عرض للأسر مخصص

ياأسد الغاب الجبار: إنك تحلم،

تنجز قفزات وادعة،

من قبل معدة

ببسمة سخرية عابرة حانية سرية

مساكين فالأمر وما فيه

أن الأطفال يحبونني،

أدور وأنطّ على الطوق

واحد أثنان هوب،

عمل رائع

وأحلم بالغابة

في أصباحها القديمة،

فيما اتبع تدريبي مذهولاً،

بدقة متقنة أقفز في الطوق المتأجج ناراً،

ويضعونني فوق المقعد،

وبلا وعي أزار،

فيما أتذكر، تلك البحيرات المكمّدة.

بين مروج ممتدة

فإليها يوماً لابد من العودة،

وإلى الأبد،

(ذلك ماأعرف وبه أومن وله أحتاج)

ألتهم مروضاً

كمثال حي

ووداع مقبول

في فعل جنون

تقول جرائد

اختفى رأسه فجأة بين المزارد

يقطر دماً، ياللهول....

ودب الهلع

فيما أحلم

بذاك الوطن، وطن العنف الساذج

بإمارة مجد شامخة

بطقوس الأعصار، طقوس الموت

من وسط العار انا هارب

ومجتمع الإيمان مفارق

إلى عفة العصفور، نقاوة المطر

إلى الوحدة السامية، أعانق

نسيداتي وسادتي تفضلوا.

هذه ضارية قد روضت

عرض للأسر مخصص

هنا يمكنكم رؤيته، هوب....

حي الجمهور المحترم،

في حين أفكر بجمال الغاب وقسوته

ولياليه المقمرة

كانت أمي..

احتفل بنشر كتاب (ت . ب)

عن الموت والوحدة. تمكن من أن يرى في المجلة حشداً، يشرب، ويأكل الشطائر ويضحك، وتوصل إلى تمييز الوجوه المعهودة دائماً، وبينها، أعداء (ت . ب) حتى الموت، الذين كانوا من وراء ظهره قبل الحفلة وبعدها، وحتى أثناءها يسخرون من شعره.

***

فكر «نيتشه»

شعر بحاجة إلى الحديث مع أميّ، ويتنشق هواء بارد ونقي، والقيام بعمل يدوي ما: منضدة صغيرة، إصلاح دراجة طفلة مثل «إريكا» شيء متواضع، نافع ونظيف أطفأ النور.

وكما في أوقات أخرى مشابهة من الاشمئزاز والغم من الناس (ومنه هو نفسه) عادت تلك الذكرى. لماذا، وما الأولوية التي كانت تتمتع بها في حياته؟ كان يأخذ مخططات الحساب بالغة الدقة إلى الدكتور «غرينفليد» عند الغسق. كانت قباب المرصد الفضية تظهر بصفائها الغريب وسط الظلمة التي كانت تحلّ بهدوء، كأنها أواصر صامتة، مشدودة إلى الفضاء الكوني. كان يسير في الدورب بين الأشجار المنطوية على ذاتها في غابة «لابلاتا»[1]. عالم الكواكب المنتظم في دوائر بروجها. النظريات التطبيقية للآلية السماوية.

---

(١) لابلاتا مدينة هادئة كثيرة الأشجار تشهّر بجامعتها وتقع على بعد ٦٠ س بوينس أيرس (المترجم)

شعر بالحاجة إلى أن يعود إلى «الابلاتا»

إلى البيت الذي أصبح الآن غريباً، ليتسرق النظر إليه كدخيل، كلص ذكريات. ثم عاد يتذكر تلك الأمسية الصيفية حينما وصل ودخل بصمت، ورآها من الخلف هناك جالسة إلى منضدة غرفة الطعام الكبيرة، وحيدة، تنظر إلى العدم يعني إلى ذكرياتها، في ظلمة النوافذ المغلقة، لا يرافقها سوى تيك ـ تاك ساعة الجدار العتيقة.

حين كانوا في الزمن السعيد يحتفلون بعيد ميلادها.

وأنا كنت سعيداً ولاأحد قد مات.

وكانوا جميعاً حول منضدة الـ «تشيبندال»[1] الضخمة والأصونة الكبيرة وشوك طعام تعود لأيام أخرى. والوالد في طرف المنضدة،والوالدة في الطرف الآخر، يضحكون حين كان «بيبي» يردد حكاياته وأكاذيب ذلك الفلولكلور العائلي البريئة.

وأكون أنا ناجياً من نفسي

كعود ثقاب مطفأ

المنضدة معدة ومقاعد أكثر، وزخارف أفضل وكؤوس أكثر.

كان قد قال لها

ـ كيف الحال ياأمي.

وكانت قد أجابت.

---

(١) تشيبندال: طراز انكليزي من الأثاث (المترجم)

ـ كنت أفكر.

وبدا له أن عينيها اغرورقتا بالدموع.

أجل، طبعاً.

ـ الذي قال، يابني، إن الحياة حلم[1].

كان قد نظر إليها بصمت. ماالذي كان بوسعه أن يخففه عنها، إن كانت ترى تسعين عاماً مضت كأنها خيال ظلّ.

بعدئذ، بحثت عن شيء ما في تلك الأصونة المغلقة دائماً بمفاتيح عديدة وخفية.

ـ هذا الخاتم، أترى، عندما أموت، كنت أحتفظ به إليك.

ـ أجل ياأمي.

ـ إنه من والدة جدتي: «ماريا سان ماركو».

كان صغيراً ذهبياً عليه ختم مطلي بالميناء، فيه حرف (م) وحرف (س).

مكثا بعد ذلك صامتين، وجهاً لوجه. كانت تقول مابين حين وآخر: «فورتوناتا» هل تتذكر؟ مزرعة دون غير موبوير». جدك «باولو».

كان يجب أن يذهب. أكان يجب أن يذهب؟ عاد الضباب يغشى عينيها ولكنها كانت صبورة سليلة أسرة محاربين وإن كانت تأبى ذلك، وإن كانت تنكره.

---

(١) أن الحياة حلم: عنوان رواية كالديرون دي لاباركا (المترجم)

كان حتى الآن، مايزال يتذكرها بعد، عند الباب، تحييه برقة رافعة يدها اليمنى، على نحو ليس قوياً جداً: لم تكن لتصدق، تلك الأمور. من بعيد استدار إلى الخلف: إنها وحيدة، من جديد.

قف ياقلبي،

لاتفكر.

في الشارع ٣ أخذت الأشجار تفرض لغز السماء الصامت.

التفتت ثانية، كانت خجلة، بيدها كررت الإشارة مرة أخرى.

اللقاء ثانية

وصلت العجوزان متعبتين من الحر، وربما، من عناء الانتظار في «لاريكولينا» أيضاً. جلستا وطلبتا الشاي وبعض الحلوى.

قالت إحداهما، وهي ماتزال غاضبة قليلاً:

- مسكين خوليو، يموت في شباط، عندما لايكون هنالك أحد في بوينس أيرس[1] يكون أحدهم معدماً ينتهي به الأمر إلى التكيف مع الواقع بحجة الفن. نعم. بالطبع، يشعر المرء بالغم. وعندئذ يتصور غطريساً مثل (ر)، شخصية بائسة ومريعة ويبقى حياً ولكن المرء يبقى هنا ويثابر على ارتياد «لابيلا»، وبنجاح أيضاً (ذلك التقيؤ ينطوي دائماً على نجاح عظيم، فالناس يحتاجونه لتفريج كربهم) وإذا ماتوصل

(١) لاريكولينا هي مقبرة الطبقة الاستقراطية في بوينس أيرس. وشهر شباط:/ فبراير أشد أشهر السنة حرارة فيها، فهو كشهر آب/ اغسطس عندنا. «يموت في شباط، عندما لايكون أحد في بوينس أيرس» حماقة وذات معنى في الوقت ذاته بالنسبة للطبقة الاستقراطية، فالجميع يكون في هذا الشهر في المصايف الفخمة، ولاأحد يعني أن أيّ غني لايبقى في المدينة فيما عدا الملايين التسع من الناس الذين يشتغلون (المترجم)

(ر) نفسه إلى أن يصبح كاتباً، فيحتمل أن ينتهي به المطاف أيضاً إلى ارتياد السفارة الفرنسية والقاء محاضرات هناك. المسألة ليست سوى مسألة انتظار ياسادة. ماالذي كان بوسع أولئك الفتيان عمله؟ يبصقون في وجوههم، يقتلون أنفسهم، يتعهرون. إن لم يكن هناك إله، فكلّ شيء مسموح.

لم يكن قد تخلّى عن التفكير فيها ، حتى فقد الأمل بالعثور عليها، والآن أصبحت حاجته لرؤيتها والحديث معها أمراً لايطاق. خرج وصعد الأكمة ثم جلس على أحد المقاعد قرب تمثال «فالكون».

عندئذ رآها، كانت خطواتها مترددة، كما لو أنها تسير على أرض محفوفة بالأخطار أو يمكن أن تنهار.

تردد قليلاً، ولكنه قرر بعدئذ أن يكلمها. فكر طيلة تلك الأشهر بأنها ستبحث هي عنه، وأثبت ذلك اللقاء على نحو ما، صحة ماذهب إليه، فلم يكن بوسعها أن تتجاهل أنه يتردد على ذلك المكان ماراً بتلك الحديقة، يشرب القهوة في «لابيبلا» ويجلس على أحد المقاعد. يحتمل أنها خجلت، ولم تجرؤ على أن تدخل إلى المقهى وفضلت أن تجوب الحديقة لتحوّل اللقاء إلى مصادفة، أو في أقل تقدير لكي يبدو له هو كذلك.

اقترب، ووقف بجانبها، ولكن لما طفقت تسير في طريقها غير عابئة به، أمسك بذراعيها. فنظرت إليه بصمت، ولكنها لم تفاجأ، مما أكد ماذهب إليه من أنها كانت تبحث عنه.

سألها

- أتقطنين قريباً من هنا؟

فأجابت بعد أن حولت عينيها عنه:

ـ كلا، أقطن في «بلغرانو».

ـ ومااللذي تفعلينه في «لاركوليتا»؟

طرح عليها السؤال غير عامد، لكنه ندم في الحال: كان كمن يود أن يجبرها على أن تعترف برغبتها في لقياه ثانية.

أجابت:

ـ من حق كلّ الناس أن يسيروا هنا.

أستاء، كانا يقفان وجهاً لوجه إنما في وضع غريب، لأنها كانت مطرقة نحو الأرض.

قالت بسرعة:

ـ أعذرني، لقد كنت قاسية.

ـ ليس لذلك كبير أهمية.

ـ رفعت الفتاة ناظريها، وتأملته طويلاً، وعضّت على فكها، في حين تضرج وجهها. ثم قالت بصوت خافت:

ـ ليس قاسية وحسب، بل وكاذبة أيضاً.

ـ أعلم ذلك، ولكن ليس له كبير أهمية.

ـ وكيف، كيف تعرف ذلك؟

لم يكن يعرف ماذا يقول كي لايؤذي مشاعرها. أخذها من ذراعها حتى المقعد، ومكثا هناك فترة طويلة، كانت الفتاة مستاءة، لكنها بدت كأنها تتأمل العشب، إلى أن قررت أن تقول:

- ماحدث، هو أنك كنت تعرف أنني كنت أود رؤيتك. وأنني كنت طيلة أسابيع أجوب هذه الأنحاء.

لم يجب، لم يكن ذلك أمراً ضرورياً، كلاهما كان يعرف أن اللقاء أمر لابدّ منه. وأن الأمور ستكون أسوأ لو أنه لم يحصل.

كان قد حل الليل حين عادت «أغوستينا»

أتت منهكة، نائية، ولم تكن «أغوستينا» القاسية، كما كانت في أيام أخرى. من أي نواح موجعة أتت؟ رفع «ناتشو» ذراعه اليمنى وفتح كفه باتجاهها، وأدار رأسه نحو الجهة الأخرى، كمن يرفض أن يرى منظراً حزيناً.

- اية بلية حلت بهذا الوجه؟ أخال أنني أرى «الكترا» بثياب الحداد تتقدم المأتم الكبير.

ارتمت «اغوستينا» على السرير. وقالت بجفاء:

- انزع تلك الأسطوانة، لقد سئمت سماع «بوب ديلان».

أرخى شقيقها ذراعه، وتأملها ملياً، ثم ركع على ركبتيه وأوقف الجهاز الذي كان ملقى على الأرض بين كتب وأطباق وصحف قديمة. ثم رمق أخته من هناك بنظرة ملؤها الكآبة، وتمتم بجرس رقيق خجول:

- إنني «أوريستس»، لاتبحثي عن صديق أفضل.

ثم اقترب وهو جاث على ركبتيه، كأنه أحد أولئك الاتقياء الذين يذهبون إلى «لوخان»[1].

---

(١) لوخان: مكان مقدس في الأرجنتين يحج إليه المؤمنون مشياً على الأقدام أحياناً (المترجم)

ـ أترين. لقد نذرت نذراً.

اقترب من حافة السرير وأخذ ذراعيها وقربها من صدره.

ـ أتنسين يا «الكترا»، أنني كنت أنا أحب الرجال إليك. قلت ذلك لوالدنا أمام كومة التراب التي تغطي قبره، عندما كنتِ تسكبين شآبيب الرحمة، حين توسلتِ «هرمز» التحتي، رسول الآلهة العليا والدنيا. عندما سمعت الشياطين صلواتك، اليشاطين التي تحرس المساكن الأبوية...

ـ حسناً يا «ناتشو».... إنني منهكة.

ـ أوه يا «زيوس..تأملي هذا، انظري سلالة العقاب المحروقة من أبيها تختنق الآن بين ذراعي الأفعى المريعة.. انظري الينا، شقيان بلا أب، مطردوان من مسكن الأمومة.

ـ أقول لك إنني منهكة.

أضاف «ناتشو» يقول، بصوت امتلأ بالقسوة والحقد فجأة:

ـ تلك العاهرة.. رأيتها في سيارة «بيريس ناصف».

ـ حسناً.

وقال وهو يدرس تعابير وجهها:

ـ يبدو أن ذلك لايعنيك.

وصرخ يقول لها بغضب، ألم تكن تشعر بالخجل من أن تلك العاهرة، كانت قد حصلت على عمل لها، في مكتب ذلك الحشرة.

ـ حسناً، لنعش من الصدقات العامة.

انقض عليها «ناتشو» وصاح قائلاً إنه يتكلم جاداً.

ـ لاتصرخ .. كفى.

ازدادت تقاطيع وجه «أغوستينا» قسوة.

ـ أيجب أن أشرح لك كل شيء أيها الأحمق، ألا تدرك أنني بشكل ما، قبلت ذلك، حين كنت أحتقرها أكثر من أي وقت مضى.

وأضافت تقول عابسة.

ـ لاتعد للحديث عن تلك المرأة ثانية.

وبسخرية، ذكّرها شقيقها بأن تلك المرأة هي الأم، وليس للمرء سوى أم واحدة ثم نهض إلى ركنه وأتي بصرة صغيرة ملفوفة بورق مزين بالورود، ومربوطة بعقدة حمراء «هدية».

سألت «أغوستينا» متعبة:

ـ والآن، أي تهريج هذا.؟

ـ أنسيت عيد الأم؟

كانت الصرة الصغيرة جداً، رفعت الفتاة ناظريها نحو «ناتشو».

ـ اتعلمين ماذا أرسل إليها؟

كانت ملامح وجهه تفيض سعادة غريبة.

ـ كيس وقاية من الحمل.

ثم عاد إلى ركنه، جلس في سريره، وبعد أن لاذ بالصمت بعض الوقت

قال:

ـ أود أن اقترح عليك عهداً.

ـ عهد واحد بسيط وحسب.

لم تجبه «أغوستينا».

ـ عهيد صغير، بحجم قزم.

ـ ولماذا؟

ـ إنه برهان.

ـ أيّ برهان.

أجاب «ناتشو» على نحو مبهم:

ـ أنا أعرف.

ـ حسناً، هات، لأنني أود أن أنام قرناً.

حمل «ناتشو» إليها اسطوانة، على غلافها صورة «جون لينون» و «يوكو» وبعد أن عرضها اقترح قائلاً:

ـ أن لاتسمعي هذه الاسطوانة أبداً.

ـ لماذا.

ـ أرأيت، أرأيت... هذا هو البرهان.. ها إنك لاتفهمين شيئاً... إنك غائبة تماماً.

صرخ وهو يفرك الصورة على وجهها.

نظرت إليه «أغوستينا» بغضب.

- إلا تفهمين، هذه اليابانية القذرة هي السبب!

جلس إلى جانب أخته على حافة السرير قانطاً، وهو يردد كأنه يحدث نفسه «تلك العاهرة»، الحنين النتن.

- اتوافقين؟

- حسناً، دعني أنام.

رمى الأسطوانة على الأرض، وداس عليها برجليه، ثم حطمها بغضب بالغ قطعاً عديدة، وعندما انتهى، حملق إلى عيني أخته، كأنما يود اكتشاف أمارة ما. ثم عاد بعدئذ إلى سريره، فارتمى فوقه وأطفأ نور مصباحه. وبعد مضي وقت قصير أوشك أن لايبقى لديه من القوة، ليقول وت بدا وكأنه يمر عبر الظلمة في دروب سرية كانا كلاهما يعرفانها من قبل، ولكنها الآن مليئة بعثرات وأشراك خفية من صنع غازٍ شرير:

- حدث أمر ما يا «أغوستينا».

لم تجب، اكتفت باطفاء نور مصباح سريرها، وأدرك «ناتشو» بدهشة أخذت تتحول إلى قلق، أنها اطفأت النور لكي تتعرى من ملابسها وتمكن في الضوء المتسلل عبر النافذة، من أن يلمح، كيف كانت تنضو عنها ثيابها.

بعدئذ تعرى من ملابسه هو أيضاً واضطجع. راقبها طيلة زمن لايقاس (تخللته طفولة، وكلاب، ومخابي في حديقة «باتريسيوس» وسكاكر، وقيلولات، وعزلة، وليالي دموع، وعناق) شعر خلاله أنها هي أيضاً مازالت مستيقظة وتفكر قلقه، أنفاسها ليست أنفاس أمرىء نائم. بذل

جهداً فيما هو يرتعد، ليسألها بعد لأي، إن كانت نائمة:

- لا، لست نائمة.

سأل وهو يرتجف:

- هل أذهب؟

لم تجب...

بعد أن تردد لحظة، نهض «ناتشو» وذهب إلى السرير الآخر، وجلس يداعب محيا أخته، فأدرك أن دموعاً كانت تسيل تحت عينيها.

قالت برقة، إنما بصوت لم يكن قد سمعه من قبل قط.

- دعني.

ثم أضافت تقول:

- أفضل أن لاتدخل.

مكث «ناتشو» لايدري ماذا يفعل، بجانب ذلك الجسم الذي كادت يداه تلامسانه، وهو الآن ناء عنه، بوناً لايدرك.

نهض رويداً رويداً، وعاد إلى سريره حيث انهار فوقه.

جسمك ورباط حرير خشن يودي

لبساتين الشاطيء

شعرك نديان عرقاً تلفحه السحب

مدى لحظات لاتنسى

كم من رحلة تشريد، كم من ترحال أملاه الهرب

كم من تكريم لجمال وحشي

يستدعي الفوضى

سائر منحدرات الزمن المتقلب

سرعان الحب

مصفاة الحرمان الكنسي السحرية

ضوء الشوق الجائع في دمنا ينبض

كالسوط

وجموح النخل المتوحد

حين الغيبة

ينمو في صدري

لي عمق الأرض يرد سريعاً

كلّ تداعبنا الغابر

عقد العاطفة الثائر

في حلقات الزمن السوداء

تلك الأمتعة المسلوبة والمطر

سنا خلجان في البحر

ونوارسه وملاحمه

في مذبح تفريق بضياء أقمار كبرى فتانة

لامرج سوى عينيك

بلد معصوم لايفسد

بلد الخدر

ضحكات تحملها الريح وتعبق بالخمر

وعلى وجهي شعرك منثور

إتصال «خورخي ليديسما»

مازال العالم مقلوباً، قوائمه نحو الأعلى. سبب آخر ليكون المرء متفائلاً، فلا أحد قد سبقنا.

أنا مازلت فاشلاً بإنتظام يثير الضحك. ولدت مغفلاً، وفجأة وجدت أنني لاأدري ماذا أفعل. لن أذهب بعيداً، فقد صعدت عارياً مرة عمود النور عند تقاطع شارعي «كورينتس» و «سويباتشا»[1]، قدرت يوم سبت عند الساعة الخامسة مساءً. حبسوني عدة أشهر.

سأدلي لك بإعتراف يا «ساباتو»: أنا لم أكن أرغب بأن آتي إلى هذا العالم، لم أبدِ أي إشارة. كنت مرتاحاً جداً، وعندما تعين علي أن أخرج قاومت. أدرت عجزي. ولكنهم، مع ذلك أخرجوني بالقوة، بالقوة دائماً، باسم ما هو أفضل. ومن هنا أدركت أن هذا العالم لايمكن أن يكون سوى خر.. وأنت أيضاً لابدّ أن تكون قدلقيت أمراً مشابهاً. لقد خسرنا، إنني أعرف. ولكن يتعين علينا الآن أن نتحمل شئنا أم أبينا. إننا شخصان سيرويان الأمور بوضوح، أعني إننا بائسان. أنا أمتاز بأنني متفوق بالجهل.

(١) منطقة مزدحمة بالمارة تقع وسط مدينة بوينس أيرس (المترجم)

أكتب إليك لأعلمك أنني قررت أن أنصّبك وريثاً لي، بعد موتي. لاأريد أن يجري لي ماجرى لـ «ماركوني»، الذي لم يفهم أحد خبراته بعد موته. إن أسرتي مطلعة على الأمر.

«لاينام أحد في العربة التي تذهب به إلى منصة الإعدام». إنك تتذكر ذلك. عظيم، منذ زمن وأنا أدرس مقولة أرسطو المشهورة: يجب أن تجد المبدأ. أعلم كيف ولِمَ صُنعنا. أتدرك ماالذي أقوله لك؟ أود أن أكون فظاً ولاأزين شيئاً. فالنظرية يجب أن لاترحم، وستنقلب ضد مبدعها إن لم يعامل نفسه بقسوة. إن خوفي من أمر غير متوقع يجعلني أحمل هذا الإكتشاف الهائل معي إلى «تشاكاريتا»[1]، دفعني إلى أن أكتب. يجب أن أتوقع وأحسب، بعيداً عن كل زهو، وأن لاأنساق وراء كثير من الأوهام. «فولتير»، أعتبر «روسو» متهوراً و«كاريل» أعتبر «فرويد» مؤذياً. وأنا مُتجاهل، حزين، وحيد، لايهمني سوى الإنسان: أن لايفقد طرف الخيط الذي كلفني إكتشافه جهداً كبيراً. وإن الحقيقة كحريق في الغابة، تنير الطريق أمام الأسد والغزالة لينجوا معاً.

أعرف لماذا ولأي هدف وضعونا في هذا الماخور، والسبب في القضاء علينا فيما بعد، وكما ستعلم فإن هذا يفترض أن تلك المقياس الذي تقيس به سائر النشاطات البشرية. كان الإله مرحلة ضرورية ستجعل الطلاب يضحكون بعد مئة سنة، مثلما نضحك الآن من بطليموس. إن كان «كنت» يقول إن ذلك مستحيل فلأنه لم يجاهد كما فعلنا نحن للعودة إلى الداخل. الإنتظام «الحميري» الذي كان يجعله يمرّ في الساعة ذاتها عبر الشوارع نفسها يدلل على إحترامه للقانون السائد. كان مرتاحاً جداً في الفوضى التي فسرها بدلاً من أن يجد حلاً لها. كيف يمكن أن يقبل المرء أن يكون قد وضع في هذا الكوكب مرغماً، وفي

---

(١) تشاكاريتا: أكبر مقابر مدينة بوينس أيرس (المترجم)

الوقت المناسب، حين يصبح عجوزاً يثير الإشمئزاز، يطرد منه وسط آلام مريعة، من دون أن يتلقى أي تفسير أو إعتذار؟ ولِمَ يتعين علينا أن نخاف من ذلك الشخص، لالشيء، إلاّ لأنه ولد في ألمانيا؟. في حين، أن الإنسان منذ آلاف السنين، برغم «كنت» والعلوم كلها، وتفتيت الذرة، إنما هو كالذباب أو السلاحف، يولد، ويتألم، ويموت دون أن يعرف لماذا. ساباتو: لا تفعلوا بي هذا.

فتحت ثقباً ومكثت أشاهد. وسأدعو من لايخافون ليسترقوا النظر إلى المشهد الذي تقشعرّ منه الأبدان. إن كانت حدودي تثير فيكم الضحك، فأظن أن «فارادي» تعلم كل شيء من الكتب التي يجلدها. كتبت إليك، لأنني رأيتك في الجبل: متجمداً ومجنوناً، ولكن إن نزلت في يوم من الأيام وفكرت مثلما تفكر هذه الدجاجات هنا، تحت، ستكون قد حولتني إلى أي قديس من أمثال «سانت بوف» وستجعلني أشعر بالإشمئزاز.

لديك برهان على شجاعتي، لأنني كنت أهلاً لتسلق عمود نور عرياناً كي أعاقب نفسي على جبنها وأبرهن لها أنني كنت على قدر كبير من القوة تؤهلني لأهزأ من أولئك الذين كانوا سيهزؤون بي. الفارق هو أنني ضحكت من أعلى.

إسْدِ لي معروفاً، فلا تَمُتْ حتى ١٩٧٣ ، حيث سأرسل لك المخطوط النهائي لأبحاثي. إننا على أعتاب عصر جديد. عانينا من كل أنواع العسف والجرائم والظلم. ستكون هنالك محارق أخرى. جهد لافائدة منه. إن عهد «التقنية الأخلاقية» قد بدأ. وكما حدث منذ ملايين السنين، فإن عيوناً أخرى تشق الطريق عبر عظام القحف. ياله من مطل ياساباتو.. وكم سيكون مستقبل أولئل الذين تستطيع أعصابهم أن تتحمل رائعاً..

إن قامت القوة المناهضة للعالم بالقضاء عليّ، فسيقع عليك أن عبء

صيانة ونشر كل شيء، عندما يصل إلى يدك.

نهض وهو يصرخ

كان قد رآها تتقدم وسط النار، بشعرها الطويل الأسود، تعبث به ألسنة اللهب الجامحة التي تلتهم البرج، كأنها مشعل حي يهذي، كانت تبدو أنها تعدو نحوه، تطلب عوناً، وشعر فجأة بالنار في جسمه هو، شعر كيف كانت تضطرم في لحمه، وكيف كان جسم «اليخاندرا» يرتعد تحت بشرته. أيقظه الألم الموجع والقلق.

كانت النبوءة تعاوده. ولكنها لم تكن «أليخاندرا» التي كان بعضهم يتصورها بكآبة، ولا تلك التي ظن «برونو» أنه أدركها عبر طبيعته الخامدة المفكرة وإنما كانت «أليخاندرا» الحلم والنار، الضحية والمسؤولية عن قتل والدها. وكانَ «ساباتو» يعود ليتسائل، لماذا كان يبدو أن ظهور «أليخاندرا» ثانية يذكره بواجبه في أن يكتب، حتى ضد كل القوى التي تعارضه. كما لو أنه كان لابدّ من محاولة حل تلك الألغاز التي تزداد غموضاً يوماً بعد يوم. كما لو أنه لم يكن يتوقف على ذلك الجنون المعقد والمشكوك فيه خلاص تلك الفتاة وحسب، بل وخلاصه هو أيضاً.

كان على وشك أن يصرخ في غرفته. ولكن خلاص أيّ شيء؟

الفتى «موسّيو»

كان يلوذ كما يقال بصمت قدسيّ. كانت المقاعد الجلدية الضخمة، والإنتظار، وأهمية السيد «روبين بيريس ناصيف»، ومرور المستخدمين بخوف، يثير في نفسه مزيجاً من الرعب، والخجل والندم تخالطه عبارات وبقايا عبارات مثل:

مجتمع استهلاكي.

رأسمالية، بورجوازيون خنازير.

تغيرات البنى... الخ

كان يبدو له أنه كان يلمح خلفها وعبر فجواتها، وجه «ناتشو إيساغيري» المنفر، الساخر، الصارم، ذلك البوارجوازي الصغير، المعادي للثورة، ذلك الرجعي العفن.

حاول أن يبعد الشبح المنفر، فصعقه ذهنياً بعبارات جوهرية مختارة: يجب تغيير البنى..! التمرد ضد أمثال «بيرس ناصف» هو كإعطاء صدقات في الشارع..! فإما الثورة الإجتماعية أولا شيء.

ولكن وجه «ناتشو» كان يسترد تماسكه بعد كلّ صعقة، وفي كلّ مرة كانت تتسع تكشيرة السخرية المرتسمة على فمه.

بذل جهداً لإبعاد الشبح، فركز تفكيره على لوحة: نصائح إلى الذين يودون أن يصبحوا أغنياء، لـ «بنيامين فرانكلين» (الموضوعة ضمن إطار)

> فَكِّر بأن الإعتماد مال. إن أخذ أحدهم مني أمواله التي - أنا مدين بها - يكون قد حرمني من الفائدة ومن كل مايمكن أن أربح منها في تلك الفترة. يمكن والحالة هذه جمع مبلغ كبير إن حصل المرء على إعتماد وعرف كيف يستخدمه.
>
> فَكِّر بأن المال خصيب ومنتج، المال يمكن أن ينتج مالاً، وإنتاجه يمكن أن ينتج بوفرة أيضاً، وهكذا بالتتابع، خمسة شلنات إذا استثمرت جيداً تصبح ستة، وهذه

تصبح سبعة، وهكذا حتى تصبح مئة ليرة. إن استثمر المرء مالاً أكثر، ينتج أكثر، والفائدة ترتفع من دون توقف. من يقتل خنزيراً يقضي على نسله كله، حتى العدد ألف. من يبدد قطعة نقد قيمتها خمسة «شلنات» يكون قد قضى على كلّ مايمكن أن ينتج بفضلها: عمود كامل من الليرات الاسترلينية. إن أتفه الأعمال التي يمكن أن تؤثر على الإعتماد يجب أن تؤخذ بعين الإعتبار. إن ضربة مطرقتك على السندان التي يسمعها مقرضك الساعة الخامسة صباحاً والساعة الثامنة مساءً تدعه سعيداً لستة أشهر.

ولكن إن رآك تلعب «البليارد»، أو سمع صوتك في الحانة في الساعة التي يتعين عليك أن تشتغل فيها، سيتذكر دَيْنه في اليوم الثاني، وسيطلب المال قبل أن تستطيع تأمينه. احسب جيداً نفقاتك ودخلك. لو حمّلت نفسك عبء الإنتباه إلى هذا الأمر، ستكشف كيف تتحول نفقات صغيرة جداً إلى مبلغ كبير جداً، وسترى ما كان يجب أن توفره ومايمكن أن توفره في المستقبل. من يبدد بنساً واحداً في اليوم، يضيّع سنوياً ست ليرات، يمكنها أن تتيح إنتاج مئة. من يبدد كل يوم وقتاً تعادل قيمته «بنساً» واحداً، يضيّع اذن ميزة إستخدام مئة ليرة سنوياً.

عناصر ذات أهمية في المقابلة

عمرك ياسيد «بيرس ناصف»؟

٢٤ سنة. متزوج

أولاد؟

ثلاثة، أعمارهم: ١٥ و ١٢ و ٣ الأول صبي، إسمه روبين كوالده. الثانية «مونيكا باتريسيا»، الثالثة «كلاوديا فابيانا» التي ولدت من غير قصد، بعد أن كانت الزوجة والسيد «بيرس ناصف» قد اتفقا على أن صبياً وبنتاً يكفيان.

كيف بدأ حياته؟

كان أمراً معروفاً وذائعاً أنه بدأ عاملاً صغيراً في شركة «سانيبر» وهو فخور بهذه البداية المتواضعة. إن الأرجنتين تتمتع والحمد لله، بهذه الميزة التي تتيح تسلم أعلى المناصب بالعمل الدؤوب والإيمان بالمستقبل الباهر. أمر آخر، إن كان النصح مرغوباً فإنني سأبوح به، إنما أود أن يبقى خارج التسجيل. وهو أنّ السيد «لامبروسكيني»، اختاره من بين ستة فتيان، لأنه رأى في وجهه بشائر جعلته يفكر بأنه سيكون له مستقبل. كلمات بنصها الحرفي. بعدئذ تذكر دائماً الثقة التي محضها السيد «لامبروسكيني» شخصه المتواضع، منذ اللحظة الأولى.

من كان يقول إنه في يوم من الأيام سيتسنم منصباً أرفع من المنصب الذي كان يشغله السيد «لامبروسكيني».

هكذا إذن، أيها الفتى «موسّيو». إنه قانون الحياة. ولكن لابدّ من القول إن السيد «لامبروسكيني» كان مثالاً للتفاني في العمل والإستقامة الذي اعترفت الشركة به بكل ما أوتيت من قوة. ذلك أن «سانيبر» تمكنت برجال من معدنه ونوعيته، من الوصول إلى ماوصلت إليه. وهو على الرغم من أنه لم يعد ينتمي إلى فريق العمل، بعد أن فضّل أن يحظي بمنافع معاش تقاعدي كبير، فإن شخصيته المميزة، ويمكننا أن نقول أيضاً، والأبوية، هي حاضرة في هذه المؤسسة دائماً، إنه لأمر يدعو

للإرتياح أن نتذكره الآن وأن نبرز مايتحلى به من نكران ذات، وإستقامة مشهودة، وروح تضحية وحب لهذه الأسرة الكبيرة التي تتألف منها «سانيبر». حتى بلغ به الأمر أن قام هو بإصدار أمر يسمح لنفسه بأن يغيب مرة واحدة فقط طيلة مدة خدمته التي امتدت ثلاثين عاماً متواصلة لإجراء فحص طبي لابد منه، حين بدأت صحته تتدهور. هذا الطراز من الرجال هو الذي يصنع عظمة الوطن. لاشك أن الجميع، في هذا اليوم الذي يحضر فيه دفن السيدة والدته ـ وبرغم المناسبة المحزنة ـ قد سرّوا برؤيته ثابتاً كما في أفضل أيام حياته.

أي شركات أخرى تحظى بإدارة السيد «بيرس ناصيف»؟

بالإضافة إلى «سانيبر»، طبعاً رئاسة شركة المباني «بيريناس» ونيابه رئاسة شركة الإعلانات «بروبارت». إنها مسؤوليات كبيرة، كما نفهم، إنما لاتمنعه من أن يضطلع بمهمات بعيدة عن نشاطات أرباب الأعمال، لكنها تفيد مصالح المجتمع، أليس كذلك؟ حسناً، حسناً، يجب عدم المبالغة، لأن هذه المهمات ليست سوى واجب مفروض على الجميع، وبخاصة علينا نحن الذين توصلنا، لحسن الحظ، إلى تسلم مناصب مرموقة. هذه مثلاً حالة نادي «لِيونِس» في ناحية «لوماس» حتى ١٩٦٥

انتقلنا بعدئذ لنسأل السيد «بيريس ناصيف» إن كان صحيحاً ما يشاع عن التوسع الكبير في نشاطات الشركة، ليشمل مجالات أخرى. يتحدث الناس تحديداً، عن إمكانية دمج «سانيبر» بشركة لإنتاج الأدوات الصحية.

يعتبر السيد «بيريس ناصيف» أن الحديث عن تلك الإمكانية، سابق لأوانه ولكن لايستطيع أن ينكر أن هذا الأمر مدرج في خطط الشركة للسنة المقبلة.

لا، لا أرى مبرراً للإعتذار: إنه سؤال مشروع تماماً، ويعتبر أنه لم ينتهك أي سرّ بالحديث عن هذا الأمر قبل أوانه. المشكلة، إلى جانب ذلك، ليست سهلة أبداً، إذ يجب أن تسبقها عملية تسويق مناسبة، مع الأخذ بعين الإعتبار الظروف الصعبة التي تجتازها الصناعة الوطنية بعامة، ثم خطّ الأدوات الصحية بخاصة. الأسباب..؟

عديدة وبالغة التعقيد. ليست المناسبة ملائمة للإفاضة في مثل هذه التفاصيل، وحين يأتي أوانها، سوف لن يتردد في الحديث عنها. ولكن يمكن القول الآن: إفراط في المزاحمة وريبة السياسة الوطنية في مجال الصناعة. هو من الأشخاص الذين يؤمنون بمستقبل الوطن ولكن الوضع السياسي الحالي يستدعي وقفة إنتظار.

أتؤثّر، برأي السيد «بيريس ناصيف»، في هذه الصورة غير المشجعة، الظروف السياسية للبلاد؟ أو مايمكن أن يوصف بأنه ريبة في المخرج الدستوري؟

لاشك في ذلك أبداً. ولابد من مخرج سياسي سريع في إطار إحترام المؤسسات التي تميزنا بها دائماً. ليس من الضروري أن نكرر هنا أن طبيعتنا بعيدة كلياً عن أي توجهات غريبة، وعن أي محاولة لدفع شعبنا إلى عقائد لاتتفق وطباعنا وتقاليدنا. إن مااتفق على تسميته بالمثل الغربية والمسيحية، يجب أن يشكل الأسس التي يتعين علينا تشييد أرجنتين المستقبل عليها. عن هذا الموضوع، تحديداً، ألقى محاضرة قام فرع نادي «ليونس» في ناحية «بولوني» برعايتها.

... الخ.

عزيزي، أيها الفتى البعيد

تطلب مني نصائح. ولكن لايمكنني أن أقدمها لك في رسالة بسيطة، حتى ولا في الأفكار التي تنطوي عليها أبحاثي، ولاتتفق وحقيقة ماأنا فعلاً، بل، ماأود أن أكون لو أنني لم أكن متجسداً في هذه الجيفة المنتنة، أو التي توشك أن تنتن، وهي جسدي. لاأستطيع أن أساعدك فقط بهذه الأفكار التي تتخبط في ضوضاء تخيلاتي، كتلك الزوارق الرأسية على الشاطىء، تعبث بها العاصفة. ولكن قد أستطيع مساعدتك (ولعليّ فعلت)، بذلك المزيج من أفكار أشباح ناطقة أو صامتة خرجت من أعماقي في رواياتي، وتكره أو تحب تساعد أو تدمر، تساعدني أو تدمرني أنا بالذات.

لاأعرض عن مدّ يد المساعدة التي تطلبها من بعيد. ولكن مايمكنني أن أقوله برسالة، إنما هو زهيد القيمة، وأقل في بعض الأحيان، مما يمكن أن يشجعك بنظرة، أو شرب كوب من القهوة معاً، أو مسيرة نقوم بها سوياً في هذه المتاهة «بوينس أيرس».

إنك تقنط لأن أحداً لست أدري مَنْ هو، قال لك، لست أدري ماذا. ولكن صديقك ذاك أو أحد معارفك (يالها من كلمة مضللة..!) هو قريب منك جداً، كي يحكم عليك، يشعر بميل إلى التفكير بأنك مثله، لأنك تأكل كما يأكل، أو، لأنه ينكرك فهو على نحو ما، متفوق عليك. إنها نزعة مفهومة: لو أن أحدهم يأكل مع رجل تسلق «الهمالايا»، ويراقب بدقة كيف يتناول السكين، فإنه ينساق إلى النزوع إلى إعتبار نفسه مثله أو متفوق عليه، نسياً (محاولاً أن ينسى) أن ماهو هام في هذا الحكم، ليس الأكل وإنما «الهمالايا».

يتعين عليك أن تصفح مراراً لاتحصى ـ عن هذا الضرب من الوقاحة.

لن تلقى الإنصاف الحقيقي إلا من أناس غير عاديين، يتمتعون بهبة التواضع والبساطة والذكاء، والتفهم البالغ. عندما جزم ذلك المكروه «سانت ـ بوف» بأن ذلك المهرج ويقصد «ستاندال» لايمكن أن ينجز عملاً كبيراً، قال «بلزاك» نقيض ذلك. أمر طبيعي: كان «بلزاك» قد كتب «الكوميديا الإنسانية»، أما ذلك السيد فكتب رواية تافهة لاأتذكر ماإسمها. هَزِيء من «برامز» أناس على شاكلة «سانت ـ بوف» . ما «شومان»، الرائع «شومان»، البائس «شومان» فقد أكد أن موسيقيَّ العصر قد ظهر. ذلك أن الإعجاب بالغير يتطلب من المرء العظمة، وإن كان يبدو أن في الأمر مفارقة. لهذا، قلما يعترف بالمبدع معاصروه: تعترف به على الدوام تقريباً، الأجيال اللاحقة، أو في أحسن الأحوال، تلك الأجيال اللاحقة الحديثة، إنما الإجنبية. الناس البعيدون الذين لايرون كيف تشرب القهوة أو كيف تلبس. أجل، ذلك حدث لـ «ستاندال» و«برامز»، فكيف إذن تقنط مما يقول مجرد شخص يعرفك، أو يسكن بجانب بيتك؟. عندما ظهر الجزء الأول من «بروست» (بعد أن كان «جيد» يلقي المخطوطات في سلة المهملات) كتب شخص يدعى «هنري غيبون» يقول إن ذلك المؤلف «قد تشبث في عمل هو فعلاً، نقيض العمل الفني، جَرْدُ أحاسيسه وإحصاء معلوماته في إطار متتابع، ليس محملاً وليس كاملاً أبداً، لحركة المناظر والنفوس». يعني أن ذلك الغطريس ينتقد تقريباً، ماهو في الواقع، جوهر عبقرية «بروست» أي مصرف من مصارف العدالة العالمية سيعوض «برامز» من الألم الذي شعر به، والذي كان لابد أن يشعر به في تلك الليلة التي كان فيها هو ذاته، يعزف على البيانو، في أول «كونشيرتو» له، للبيانو والأوركسترا، حينما صفروا له ورموه بالنفايات؟. ليس «برامز» وحده. كذلك وراء أي أغنية متواضعة من أغاني «ديسبيولو»[1]. كم من آلام هناك، وكم من أحزان

---

(١) ديسبيولو: مؤلف تانغو أرجنتيني مشهور (المترجم)

متراكمة وكم من كآبة.

ولكن ماأغرب الطبيعة الإنسانية، فليس التافهون والفاشلون فقط هم الذين يفتقرون إلى تلك المشاعر المنحطّة. ألم يجزم «لوب» أن دون كيخوته كان أسوأ كتاب قرأه في حياته؟ ألم يكن «بلزاك» يصمت عن شعراء كانوا بارزين مثله، في حين يمتدح آخرين من الدرجة الثالثة، ويضع دونهم متمرسين، كان في قرارة نفسه يحسدهم؟ ولكن لنعد إلى شكوكك. يكفيني قراءة واحدة من قصصك لأعرف أنك ستتوصل في يوم من الأيام إلى أن تصبح ذا أهمية. ولكن هل أنت مستعد لمعاناة كل هذه الأهوال؟ تقول لي إنك ضائع، متردد، لاتعرف ماذا تفعل، وأنه يتعين علي أن أقول كلمة ما.

كلمة... قد يتعين أن أسكت، وعندئذ يمكنك أن تفسر ذلك كأنه لامبالاة مريعة، أو قد يتعين علي أن أكلمك أياماً أو أعيش وإياك سنوات أتكلم حيناً، وأصمت حيناً، أو نتمشى معاً هنا أو هناك ولانقول شيئاً، كحالنا حين يموت أحد نحبه جداً وندرك تفاهة الكلمات وعدم جدواها. لاينقذك في هذه اللحظات ويعزّيك ويساعدك سوى فن الفنانين الآخرين. تنفعك فقط (ياللهول...) مكابدة الناس العظماء الذين سبقوك في هذا العذاب.

عندئذ، فإنك إلى جانب النبوغ أو العبقرية، ستحتاج إلى صفات روحية أخرى: الجرأة لكي تقول حقيقتك، الإصرار لكي تمضي قدماً إلى الأمام، مزيج غريب من الإيمان في ما يتعين عليك قوله، وعدم الإيمان المتجدد بقواك، تواضع أمام العظام وشموخ أمام الحمقى، رغبة في الحب، وشجاعة للبقاء وحيداً والإعراض عن غواية وخطر المجموعات الصغيرة، والقاعات ذوات المرايا. سيساعدك في تلك اللحظات تذكر أولئك الذين كتبوا وحدهم: في مركب مثل «ميلفيل»، وفي غابة مثل «همنغواي»، وفي قرية مثل «فوكنر». إن كنت مستعداً للعذاب، والتمزق

وتحمل الخسّة والبغضاء وعدم فهم الحماقة والضّغينة والعزلة المطلقة، فعندئذ، أجل ياعزيزي «ب» تكون مستعد التقديم بشهادتك، ولكن لن يستطيع أحدٌ، برغم ذلك، ضمان المستقبل، مستقبل هو في جميع الأحوال محزن: إذا مافشلت، لأن الفشل مؤلم دائماً، وفشل الفنان مأساوي، وإذا ماانتصرت، لأن الإنتصار دائماً ضرب من الإبتذال، حصيلة من سوء الفهم والمس، يحولك إلى هذا الذي يثير الإشمئزاز، الذي يسمى بالرجل المشهور، والذي يمكن لفتى مثلك في البدء، بحق (بحق..؟) أن يبصق في وجهه. وسيتعين عليك كذلك أن تتحمل ذلك الظلم، أو تحني ظهرك وتستمر في إنتاج عملك، كمن يشيّد تمثالاً في زريبة حقيرة.

إقرأ قول «بافيس»: «لقد أُفرغت كلك من ذاتك، لأنك لم تُفرغ مما تعرفه عن نفسك وحسب، بل ومما تشك به وتفترض، ومن إرتعاشاتك وأوهامك وحياتك اللاواعية أيضاً. ولقد فعلت ذلك بمشقة ثابتة وتوتر، وبحذر وذعر، بإكتشافات وإخفاقات. فعلته على نحو يجعل الحياة مركزة كلها في هذه النقطة. وحذار فإنه كلاشيء إن لم تحتضنه، ويعطي دفء إشارة إنسانية كلمة، حضور. وتموت من البرد وتتحدث في الصحراء، وتكون وحيداً ليلاً نهاراً مثل ميت».

ولكن أجل، سرعان ماستسمع تلك الكلمة ـ كما هي الحال الآن، حيث يسمع «بافيس» كلمتنا ـ وستشعر بالحضور التواق، بالإشارة المنتظرة من مخلوق يسمع من جزيرة أخرى صرخاتك، أمرؤ سوف يفهم إشاراتك، وسيكون أهلاً لحلّ رموزك، وعندئذٍ ستكون لديك القوة لكي تَمضي قدماً، ولن تشعر للمحة بهمهمة الخنازير. وستشعر ـ حتى وإن كان لبرهة عابرة ـ الخلود.

لست أدري متى، في أي لحظة قنوط جعل «برامز» تلك الأبواق الكئيبة تصدح بما نسمعه في المقطع الأول من «السمفونية» الأولى. ربما لم

يكن واثقاً من الإستجابات، لأنه تأخر ثلاثة عشر عاماً (ثلاثة عشر عاماً...!) كي يعود إلى تلك القطعة. كان قد فقد الأمل، كان قد بُصق عليه، كان قد سمع قهقهات السخرية من وراء ظهره، كان قد ظن أنه محطّ نظرات مبهمة. ولكن ذلك النداء الذي صدحت به الأبواق عبر الأزمنة، سرعان مانسمعه أنت وأنا ممن أثقل كواهلنا الحزن، ونفهم أن واجبنا نحو ذلك البائس، يحتم علينا أن نجيب بإشارة ما، تدلّ على اننا فهمناه. إنني لست الآن على مايرام. غداً، أو بعد وقت قصير سأتابع.

يوم اثنين من ٩٧٣

كنت في الحديقة عندما أخذ الصباح يشرق، ذلك الهدوء باكراً يريحني: صديق أشجار السرو والأروكاديا الحميم، وإن كان سريعاً ما يحزنني أن أرى أن هذه الشجرة العملاقة هنا كأنها أسد عظيم في قفص، في ن كان يجب أن تكون في جبال «باتاغوينا» الضخمة، عند الحدود لنبيلة والمنعزلة مع تشيلي. اقرأ ثانية ماكتبته لك منذ وقت قصير، وأشعر بالخجل مما احتواه من شجون. ولكن هكذا صدر مني وهكذا قلت. وأقرأ من جديد الرسائل التي بعثت بها إليّ في هذه الفترة أيضاً، طلبات النجدة. «لست أدري ماأريد تماماً». ومن يعرف ذلك من قبل؟ وحتى من بعد. كان «دولاكروا» يقول إن الفن يشبه التأمل الصوفي، الذي يبدأ من الإبتهال الملتبس إلى إله خفي، حتى المناظر العيانية للحظات العذاب الإلهي.

تنطلق من حدس مجمل، ولكن لاتعرف حقيقة ماتريد قبل أن تنتهي وأحياناً لاتعرف حتى بعد أن تنتهي. بقدر ماتنطلق من ذلك الحدس فإن الموضوع يتقدم الشكل. ولكن ما أن تتقدم، حتى ترى كيف أن التعبير يغنيه، ويخلق في الوقت ذاته الموضوع، وبعد أن تنتهي يصبح الفصل بينهما أمراً مستحيلاً، وحين المحاولة، يكون هنالك إما أدب «إجتماعي»

أو أدب «بيزنطي». وكلّ منهما مصيبة، مامعنى فصل الشكل عن الموضوع في «هملت»؟ لقد استقى شكسبير موضوعاته من كتّاب من الدرجة الثالث عشرة. مافحواها؟ موضوعات المبشر التعيس؟ مايجري في الأحلام: عندما نستيقظ فإن ما نتذكر على نحو مجمل هو «الموضوع»، وهو أمر يختلف كثيراً عن الحلم الحقيقي، مثلما يختلف موضوع ذلك الشيطان المسكين عن رواية شكسبير. مايقود إلى فشل محاولات بعض المحللين النفسانيين الذين يحاولون بالتمتمات التي يروونها كشف سر تلك الإسطورة الليلية الحافلة بالرموز. تصور محاولة البحث عن خبايا نفس «سوفوكليس» من رواية متفرج. لقد قال «هولديرلين»: إننا آلهة حين نحلم ومتسولون حين نصحو. ويعود إلى السبب ذاته فشل تحويل (يالها من كلمة مشؤومة..) بعض الأعمال التي هي في الأصل أعمال أدبية، إلى السينما. هل رأيت «الهيكل»؟ لم يبق منها سوى تسلسل الأحداث، ماعتاد الناس على تسميته قضية الرواية، وأقول ماعتاد الناس على تسميتة، لأن القضية هي الرواية كلها، بغناها وبريقها، بمضامينها الخفية، وإنعكاسات كلماتها، وأنغامها وألوانها اللانهائيةن وليس تلك الأحداث المزعومة والمعروفة.

ليس هنالك مواضيع كبرى ومواضيع صغرى، قضايا سامية وقضايا تافهة. الرجال هم الصغار أو الكبار، السامون أو التافهون. قصة التلميذ المسكين الذي يقتل مُرابية، هي «ذاتها» يمكن أن تكون مجرد خبر بوليسي أو «جريمة وعقاب».

وكما ستلاحظ، فإن استخدام المعترضتين أمر شائع، ويكاد لا يستغني عنه في هذا الصنف من المشكلات الزائفة. وهي توضع أنها ليست سوى: مشكلاف زائفة. وكما الحياة معقدة، فاللغة فعلاً أو نفاقاً، إنما هي كذلك، ويتعين علينا على الدوام أن نستخدمها.

أن لا تكون قادراً، كما تقول لي، على الكتابة عن «أي موضوع»، فذلك إشارة حسنة، وليس سبباً للقنوط، لاتثق بمن يكتبون عن أي شيء. إن للهواجس جذورها العميقة جداً، وبقدر ماتزداد عمقاً تصبح أقل عدداً، وأشدها عمقاً قد يكون أشدها غموضاً، لكنه أيضاً، أصل الهواجس الأخرى، الوحيد والجبار، الذي يعود للظهور في كلّ أعمال الكاتب المبدع: لأنني لاأحدثك الآن عن صنّاع القصص، عن صنّاع المسرحيات التلفزيونية «المخصابين» والأعمال الأكثر رواجاً وحسب الطلب عاهرات الفن، فهم بوسعهم اختيار الموضوع. حين تكون الكتابة جدية يكون الأمر عكس ذلك: الموضوع هو الذي يختار المرء. ويجب أن لا تكتب سطراً واحداً إن لم يكن حول هاجس يلح عليك، ويطاردك من أشد المناطق ظلاماً، طيلة سنوات أحياناً. أصمد، وأصبر، ضع هذه الغواية موضع التجربة. سوف لن تكون إحدى غوايات السهولة أخطر الغوايات التي يتعين عليك رفضها. إن رساماً يتمتع بما يدعي «السهولة» في م، مثله مثل كاتب يتمتع بسهولة الكتابة. حذار من الإذعان. أكتب عندما لاتتحمل أكثر، عندما تدرك أنك يمكن أن تصاب بالجنون، وحينئذ عد للكتابة «أيضاً»، أعني عد للغوص في طريق آخر بعزيمة أقوى، وخبرة وحماس أكبر، وهكذا دائماً. لن العمل الفني، كما كان «بروست» يقول، هو حبّ بائس ينبىء بحب آخر حتماً. الأشباح التي تصعد من كهوفنا التحتية العميقة، ستحضر ثانية مهما طال الزمن، وليس من الصعب أن تجد عملاً ملائماً لطبيعتها. والخطط المهملة، والمخططات المهجورة، ستعود لتتجسد على نحو أفضل.

ولا تبال بما يمكن أن يقوله لك الخبثاء، الذين يدّعون أنهم أذكياء: تكتب دائماً عن الموضوع نفسه، أجل طبعاً...! هذا مافعله «فان كوخ» و«كافكا» وسائر الذين يجب أن نهتم بهم، الآباء القساة (إنما العطوفون) الذين يرعون روحك. الأعمال المتتالية، كالمدن التي تشيد على أنقاض

مدن سابقة: فهي وإن كانت جديدة، لكنها تجسد ضرباً من خلود وطدته أساطير قديمة، وأناس من الأصل ذاته، وأمسيات وأصباح مشابهة، وعيون ووجوه ترجع للسلف.

ولكن ماعتاد الناس على إضفائه من إعتقادات على شخصيات الرواية، إنما هو غباء. يجب الرد بإباء وعلى نحو قاطع: («مدام بوفاري» هي أنا) وكفى. ولكن ذلك ليس ممكناً، لن يتيسر: سيأتي كلّ يوم من يستقصي ويسأل، إن كانت تلك الشخصية خرجت من هنا أو من هنالك، وإن كانت صور هذه المرأة أو تلك، وإن كنت أنت بالمقابل «ممثلاً» بذلك الرجل الذي يبدو أنه متفرج كئيب، فذلك يشكل جزءاً من المس الذي عنيته فيما سبق، ومن سوء فهم لانهاية له ويكاد يكون كالمتاهة في كلّ رواية خيالية.

الشخصيات..! ذهبت في أحد أيام خريف ١٩٦٢ أبحث بقلق مراهق، عن الركن الذي كانت تقطن فيه «مدام بوفاري». إنه لمن الغريب أن يقوم فتى بالبحث عن الأماكن التي كابدت فيها العذاب شخصية رواية، ولكن أن يفعل ذلك روائي يعرف أن تلك الشخصيات ليست موجودة إلاّ في نفس مبدعها، أمر يدلّ على أن الفن أقوى من الحقيقة الشهيرة.

وهكذا، حين استطعت أن أتبين في نهاية المطاف، كنيسة «ري» من قمة إحدى روابي «نورماندي»، تمزق قلبي: فبقدرة الإبداع الأدبي المبهمة تسنمت تلك القرية، قمة العواطف الإنسانية وأشد ذراها كآبة. هناك عاش وتعذب امرؤ، لو لم تنعشه روح فنان جبارة ومعذبة، لكان قد انتقل من العدم إلى العدم ككثيرين غيره، مثله كمثل وسيط تافه تسيطر عليه أرواح أقوى منه، فينبس في اللحظات الحاسمة بكلمات ويجيش بعواطف لم يكن بوسع نفسه الوضيعة أن تشعر بها.

يقولون إن «فلوبير» زار تلك القرية، ورأى أناساً من المحلّة، ودخل إلى الصيدلية التي كانت شخصيته ستشتري منها السم في يوم من الأيام. أتصور كم مرة جلس في أعالي إحدى تلك الروابي، ربما في المكان ذاته الذي توقفت فيه وماتيلدي[1] نتأمل أول مرة تلك القرية التافهة، سيكون قد فكر ملياً بالحياة والموت، وهو يبدع تلك المخلوقة التي كان قدرها أن تجسد كثيراً من مِحَنِه. تلك المتعة الحلوة والمرة في تخيل مصير جديد: لو أنه كان إمرأة، لو أنه كان مجرداً من صفات أخرى (بعض من استهتار مرير، وبعض من ذكاء جامح)؛ لو أنه كان - بدلاً من روائي - شخصاً محكوماً عليه بأن يعيش ويموت كإمرأة بورجوازية ريفية.

يؤكد «باسكال» أن الحياة منضدة قمار، يضع عليها القدر مولدنا وسلوكنا وظروفنا التي لايمكننا التخلّي عنها. يستطيع المبدع فقط أن يراهن مرة أخرى، في عالم الرواية الصيفي. إن لم يستطيعوا أن ينتحروا أو يكونوا مجانين أو مجرمين في الحياة التي كتب عليهم أن يعيشوها، فليكونوا، في أقل تقدير، كذلك في هذه الأشباه المتوترة.

كم من قلق كان سيتجسد في جسم تلك الرومانسية القروية المسكينة..! لنتصور طفولتها الكئيبة في «أوتيل - ديو»، ذلك المشفى في «روان». كنت أتأمله بإهتمام ودقة مريعة. كان المدرج يطلّ على الحديقة، في الجناح الذي كانت تشغله أسرته. كان «غوستاف»[2] يتسلق وشقيقاته الحاجز الحديدي مذهولاً يتأمل تلك الأجساد المتفسخة. هنالك، في تلك اللحظة كان سيضطرم في نفسه إلى الأبد ذلك القلق من مرور الزمن؛ هنالك كان سيحفر على نحو مروع بائس ذلك الداء الماورائي الذي

(١) ماتيلدي - هي زوجة ساباتو مؤلف الرواية (المترجم)

(٢) أي غوستاف فلوبير (المترجم)

يحرك معظم المبدعين العظماء لكي ينقذوا أنفسهم بالفن: القوة الوحيدة التي يبدو أنها تخلصنا من الوقتية العابرة والموت المحتم: «لقد حافظت على الشكل والجوهر السماوي لحبي الفاني...»[١]

قد يكون «غوستاف» قد مثل، فيما كان يراقب الفساد من فوق الحاجز الحديدي، ذلك الطفل الخجول الغارق في التفكير الذي يقولون إنه كان: بعيداً، ساخراً، صلفاً، واعياً مصيره المزعزع وجبروته أيضاً. إقرأ أفضل أعماله، ليس تلك العينات من النعوت، وتلك المعارض المملة للكلمات المنمقة، بل اشد صفحات تلك الرواية التي لاترحم قسوة، وستلاحظ أن ذلك الطفل المرهف والقانط في الوقت ذاته، يصف قسوة الحياة بشيء من اللذة والحقد. إن الكآبة والحزن هما الستارة الخلفية. العالم ينفره، يؤذيه، يضجره: يقرر بصلف أن يصنع آخر على صورته وشكله سوف لن يخاصم الدولة المدنية، كما حاول «بلزاك» ظالماً بسذاجة عبقريته، بل الإله ذاته. لماذا الخلق إن كان هذا الواقع الذي أعطيناه يكفينا؟ الإله لايكتب روايات: إنها تلد من عدم كمالنا، من العيب الذي يعتور العالم الذي أجبرونا على العيش فيه. أنا لم أطلب أن يلدوني ولاأنت: أتو بنا رغماً عنا.

لاتظنن أن «فلوبير» كتب قصة تلك الشيطانية المسكينة لأنهم طلبوا ذلك منه: كتب لأنه حدس فجأة بانه يستطيع بتلك القصة البوليسية كتابة قصته البوليسية السرية والخاصة، هازئاً من ذاته بالقسوة التي لايستطيع سوى مصاب بالجنون أن يتحدث بها عن نفسه، مجسداً بصورة هزلية شخصيته بتلك القروية المجنونة التافهة التي كانت مثله، تحب البلدان البعيدة والأماكن النائية. إقرأ الفصل السادس ثانية، وستراه هو، بهواه لأيام وأماكن أخرى وأسفار ومقاعد محطات، وإختطاف،

(١) وردت في الأصل باللغة الفرنسية. (المترجم)

وأطر مثيرة: الوهم الرومانسي في تمام نقائه، كما شعر به إلى الأبد ذلك الطفل لذي يتسلق قضبان الحاجز. إن موضوع روايته هو موضوع وجوده، البون الذي يزداد يوماً بعد يوم بين حياته الحقيقية وأوهامه، الأحلام المتحولة إلى حقائق خرقاء، الحب السامي المتحول إلى أحاديث تافهة. ماالذي كان بوسع المسكينة التعيسة أن تفعل سوى الإنتحار؟ وبتضحية تلك البائسة، تلك المشردة، تلك الرومانسية القروية المثيرة للضحك، فإن «فلوبير» (على نحو يثير الحزن) ينجو.

ينجو..! صيغة نقول بها مانريد، طريقة سريعة لرؤية الأشياء، كما يحدث دائماً حينما نتهاون. أنا أعرف بالقابل، ماكانت والدتي تقول والدموع ملء عينيها، بينما تفكر ليس في «إيما» وإنما فيه، في المسكين الناجي «فلوبير»: «ليكن الله بعونه...!»

يتخذ إصطدام النفس الرومانسية بالعالم شكل دوي ساخر وغضب سادي. فهي، لكي تحطم أوهامها أو تهزأ بها، يعتلي خشبة المسرح أحد مسوخ الحياة البورجوازية: هنالك تحت، خطابات البلدية، وفوق، في نافذة غرفة الفندق البائسة، بلاغة «رودولف» الأخرى، حيث يغازل «إيما» بعبارات جاهزة، جدلية الإبتذال المريعة التي يلجأ إليها الرومانسي «فلوبير»، ليسخر من الرومانسية الزائفة مثلما يمكن أن يصل الأمر بمتدين حد التقيؤ في كنيسة مكتظة بالأتقياء. هاهو «فولبير» ماثل أمامك. سيد الموضوعيين.

أقول هذا عرضاً وأرجوك، أن لاتعود لذكر تلك الكلمة: كما لو أنك تأتيني للحديث عن ذاتية العلوم. كن فخوراً بإنتمائك إلى قارة قدمت فيها بلدان صغيرة وبائسة مثل «نيكاراغوا» و «بيرو» شعراء عمالقة مثل «داريو» و «فاييخو». لنكن، إلى الأبد، نحن ذواتنا.. ليدعنا السيد «روب-غريلي» بسلام، ولايأتي كي يقول لنا كيف يجب أن تكتب الرواية.

وليدع فتيان نابغون مثلك إلى الأبد، الإصغاء بإحترام قدسي إلى ماتأمرنا به تلك العصبة من البيزنطيين والإرهابيين. إن كان البرابرة قد أنجبوا عدداً كبيراً من المبدعين فذلك بالتأكيد، لأنهم كانوا بمنأى عن محاكم التفتيش: فكر بالروس والإسكندناف، والأمركيين الشماليين. وانس إذن تلك الأوامر التي تأتي من باريس، مرتبطة بعطور وأزياء.

موضوعية في الفن...! إن كان العلم يستطيع، بل ويجب، أن يتخلص من الأنا، فالفن لايمكن أن يفعل ذلك، ولاجدوى من طرح الأمر كأنه واجب. ذلك «العجز» هو بالتأكيد فضيلتك. كان «فيختة» يقول مامعناه تقريباً، إن موضوعات الفن تخلقها الروح. وكان «بودلير» يعتبر الفن سحراً يلبس المبدع والعالم. تلك الكهوف الغريبة التي تقطنها مخلوقات «ليوناردو»، تلك الأحجار الكريمة الزرقاء المبهمة التي نلمحها ـ كأننا في قعر غواصة ـ خلف وجوهه الملتبسة، هل هي أي شيء آخر سوى التعبير عن روح «ليوناردو»؟

مترعون بالعاطفة الخالصة، ومفتونون بالعلم، ويُراد أن يصف الروائي حياة الناس كما يصف عالِم حيوان عادات النمل. ولكن أي كاتب يتحلى بالعمق، لايستطيع وصف حياة رجل الشارع وحسب، حين يتهاون (وهو يتهاون دائماً) فإن ذلك الإنسان المسكين يشرع بالشعور والتفكير كأنه مندوب جزء ما، مبهم ومنتزع من الخالق.

الكتاب العاديون هم وحدهم الذين يمكنهم كتابة سيرة عادية، ووصف الواقع الخارجي لحقبة أو أمة ما، وصفاً أميناً (يالها من كلمة منافقة...!)؛ أما الكبار فإن قدراتهم الجارفة لاتمكنهم من عمل ذلك، حتى ولو طلب إليهم. يقولون لنا إن «فان كوخ» كان يود نسخ لوحات «ميلي»، لم يتمكن طبعاً: كانت شموسه وأشجاره، تخرج من بين يديه شموساً وأشجاراً، ليست أيّ شيء آخر سوى وصف روحه القلقة. لايكتسي كبير أهمية

ماكتبه «فلوبير» حول ضرورة أن يكون الكاتب موضوعياً. يقول لنا في أحد مقاطع رسائله بالمقابل، إنه تمشي في الغابة في أحد أيام الخريف، فكان يشعر أنه رجلٌ وعشيقته، الحصان والأوراق التي يدوسها، الريح وذلك الذي يقوله العشاق. وكان يقول، إن شخصياتي تطاردني، أو إنني أنا بالذات موجود فيها.

إنها أقانيم تنبثق من أعماق الكائن، تمثل المبدع وتخونه بآن واحد، لأنها يمكن أن تفوقه طيبة وجوراً، كرماً وبخلاً. وهي تفاجىء حتى خالقها ذاته الذي يراقب حائراً، عواطفها وعيوبها، عيوب وعواطف يمكن أن تصبح مناقضة تماماً لعيوب وعواطف ذلك الإله الصغير شبه القادر القدير، في حياته اليومية: إن كان متديناً سيرى إنبثاق ملحد متحمس أمامه؛ وإن كان معروفاً بطيبته أو بكرمه، سيلاحظ أن بعض شخصياته تسلك سلوكاً يتسم بمنتهى الشر والبخل، ولكن ماهو أشد غرابة، إنه قد يشعر برضى ملتو.

(«مدام بوفاري» هي أنا)[1]، طبعاً. لكن وكذلك «رودولف» باستهتاره وعجزه عن تحمل رومانسية عشيقته والمسكين «بوفاري» وم. «هوماي» الصيدلاني الملحد أيضاً، ذلك أن «فلوبير» على الرغم من أنه رومانسي متحمس، وعلى الرغم من بحثه عن المطلق عبثاً، فإنه يمكن أن يفهم الإلحاد جيداً، ويفهم كذلك تلك الزندقة في الحب التي ندر الوغد «رودولف» نفسه لها.

يقول لنا معاصرو «بلزاك» (بتلك البهجة العارمة التي يشعر معها الصغار بأنهم أصبحوا كباراً بإكتشاف هفوات العظماء)، إن «بلزاك» الحقيقي كان مبتذلاً ومغروراً، وكأنهم يودون أن يجعلونا نعتقد أن مخلوقاته الكبيرة ليست سوى مجرد أشباح مريض بداء الكذب، كلا:

---

(١) وردت في الأصل باللغة الفرنسية (المترجم)

إنها أصدق تدفقات روحه، سواء كانت خيرة أم شريرة. وحتى الحصون والميادين التي يختارها لرواياته الخيالية، إنما هي رموز هواجسه. يؤكد لنا «ستيفان دي دالو» في «الصورة» أن الفنان «كالإله الخالق» يطل على عمله من علو لايبالي بينما يشذب أظافره، إرلندي غشاش.. ولكن مانعرفه عن هذا العبقري، سواء هذا العمل أو «عوليس» ليس سوى إسقاط لـ «جويس» نفسه: لآلامه، لمأساته الهزلية الشخصية، ولأفكاره.

المبدع موجود في كل شيء، ليس في شخصياته وحسب. يختار المأساة والمكان والمنظر. يؤكد «أفلاطون في الجمهورية» أن الإله خلق المثال الأصلي للمنضدة، والنجار يبدع شبه ذلك المثال الأصلي، والرسام يبدع شبيه ذلك الشبه. هذه هي إمكانية فن التقليد الوحيدة: إضمحلال مكعب. في حين أن الفن العظيم ليس تقليد منضدة النجار التافهة، وإنما إكتشاف الحقيقة عبر روح الفنان.

بحيث أننا في ذلك الخريف من العام ١٩٦٢ عندما تأملنا بقلب وجل، من قمة الروابي، كنيسة «ري» الصغيرة، وحين دخلنا صامتين نرتعد إلى ماكان من قبل صيدلية (م. هوماي) ولما نظرنا إلى المقعد الذي جلست فيه «إيما» قلقة، حزينة في العربة التي أقلتها إلى «روان» لم يعد كنيسة، ولا صيدلية ولاشارعاً في قرية، ذلك الذي كنا نراه: كان أجزاء روح خالدة نشعر بها عبر تلك الأشياء المجردة للعالم الخارجي.

مساء الاثنين

قضيت يوماً سيئاً ياعزيزي «ب». تحدث لي في هذه الأيام أمور ليس بوسعي تفسيرها، إلا أنني في هذه الأثناء، ولهذا السبب ذاته، أحاول التشبث بعالم الأفكار اليومي هذا. إغواء العالم الافلاطوني..

لكن الجلبة الداخلية أكبر، والضغوط التي تطاردنا أعظم وشعورنا بالنزوع إلى البحث عن نظام في الأفكار أشد. حدث لي ذلك دائماً، ولكن يتعين عليّ أن أقول، يحدث ذلك دائماً. فكر بالانسجام الاغريقي الشهير الذي ملؤوا به رؤوسنا في المدرسة الثانوية: إنه اختراع القرن الثامن عشر، ويشكل جزءاً من تلك الترسانة من الأحاديث المبتذلة التي ستجد فيها أيضاً طبيعة البريطانيين الفاترة، وروح الحرص لدى الفرنسيين. تكفي المآسي الأغريقية الدموية والكئيبة للقضاء على تلك الحماقة، إن لم يكن لدينا براهين فلسفية أخرى، وبخاصة اختراع الافلاطونية. كل إمرىء يبحث عما لايتوفر لديه وحين يبحث سقراط عن «العقل»، فذلك لأنه يحتاج إليه بسرعة لمواجهة عواطفه: كل الرذائل كانت تقرأ في وجهه، ستتذكر؟ سقراط اختراع «العقل» لأنه كان أحمق، وأفلاطون رفض الفن، لأنه كان شاعراً، سابقات جميلة لأولئك الذين يناصرون «مبدأ التناقض» ... وكما ترى، فإن المنطق لايفيد حتى مخترعيه.

أعرف تماماً هذه الغواية الأفلاطونية، ليس لأنهم حدثوني عنها، عانيت منها أولاً عندما كنت يافعاً، حيث وجدت نفسي وحيداً في واقع قذر وشرير. اكتشفت حينئذ ذلك النعيم، كمن كان يجر فوق مزبلة فوجد بحيرة شفافة يغتسل فيها. وبعد مضي سنوات، حينما كنت فتى شيوعياً في «بروكسل» خلت أن الأرض تميد تحت قدمي، عندما عرفت فظائع الستالينية، هربت إلى باريس حيث لم يمضّني جوع وبرد شتاء ١٩٣٤ وحسب، بل والوحشية أيضاً. حتى عثرت على بواب ذلك المعهد الاعدادي للمعلمين في شارع «اولم» الذي آواني في سريره، كان يتعين علي أن أدخل كلّ ليلة من نافذة سرقت حينئذ من مكتبة «جيلبير» كتاب تحليل رياضي، ولاأزال أتذكر اللحظة التي فتحت فيها الكتاب وأنا أرتعد، بينما أتناول كوب قهوة ساخنة، كنت كمن يدخل قذراً وجائعاً، هيكلا مهيباً، بعد أن هرب من المدينة نهبها واجتاحها البرابرة. ولقد احتضنتني تلك

النظريات مثلما تحتضن ممرضات رقيقات جسم أمرىء يمكن أن يكون عموده الفقري مكسوراً. وشيئاً فشيئاً، بدأت المح في حنايا روحي الممزقة، الأبراج الجميلة الشاهقة.

مكثت في حصن الصمت ذلك زمناً طويلاً. حتى اكتشفت في أحد الأيام أنني أصغي (لاأسمع وإنما أصغي، بشغف أصغي) إلى صخب الناس هنالك في الخارج. بدأت أشعر بالحنين إلى الدم وإلى القذارة، لأننا بذلك فقط يمكن أن نحس بالحياة. ومالذي يمكن أن يقوم مقام الحياة، حتى في آلامها وعدم كمالها...؟ من هم أولئك الذين انتحروا في معسكرات الاعتقال، وكم عددهم ياترى؟

هكذا نحن مخلوقون، وهكذا ننتقل من نقيض إلى آخر. لقد عادت في هذه الأيام المريرة من حياتي، تغويني في مناسبات كثيرة، تلك المنطقة المطلقة، لم أتمكن من رؤية مرصد قط، إلا وشعرت بالحنين إلى النظام والنقاء. وعلى الرغم من أنني لم أتخل في هذه المعركة مع أهوالي، على الرغم من أنني لم أستسلم لغواية العودة إلى المرصد مثلما يعود جندي إلى دير، فإنني فعلت ذلك خجلاً في بعض الأحيان، لاجئاً إلى الأفكار: منتصف الطريق بين حمّيا الدم والدير.

السبت

تحدثني عن ذلك الذي نشر في المجلة الكولمبية، إنه ضرب من البلايا التي ستجعلك في أحد الأيام ترخي ذراعيك قانطاً، أو تصرخ غاضباً. إنها أنقاض المقابلة. إن حذف الجزء الأكبر أهمية من أفكاري، جعلها لاتمت إليّ بصلة، أتدري مافعلت مرة وصديقي «ايتزيغسوهن» عندما كنت طالباً؟ دحض ماركس بكلمات ماركس.

وكما أرى، فإنك تمر بأزمة سببها قضايا يطرحها، في هذه الأيام،

الأدب الأمريكي اللاتيني، وبما أنك لم تسألني، يتعين علي إذن، ان أصحح التأكيدات شبه المضحكة التي أبدو فيها هناك متلعثماً: قلت دائماً إن التجديد في الشك ليس أمراً لاغنى عنه لعمل ثوري فنياً، كما يدل مثال «كافكا»، ولايكفي أيضاً، كما يدل كلّ ماقام به محتكرو اشارات التنقيط وفنون التجليد. ولعله ليس من الخطأ مقارنة العمل الأدبي بالشطرنج: باعادة ترتيب القطع ذاتها يستطيع عبقري أن يجدده، عمل «كافكا» بكامله، هو الذي يشكل لغة جديدة، وليس معجمه التقليدي ونحوه السلس.

هل قرأت كتاب «جانوش»؟ يجب أن تقرأه، ففي زمن الثرثرة هذا، من المناسب العودة مابين حين وآخر، إلى قديسين مثل «ك» و «فان كوخ»: سوف لم يخدعوك أبداً، بل سيساعدونك على تقويم اتجاهك، وسيلزمونك (اخلاقياً) على أن تتخذ من جديد موقفاً حاسماً. يحدّث «ك» في إحدى تلك الحوارات، «جانوش» عن قدرة البارع الذي يرتفع فوق الموضوع بسهولة المشعوذ. ولكنه يقول محذراً إن العمل الفني الأصيل ليس ضرباً من البراعة وإنما الخلق. وكيف يمكن الحديث عن مخاض يوقف بالبراعة؟ هذا رأسمال مهرجين ينطلقون من النقطة التي يتوقف الفنان الحقيقي عندها. ويؤكد أن أولئك الأشخاص يحبكون بالكلمات سحر صالونات، في حين أن الشاعر العظيم لايتاجر بالعواطف: إنه يعاني من هبة التصور الثاقب لتوتر الإنسان ومصيره.

إن تلك التحذيرات تلائمنا كثيراً نحن الاسبان والأمريكيين اللاتينيين الذين ننزع دائماً إلى اللفظية والخداع. أتتذكر «مايرينا» حين يهزأ من «الاحداث العادية التي تقع في الطريق»؟ أصبحت تظهر الآن عادة مع حكاية الطليعة، «بورخس» الذي لايمكن أن يساورنا الشك بأنه يستهين باللغة، يقول عن «لوغونيس» إن «عبقريته لفظية إلى حدّ بعيد»، وسياق

الكلام يكشف عن مضمون هذا التقييم الاحتكاري. ويقول عن «كيفيدو» كان أعظم صناع اللغة المهرة، ليضيف (لكن «سرفانتيس».....)، هكذا بثلاث نقاط توقف كئيبة. إن كنت تعلم أن دأبه كان البحث طيلة أيام عن النعت الأفضل (ولقد صرح هو بذلك) ستستنتج معي أن هذه الحجج المفحمة تنطوي على كثير من النقد الذاتي الأليم، وفي أقل تقدير، التزويق البالغ الذي يتعايش عنده مع فضائله، نزعات لاشك أنها تطري مقلديه (وتصورهم على نحو هزلي) حين يقوم هو ذاته بالتخفيف منها بهذا النواح الجانبي. فالكاتب العظيم ليس صانع الكلمة وإنما هو إنسان عظيم يكتب، وهو يعرف ذلك. وإن لم يكن الأمر كذلك، فكيف يفضل البربري «سرفانتس» على الفنان المبدع «كيفيدو».

توجد بين الحياة والفن، بين الحقيقة والتقليد جدلية تتكرر باستمرار. يسير كلّ شيء في عالم الروح نحو نقيضه. وحينما يصير الأدب كلامياً محضاً، حين يحلّ محتكرو اللفظية محلّ كبار المبدعين، وحين يتحول السحر العظيم إلى سحر قاعة موسيقا، تحدث دفقة تخلصه من الموت. كلما هدد بيزنطي بالقضاء على الفن بالسفسطة المفرطة فإن البرابرة هم أول من يخف لنصرته: برابرة المناطق المجاورة مثل «فولكنر» و «همينغواي»، أو الأصليين مثل «سيلين»: أناسٌ يدخلون على الجياد، ورماحهم تقطر دماً، إلى الصالونات حيث يرقص نبلاء معفرون بالتراب رقصة «المينيوويت»[1].

كلا، كيف يمكن أن أقع في مثل تلك البلبلة في التحقيق الصحفي؟ لم أنكر تجديد الفن: قلت يتعين علينا أن نقف ضد مخادعات كثيرة، وبخاصة ضد كلمة «جديد» التي تنطوي على أشد المعاني زيفاً. ليس هنالك تقدم في الفن بالمعنى الذي يوجد في العلم. رياضياتنا تفوق رياضيات

(١) رقصة بطيئة رزينة (المترجم)

«فيثاغورث»، ولكن نحتنا ليس «أفضل» من نحت عصر «رمسيس الثاني». يقدم «بروست» صورة هزلية لامرأة تعتبر من منطلق التقدم والبحث أن «ديبوسي» أفضل من «بيتهوفن» لالشيء إلاّ لأنه أتى بعده. لايوجد في الفن تقدم بقدر ماتوجد أطوار؛ أطوار تستجيب لمفهوم معين للعالم والوجود. لم ينحت المصريون تلك النصب الهندسية العظيمة لأنهم كانوا يفتقرون إلى النزعة الطبيعية، كما تدل صور العبيد التي وجدت في القبور فالواقع الحقيقي بالنسبة إليهم، كان الواقع الآخر، الماورائي، حيث ليس للزمن وجود، والهندسة الكهنوتية هي أكثر مايشبه الخلود. تَصَوّرْ الزمن الذي يفسّر فيه «بييروديلا فرانسيسكا» النسبة والمنظور: إنه ليس «تقدماً» في ميدان الفن الديني: فهو ليس سوى تعبير عن الروح البورجوازية، التي يكون «الواقع الحقيقي» بالنسبة اليها هو واقع هذا العالم، روح من يؤمن بسند الدفع أكثر من الصلاة، وبالمهندس أكثر من اللاهوتي.

من هنا يأتي خطر كلمة «طليعة» في الفن، وبخاصة حين يطبق على قضايا شكل محددة. مامعنى أن نقول إن نحت الإغريق الطبيعي متقدم على تلك النصب الهندسية؟ في الفن، الأمر معكوس، حيث يحدث عادة أن يصبح القديم ثورياً فجأة كما حدث للفن الزنجي والفن البولينيزي[١] في أوروبا المتقدمة تقدماً بالغاً.

حذار إذن من وثنية «الجديد». لدّى كلّ ثقافة معنى للواقع، ولدي كلّ فنان معنى للواقع ضمن ذلك الطور الثقافي أيضاً. الجديد بالنسبة لـ «كافكا» ليس الجديد كما يفهمه «جون دوس باسوس». كلّ مبدع يجب أن يبحث ويجد أداته التي تتيح له أن يعبر فعلاً عن حقيقته ورؤيته للعالم. وعلى الرغم من أن كلّ فنّ لابد أن يُؤَسّس على الفن الذي سبقه،

---

(١) نسبة إلى بولينيزيا وهي مجموعة أرخبيلات ممتدة من أمريكا حتى استراليا (المترجم)

فإن المبدع، إن كان أصيلاً، سينتج ماهو خاص به، وباصرار يكاد يثير ضحك من يتّبعون الأزياء الجديدة. لاتغضب: هذا ينطبق على الألبسة أو تصفيف الشعر، وليس على الروايات. يحدث أيضاً أن يكون إدراك الجديد فيما هو خارجي أسهل، ولذلك فإن «جون دوس سانتوس» أثار الإعجاب اكثر من «كافكا». ولكن كما قلت لك، فإن عمل «ك» بأكمله هو الذي شيد لغة جديدة. ففي تلك الرومانسية الألمانية البالغة، كان هناك لاهوتي يدعى «شلايرماشير» يعتبر اكتناه المجموع كأمر يسبق فحص الأجزاء، وهذا مايقوله إلى حدّ ما البنيويون الآن. إن الكلية هي التي تضفي معنىً جديداً على كلّ جملة وحتى كلّ كلمة. لاحظ أحدهم أن «بودلير» حين يكتب «في مكان آخر، بعيد جداً من هنا....!» تخرج لفظة مثل «هنا» عن ابتذالها في منظور «بودلير» لطبيعة الإنسان الدنيوية، فالإشارة الفارغة التي تفتقر من حيث الظاهر إلى الإحساس الشعري تأخذ قيمتها من روح أسلوب العمل بكامله. وأما مايخص »، فيكفي التفكير بالانعكاسات الغيبّية واللاهوتيّة اللامتناهية التي تنبعث من كلمة منقرضة، من صيغة تقليدية يكررها محامون مثل «عملية»...

ليس الأمر إذن ، هو أنني لاأقبل الجديد: لاأقبل أن يشوهوني، وهو أمر مختلف. ثم إنني لم أعد اتحمل التفاهة في الفن، وبخاصة حين يخلطون بين الفن والثورة)لاحظ أن الكلمات تكتب في البدء بأحرف كبيرة عادة، والخبرة التعيسة تقلصها إلى أحرف صغيرة، لتنتهي في نهاية المطاف، بعد خبرة أشد تعاسة، إلى أن توضع بين معترضتين(. امر طبيعي أن تساير امرأة الزي الجديد، ولكن أن يفعل ذلك فنان فهو يثير الأشمئزاز.

أنظر مايجري في الفن التشكيلي. لقد تحول - فيما عدا بعض الاستثناءات المأساوية - إلى فن نخبة، في أسوأ معاني الكلمة، إلى ضرب

من الزخرفة المضحكة تشبه تلك التي تزين قاعات القرن السابع عشر، أي أنه ليس فن طليعة بل فن مؤخرة. وكما يحدث في هذه الظروف دائماً، فإن فناً هزيلاً: يفيد للتسلية، ولتمضية الوقت، بين غمزات من هم على الشاكلة نفسها. كان يجتمع في تلك القاعات سادة بَرِمون بالحياة، للثرثرة، والهزل، ينظمون قصائد مساجلات وهجاء، ولعب بالكلمات، ويقومون بمحاكاة حركات هزلية، ويقترحون موضوعات، وكان لابدّ أن ينظموا أشعاراً نظموا مرة ٢٧ بيتا عن)افتراض(موت ببغاء. نشاط هو للفن العظيم، كألعاب نارية تطلق عند حريق ميتم. موسيقى مائدة، ولاشيء سيعيق الهضم. كانت الجدية مثار سخرية، البارع يحل محلّ العبقري الذي يكون دائماً سيء الذوق. أما فقراء الناس فكانوا يموتون من الجوع، أو يعذبون في الزنزانات، وفن من هذا النوع لايمكن أن يعتبر ألاّ ضرباً من ضلال روحي وانحطاط عفن، إلاّ أن هنالك مايجب أن يقال دفاعاً عن هؤلاء، ذلك أنهم لم يعتبروا أنفسهم فرسان الثورة التي أتت، وحتى في هذا كانوا ذوي ذوق رفيع، مما ليس بوسعنا قوله عن أولئك الذين يفعلون اليوم الشيء نفسه. فهنا، من دون أن نذهب بعيداً، في بوينس أيرس، فتيان يدعون أنهم ثوريون)أو في أقل تقدير، كانوا في ذلك الحين يدعون، ويحتمل أنه قد أصبح الآن لديهم وظائف وتزوجوا زيجات مرموقة(، استقبلوا بابتهاج غامر رواية يمكن أن تقرأ من الأمام إلى الخلف، أو من الخلف إلى الأمام، يتحدثون عن الجماهير وعن الضواحي الفقيرة، ولكنهم كأولئك الأمراء، عفنون ومنحطون على نحو رفيع. عرض أحدهم في آخر معرض في فينيسيا فتاة معته ة على كرسي فوق منصة. عندما تصل الأمور إلى هذه الحدود ن البربرية، يدرك المرء أن مدنيتنا بأسرها تنهار.

ها إنك ترى، ضد أي نوع من الجديد تحدثت وذلك السيد أثناء المقابلة، ظن أنني رجعي شعرت بالحاجة إلى أن أتقيأ. ولكنك عندما

تواجه هذه «الأكاديمية المعادية للأكاديمية»، ربما ستحتاج حينئذ إلى العودة ثانية إلى الشجاعة التي حدثتك عنها منذ البدء، فتستمد القوة من تذكر عظماء الفن البائسين مثل «فان كوخ»، الذين عانوا من عقوبة العزلة بسبب تمردهم، في حين يعيش أولئك المتمردون المزيفون ممن تدللهم المجلات المتخصصة، برخاء على حساب البورجوازي المسكين الذي يشتمون، يشجعهم المجتمع الاستهلاكي الذي يحاولون محاربته ويصبحون في نهاية المطاف مزخرفية.

لذلك فإنهم سيهزأون منك؛ ولكن كن ثابتاً وتذكر: «مايبدو أنه قديم جداً الآن، كان يبدو من قبل أنه حديث جداً»[1].

ربما لن تكون، على هذا النحو، كاتباً لوقت قصير، ولكنك ستكون فنان «عصرك» عصر الرؤيا التي ستيعين عليك أن تستمد منها، على نحو ما، شاهدك، لتخلص روحك. تقع الرواية بين بدء الأزمنة الحديثة ونهايتها، وتساير بالتوازي، التدنيس (يالها من كلمة معبرة...!) المتنامي للكائن البشري، وعملية تحطيم عالم الأساطير، المريعة. ولذلك فإن محاولات الحكم على رواية اليوم بعبارات تقليدية قاطعة، هي محاولات عقيمة تماماً: يجب وضعها في سياق الأزمة الكبرى الشاملة التي تتناول الإنسان، ودوره في هذه المرحلة الهائلة التي بدأت بالمسيحية. فلو لم توجد المسيحية ما وجد الضمير القلق، ولو لم توجد التقنية التي تميزت بها أيامنا المعاصرة هذه، لما كان هنالك تحطيم للمقدس وشكٌ كوني ولاعزلة ولاجنون. وهكذا فإن اوربا حقنت الحكاية الأسطورية أو المغامرة البطولية البسيطة بالقلق النفسي والغيبي، لانتاج نوع جديد (يتعين علينا أن نستخدم هذا الوصف الآن)... سيكون مصيره الكشف عن حقل خيالي هو: وعي الإنسان.

---

(١) وردت العبارة باللغة الفرنسية في الأصل (المترجم)

قال «جاسبين» إن كبار مسرحيي الدراما الإغريق كانوا يقدمون معارف تراجيدية لم تكن تثير عواطف متفرجيهم وحسب، بل تطورهم وتحولهم إلى مربين لشعوبهم، ولكن، فيما بعد، انقلبت تلك المعرفة التراجيدية إلى ظاهرة جمالية فهجر الشاعر، كما هجره مستمعوه، الموقف الصارم الأصلي: لتقديم صور بلا دماء. هذا ليس صحيحاً لأن عملاً مثل «المحاكمة» ليس أقل صرامة من «أوديب الملك» ولكنه صحيح بالمقابل، حين يعني الفن الذي يتحول بعد كلّ لحظة من التشذيب، إلى مجرد ظاهرة للاعراب عن الجمالية والبيزنطينية. وفي ضوء هذه العقيدة يتعين عليك محاكمة أدب قارتنا.

هذه الأحلام أودت بي إلى الجنون

كانت «ماتيلدي» تقول لـ «ساباتو، وتنظر إليه بثبات، كأنما تحاول النفوذ إلى مقاصده الكامنة، ويجيب، نعم، نعم، سأهتم بالأمر، لاتخافي.

كان المسخ ينظر إليها من زجاجته بملامح مريعة، أكان يتعين أن يدعه يخرج؟ لكن، والدودة السوداء، الشيطان الأسود الذي قفز إلى وجه (م) عندما كان «ريكاردو» يفتح بطنه؟

كان الخياران مريعين، وحيرته اصبحت أبدية. في حين كانت أوراق (ر) تظهر على نحو غريب، كأنها أطياف ساخرة سوداء آتية من مخابيء خفية. «تركها» في أماكن حصينة، ولكن كان لابد له من أن يقوم، مهما طال الزمن بزيارتها أو فحصها. المفهوم تقريباً: «أذهب لتنضم إلى الزوجين ـ سارتر ـ سيمون دي بوفوار. أنهما من الناس الطيبين».

صعوبات مختلفة الاشكال

سيبدأ الكتابة في اليوم التالي. إنه قرار له مبرراته، ويأتي مرافقاً

لشيء من النشاط. يخرج ليتمشى في وضع ملائم، وعلى الرغم من أنه يرى من ناحية الغرب رسم سحابة لايعرف تماماً لماذا عادت تقلقه، فإنه ينسى الأمر، وحين وصل إلى وسط المدينة يسير في شارع «أوروغواي» قرب مبنى المحاكم، يتفحص واجهات المتاجر التي توقظ اهتمامه دائماً، ربما بسبب ماتستدعيه من ذكريات الطفولة: وبكثير من الحذر، بينما يحاول عدم تفويت تفاصيل، جابها على نحو منظم، إذ من السهل أن يضيع في خضم الكمية المتنوعة من الأدوات: أقلام تلوين، صمغ لاصق، أشرطة لاصقة من مختلف الأحجام والألوان، فرجارات، شكالات يابانية، عدسات مكبرة، إنها مكتبات كثيرة وتجوابها يبعث في نفسه شعوراً يالسعادة يعتبره بشير خير للقيام بالمهمة التي يتعين عليه أن يبدأ بها في اليوم التالي. تناول بعد ذلك كوباً من القهوة في الـ «فورو»، واشترى صحيفة «لاراسون»، وقرأ الأنباء باهتمام مبتدئاً من الخلف، فالصحف والمجلات، كما دلته الخبرة طيلة حياته، مصنوعة على نحو مقلوب، الأمور بالغة الأهمية توجد دائماً في الصفحات الأخيرة.

ينام في تلك الليلة مصحوباً بشعور، إن لم يكن سعادة حقة، لكنه شبيه بها: العلاقة بينهما هي كالتي يمكن أن توجد بين بليّة وذكراها. حين يستقيظ، يشعر بألم شديد في ذراعه اليسرى، فلا يستطيع استخدامها. يستحيل أن يكتب شيئاً بالآلة الطابعة.

يصبح الألم، بعد مضي أكثر من أسبوع محتملاً، يصل عندئذ، البروفسور الدكتور «غوستاف سيبنمان» من جامعة «ارلانخن».

وحينما يذهب الاستاذ تكون قد تجمعت كمية من المراسلات، يقرر تكريس يوم أو يومين للرد عليها، كي لايتعرضه أي أمر أثناء الكتابة. ويكاد ينجز تلك المهمة حين يتلقى رسالة من الدكتور «وولفغان لوتشتينج» يبسط فيها تفاصيل آخر مشكلاته مع الدكتورة «شلوتر»

فيما يتعلق بالترجمة، ماذا يتعين عليه أن يفعل؟ فهو شخصياً، لوتشتينج، يفكر إنه يجب تغيير المترجم.

لا يتطلب عملاً كبيراً تذليل تلك الصعوبات كتابة الرسائل التي يتعين عليه أن يبعث بها إلى «لوتشتينج» وإلى الدكتورة «شلوتر» لتلطيف الوضع، وإنما التأكد من أمر عاد يقتحم على نحو شرير مشروعه. ويبدأ الكتابة بجهد وبكل ماأوتي من قوة... تهاتفه في تلك اللحظات «نويمي لاغوس» لتقول له إن «الفريدو» يقول إن أحداً قال له إن «غ» قال: (أين، كيف) إنه هو ساباتو كان قد قال لست أدري ماذا، لذلك فإن «نويمي» تفكر بأنه يتعين عليه أن يوضح (ولكن لمن، ومتى، وعلى أي نحو؟) أن ذلك الحديث ليس صحيحاً.

يغرق في كآبة تدوم أياماً عديدة، يفكر أثناءها: آ) ليس من الضروري أن يشرح لـ «غ» أي شيء عن أمر لم يقله ب) ليس من الضروري أن يشرح لأحد أي شيء حول أي أمر، في الحاضر، أو الماضي أو المستقبل ج) من الأفضل أن لايكون شخصاً مشهوراً د) والأفضل من كل شيء أن لايكون قد ولد قط. برنامج واسع جداً من الصعب تنفيذه، وخاصة مسألة أن لايكون قد ولد. ماأن فرغ من وضعه حتى غرق أكثر من ذي قبل، في الكآبة التي بدأت تباشيرها بالآم في ذراعه.

ولكن الأمور لم تنته، كما كان هو يعلم بفضل خبرته الطويلة، عن ذلك الحد.

بعد محاولات لاتحصى كان نصيبها الفشل، وقع الاختيار على السيد «رالف موريس» للقيام بمهمة ترجمة «أبطال وقبور» إلى الانكليزية، وبعد أزمة في لندن مع «هينمان» استغرقت عشر سنوات تقريباً، تتعلق بالمسألة ذاتها، تبين ان العينة التي أقرت، لم تكن ترجمة ذلك السيد

«موريس»، كما تدل الفصول التي أخذ يرسلها. يجب رفضها. لكن، والعقد مع «هولت ورينهات»؟. لقد أخرت قضية «هينمان» إصدار الكتاب باللغة الانكليزية عشر سنوات، وتهدد هذه الآن بتأخير إصداره في نيويورك سنوات عديدة. وفيما هو يفكر في إمكانية أن يكون لكلّ ذلك علاقة مع «العميان» (أحدهم تدخل كقارىء متحمس لمسودة «موريس» يدعى «أوخين»......) كُتبت رسائل لاحصر لها:

من ساباتو إلى موريس

من موريس إلى هولت

من هولت إلى موريس وساباتو

من موريس إلى ساباتو وهولت

أدت بعد مفاوضات صعبة ومزعجة ومحزنة، إلى القضاء على المهمة، وعلى صداقة السيد «موريس» الواعدة وعلى إنجاز الترجمة في وقت ليس من الممكن تحديده، وعلى جزء من ثقة الناشر «هولت» الذي يفكر الآن بأن أحداً لن يتمكن حتماً من ترجمة تلك الرواية إلى الانكليزية.

وفي سياق هذه العملية، يؤكد له الاستاذ «ايغون بافيليك» أن في ترجمة الدكتور «شوارز» الصربية الكرواتية أخطاء فاحشة ومدمرة في كثير من الأحيان. يقوم «ساباتو» بابلاغ بعض ملاحظات «ايغون بافيليك» إلى دار النشر «أتينيوم»، تبلغ دار النشر بدورها تلك الملاحظات طبعاً إلى السيد «ستيفان اندريك» الذي يقوم فوراً بحملة هائلة من الرسائل إلى النقاد والصحفيين والأساتذة والأصدقاء، حول ترجمته، حول مميزاته الأدبية والشخصية وتضحياته وتفانيه، وحول عيوب السيد ساباتو الأخلاقية والأدبية والجسمانية.

ويرفع الدكتور «لوتشتينج» في الوقت ذاته تقريباً دعوى جديدة ضد

الناشر ويهدد بالتخلي عن ترجمة النصوص إن لم يتنازل «ليمس» عن طلباته. رسائل ذات صلة بالأمر من «ساباتو» إلى «لوتشتينج» وإلى الدكتورة «شلوتير»، إيضاحات، مهاترات متبادلة ثنائية وثلاثية بين الدكتور «لوتشتينج» ودار النشر، وبين دار النشر والمؤلف، وبين المؤلف والدكتور «لوتشتينج»، وبين هذا ودار النشر طيلة عدة أسابيع تعقدت أثناءها أمور ساباتو بدفن «ك»، اجتماع في بيت «بيسالدو» حيث يؤكد «ب» أن «ساباتو» نسي نهائياً، وعلى نحو ينطوي على معنى، اصدقاءه، مناقشة فظيعة بسبب أمر يقول «هـ» ان «غ» قال فيما يتعلق بالتوضيح الذي رفض ساباتو الادلاء به، رسالة إلى مجلة «راسون أي فابولا» في «بوغوتا» لتصحيح التشويهات الفظة للقاء قبل أن يجريه مع شخص معين على نحو مهذب، وأخيراً نوبة نقرس استغرقت حوالي أسبوعين، تعهد بعدها بأنه في جميع الأحوال، ومهما حدث، سيستأنف العمل في روايته.

ولكن وصل حينئذ الطالب «ريتشارد فيرغوسون» الذي يكتب بحثاً حول روايته في جامعة واشنطن.

وما أن حدث ذلك حتى تعين عليه مواجهة أمر تدقيق أعماله الكاملة لدار النشر «لوسادا» والقاء نظرة مجاملة على الطلاسم التي حملها اليه السيد أحمد موسى: الترجمة العربية لـ «النفق»، في حين يجب كتابة أو توقيع تصريحات عن:

وضع اليهود في روسيا

التعذيب

السجناء السياسيون

البيرونية

العداء للبيرونية

أحداث باريس، براغ، كاراكاس، سيلان.

القضية الفلسطينية.

في الوقت الذي بدأ فيه قراءة رسالة بالغة الصعوبة حول الترجمة إلى العبرانية التي يقترح فيها، ويوافق، وفي نهاية المطاف يرفض، بعد خيارات صعبة، المترجم الذي اقترحته دار النشر.

يصل في ذلك الحين استاذ من جامعة «ميكجيل» في «مونتريال» يقوم بالقاء محاضرات عن الأدب الأمريكي الإسباني ويود تسجيل محادثاته.

أثناء ذلك تجمعت كمية من المراسلات، يتعين عليه فيها أن يرفض، ولكن بلا إهانة، دعوات من:

جامعة «سانتياغو دي تشيلي»

منتدى الكتّاب في كاراكاس

الجمعية العبرية في «روسياريو»

لجنة مساعدة مدرسة الصناعة الثالثة في «كوردبا»

لجنة المحافظة على القدس

نادي روما

جامعة «سالتا» الكاثوليكية

مجلة المكتبة الشعبية في «ألمافويرتي»

جمعية خريجي «لينكولن» (محافظة بوينس أيرس)

معهد المعلمين «ماريانو مورينو» في «بيل فيل»

معهد الآداب في جامعة «كوجو»

جمعية الكتاب في «ريوكوارتو»

مهرجان مانيزاليس في «كولومبيا».

أجاب البعض مدعياً أنه يعاني من نوبة نقرس ليست موجودة، لكنها تحدث ماأن يدعيها، نوبة تستغرق خمسة عشر، أو عشرين يوماً، يغتنمها لكي يقرأ «دون كيخوته» معاهداً نفسه على أن يبدأ بالكتابة توّ تخلصه من الألم.

مشروع كان لابد من تأجيله بسبب حدثٍ وقع كصاعقة في يوم مشمس: أحد يوّد أن يحدثه عن أمر، ولكن رجاء شخصياً وليس هاتفياً، يشدد على ذلك الشرط. أمر؟ لف المجهول ودار مراراً قبل أن يضطر إلى أن يدلي بسبب اللقاء: أمر يتعلق بما كتبه حول العميان. عجباً، كم هو آسف، ولكن لن يستطيع أن يلتقيه لكي يناقش هذا الأمر، لأسباب عديدة. وبشكل أساسي لأنه لايمكن أن يكون هو مسؤولاً عما تقول أو تفعل إحدى شخصياته. يتظاهر المجهول بأنه يقبل الحجة، ولكنه يعود بعد بضعة أيام ليصرّ على طلبه ويتحدث باستمرار مع الخادمة. ثم يحاول مرتين أن يتكلم مع (س)، الذي لم يستجب. ولكن بعد تلك المكالمة يكون قد تخلى ثانية عن مشروعه في أن يكتب.

لم يفعل شيئاً سوى البقاء جالساً في غرفة عمله ينظر طيلة ساعات إلى أحد الأركان.

استمر حظه العاثر، كان ذلك واضحاً

لكنه لايستطيع أن يتراجع، وهكذا فقد غرق في مقعده، وأقسم بأنه لن يتدخل مهما كلف الأمر. كانت عينا «بيبا» تطلق أشعة «لايزر».

صاحت:

ـ الأمر الوحيد الذي ينقصنا، أن تنكر العرافة.

وأجاب الدكتور «أرّامبيدي» وهو يعدل ربطة عنقه ويشد كمي قميصه الأزرق، بينما تعلو وجهه أمارة الدهشة الدائمة، إنه يريد وقائع وليس عموميات. وقائع ياأصدقائي، ثم إنّ كلّ شيء يتوقف على مايفهم من كلمة العرافة: مختص بالأشعة مثلاً يكتشف ورماً بأشعة «إكس» فهو يرى أشياء لايراها الآخرون. لمعت عينا «بيبا» بسخرية مرة:

ـ إنك من الأشخاص الذين يُثارون بمجرد رؤية إحدى صور الأخوة «رايت» وتأتي الآن بهذه القصة القديمة عن أشعة «إكس».

ـ أقول لك إنه مثال. لعلّ بعض الأشخاص يصدرون أشعة لانعرف عنها شيئاً بعد.

نعم، طبعاً، تقليدي. تقترب مهددة بكأس «الويسكي» وتطلب أن يجيب على نحو محدد: أيؤمن بالسيد «سلامة»، نعم، أم لا. عَدَلَ «أرّامبيدي» ربطة عنقه، وشد كمي قميصه وأجاب:

ـ ذلك «التوركو»؟؟ لست أدري.. إن كنت أنت تؤكدين.....

لم تكن مسألة سخريات رخيصة...! ليست هي التي أكدت ذلك، بوينس أيرس بأسرها كانت تعرف. ولكنه هو، لا يؤمن إلاّ بأرساغ وأعضد وسيقان، وهذا ماكان يدعوه وقائع، وماعداه خداع. ثم، لديه تلك العادة

في نكران مالم يكن هو شخصياً (قالت تلك الكلمة وهي تصرخ في وجه الدكتور تقريباً) قد رآه. ولذلك فإنه في النتيجة، يجب أن ينكر وجود «ماتوّغروسّو» لأنه لم يكن هناك من قبل قط. نعم أم لا؟

اتكفأ الدكتور «أرّامبيدي» إلى الخلف قليلاً، لأنه كاد لايستطيع أن يتكلم وكأس «بيبا» مُشرع فوقه.

- لست أدري لماذا تجعلينني معاصراً للإخوة (رايت).

وكأنما كانت تلك الفكرة تؤكد توقعاته، حسب منطق «بيبا» الخاص، استنتجت:

- إذن لاتؤمن بالعرافة.

اتجه «أرّامبيدي» نحو (س) الذي كان مطرقاً ينظر إلى الأرض. فحذّرة:

- إنك شاهد. قل لكاهنة إله الخمر «باخوس» هذه إن كنت أنكر إمكانية العرافة. قال (س)، وهو مطرق، لم يرفع رأسه، لا.

- أترين. لاأعتقد، ولاأنكر، إن أثبت لي سيدٌ بالوقائع، انه قادرٌ على رؤية ماهو موجودٌ في الغرفة المجاورة، فكيف لي أقبل؟ إنني مختصٌ بالعلوم واعتدت على أن أقبل مايثبت لي.

- طبعاً، طبعاً. إن ماتقوله يعني أنك يجب أن ترى كل شيء شخصياً. وإن رآه آخرون، فإن الدكتور «أرّامبيدي» لايعنيه «شخصياً»، ويجب وضعه موضع الشك. هنالك أناس كثيرون برهنوا على العرافة. إسمع ماأقوله جيداً ، برهنوا.

- يجب فحص أولئك الشهود بروح علمية. جميعهم تقريباً، إما أناس

خدّاعون أو بؤساء على استعداد لتصديق مايقال لهم.

- طبعاً «ريخت» كان خدّاعاً، وواحداً من أولئك الحمقى، أليس كذلك؟ منذ قليل تحدثت عن أشعة «إكس» وافترض أنك لن تقول لي الآن إن «كروكس» كان واحداً من هؤلاء.

- «كروكس» ؟ لماذا؟

- وكيف تسأل لماذا؟ ألا تعلم أنه كان أحد دارسي هذه الظاهرة؟

- كم كان عمره حينئذ؟

- وكيف تسأل كم كان عمره؟ وما أدراني كم كان عمره حينئذ؟

- ذلك يكتسب أهمية كبيرة. انقلب «باسكال» في الخامسة والعشرين من عمره إلى متصوف؟ ولن تضمني أي غباء نطق به في سن الخامسة والثلاثين لأنه كان في الثانية عشرة من عمره قد اخترع نظرية هندسية. إن نصحني العجوز «روكفلد» بأن استثمر أموالي في صفقة صحون طائرة فلن أتبع نصيحته لمجرّد أنه كان في سن الثلاثين ثعلباً من ثعالب صنع الدولارات

- دعني من مراوغتك وقل لي إن كنت سمعتهم يتحدثون عن «سلامة» نعم أم لا.

- يستحيل أن يعيش المرء في «بوينس أيرس» ولايسمع الحديث عن ذلك الشخص.

- لقد سمعت إذن أشياء محددة تماماً.

- لاشيء واضح.

ـ آه، ومسألة «ايتشيفيرّي»؟

ـ نعم موت «ايتشيفيرّي».

ـ وهل مات «ايتشيفيرّي»؟

ـ هيا، لاتتظاهر الآن بأنك الرجل الذي يعيش في القمر.

ـ حسناً، حسناً، ماالذي تنبأ به ذلك السيد؟

ـ لقد قلت لك: موت «ايتشيفيرّي». كان هناك أناس كثيرون. لست أدري كيف سارت الأمور، ولكن......

ـ ها قد بدأنا، لايُعرف أبداً ماجرى تماماً..

ـ دعني أتكلم. أقول، في لحظة معينة، قال «ايتشيفيري» أشياء تنطوي على السخرية من «سلامة»، لست أدري إن كان «سلامة» قد سمعه أم لا...

ـ أجل إنه عرّاف، ولايحتاج إلى سماعه.

ـ تماماً: ازرقّ «التوركو» وقال لأحدهم كان بجانبه.

ـ أحدهم... أحدهم.. الشيء نفسه دائماً. عدم الدقة ذاتها أيضاً. ثم يتحدثون بعد ذلك عن وقائع. إما أن يقولوا عموميات أو يرووا أموراً خاطئة، يحاول كلّ الناس إصلاحها بتلك النزعات الغريبة لمدّ يد المساعدة، يحاولون تبرير ادعاء أولئك الأشخاص فيحدثونك عن خزانة ملابس رمادية، ثم تكون النتيجة أنها لم تكن خزانة ملابس وإنما مجرد خزانة، وبعدئذ «شيء» ليس خزانة وإنما شبيه بها. لكن لا، إذ بعد التفكير جيداً يجدون إنها كانت منضدة ذات أدراج ليست رمادية وإنما

لونها خشبي. .. الخ.. وترى الجميع متحمسين لأن الشخص قد تنبأ، وتراهم ينظرون بحقد إلى المرتاب المسكين الذي يتفحصه ذلك الرجل ذو القدرات الخارقة. يحث الجميع الخطى للتبرير، وتكون النتيجة أنها في نهاية المطاف لم تكن خزانة ملابس، ولا منضدة ذات أدراج، وليست رمادية ولا خشبية اللون: كانت آلة تنضيد، جرة صينية.

يمكن القول إن الدكتور «أرّامبيدي» كان شبه غاضب، شدّ كميّ قميصه، وَعَدّلَ ربطة عنقه.

- إسمع، تعلَّم، في أقل تقدير، كيف تسمع، فأنت تدعي الروح العلمية، لقد ازرقّ «التوركو» وروى ذلك للذي كان بجانبه.

- للذي كان بجانبه.. ومن هو؟ ماسم ذلك الرجل اللغّز، إنها تفاصيل ضرورية. من فضلك، أرقام، أسماء، تواريخ، لاتأتيني بعموميات.

- وماأدراني من ذاك الذي كان حينئذ بجانبه. هناك أشخاص عديدون يمكن أن يشهدوا: «لالوبلاسيوس» و«أرنستو» بالذات كان هناك، أليس كذلك؟ قال «ساباتو» الذي كان مطرقاً طوال الوقت:

- نعم.

- حسناً، حسناً، لنقبل بهذا الغموض الأوّلي. وماذا روى «سلامة» لذلك الرجل لأنه سوف يموت بعد قليل في حادث سيارة: في هذه الأمسية ذاتها.

حدجت «بيبا» الدكتور «أرّامبيدي» بنظرة ذات مغزى، لكن محدثها بدا كأنما ينتظر التتمة. فأضافت بسخرية واضحة تقول:

- أفترض أنك، في أقل تقدير، تعلم أن «لالو» مات بحادث سيارة في

تلك الأمسية بالذات، نعم أم لا؟

- «لالوبلاسيوس» قتل في حادث سيارة؟

- ولكن ماالذي تقوله.. لايمكن الحديث معك، إنك لاتؤمن بشيء أبداً، «لالوايتشيفيرّي» يارجل... عمن نحن نتحدث؟

حدجت «بيبا» الدكتور «أرّامبيدي» بنظرة ذات مغزى، لكن محدثها بدا كأنما ينتظر التتمة. فأضافت بسخرية واضحة تقول:

- أفترض أنك، في أقل تقدير، تعلم أن «لالو» مات بحادث سيارة في تلك الأمسية بالذات، نعم أم لا؟

- «لالوبلاسيوس» قتل في حادث سيارة؟

- ولكن ماالذي تقوله.. لايمكن الحديث معك، إنك لاتؤمن بشيء أبداً، «لالوايتشيفيرّي» يارجل... عمن نحن نتحدث؟

- أخال أنني سمعتك تأتين على ذكر «لالوبلاسيوس» منذ لحظات.

- إذن تقرّ ذلك؟

- ماذا أقرّ؟

- إنني أقول لك إن «سلامة» تنبأ بأن «ايشتيفيرّي» سيموت في حادث سيارة في تلك الليلة بالذات لدى خروجه من منزل «لوو».

- حسناً، أقر بأن «ايشتيفيرّي» مات في حادث سيارة، ولكن كيف لنا أن نتأكد من التنبؤ بالميتة.

- ألم أقل لك إنه كان هنالك شهود عديدون؟

ـ أخال أنني فهمت منذ قليل أن «سلامة» أبلغ ذلك النبأ القاتل بصوت مناسب، وليس بصوت مرتفع كماأفترض، إلى سيد فضلّ حتى هذه اللحظة أن يبقى مجهولاً. ويبدو أنه الشاهد الحقيقي الوحيد، أليس كذلك؟...

ـ ذلك مالا أعرفه. لست أدري إن كل مارواه «سلامة» قد سمعه آخرون، ولكن الصحيح أن كلّ الناس رووا ذلك بعد الحادث.

ـ بعد أن مات «ايتشيفيرّي»؟ إنني أعرف ذلك التبجح الذي يتسم به العرّافون.

ـ ولكن والآخر، الذي سمعه؟

ـ الآخر؟ إنه حتى الأن لغزٌ غريب لم تتمكني أن تقدمي لي إسمه. ثم: قد يكون متواطئاً مع ذلك «التوركو»، أو في أقل تقدير، قد يكون أحد أولئك الذين هم على أتم الاستعداد دائماً لمديد المساعدة للعرّاف المزعوم: من يعلم إن لم يكن «سلامة» مثلاً، قد قال شيئاً من قبيل، ما أفظع الطريقة التي يموت فيها الناس في الشارع في الأيام الأخيرة.

ـ إن كنت ستتابع الحدث بسوء نية فمن الأفضل يا «كارلوس» أن نغير الموضوع. إنك تثير غضبي. أقول لك إنه كان هنالك أناس كثيرون، وحتى «أرنستو» كان موجوداً.

ـ حسناً، لنتابع، سوف تستشيطين غضباً، وبعد ذلك أنا الذي يجب أن أتحمل. هيا.

ـ الذين سمعوا «سلامة» تأثروا جداً، وبعضهم قرر مرافقة «لالو» لكي يعبر الشارع.

- انتظري لحظة.

- ماذا.

- أحد أمرين: إن كان «التوركو» عرافاً، وقال إن الرجل سيموت، كيف يمكنهم إذن تجنب ماكان يجب أن يحدث؟ وإن لم يتنبأ حقاً، فلماذا كل تلك العجلة لتحذير «ايتشيفيرّي».

- إسمع ماأقول لك. خرج الأصدقاء مع «لالو» دون أن يتفوهوا بأي كلمة، طبعاً ، الأسود «ايتشاغوي» وذلك الهنغاري رافقاه أثناء عبور الشارع ليأخذ سيارته، بعد ذلك عادا.

- لا أود الإساءة إلى هذا الفريق العجيب من أصدقائك، ولكن سيتعين عليك أن تقرّي بأنهم ليسوا فائقي الذكاء.

- لماذا؟

- كان «التوركو» قد تنبأ بأن الرجل سيموت تلك الليلة في حادثة سيارة، لا أن يدهموه ويوقعوا به عندما يخرج من المنزل.

- تماماً، ما أن تركوا «لالو» حتى تذكروا كلمات «سلامة» فاستقلّوا سيارة وانطلقوا بسرعة، وبعد بضع دقائق لحقوا به وأخذ «بيكي» يضغط على المنبه لكي يلفت انتباهه كي يتوقف. ربما ظن «لالو» أن أحداً كان يود تجاوزه فلم يلتفت حتى أصبحوا بمحاذاته فصاحوا طالبين منه أن يتوقف، خاف «لالو»، وبدأ يكلمهم بصوت عال، وبينما كان ينظر نحو الجانب اصطدم بعامود. ماذا تقول؟

- إنها ليست واقعة ثابتة.

- أيبدو لك كذلك؟

ـ هنالك عدة تفسيرات.

ـ ماهي قل من فضلك.

ـ أولاً، إن «سلامة» يؤثر على الناس الضعفاء، وكان يوّد الانتقام بسبب سخرية «لالو» منه فدفعه إلى الموت.

ـ ذلك يعني، أن العرّافين لايتنبأون بالمستقبل: إنهم يصنعونه.

ـ هذا احتمال، ولكن هنالك آخر، وهو طيش «بيكي»، ذلك أنكِ لن تنكري أنه طائش ولم يكن من الضرورة بمكان أن يصبح كالمجنون ليخيف شخصاً يسير منحدراً بسرعة مائة كيلومتر، ذلك الأحمق، يمكن أن يكون، كما قلت لك، هو سبب تلك الميتة، الحقيقي والوحيد. ولعله، لو لم يصّر ذلك العدد من العباقرة على تخليصه لوصل «لالو» سالماً إلى «سان ايسيدرو».

ـ أنظر: من المؤكد أن «سلامة» قال إن «لالو» سيموت، وقد صحت نبوءته. وسواء كانت أداة الموت طيش أو عبقرية، فهذا أمر لاأهمية له، أتريد استخدام «انشتاين» من أجل هذه الأمور؟ كنت تطلب وقائع. هل موت «لالو» واقعة أم لا؟

ـ حسناً، نعم.

ـ لست أدري لماذا تصرّ على نكران العرافة.

ـ أنا لاأصر على أي شيء. أطلب براهين، وليس مساعدة، ثم أنا لم أقل إنني لا أومن بالعرافة. قلت لك إنني حتى الآن لم أحصل على برهان حاسم. أن يستطيع أحد ما رؤية ماهو موجود في الغرفة الأخرى، فهذا ممكن، ولكن المستقبل.... في كثير من الأحيان، يُعتبر مستقبل ماهو

في واقع الأمر حاضر.

- كيف.

- الأمر سهل جداً، عندما تنبأوا لأختك بكرسي الجامعة مثلاً.

- وماذا، ألم يمنحوها إياه؟

- بلى. وكيف بعد أن منحوها أياه.

- بعد أن.. كيف؟

- عندما قال لها ذلك العرّاف، فقد حدث ذلك بعد أن كان القرار متخذاً: في رأس الوزير مثلاً. وأما في مسألة «لالو» فلا أعتبر أن البرهان حاسم. أميل إلى التفكير بأن «التوركو» قد انتقم، إنه حقن فكرة الاصطدام في ذهن «بيكي» والآخرين لكي يصيحوا.

هكذا إذن، كلما صاح بك أحد تموت.

- أعتقد أنك يمكن أن تنهي هذه القصة ياعزيزتي «بيبا» الآن.

- أخيراً، هل تودّ أن تتحدث مع «سلامة» . نعم أم لا؟

- كلاّ، كيف سأقدم على الحديث مع شخص يقول لك، في هذه الأمسية بالذات ستقتلك سيارة؟

- أيّ ضرب من رجال العلم أنت حتى تخاف من أن تتحدث مع من يمكن أن يجعلك تغير رأيك.

- أنا لاأتهرب من تغيير الرأي، أتهرب من الناس الذين لاأحبهم.

وقف «أرّامبيدي» ، شدّ كمي قميصه، وعَدّلَ ربطة عنقه، وتناول

كأساً أخرى. ثم قال:

- وأنت ياسيد «ساباتو» لم تفه بأي كلمة.

قطب «ساباتو» حاجبيه وأجاب بصوت خافت:

- قلت إنني كنت موجوداً عندما تنبأ «سلامة» بالميتة.

- لا، أعني المشكلة بوجه عام.

- إن أفكاري معروفة، سواء كانت حسنة أو سيئة. لقد نشرت بحثاً. نظرية.

- نظرية؟ كم ذلك ممتع. تقبل «التنبؤ»، كما أفترض.

- إنه لكذلك.

- أمر غريب، وبخاصة لأنك فيزيائي.

- فيزيائي سابق.

- فيما يتعلق بالمسألة، الأمر سيأن. لقد أمضيت سنوات وأنت تدرس النسبية ونظرية المعرفة.

- وماالأمر الغريب؟

- لست أدري... صمتك، تصرفك. تدلل على أنك لاتشاطرني الرأي. هل تنكرت لدراساتك الرياضية؟

- لست أدري ماهذا الذي تسميه تنكّر. ثم إنني لم أدرس ذلك لأن عقليتي كانت كعقلية أولئك الذين لايؤمنون إلاّ بمقاييس الشدة الكهربائية وبالأرقام، درست ذلك لأسباب أخرى.

ـ أسباب أخرى؟

لم يجب.

فسأل الدكتور:

ـ ربما تعتبر سيادتك أن التخاطر علم، وأن هذا الطراز من الظاهرات يمكن أن يفسر. أهو كذلك؟

ـ لا.

ـ عجباً. إننا لفيف من أشخاص ذوي مستوى ثقافي، وأعتقد أن طلب إجابة جدية لن يكون من قبيل المبالغة. وعلى كلّ حال فإن سؤالي ثقافي تماماً. أليس كذلك؟

أجاب ساباتو بانزعاج ظاهر:

ـ إن كنت تتحدث عن العلم بالمعنى الذي يتحدث فيه رجل مخبر، فإنني تنكرت. هذه الظاهرات ليس لها أي علاقة بالعلم بهذا المعنى، وتلك فكرة بالغة السذاجة كفكرة القرن التاسع عشر من الروح.

ـ الروح؟

ـ نعم، مسألة موضعتها في غدة. إنهما نظامان مختلفان تماماً.

ـ شدّ الدكتور «أرّامبيدي» كمي قميصه، وعدل ربطة عنقه، وبدت في وجهه أمارة سخرية:

ـ نظامان؟

ـ نعم. ومختلفان تماماً. والأفضل أن أقول مختلفين جوهرياً. عالم

المادة، وعالم الروح. يزعم رجال العلوم أن قانون السببية يحكم عالم الروح. هـراء.

ـ وإذن فأنت تؤمن بالوجود المنفصل للروح. والطريق من هنا إلى الروحانية قصير. أليس كذلك؟

ـ أنك تقول روحانية، وكما لو أن الأمر كله ليس سوى دعابة. وبهذا تضعني على نحو ما في مصاف «تيبور غوردن» والراهبة «ماريا»[1].

ـ لاتغضب، أردت أن أقول إن ذلك الحديث عن روح محضة، أي بلا لحم تستند إليه، أمر كما يبدو لي من الصعب جداً إثباته.

ـ أنا لم أتكلم عن حياة منفصلة للروح، قلت إنهما نظامان مختلفان جوهرياً وحسب. طيار وطائرة، متحدان ولكن ينتميان إلى عالمين مختلفين. لقد قلت إنني لاأود المناقشة. مافائدة مناقشة مسألة بين شخصين يعرفان سلفاً أنهما لن يتفقا؟

صاحت «بيبا».

ـ هكذا، أنا لست شيئاً إذن.

ـ أنت تعرفين أفكاري.

ـ عاد «ساباتو» يمعن النظر في الأرض ويلوذ بالصمت.

ـ أخال إنك تستطيع أن تتنازل قليلاً وتهبط لمستوانا وتجيب.

ـ لقد قلت إنه ليس هنالك فائدة ترجى. لكلّ منا موقف لايتصوره الآخر.

---

(١) روحانيان مشهوران في بوينس أيرس (المترجم)

ـ ولكن قلت الآن شيئاً، البعد الرابع.

ـ نعم، كثيرون يأتون بمثل هذه الأفكار. ولكن المادة والروح لايخضعان للقواعد نفسها. النسبية تحكم العالم المادي، وليس الروح أبداً. تفسير مايحدث في عالم الروح بوساطة علم المساحة هو أشبه مايكون بالرغبة في استئصال الكآبة بكلابة طبيب الأسنان.

سأل «أرّامبيدي» بسخرية تنطوي على الحقد.

ـ أيبدو لك كذلك؟

ـ نعم.

ـ الكآبة تكون أحياناً نتيجة لعدم انتظام أعمال الكبد.

ـ أعرف هذه النظرية يادكتور.

نهض «أرّامبيدي»:

ـ مرضاي.

ما أن خرج حتى تملك الغضب «بيبا».

ـ لقد طفح الكيل. إن «كارلوس» هو أفضل الأطباء في «بوينس أيرس».

ـ من ينكر ذلك؟ يمكن أن يشفي حالة إسهال على نحو جيد، وأن يعتقد في الوقت ذاته أن «وليم بلاك» كان مجنوناً بائساً.

ـ إنك داهية. وسيء النية جداً في المناقشة. عندما تناسبك الحجة تستخدمها، وإن لم تناسبك تستخدم نقيضها.

ـ هذا ماتعتقدين. لن تسمعيني أفسر النبوءة بوساطة النسبية أبداً.

لكن كلّ ما في الأمر هو أن الحديث حين يكون حول فراغ ـ زمن، سرعان مايفكر ذلك الصنف من الهواة الذين يظنون أنفسهم دهاة باستخدام نظرية «انشتين».

ـ أوليس الأمر كذلك؟

ـ أترين كيف أنه لافائدة ترجى من المناقشة؟ كلا، ليس الأمر كذلك، منذ لحظة سمعتني أقول لذلك الطبيب الموقر إن المادة والروح لاتخضعان للقواعد ذاتها، النسبية تحكم العالم المادي، وأمر الروح مختلف تماماً. ألم تسمعي؟

ـ ماذا؟

ـ إن تفسير وقائع عالم الروح، أو محاولة تفسيرها بوساطة علم المساحة هو كمحاولة نزع الكآبة بكلابة طبيب أسنان.

ـ حسناً، ولكن كيف كانت نظريتك.

ـ يمكنك قراءتها إن رغبت.

ـ ليس لدي وقت.

ـ صبراً، سوف لن يموت أحد.

ـ هيا لاتكن مدعياً.

تنهد «ساباتو»

ـ تقوم على أساس إمكانية أن تفارق الروح الجسد.

ـ لاشيء تقريباً.

ـ فعلاً، ولكنها الصيغة الوحيدة كما أرى لتفسير النبوءة والعرافة، وكلّ مايمت بصلة لذلك. ثم إنني قرأت مايقوله «فرازر»: كلّ الشعوب البدائية تعتقد أن الروح تنفصل أثناء النوم عن الجسد.

ـ آه، كلا ياسيد «أرنستو».... إن ذلك كثير جداً... أصبح مايؤمن به الـ «هوتينتوت»[1] هو الآن أفضل برهان لاثبات صحة نظرية ما... هذه ذروة اللامسؤولية والتجهيل.. إن البولشفيك على حق يارجل.. من هذا إلى استلام أموال من السفارة الأمريكية هنالك خطوة واحدة.

ـ أصبح «ليفي ـ ستراوس» الآن عميلاً لوكالة المخابرات الأمريكية. انظري مايقوله عن الثقافات التي تُدْعى بدائية.

ـ حسناً، حسناً، لندع المخابرات الأميركية جانباً، ثم ماذا.

ـ عندما تفارق الروح الجسد، فإنها تفارق أيضاً مقولة الفراغ والزمن التي تحكم المادة فقط، ويمكن أن تشهد حاضراً محضاً. إن كان ذلك صحيحاً، فإن الأحلام لاتقدم آثاراً ذات معنى من الماضي وحسب، بل ومشاهد أو رموزاً من المستقبل؛ مشاهد لاتكون واضحة دائماً. ليست مبهمة ولا كاملة أبداً.

ـ ولم لا؟

ـ لأن الماضي يظهر في تلك المناطق، بآلامه وذكرياته وعذابه، مختلطاً بالمستقبل، فيعكره ويشوهه، في واسطة الارسال، أي الروح، التي تكون شبه متجسدة في لحظة بدء استيقاظنا، أفهمت؟ فعندئذ تكون قد بدأت تدخل في الجسم، ولذلك تأخذ مقولات السببية والعقلية بالسيطرة عليها. لكنها برغم ذلك تأتي بذكرى من ذلك اللغز وإن كانت غامضة

---

(١) أحد شعوب جنوب افريقيا السوداء (المترجم)

وكأنما خالطها التراب، وأقول لك أيضاً: لما كان موت جسمنا يحدث في مستقبلنا، فإن الحلم يجلب لنا أيضاً، وفي بعض الأحيان، مشاهد من حياتنا الآخرة. الكوابيس ستكون مشاهد الجحيم الذي ينتظرنا. الأمر بالغ الوضوح، أليس كذلك؟

ـ نعم واضح جداً. كل ذلك يعتمد طبعاً على أن الـ «هوتينتوت» يعرفون أكثر منا. هيا، هيا إلى السفارة الأمريكية، فأنا أحتاج بعض الدولارات.

ـ انتظري، هذا هو الجزء الأول من نظريتي. مايختبره الانسان العادي في الأحلام، يعيشه الناس غير العاديين في حالة غيبوبتهم: العرّافون، المجانين، الفنانون الموسيقيون.

ـ في حالة الجنون البالغ تخضع الروح لعملية تشبه ـ إن لم تطابق تماماً ـ العملية التي يخضع لها كل أمرىء حين ينام: تفارق الجسم وتدخل في واقع آخر، ألم تفكري أبداً في هذا التعبير: «ذاهلة»...؟ وكلمات مثل: شرود او غيبوبة؟ كلما شاهدت مجنوناً ثائراً، يراودني شعور مريع بأن ذلك الشخص يعاني من آلام جهنمية ولكنني أفهم الآن أن روحه تكون هناك في جحيمها، وماحركاته الشرسة وآلام وملامحه وتصرفاته الوحشية التي تحدث بها الأخطار المريعة، وهذيانه الظاهر، سوى التعبير المباشر والآني عن الجحيم. إنهم يكابدون في الصحو مانعانيه نحن في أسوأ الكوابيس. هذا الهبوط إلى معاقل الجحيم يمكن، في بعض الحالات، أن يكون انتقالياً، إنه حال من يصيبهم مس من جنون. تأملي في بدهيات تلك المعارف القديمة.

ـ الـ «هوتينتوت»».

ـ كائنات تعود ـ بعد عمليات معقدة، لايستطيع سوى بعض المبتدئين القيام بها ـ إلى الحياة العادية، كأنها تستقيظ من كابوس مريع.

- لا أرى لماذا - إن كانت نظريتك صحيحة - لايوجد أشخاص يرون النعيم أيضاً.

- واضح أيتها البلهاء. ألم تري أحلاماً طوباوية قط؟ ونصحات المجانين، ألم تقومي بزيارة أولئك المجانين الهادئين الباسمين الذين لايلحقون ضرراً بأحد؟ انتبهي الآن تماماً لما سأقوله لك. ذلك الذهول يمكن أن يحدث على نحو إرادي أيضاً. الصوفيون والشعراء: «أقول لابدّ أنه راحل فيرحل».....[1].

- ليأت إذن محلل ألغاز.

- هكذا إذن، بقي فقط أن تهبطي حتى آخر درجات الإيجابية. وبعد ذلك تهزأين بالمسكين «أرّامبيدي». اعتقد أنكما في الأصل، كليكما مفّصلان بمقص واحد.

احتدت ونهضت لكي تذهب:

- لا، هذا لا، لن تدعني الآن في الحيرة.

- حسناً، أقول لك، يستطيع بعض الناس إرادياً، التوصل إلى هذا الاتصال أو الانسلاخ، يمكن أن يساعدك الوجد والصوم والإصرار على التمسك بالهدف، إلى جانب قدراتك المتأصلة أيضاً، والالهام الإلهي أو الشيطاني. وهذا مايتوصل إليه الصوفيون. النشوة. أرأيت كيف أن اللغة لاتخدع إلاّ الحمقى. «النشوة». أن يضع المرء نفسه خارج ذاته، وأن يخرج من جسمه، وأن يضع نفسه في الخلود المحض. الزهاد الهنود مثلاً. في تلك الميتة للذات كي يبعثوا في مكان آخر، متحررين من السجن المؤقت. والفنانون. مايقوله «افلاطون» ليس شيئاً آخر

---

(١) هذه العبارة في الأصل باللغة الفرنسية (المترجم)

سوى مافكر فيه القدماء: إن الشاعر يستلهم الشياطين، يردد كلمات لم يكن يتفوه بها لو كان بكامل وعيه، ويصف مشاهد لأماكن خارقة للطبيعة، كالصوفي. لقد قلت لك إن الروح في تلك الحالة تكون ذات شعور مختلف عما هو عاديّ، تنمحي الحدود بين الموضوع والذات، بين الحقيقي والمتصور، بين الماضي والمستقبل. وهكذا ، مثلما كابد أشخاص تمكنوا من رؤية مشاهد، ونطقوا بكلمات في لغات لايفهمونها، فإن فتاة اتسمت بحياة بريئة مثل «اميلي برونتي» تمكنت من أن تكتب كتاباً مريعاً. كيف يمكن وصف روح إن لم تكن كروح «هيثكليف» مستسلمة لقوى الجحيم؟ ذلك الانسلاخ لروح الفنان في لحظة الإلهام يمكن أن يفسر أيضاً الطبيعة التنبؤية التي يبلغها في بعض اللحظات، حتى وإن كانت مبهمة أو رمزية أو غامضة كالأحلام. ذلك يعود من جهة، إلى الطبيعة الغامضة لتلك القارة التي قد تتراىء فيها روحنا كأنها خلف زجاج قذر، لما يشوب انسلاخها عن الجسم من عيوب؛ ومن جهة أخرى، إلى أن وعينا العقلاني ربما يكون غير معد لوصف عالم لايحكمه المنطق العادي ومبدأ السببية، ولأن الإنسان ـ كما يبدو ـ ليس قادراً على تحمل المشاهد الجهنمية. إنها بكلّ بساطة، مسألة غريزة المحافظة.

ـ المحافظة على أي شيء؟

ـ على الجسم. فقد قلت لك إن انسلاخ الروح أثناء الإلهام أو الحلم لايكون كاملاً، وغريزة المحافظة على الجسم تصوننا بقناع كألبسة «الاميانط» التي يستخدمها الأشخاص الذين يتعين عليهم أن يدخلوا وسط الحريق، إنها تحمينا بأقنعة ورموز.

كانت «بيبا» تنظر إليه. أتنظر إليه بسخرية أم رقة؟ ربما بمزيج من السخرية والرقة مثلما تنظر الأمهات إلى أولادهن واسعي الخيال حين

يلعبون بكنوز أو كلاب خفية.

ـ سأل «ساباتو» مرتاباً:

ـ بماذا تفكرين؟

قالت له بريبة أيضاً:

ـ لاشيء أيها الأبله كنت أفكر وحسب.

ـ حسناً، أثابر إذن.. فكر اللاهوتيون بالجحيم وقد أقاموا البرهان على وجوده كما يُبرهن على صحة نظرية؟ ولكن الشعراء العظام فقط هم الذين أظهروا لنا الحقيقة فقالوا مارأوه. أتفهمين؟ ماشاهدوه حقاً. فكري: «بلاك»، «ميلتون»، «دانتي»، «رامبو»، «لوتر مونت»، «ساد»، «ستريندبرغ»، «دوستويفسكي»، «هولدرلين»، «كافكا» من المكابر الذي يستطيع أن يضع موضع الشك شهادة أولئك الشهداء.

نظرت إليه بقسوة تقريباً، كأنها تطلب تصفية حساب.

ـ إنهم الذين يحلمون من أجل الآخرين. محكوم عليهم، إفهمي جيداً
ـ وقال كأنه يصيح ـ محكوم عليهم.. أن يظهروا حقيقة الجحيم.

سكت، وخيم الصمت برهة. ثم أضاف كأنه يحدث نفسه:

ـ لست أدري أين قرأت أن «دانتي» لم يفعل شيئاً سوى ترجمة أفكار ومشاعر عصره، المزاعم اللاهوتية الباطلة التي كانت سائدة، المعتقدات الخرافية التي كانت شائعة، هكذا وببساطة يكون وصف، وعي وعدم وعي، ثقافة من الثقافات. ربما كان في ذلك بعض الحقيقة، ولكن ليس بالمعنى الذي يزعمه نفسانيو الرعب. فأنا أعتقد أن دانتي» رأى، وككل شاعر عظيم، رأى مايهجس في صدر الناس البؤساء على نحو أقل

وضوحاً. كان الناس الذين يرونه يمر في شوارع «رافينا» صامتاً ونحيلاً يقولون بصوت خافت وبريبة قدسية: هاهو الذي كان في الجحيم. أتعرفين ذلك؟ كلمات بنصها الحرفي، لم يتحدثوا بصيغة المجاز: كان أولئك الناس يعتقدون بأن «دانتي» كان في الجحيم، ولم يكونوا مخطئين، بل يخطيء أولئك الشطار، أولئك الأشخاص الذين يدعون الذكاء.

صمت، ثم أخذ يتأمل الأرض، وهو مستغرق بالتفكير.

تأملته «بيبا» وقد اغرورقت الدموع في عينيها.

عندنا رفع «ساباتو» ناظريه سألها ماذا جرى لها.

ـ لاشيء أيها الأبله، لاشيء. جلّ ما في الأمر أنني رقيقة المشاعر. أنا ذاهبة لأساعد «بي بي نا» كي تستحم.

تابع «ناشو» شقيقته من بعيد

وهكذا وصلا إلى تقاطع شارعي «كابيلدو» و «إيتشيفيرّيا». عبرت «أغوستينا» هنالك شارع «كابيلدو» وتابعت سيرها في «ايتشيفيرّيا»، وعندما وصلت إلى الساحة بدأت تسير ببطء، بخطواتها الواسعة المعهودة، إنما الآن، كما لو أن الأرض ملغومة. لكن أكثر ماكان يثير حزنه هو أنها كانت مابين حين وآخر، تقف وتنظر إلى ماحولها كأنما ضيعت أحداً ما. ثم، بعدئذ، جلست أمام الكنيسة: كان بوسعه أن يراها في ضوء مصباح الشارع مستغرقة في التفكير تنظر إلى الأرض وإلى ماحولها.

ومـاأن رأت «س» يقترب حتى وقفت هي بسرعة وأمسك هو ذراعها بعزم وذهبا صوب شارع «أركوس» بعد أن عبرا «ايتشيفيرّيا».

مكث «ناتشو» وقتاً طويلاً مغمض العينين، مستنداً إلى شجرة وسط الظلمة، وعندما استرد قواه، ذهب نحو بيته بدون أن ينظر إلى الخلف.

حول فقراء و«سيرك»

كان «ناتشو» مضطجعاً كئيباً يراقب الغيوم كأنها زرافات ترعى بهدوء وحرية في مروج افريقيا، إنه لايود أن يتابع التفكير في ذلك، لايود أن يبلغ سبعة عشر عاماً: إنه ابن ستة أعوام وينظر إلى السماء من حديقة «باتريسيوس» قال له:

ـ انظر يا «كارلوتشو»[1] تلك الغيمة كالجمل.

رفع «كارلوتشو» ناظريه، ومن دون أن يدع مص «الماتي»، همهم موافقاً.

أوشك المساء أن يحلّ وكان يخيم هدوء شامل على الحديقة. وكان يحلو لـ «ناتشو» أن يكون في مثل تلك الساعة مع صديقه، حيث يمكنهما ان يديرا محادثات بالغة الأهمية.

بعد برهة صمت طويلة سأل:

ـ أود يا «كارلوتشو» أن تقول لي حقاً، هل تؤمن «بالملوك السحرة»؟

ـ «الملوك السحرة»؟

لايجب أن يسأل هذا السؤال، وكعادته عندما يستبدّ به القلق، أخذ يرتب قطع «الشوكولاته» والسكاكر.

ـ هيا يا «كارلوتشو» قل لي.

---

(١) كارلوتشو، تصغير اسم كارلوس يستخدم للتحبب (المترجم)

ـ أقلت «الملوك السحرة».

ـ نعم، قل لي.

ـ تمتم بدون أن ينظر نحوه.

ـ وماأدراني يا «ناتشو»، إنني جلف وجاهل، لم أدرس حتى الصف الأول، أنا لاأصلح إلا للأعمال الشاقة. عامل في فناء، أو حمّال، أو في هذا الدكان. أشياء من هذا القبيل.

ـ قل لي يا «كارلوتشو» هيا قل.

غضب قليلا، لكنه قال:

ـ أية حشرة عقصتك.. ولماذا ينبغي أن أعرف هذه الأمور.

لمح بطرف عينيه أن الفتى أطرق ومكث يتألم.

ـ إسمع يا «ناتشو»، أعذرني. أنا صديقك، ولكنك تعلم أنني أتسم بسلوك شيطاني.

سوّى قطع الشوكولاته ثانية، ثم قال:

ـ أنظر يا «ناتشو». لقد اتممت السابعة من عمري، ويجب أن أقول الحقيقة بصراحة. ليس هنالك ملوك سحرة. كلّ ذلك حكايات، وخداع، الحياة تعيسة جداً، فلِمَ نخدع أنفسنا. يقول لك ذلك «كارلوس» اميريكو ساليرنو».

ـ ومن يأت بالألعاب التي توضع في الأحذية التي نتركها قرب الباب؟

كان جرس صوت «ناتشو» يبدو قلقاً.

ـ الألعاب؟

ـ أجل يا «كارلوتشو» الألعاب، أليسوا هم الذين يضعونها في الأحذية؟

ـ كلّ ذلك حكايا، لقد قلت لك. ألم ترَ أنها تظهر في أحذية الأغنياء فقط؟

منذ أن كنت طفلاً بطولك، لم يأت الملوك السحرة حيث نسكن نحن قط. يذهبون فقط إلى بيوت الأغنياء، هل أنتبهت الآن؟ الأمر واضح كالماء: الملوك السحرة هم الآباء.

أطرق «ناتشو» وأخذ يخط رسوماً بأصبعه على الأرض، ثم التقط حصاة وطوح بها بعيداً نحو إحدى الأشجار كأنه شارد لايعي ماذا يفعل، في حين كان «كارلوتشو» يشرب الماتي، ويراقبه باهتمام.

ثم أضاف يقول:

ـ حسناً، هات من يعرف هذه الأمور. كان «سانيتا» رحمه الله يقول: إن العالم لغز، وربما كان على حق.

أتى أحد الزبائن واشترى علبة لفائف، وبعد مضي برهة طويلة قال «كارلوتشو»

ـ ياللعاهرة.... لو حلت الفوضوية.

تأمله «ناتشو» باستغراب.

ـ الفوضوية؟

ـ نعم يا «ناتشو» الفوضوية.

ـ وماهي الفوضوية؟

جلس «كارلوتشو» على كرسي صغير وابتسم وعيناه شاردتان تواقتان. كان واضحاً أنه يفكر في شيء بعيداً جداً ولكنه جميل.

قال:

ـ هنا كان يجب أن يكون «لوفي».

ـ من هو «لوفي»؟

في اللحظات العظيمة، عندما يستعد «كارلوتشو» للبدء في الحديث عن بعض تلك الأفكار التي يحس بها بعمق، يبدل عبوة «الماتي» على مهل، ويحضّر ماسيأتي على ذكره بصمت طويل كأنه أحد التماثيل التي تنصب في الساحات، تحيط بها مساحات فارغة كي يميز الناس جمالها.

قال بعد أن جلس على الكرسي الصغير الذي كان يخص والده:

ـ لقد قلت لك، إنني في سنة ١٨ ، بعد أن انتهت الحرب تماماً، كنت أشتغل في مزرعة «دونيا ماريا اونزوي دي الفيار». وكان يشتغل معي أيضاً «كوستوديو مدينا» ثم وصل «لوفي». هل سمعت أحداً يحدث عن الصعاليك؟

ـ الصعاليك؟

ـ كانوا يأتون عادة من بعيد جداً. حملهم على ظهرهم. يسايرون خط القطار، ثم يسيرون بعد ذلك في الطريق العام. كانوا يأتون إلى المزرعة حيث يجدون دائماً طعاماً ومأوى، هذه هي الحقيقة.

ـ كانوا إذن عمالاً مثلك ومثل «ميدينا»؟

أومأ «كارلوتشو» بإشارة نفي بإصبعه.

- لا ياسيد، لم يكونوا عمالاً. الصعاليك كانوا صعاليك وليس عمالاً.

- ألم يكونوا يشتغلون؟

- أجل يشتغلون، ولكن لا من أجل كسب النقود. لاأحد كان يجبرهم.

لم يفهم «ناتشو». حملق إليه «كارلوتشو» وقطب حاجبيه باذلاً أقصى جهد لكي يكون واضحاً.

- كان الصعاليك أحراراً كالعصافير، أتفهم؟ كانوا يأتون إلى المزرعة، يقومون بعمل ما إن أرادوا، ثم يذهبون مثلما أتوا. أتذكر ذلك كأنه اليوم، عندما حزم «لوفي» جميع حاجياته وهيأ حمله لكي يرحل. قال له كبير الخدم «دون بوستو» إن أراد الصديق «لوفي» أن يبقى هنا فلديه عمل لو أحب. ولكن «لوفي» قال لا يا «دون بوستو»، أشكرك ولكن يجب أن أتابع السفر.

- يجب أن يتابع السفر؟ إلى أين؟

- كيف تقول إلى أين...؟ ألم أقل لك منذ لحظات إن الصعاليك كالعصافير؟ إلى أين تذهب العصافير؟ هل تعرف أنت؟

- لا

- هذا ماقلته لك أيها الأبله.

مكث يفكر بحنين، ثم قال:

- أخال أنني أراه الآن. فارع الطول، نحيل الجسم بلحيته الحمراء تقريباً، وعينيه الزرقاوين الفاتحتين، والحمل على ظهره. وقفنا جميعاً

نرى كيف ذهب بين النعامات، وبعد ذلك تابع سيره في الطريق. من يعرف إلى أين.

كان «كارلوتشو» ينظر نحو الحديقة، كما لو أنه يراه يبتعد بين الأشجار إلى مالا نهاية.

ـ أولم تره بعد ذلك؟

ـ لم أره ثانية قط. هات من يعلم إن كان قد مات.

ـ ماأغرب اسمه، «لوفي». أليس كذلك؟

ـ نعم اسم أجنبي. ألماني أو إيطالي. ولكن لست أدري لماذا لم يكن إيطالياً كما كان والدي، قال إنه من ناحية غريبة لست أدري الآن ماهي. أجل هكذا، «لوفي». أتى، أنجز بعض الأعمال، أصلح محركاً وآلة حصاد. كان يعرف كلّ شيء. وأثناء الليل كان يذهب إلى مهجع العمال ليشرح الفوضوية.

ـ الفوضوية؟

ـ نعم. كان يقرأ في كتاب صغير ويفسر.

ـ وماهي الفوضوية يا «كارلوتشو»؟

ـ أنني جاهل، وقد قلت لك، فماذا تريد؟ ان أشرح لك كما فعل «لوفي»؟

ـ حسناً، ولكن قل لي شيئاً، كانت قصته مثل تلك القصة التي رويتها لي عن «شارلمان»؟

ـ ولكن لاأيها الأبله. شيء آخر.

مص «الماتي»، ثم راح يفكر بعمق.

ـ سأسألك سؤالاً يا «ناتشو». إضغ إليّ جيداً.

ـ نعم.

ـ من خلق الأرض والأشجار والأنهار والغيوم والشمس؟

ـ اللّه.

ـ حسناً، ذلك حسن. إذن هي للجميع. للجميع الحق بأن يملكوا أشجاراً ويتلقوا أشعة الشمس. قل لي، هل يجب أن تطلب العصافير إذناً من أحد لكي تطير؟

ـ لا

ـ يمكن أن تروح وتجيء في الهواء وتبني العش وتتناسل، أليس كذلك؟

ـ طبعاً.

ـ حسناً. والإنسان ـ كان «لوفي» يقول ـ كالعصفور، حر في أن يذهب ويجيء. فإن أراد أن يطير فليطر. وإن أراد أن يبني عشاً فليبنه، لأن الحبة والقشة تصلح لكي يبني العش، والماء لكي يغتسل أو يشرب، وهي كلها من عند الله، والله خلقها للجميع. أفهمت كلّ ذلك؟ لأنك إن لم تفهم لانستطيع أن نمضي قدماً.

ـ نعم، لقد فهمت.

ـ حسناً، فلماذا إذن ينبغي أن تملك الأرض قِلَّة، ونشتغل نحن الآخرين عمالاً؟ من أين أتوا بهذا الحقل؟ هل هم صنعوه؟

بعد أن فكر قليلاً ، قال «ناتشو» لا.

- حسناً يا «ناتشو» ذلك يعني أنهم سرقوه.

فوجيء «ناتشو» مفاجأة كبيرة، وكيف، ألا يذهب اللصوص إلى السجن؟ فابتسم «كارلوتشو»بمرارة.

قال:

- أنتظر أيها الأبله، إنتظر. أقول لك إنهم سرقوا هذه الأرض.

- ولكن ممن سرقوها يا «كارلوتشو»؟

- ومأأدراني، من الهنود، من الناس القدماء. لست أدري. قلت لك إنني جاهل، ولكن «لوفي» كان يعرف كلّ ذلك، ثم فكر قليلاً. افترض (إنه افتراض)، أن جميع العمال قد اختفوا غداً من الحقول، هل يمكن أن تقول لي أنت ماالذي سيحصل؟

- لن يكون هنالك ناس للعمل في الحقول.

- تماماً. وإن لم يشتغل أحد في الحقول لن يكون هناك قمح؛ وبلا قمح لن يكون هنالك خبز؛ وبلا خبز لايستطيع أحد أن يأكل، حتى ولا أصحاب الأرض أيضاً. من أين سيأتون بالخبز؟ هل لك أن تخبرني؟ والآن انتبه جيداً لأننا سوف نخطو خطوة أخرى؛ افترض أيضاً أن الحذائيين قد اختفوا أيضاً. ماذا سيحصل؟

- لن يكون هنالك أحذية؟

- تماماً. وافترض الآن أن البنائين قد اختفوا.

- لن يكون هنالك منازل.

ـ حسناً جداً يا «ناتشو». والآن أسألك ما الذي سيحصل إن اختفى المُلاّك غداً، أن المُلاّك لايبذرون الذرة ولا القمح، ولايصنعون الحذاء، ولا المنزل ولايحصدون المحصول، هل يمكن أن تقول لي ـ إن كنت تعرف ـ ماالذي سيحصل؟

ـ نظر إليه «ناتشو» بدهشة، فرمقه «كارلوتشو» بابتسامة انتصار.

ـ هات، قل لي ماذا سيحصل لو اختفى الملاك؟

ـ أجاب «ناتشو» باستغراب بالغ.

ـ لاشيء، لاشيء البتة.

ـ لاأكثر ، ولا أقل. والآن انتبه لأمر شرحه «لوفي»: الحذاؤون ـ لكي يصنعوا لأحذية ـ فإنهم بحاجة إلى الجلد، والبناؤون إلى اللبن، و العمال إلى الأرض والبذور والمحاريث أليس كذلك؟

ـ نعم.

ـ ولكن من لديه الجلد واللّبن والأرض والمحاريث؟

ـ الملاّك.

ـ تماماً. كل شيء بيد الملاك. ولهذا فنحن الفقراء مستبعدون. لأنهم يملكون كلّ شيء ونحن لانملك شيئاً سوى سواعدنا لكي نشتغل بها. والآن هيا لنخطو خطوة أخرى، إن كنت قد فهمتني تماماً.

ـ أجل يا «كارلوتشو».

ـ لو أننا نحن الفقراء استولينا على الأرض والآلات والجلود وأفران اللبن، فيمكننا أن نصنع الأحذية ونشيد الأبنية ونزرع ونحصد، لأننا

من أجل ذلك نملك سواعدنا ولن يكون هنالك لافقر ولا عبودية ولا مرض. ويمكن للجميع أن يذهبوا إلى المدرسة.

كان «ناتشو» ينظر إليه بدهشة.

رتب «كارلوتشو» المجلات وعلب اللفائف، ولكن فكره كان يعود إلى دخيلته، كان يبذل جهداً عقلياً، ولكن صوته كان خال من الحقد: كان جدياً وحنوناً.

تابع يقول:

ـ انظر يا «ناتشو»، كلّ شيء في غاية البساطة. كان «لوفي» يشرح كلّ شيء مستعيناً بالكتاب، ويضع أشياء على الأرض هكذا، وهكذا: هذه الحصوة هي المعمل، وهذه «الماتي» هي الآلة، وحبوب الفوصوليا هذه هي نحن العمال، وأقول لك إنه كان يشرح وكأنما لن يكون هناك مرض أبداً،ولا مسلولون ولابؤس ولا استغلال. كلّ الناس يمكن أن يعملوا، ومن لايعمل ليس له حق في الحياة. إيه، إنني أحدثك عن الرجال والنساء الأصحاء، ولا أحدثك عن الأطفال والمرضى والشيوخ، بل على العكس من ذك، كان «لوفي» يقول إن كلّ من يعمل يتعين عليه أن يعيل المعاقين والأطفال والشيوخ، وهكذا فإن واحداً يصنع أحذية، والآخر يصنع الطحين، وآخر يخبز لك الخبز، وغيره يذهب إلى الحصاد. وكل مايُصنع يوضع في مخزن. في هذا المخزن يوجد من كلّ شيء: طعام، وألبسة وكتب مدرسية وكلّ مايمكن أن تتصور، حتى ألعاب وسكاكر للأطفال، وهذه ضرورية كضرورة الحصان والقبعة لنا. ويقوم على إدارة المخزن رجلٌ يعمل بهذا، أي الاهتمام بالمخزن، فأذهب أنا وأقول له أن يعطيني حذاء قياسه كذا، والآخر يتطلب كيلو من اللحم، وآخر «أونزة» من الشكولاته، والآخر معطفاً لأن مرفقي معطفه قد تمزقا. لكلّ

امرىء مايحتاجه، ولكن ليس أكثر مما يحتاج.

- وإن رغب غني بأشياء أخرى وأراد أن يشتريها؟

- نظر إليه «كارلوتشو» بقسوة ودهشة.

- أقلت غني؟

- نعم.

- عن أيّ غني تحدثني أيها الديك الرومي؟ ألم أقل لك إنه لن يكون هنالك أغنياء؟

- ولكن لماذا يا «كارلوتشو»؟

- لأنه لايوجد أموال بعد ذلك.

- وإن كان لديهم من قبل؟

ابتسم «كارلوتشو» وأومأ له بأمارة النفي.

- إن كان لديهم فقد انخدعوا، لأنه لافائدة منها الآن. ولماذا النقود إن كان كلّ ماتحتاجه تأخذه من المخزن. النقود قطعة من ورق قذرة ومملوؤة بالجراثيم. أتعلم ماهي الجراثيم؟

أومأ «ناتشو» بما يفيد الإيجاب.

- حسناً إذن، لقد انتهت النقود. ومن كان مغفلاً فليحتفظ بها إن أراد. لاأحد يمنعه من ذلك. وعلى كلّ حال فلن تنفعه في شيء.

- ومن يود أن يأخذ من المخزن أحذية اكثر من حاجته؟

- كيف تقول أحذية أكثر؟ لاأفهمك. إن أردت حذاء أذهب إلى المخزن وآخذه.

- لا، قلت إن أراد أحدهم إثنين أو ثلاثة.

توقف «كارلوتشو» عن شرب «الماتي»، وعلت وجهه أمارات الدهشة.

- ثلاثة أو أربعة أحذية قلت؟

- نعم، ثلاثة أو أربعة.

أخذ «كارلوتشو» يضحك بشدة.

- ولكن لماذا نحتاج ثلاثة أو أربعة أحذية إن كنا لانملك سوى قدمين فقط؟ حقاً لم يخطر ذلك ببال «ناتشو».

- وإن ذهب أحد إلى المخزن وسرق؟

- سرق...؟ ولماذا..؟ إن احتاج أي شيء ماعليه إلاّ أن يطلبه، وسيعطونه إياه، هل أنت أحمق؟

- وإذن لن يكون هنالك شرطة.

أومأ «كارلوتشو» إيماءة نفي قاطعة برأسه.

- سوف لن يكون هنالك شرطة، إن الشرطة هي أسوأ كلّ شيء. أقول لك عن خبرة.

- عن خبرة...؟ أية خبرة.....؟

انطوى «كارلوتشو» على نفسه وتمتم بصوت خافت كأنما لايود أن يتحدث عن ذلك، وكما أن ماقاله كان زلة لسان.

ثم قال على نحو مبهم.

- خبرة وكفى.

- وإن أراد أحد أن لا يشتغل..؟

- ليكن ذلك إن أراد. سنرى ماذا يفعل عندما يجوع.

- وإن لم ترغب الحكومة بذلك.؟

- الحكومة؟ ولماذا نحتاج الحكومة؟ عندما كنت صغيراً وأُلقي بنا إلى الشارع لنموت من الجوع، تمكن والدي من تجاوز المحنة لأن «دون بانشوسييرا» ساعده على فتح دكان جزار. وعندما ذهبت للعمل أخيراً لم نكن بحاجة للحكومة، وحينما ذهبت للعمل في «السيرك» أيضا، وحين دخلت للعمل في برادات اللحوم في «بيريسو»، كان الأمر الوحيد الذي فعلته الحكومة هو إرسال الشرطة أثناء الإضراب وتعذيبنا.

- تعذيبكم؟ وماذا يعني ذلك يا «كارلوتشو»؟

مكث «كارلوتشو» ينظر إليه بأسى.

- لا شيء يافتى... لم أكن أرغب في أن أقول لك ذلك. هذه ليست امور أطفال. ثم إنني أنا من يُدعى امروأً جاهلاً.

صمت «كارلوتشو» وانتبه «ناتشو» إلى أنه لم يعد لديه مايرويه عن الفوضوية. ثم أتى أحدهم فاشترى لفائف وكبريت. جلس «كارلوتشو» بعد ذلك على الكرسي يشرب «الماتي» بصمت. أما «ناتشو» فكان ينظر إلى السحب ويفكر، إلى أن قال بعد قليل:

- أرأيت يا «كارلوتشو»؟ هناك «سيرك في شارع «تشيكلانا».

- «تشيكلانا»؟

- نعم، اليوم وزعوا نشرات دعاية. مارأيك لو نذهب؟

- لست أدري يا «ناتشو» أقول بصراحة إن «سيرك» هذه الأيام لايساوي شيئاً. أيام «السيرك» العظيم قد ولّت.

مكث و «الماتي» في يده يفكر حالياً تواقاً، ثم حين عاد إلى الواقع أضاف يقول:

- لا بدّ أنه «سيرك» صغير بائس.

- ولكن، عندما كنت صغيراً، هل كان هنالك مثل هذا «السيرك» الصغير، لم تحدثني عن مثل ذلك «السيرك»؟

ابتسم برقة

- حسناً، طبعاً.. «سيرك فرناندس».. ولكن لم يعد هنالك مثل «سيرك» ذلك الزمن العظيم أبداً.. لقد انتهى... لقد قضت عليه الصور المتحركة.

- الصور المتحركة؟ وماهي الصور المتحركة؟

- يسمونها الآن السينما. هذه قضت عليه.

- ولكن لماذا يا «كارلوتشو»؟

- إنها مسألة تستعصي على فهم الأطفال أمثالك. ولكن أقول لك رأيي بصراحة: أتت السينما... وعم مساء..

- مص «الماتي» وأخذ يفكر. ارتمت على محياه ابتسامة خفيفة، لكنها مغمسّة بالحزن.

ـ أتى في سنة ١٨ «سيرك توني لوباندي» ... شغل ساحة اسبانيا كلها.

ـ ولكن حدثني عن سيرك «فرناندس».

ـ مص «الماتي» بعمق وكأنما لم يكن يشرب «الماتي» بل يفكر.

ـ منذ عام الجراد.. حسناً... كان والدي يشتغل في حقل صغير يملكه دون «بانشوسييرا» كان رجلاً طيباً جداً. لم يكن يداوي وحسب، بل كان يعطي الدواء للفقراء أيضاً. كان ذا لحية طويلة بيضاء حتى هنا. كان شبه ساحر. عندما كان يولد الطفل تأخذه والدتي إليه قبل أن تعمده. كان يقول لها هذا سيعيش، وهذا لن يعيش. كنا ثلاثة عشر أخاً، ولقد رويت لك ذلك. وهكذا فإن «دون بانشو» اخبرها عن ثلاثة بأنهم لن يعيشوا: لا «نورما» ولا «خوانا» ولا «فورتوناتا».

سأل «ناتشو» مندهشاً:

ـ وماتوا؟

فأجاب «كارلوتشو» ببساطة:

ـ طبعاً. ألم أقل إنه كان شبه ساحر؟ وهكذا فإن والدتي كانت تتحلى بالصبر مسبقاً، لأن «دون بانشو» كان يقول لها انظري يا «دونيا فيليسيانا»، لاتبكي واصبري لأن هذه إرادة الله. ولكن، مع ذلك، فإن والدتي كانت تبكي، وتعتني بالطفل، إلاّ أنه كان يموت. هكذا هي الحياة يا «ناتشو».

ـ والآن، قل لي، لماذا تركتم الحقل.

ـ كان والدي طليانياً. حوالي سنة ١٦ خسر حتى آخر قرش. لكي

أكون صريحاً معك أقول، ليس هنالك منظر أفظع من سرب الجراد الكبير. كانت السماء تظلم كلها، وكنا نحن الأطفال نخرج لندق على تنك الكان، ولكن لماذا، لاأحد يقهر الجراد. وكما كانت تقول والدتي، ينبغي أن نصلي كي يبتعد السرب، وهذا كل شيء. إن نزل عمتم مساء... اتذكر كالحلم، كان عمري ستة أعوام، وكنا نقرع التنك بكلّ ماأوتينا من قوة. كنا نحن الأطفال كأننا في يوم عيد، ولكن أمي كانت تبكي عندما رأت أن طلائع الجراد أخذت تهبط. وفي نهاية المطاف، سواء بالتنك أو بغيره، لم تكن هنالك فائدة ترجى. فصرخ والدي حينئذ كفى... كفى... وأمر «بانتشيو» و«نيقولا» اللذين كانا يركضان من ناحية إلى أخرى بالتزام الهدوء والصمت... كان العجوز كالوثن. وكان يخيفينا كثيراً لأنه كان يجلس كالأخرس على هذا الكرسي الصغير الذي يحتفظ به لشرب «الماتي». كان تحت السقيفة، وينظر كالكسيح كيف الجراد يلتهم كلّ شيء. لم يكن يتحرك له جفن، ومكث طيلة أيام لا ينبس ببنت شفة. وبعد المصيبة قال: هيا أيتها العجوز، سوف نذهب إلى القرية، لقد انتهى الأمر؛ حملّوا كلّ شيء في العربة، وركضنا جميعاً نفعل ماأمر به العجوز، ولانتفوه بأي كلام، لأنه كان كالمجنون، على الرغم من أنه لم يرفع صوته. وعندما حمّلنا كل شيء وأصبحنا جاهزين، لم ترغب العجوز في أن تخرج من الكوخ. عندئذ ذهب وقال لها بهدوء أخرجي من هنا، أخرجي فقد انتهى كلّ شيء. ماذا سنفعل، إننا فقراء سيئو الحظ، هيا نجرب حظنا في القرية. ولكن العجوز التي لم تكن ترغب في أن تتحرك من جانب الموقد، كانت تبكي باستمرار، إلا أن والدي أمسك بأحد ذراعيها وجرّها إلى العربة، وعندما خرجنا وأغلقنا باب السياج، مكث العجوز ينظر إلى الكوخ برهة طويلة، ولا يتفوه بكلمة واحدة، ولكن أعتقد أنه كان كمن يود أن يبكي، حتى استدار وقال هيا. وهكذا ذهبنا إلى القرية والكلاب من خلفنا، وأكون صادقاً إن قلت لك إنه لم يبق هناك

حتى القمل.

مكث «كارلوتشو» بعض الوقت صامتاً، يشرب «الماتي» وهو مطرق، ثم تابع يقول:

ـ حسناً، كما كنت أقول لك، فتح الوالد «دكاناً» صغيراً لبيع اللحم، وكان «دون باتشو» يضمن تسديد ثمن الحيوانات فيما بعد، وعشنا في كوخ بجانب الفناء الذي يخص «دون باتشو» أيضاً.

ـ كان ذلك إذن، حين أتى «السيرك».

ـ تماماً، أجَّرهم والدي الفناء بـ ٥٠ «بيسوس».

ـ خمسون «بيسوس»؟

ـ ياه، خمسون «بيسوس» ولكنني أتحدث عن ٥٠ «بيسوس» من نقود تلك الأيام، نقود قوية. فأقاموا «السيرك» في حلبة طولها حوالي ١٠ «وارة»[1]. وكان الإستعراض أيام الخميس والسبت والأحد، السبت والأحد عصراً ومساءً وليلاً. طبعاً، عندما يتوفر جمهور. وكان لا يجتمع أحياناً أكثر من خمسة أو عشرة أشخاص، ولذلك كان «دون فرناندس» يطفيء الفوانيس ويبدو عليه الإنزعاج، يشرب الخمرة، ويضرب «دونيا اسبرنسا» زوجته التي كانت تقوم بالمشي على الحبال أيضاً و«ماريّالو» ابنته. وكان هنالك أيضاً المهرج شقيق «دونيا اسبرنسا» لكنه لم يكن يتدخل عندما كان يضربها: كان «دون فرناندس» يقدم عرضاً خطراً، يرمي السكاكين.

ـ وكنت أنت تشتغل أيضاً؟

---

(١) الوارة مقياس طوله ٨٣،٥ سم (المترجم)

ـ عندما لم يكن والدي يرى، كنت أشعل الفوانيس وآتي بالأدوات، شيء من هذا القبيل. ياه، كنت أحب «السيرك» وكنت أود أن أذهب معهم.

ـ وذهبت مع «دون فرناندس»؟

ـ لا، كيف أذهب وعمري لايزيد على ١٣ عاماً، لو أنني كنت في المدرسة، لكنت في الصف الثالث... ثم، إن أحوال المسكين «دون خيسوس» كانت سيئة، فلم يكسب ما يغطي النفقات. كان والدي يبعث إليه بقليل من اللحم وكانوا هم يشترون بعض الخبز، وهكذا تحملوا بضعة أيام، ولكن لم يكن في اليد حيلة، كان حظهم سيئاً، وهكذا، عندما فكوا الخيمة لم يكن لديهم ٥٠ بيسوس ليدفعوا الأجرة. وأراد «دون فرناندس» أن يترك للعجوز البندقية التي كان يستخدمها أثناء عروض الرماية، ولكن والدي قال له: لا يا «دون فرناندس» أنت تأخذ البندقية، كيف تظنني سأوافق وهي لتقديم العرض. وهكذا ذهبوا ولم نرهم بعد ذلك قط. علمت مرة عندما كنت أشتغل في «سيرك» الإخوان «ريفيرو» في «برغامينو»، أنهم أفلسوا وباعوا الخيمة والبندقية والعربة، وان «دونيا اسبرنسا» ماتت بعد مرض أصاب رئتيها، وان «ماريّالو» وخالها عثرا على عمل في سيرك «فاسيو» الذي كان يعمل في ناحية «تشاكابوكو»، وأما «دون فرناندس» فقد استسلم للخمرة، ولذلك لم يعد بوسعه أن يقدم عرض السكين ولا البندقية.

لاذ «كارلوتشو» بعد ذلك بالصمت وهو يفكر، فقال له «ناتشو» حينئذ أن يروي كيف ذهب مع «السيرك». فارتسمت على محيا «كارلوتشو» إبتسامة حالمة خجولة.

قال:

ـ ياله من زمان يا «ناتشو».. ياله من زمان... أقول لك بصراحة إن

أكثر وأجمل ماأتذكر في حياتي هي حقبة الـ ٢٢ . كنت أجيراً في مزرعة «ماريا أونزوي دي الغيار»، ولكن ماأن علمت أن «سيرك» «توني لوباندي» وصل، حتى نزلت إلى الضيعة. كانت «نيليا نيلكي» تظهر بلباس رجل، تمتطي حصاناً أبيض اللون يجر وراءه ذيلاً طويلاً يصل حتى الأرض. ثم كان «توني لوباندي» الذي لم يكن له مثيل، يتسلق على الحصان من الخلف، وبينما الحصان يدور بسرعة على إيقاع الموسيقا، كان هو ينزع عنه ٢٥ صدرية ملونة. وكان «سكربيني» المهرج الأرجنتيني المشهور... وبعد ذلك، كان هَنالك عرض عظيم في قفص كبير يشغل الحلبة وبداخله أسد أفريقي غير مقيد، والمروض يمتطي حصاناً أسود اللون كالفحم... ثم كان يأتي بعد ذلك عرض الهرم البشري للإخوة «لوبرستي»... وهكذا قلت سأذهب مع «السيرك» وليكن مايريده الله.

ـ ووضعوك في الهرم البشري؟

ـ لا يا «ناتشو»، كيف سيضعونني في الهرم إن لم أكن أعرف شيئاً؟ ماذا تظن السيرك يكون؟ «السيرك» مسألة جدّية جداً. لذلك وضعوني أجيراً. أجمع روث الخيول وأكنس الخيمة وما سوى ذلك مما يمكن أن تتصوره. أجيراً، ولكن عندما يأتي العرض يلبسوني الزي الموشّى بالألوان والقبعة. كانوا يضعوننا على الجانبين في صفين كالممر حيث يدخل الرياضيّون والخيول والكلاب المروضة والمهرجون. بعد ذلك حين رأوا أنني تعلمت بسرعة وجسمي مناسب، دخلت في الهرم البشري، ولكن بعد ثلاث سنوات عندما مات أحد الإخوة «لوبرستي». كنا في «برغامينو»، أتذكر ذلك كأنه اليوم، حينما قال لي «لوباندي»: يا «كارلوتشو» هذه هي فرصتك، فكدت أموت من الفرح. كان يتعين عليّ أن أذهب إلى ركن مظلم، كي لايراني أحد أبكي من الفرح. أعظم أيام

عمري. هكذا بدأت أهم مرحلة في حياتي.

وقف «كارلوتشو» وأخذت آخر أضواء المساء تلقي ظلالها عليه، لكن بريقاً سحرياً كان يشع من سترته البيضاء الناصعة كالثلج. هنالك كان الإخوة «لوبرستي» الخمسة، أقوياء يتألقون تحت الأضواء الملونة، يقفزون في الهواء بخفة وعزم فوق أكتاف «خوان لوبرستي» الحديدية. وحينما يأخذ الهرم البشري بالتشكل فوق أكتافه الهرقلية، تصبح قرعات الطبول أشد حدة وعنفاً، حتى وصول آخرهم إلى القمة. ثم يشرع الرجال الذين شكلوا الهرم بالقفز واحداً بعد الآخر، في حين تخفت قرعات الطبول شيئاً فشيئاً حتى تختفي. هاهم الآن مصطفون جميعاً يحيون مسرورين الجمهور الذي يصفق لهم، ثم يأخذ النور بالخفوت، ويعود «السيرك» ليصبح جوسق صحف وتبوغ ويعود «كارلوتشو» ليصبح الرجل الذي قهرته السنون والأحزان وكما لو أن نابضاً هائلاً قد ارتخى في داخله.

- إيه يا «ناتشو»... تلك كانت أياماً رائعة... وذلك «السيرك» العظيم ذهب كي لايعود أبداً...

نظر إليه «ناتشو» طويلاً، وشيئاً فشيئاً أصبح الصمت أشد عمقاً. ثم، على الرغم من أنه كان يعرف سأله لماذا ترك «السيرك».

- كنا في «كوردبا» عندما أصيب عمودي الفقري

تهدّج صوته، ومكث برهة طويلة يمص «الماتي».

- قال لي «لوباندي»، أنت يا «كارلوتشو» ستجد هنا عملاً في أي وقت. ولكنني قلت له شكراً يا «دون لوباندي» أفضّل أن أذهب. لأنني لن أقبل أن يشفقوا عليّ لأعمل كأجير. وهكذا أتيت، إنما لم أكن أودّ أن

يروني في القرية، وحينئذ قال لي «كوستوريو ميدينا» تعال معي لنعمل في براد اللحوم...

رتب بعض الصحف وسوى صف علب «الشوكولاتة»، وحاول أن يخفي وجهه عن «ناتشو» ومكثا صامتين. إنكفأ كل منهما نحو دخيلته.

أوشك الظلام أن يخيم: نزل الليل على رؤوس أصابعه.

أحلام الجماعة

حينما كان ينتظر حلول دوره، كان فتى ينظر إليه من إحدى المناضد، وأخيراً نهض، وسار متردداً وإتجه نحوه. كان يود أن يحييه فقط.

قال وهو يبتسم، وقد بدت عليه أمارات الحيرة.

ـ قرأت كتبك. أدعى «برناردو واينستين».

كان الصف طويلاً، وكان يجب أن ينتظر كثيراً، وأصبح الوضع صعباً. كلاهما كان مضطرباً. أكان طالباً؟ لا، كان مستخدماً. مكث الفتى ينظر إليه.

ـ أتود أن تقول لي شيئاً.

أجل، طبعاً، أمور كثيرة يود أن يسأل عنها. ردد كلمة كثيرة وشدّد عليها قليلاً، إنما بحيرة، ثم سرعان ماقال، وكأنما حزم أمره: «القسوة».

نظر إليه «ساباتو» كأنما يستفهم، أما «وينستين» فقد اضطرب.

ـ قل، قل.

ـ أنت من أنصار التغيير الاجتماعي.

نعم، طبعاً، والجميع يعرفون ذلك.

كان يبدو أن الحوار يوشك أن ينتهي، ولم يكن هنالك ما يدعو لاستئنافه. لم ير الفتى كيف يوفق بين الملاحظتين. كيف يقيم علاقة منطقية بينهما. وعلى الرغم من أن «ساباتو» كان يرتاب بالعلاقة، لكنه لم يكن يعرف أيضاً كيف ينقذ الموقف. أثار شفقته.

- يبدو لي أنك تود أن تقول لي إن رواياتي مفعمة بالقسوة، أو بأحداث لاترحم، أليس كذلك؟

نظر إليه «واينستين»

- ملاحظات وأفكار «كاستيل» و«فيدال اولموس»؟ المعلمة في التقرير حول العميان، أليس ذلك صحيحاً؟

أجل، ولكن لطفاً، يجب أن لايسيء الظن، لم يكن يقصد ذلك، كيف سيشرح الموقف، إنه ليس هو من....

كان مضطرباً جدّاً، وكان واضحاً أنه نادم، ولكن «ساباتو» أومأ إليه بإشارة من يده كأنه يطمئنه، واستطرد يقول:

- كيف توفق إذن بين تلك القسوة وتلك السخرية التي يعرب عنها فيدال اولموس ضد التقدم، والموقف اليساري، أليس كذلك؟

أطرق وانيستين، كما لو أنه مسؤول عن ذلك التناقض.

- نعم، ولماذا الخجل. لقد سألتني سؤالاً بالغ الأهمية، ولقد طرحته أنا أيضاً مرات عديدة حين كنت أمكث حائراً أو خجلاً من كوني صاحب أفكار شيطانية كهذه.

قال الفتى بسرعة

ـ حسناً، ولكن هنالك شخصيات أخرى، لطفاً، العريف «سوسا» «هورتنسيا باس»، ومأأدراني...

أوقفه ساباتو بإيماءة.

ـ نعم، أنا أعرف... ولكن أكثر مما يثير إهتمامي هو الأمر الآخر الذي أتيت على ذكره. إنه أمر يصعب تفسيره. نحن جميعاً متناقضون، ولكن، ربما كان الروائيون أشد تناقضاً من الآخرين. ولعلهم كذلك لأنهم روائيون. فأنا كثيراً ماكنت أشعر بالضيق من تلك الثنائية، ويبدو لي أنني بدأت في هذه السنوات الأخيرة أفهم قليلاً.

كانت التي تتحدث بالهاتف تسأل عن صحة فتاة (أوسيدة) تدعى «مينيكا» وعن حالة الطقس العامة في سيوداديلا» أيضاً. ثم، تَذكّرتْ، فَروتْ، وحَلّلتْ، وفي نهاية الأمر حكت لها الحادثة التي حلّت بجار بسبب هرٍ.

هاج صف المنتظرين

قال «س»

ـ بعد ذلك، عندما يحلّ دور أحدنا، إما أن يكون قد تعطل، أو يكون الخط مشغولاً بإستمرار أو يبتلع الجهاز النقود. هل قرأت إحدى آخر قصص «تولستوي»؟ غني ملاك يستغلّ فقيراً بائساً ليعقد صفقة كبرى؟ إن القصة ترجمة حياة ذاتية، ذلك أكيد. أتعرف ماذا كان يكتب في ذلك الوقت بالذات؟

لا، لا يعرف.

ـ ذلك الكتاب حول الفن. ماهو الفن. كتاب أخلاقي

غيّرت المرأة التي تتحدث بالهاتف موقعها، وتصور الجميع أن ذلك التغيير بشير إنتهاء الحديث. لكنه كان من أجل أن يستند إلى القدم الأخرى. أخذت الإعتراضات تصبح لاذاعة. ولكن المرأة لم تخضع للضغوط الأخلاقية، كانت تبدو كأنها دخلت الآن في القسم الهام من الحديث، أمر له علاقة بِوَرم.

ـ أقول لك قضية «تولستوي» لأنها مسألة بارزة وواضحة. ضرب من العمل التدريبي.

ـ عمل تدريبي؟

ضحك «س» وقال له، لم أكن أقصد ذلك تماماً، لاتستمع لما أقول، في حين كان يبدو أن المرأة دخلت في القسم النهائي من مكالمتها: جَرْس صوتها دلّ على ذلك، وأخذ الجميع يشعرون بالإرتياح. وعلى الرغم من أن ذلك الجرس سرعان ماانتعش من جديد (لسبب ماغير معروف، ربما كان يعود إلى شيء ما روته الأخرى من «سيوداديلا»)، فظهرت عناصر طارئة حول محاسن ومضار إجراء عملية جراحية (كما عبرت المرأة)، ولكن يجب القول إنه خفت بعد ذلك، عند إهداء التحيات لسلسلة من الأشخاص مِنْ معارف مَنْ هم على طرفي خط الهاتف. بعدئذ علّقت السماعة وذهبت شامخة من دون أن تنظر إلى أحد. تحرك الصف عندئذ ثقيلاً بطيئاً كحشرة ذات أرجل متعددة تتسلق جبلاً في خضم صعوبات زادتها حدة تلك الحشرة التعيسة: لكل حلقة فيها نظام عصبي، مستقلّ بذاته.

كانت الحبرة واضحة في عيني «وينستين»

ـ أقول لك إن التفكير في تلك المسألة أصبح في السنوات الأخيرة يضايقني، لقد اختبروا أشخاصاً نياماً بجهاز التخطيط الدماغي، في إحدى جامعات الولايات المتحدة طبعاً، كانوا يوقظون النائم كلما بدأ يحلم. أتدري مايحدث؟ كان «وينستين» يراقبه كمن ينتظر الكشف عن أمر حاسم.

ـ يمكن أن يصل الشخص إلى حافة الجنون.

بدا أن «وينستين» لم يفهم.

ـ أتفهم؟ إن التخيلات تشبه الأحلام كثيراً، يمكن أن تكون فظة، قاتلة، سادية، قاسية لاترحم حتى عند أشخاص عاديين يكونون أثناء النهار أهلاً لإسداء أي معروف. تلك الأحلام قد تكون ضرباً من التنفيس. والكاتب يحلم من أجل الجماعة. ضرب من حلم جماعي. وإن مجتمعاً يمنع التخيلات يتعرض إلى مجازفات خطيرة جداً.

مكث الفتى ينظر إليه طويلاً، وإن لم تعد نظرته كما كانت من قبل تماماً.

ـ لست أدري، إنها مجرد فرضية. لست متأكداً.

تعكر مزاجه ثانية: تلك المرأة التي تحدثت بالهاتف، ذلك الحديث عن قطط وأورام، وعن أعمام، وعن حالة الطقس في «سيوداديلا». سرعان ما كانت الحياة تبدو له غير معقولة. تلك السيدة المصابة بالورم ستموت طبعاً. ولكن ماذا كان يعني كل ذلك المزيج؟ والصف، تلك الحشرة البطيئة القلقة المتعددة العقول. ينتظرون جميعاً. ماذا، لماذا، نوم، الأحلام.

عندما ننام نغمض أعيننا ولذلك فإننا ننقلب إلى عميان. وقف قليلاً، بوغت.

تنطلق الروح في البحيرة الليلة الكبرى وتبدأ الرحلة المريعة: «تلك المغامرة المشؤومة كلّ ليلة» أتكون الكوابيس مشاهد ذلك العالم البغيض. وكيف يعبر عن تلك المشاهد؟ بوساطة إشارات غامضة قطعاً: هناك، لايوجد «كؤوس» ولا «سيدي المحترم» ولا «بيانو».

«تحليل» الأحلام، محللون نفسانيون، تفسيرات تلك الرموز المستعصية على أية لغة أخرى. لاتجعلوه يضحك من فضلكم، معدته ليست على مايرام. يالها من سذاجة. يبقى العميان مطمئنين. يتقلص كلّ شيء عند التغير إلى عدد من الكلمات المزيفة، التي لاتضر: كشرح النسبية إلى طفل معتوه بالإشارة واضح أنه يمكن بناء رموز بالكلمات، ألم يفعل «كافكا»؟. ولكن تلك الكلمات منفردة ليست الرموز. أي ألم معدة. ياإلهي.

مجهول

كان رجلاً أسمر اللون هزيلاً، أمام كأس شارداً يفكر. كان بوسعه أن يرى جانباً من وجهه، وجه مثلث الشكل كأنه حفر من خشب صلب، وشفتان تنطوي غضونهما على المرارة.

فكر «برونو»، إن ذلك الرجل وحيد وحدة مطلقة تماماً.

لم يكن يعلم لماذا كان يخال أنه يعرفه. بحث في ذاكرته مراراً، وحاول أثناء زمن طويل أن يقرنه بصورة ما من صور الصحف والمجلات. كان يبدو، من ناحية أخرى، أمراً غريباً حقاً، أن يكون شخص رث الثياب وإنسان بلغ ذلك الدرك، شخصية من شخصيات الصحف المعروفة، هذا إن لم تكن له صلة ما - خطر له فجأة - بحادث بوليسي في يوم من الأيام، بعد مضي ساعة أو مايقارب الساعة، نهض الرجل المجهول وذهب. قد يكون عمره ستين عاماً تقريباً. كان يمشي محدودب الظهر، وكان

فارع الطول نحيلاً، وكان وجهه قاسي القسمات وثيابه رثة، لكن شيئاً ما كان مميزاً في ملامحه وفي مظهره. كان يسير كأنه شارد: واضح أنه لم يكن ذاهباً إلى أي مكان، وأنه لم يكن هنالك من ينتظره، وأن كل شيء عنده سواء.

فكّر «برونو»، كعادته في التفكير ملياً بالمتوحدين والتأمل مشلول الإرادة، «إنه إما مجرم أو فنان» تلك الصورة بقيت طيلة أشهر محفورة في ذاكرته بقوة، وعلى نحو ليس له مايفسره. حتى ظن في يوم من الأيام أنه تذكر أمراً. راودته الريبة. بحث في سجل محفوظاته الذي لم يكن سجل فيلسوف أو كاتب أو صحفي. وإنما سجل إنسان تشكل البشرية عنده لغزاً مؤلماً.

أجل هنالك كانت الصورة: لقد كان المجهول «خوان بابلو كاستيل»[1] الذي قتل عشيقته في ١٩٤٧ .

المطلق، فكر حينئذ «برونوباسّان»، بجسد ينطوي على الوداعة والكآبة.

نظر إليهم «س» برما ساخطاً

كيف؟ أيجب العودة لمناقشة ذلك؟ ظننت أنها مسألة انتهت منذ عشر سنوات، أولئك الماركسيون ـ المزيفون يقسمّون الأدب إلى سياسي أو تجميلي، ولما لم تكن «عوليس» لاسياسة ولاتجميلية، فهي ليست موجودة، وتعود إلى إحدى الممالك الحيوانية الغريبة العجيبة، وربما كانت تنتمي إلى مملكة النباتات، أو لعلها خلد مائي. هل سنستمر في إضاعة الوقت بمثل هذه السخافة؟.

(١) (خوان بابلوكاستيل) شخصية رواية ارنستو ساباتو (النفق) (المترجم)

ـ ولكن هنالك فتيان يسألون ويتهمون.

غضب: بهذا المعيار يمكن إتهام «بيلاربارتوك» بأنها تؤلف موسيقا و «اليوت» بأنه ينظم شعراً.

ـ لديّ الكثير لكي أفعله، وقتي ضيق جداً. لاأعني الساعة، وإنما أعني المفكرة.

ـ أجل، ولكن لديك التزامات.

كان فتى قاسي الوجه، كأنه «غريغوري بيك»، لكنه قصير وشفتاه مزمومتان

ـ من أنت؟ وما اسمك؟

ـ «أراوخو»

ـ منذ عشر سنوات كتبت كلّ ذلك.

تدخلت فتاة ترتدي قميصاً أصفر اللون وبنطال جينز بالٍ، فقالت:

لقد قرأناه. لايتعلق الأمر بنا، نود تسجيل ذلك ونشره.

ـ لقد سئمت التسجيلات والمقابلات...

كان «برونو» يودّ أن يذهب

شعر بالضيق وكان يرى «ساباتو» الآن في ذلك الركن ينزع نظارتيه ويمرر يده على جبينه بإيماءته المعهودة عندما يكون متعباً وقانطاً، بينما أولئك الفتيان يتناقشون فيما بينهم. لأنهم، حتى هم، لم يكونوا على إتفاق، وكانوا يشكلون مزيجاً غير معقول (ماالذي كان يفعله هناك

«مارسيلو» مثلاً، ورفيقه المتجهم الصامت؟ وبفضل أي تركيب سخيف تواجدوا هنالك أيضاً...؟). وذلك النزاع، ذلك النزاع العنيف والسخيف، كان يخاله دليل أزمة إنشطار العقائد المريع. كان بعضهم يتهم البعض الآخر كأنهم أعداء حتى الموت، مع أنهم ينتمون جميعاً إلى ماكان يدعى اليسار؛ ولكن يبدو أن كلاً منهم كانت له مبرراته لكي ينظر لمن يقف بجانبه أو أمامه بعدم ثقة، كأنه عميل خفي أو مكشوف لأجهزة التجسس، ولوكالة المخابرات الأمريكية، وللإمبريالية. كان يتأمل في وجوههم. كم من عالم مختلف كان وراء تلك الواجهات، وكم من كائن مختلف جوهرياً. (إنسانية المستقبل). أي شرائع، وأيّ طراز من البشر؟ (الإنسان الجديد). ولكن كيف يبنى بهذا النفاق الفوقي، كيف يبنيه «بوش» هذا الذي كان يتكهن، وآخر مثل «مارسيلو»؟ أي شمائل لهذا الطفل اليساري الذي يحبو يمكن أن تساهم في إكتمال ذلك (الإنسان الجديد)؟. كان يتأمل مارسيلو بسترته الرثة وسرواله المجعد وحضوره الذي يكاد المرء لايحس به إلا أنه يهيمن بشدة على «ساباتو» لأنه كان ـ كما كان ساباتو يقول ـ يشعر أمامه دائماً بأنه مذنب مثلما كان يحدث في زمن آخر مع «أرتورو سانتشيس ريفا» لا لأنه كان مريعاً، وإنما على النقيض من ذلك: بسبب طيبته وتحفظه الصامت ورقته. لم يكن يعتقد أنّ روحه كانت مطمئنة، لقد كانت تعذبه بالتأكيد، ولكن عذابه كان خفيّاً وهادئاً. والأمر الغريب هو أنه كان يلاحظ في عينيه ملامح الدكتور «كارانسا باس» ذاتها، أنفه الضخم بعظامه البارزة، جبهته العالية المستقيمة، عيناه الواسعتان المخمليتان الرطبتان قليلاً: أحد فرسان لوحة دفن «كونت أورغاس»[1]. لماذا الإختلافات إذن؟ مرة أخرى كان يدرك أن عظام ولحم وجه ما لاتعني كثيراً. كان مايؤدي إلى الإختلافات خفياً وفي بعض الأحيان جهنمياً. ولكن الأشياء تختلف في ماتتشابه به، كان

---

(١) دفن كونت أورغاس: لوحة مشهورة للفنان الغريكو (المترجم)

أرسطو قد اكتشف ذلك، وأدركه «بروست» ذلك العبقري المتعدد المواهب، وكان ماهو مشترك فعلاً بين تينك العينين وذلك الفم وذلك الانف الضخم البارز، هو الذي يكشف عن الهوة المفتوحة بين الأب والإبن، هوة قد تكون طبيعية لكنها اتسعت فيما بعد بمضي السنين: خطوط تكاد لاترى في أطراف العينين والجفنين وغضون الشفتين وفي إنحناءة الرأس وفي حركة اليدين (في مارسيلو بخجل، كأنما يطلب المعذرة لأنه يملكها، أو لأنه لايدري أين يخفيهما)، ذلك ماكان يفصل على نحو محزن ونهائي بين كائنتين قريبتين جداً، بل (كان بوسعه أن يؤكد تقريباً) ويحتاج كلّ منهما للأخر.

كان وجه «بوش» يثير ذعر «برونو»

كلّ عبارة بذيئة كانت تثير في نفسه خجلاً من أجل الجنس البشري بأسره، كان يعلم أنه يمكن أن ينقلب إلى مخبر شرطة أو أن يتسلق حتى يتحول إلى موظف لدى هذا النظام أو نقيضه. وكان يعود حينئذ للتفكير بحماس في كارلوس. وإن كان حماساً يثير الألم، لأنه كان يعلم كم كان يكلف كائنات مثل «كارلوس» وجود حشرات مثل بوش. كارلوس. ألم يكن يقف ثانية بجانب مارسيلو؟ لأن الأرواح تتكرر، متجسدة إلى حد بعيد في الوجه المضطرم المفكر ذاته، وجه كارلوس عام ١٩٣٢ . وجه فتى يعاني من شيء عميق جداً لايمكن أن تنكشف مكنوناته لأحد حتى ولا لـ مارسيلو الذي قد يكون رفيقه الحميم، ولكن تشده إليه ولاشك صداقة منسوجة، من صمت وأفعال. وكانت تعود إلى ذاكرته، مع كارلوس أسماء من ذلك الزمان «كابا بلانكا» و«اليخن»، «ساندينو»، «الـ جولسون» يغني في ذلك الفيلم الهزلي، «ساكو» و«فانزيتي»، ياله من مزيج غريب وكئيب..! كان يعود لرؤية «كارلوس» الذي لم يكن يعرف لقبه أحد قط، منكباً على قراءة طبعات رخيصة من كتب «ماركس»

و«انجلن» يحرك شفتيه ببطء وصمت ويضغط بقبضتي يديه على صدغيه في تلك الغرفة في شارع «فورموسا»، كمن يبحث بلا كلل ليكشف في نهاية المطاف عن صندوق الكنز الذي سيجد فيه مفتاح سرّ وجوده المشؤوم، موت أمه في بيت وضيع من التوتياء، يحيط بها أطفال جائعون. كان روحاً دينية ونقية. كيف يمكنه أن يفهم الناس بعامة، التجسيد والسقوط؟ كيف يمكنه أن يفهم طبيعة البشر الملوثة؟ كيف يمكنه، في يوم من الأيام أن يقبل وجود شيوعيين مثل «بلانكو»؟ كان يرى عينيه الملتهبتين في ذلك الوجه المتعب المفكر. لقد قاسى إلى حدّ لايطاق من كلّ صنوف العذاب حتى تحول إلى روح محضة، كأنما الحمى قد أحرقت لحمه، وكأنما جسمه المعذب المحترف قد تقلص إلى مجرد عظام وبشرة وإلى بعض من عضلات صلبة لكي تتحمل توتر وجوده. لم يكن يتكلم تقريباً كما يفعل هذا الآخر الآن، ولكن عينيه كانتا تضطرمان بلهيب الغضب بينما كانت شفتاه تنطبقان وسط وجهه الصلب، لكي تصونا أسراره الكئيبة. ويعود الآن في صورة هذا الفتى الآخر الأسمر والهزيل أيضاً الذي لم يتمكن من أن يدرك لماذا كان هناك بين كلمات كثيرة لايفهم معناها. قد يكون ذلك مجرد وفاء منه لـ «مارسيلو». لكن الأمر الغريب هو أن ذلك التكافل المشترك كان يتكرر أيضاً. ففي صداقة «كارلوس» و«ماكس»، التي لاتفسير لها من حيث الظاهر، كانت طيبة ماكس أمراً بد منه لتخفف مابين حين وآخر من توتر «كارلوس»، كانت كالماء لمن يجتاز الصحراء.

حسناً، حسناً

قال أراوخو، يجب أن يكون المرء أحمق كي يرفض الأدب كله بإسم الثورة. لم يفعل ذلك ماركس ولاأنجلز ولالينين أيضاً، ولكنني أعتقد أنه يجب إدانة بعض ضروب الأدب.

سأل ساباتو

ـ أي ضرب يكون؟

ـ أدب الإستطبان [1] أولاً.

انفجرت سورة غضب ساباتو

ـ لقد سئمت هذه البلاهات. لماذا لا نرتقي بمستوى المناقشة؟ واضح أن المغالطة التي تدون في رؤوسكم هي هكذا تقريباً: الإستبطان يعني الغوص في الأنا، والأنا المنعزلة هي أنانية لاتعبأ بالعالم، أو معاداة للثورة تحاول أن تجعلنا نؤمن بأن المشكلة هي في داخل النفس وليس في النظام الإجتماعي... الخ، ولكنكم تهملون أمراً بسيطاً: الأنا المنعزلة ليست موجودة. والإنسان يوجد في مجتمع، يتألم فيه ويقاتل، وحتى أنه يختبىء في ذلك المجتمع. العيش يعني التعايش. الأنا والعالم.. دعك من هذا. ليس سلوككم الإرادي والمراقب هو حصيلة هذا التعايش وحسب، بل وأحلامكم وكوابيسكم، وحتى هذيان جنونكم. والرواية، أشد الروايات ذاتية من وجهة النظر هذه، هي إجتماعية. وهي تقدم، على نحو مباشر أو ملتو، شاهداً على الواقع كله. لا وجود لرواية إستبطان وروايات إجتماعية ياصديقي: هنالك روايات كبرى وروايات صغرى، هنالك أدب ثمين وأدب غثّ. إطمئن: إن ذلك الكاتب سيقدم شاهداً على العالم دائماً، حتى وإن كان صغيراً هكذا.

كان أراوخو يستمع بقسوة صارمة.

قال:

ـ لايبدو لي أن الأمر واضح. كان ماركس لسبب ما معجباً بكتاب من

---

(١) الإستبطان: قيام المرء بفحص أفكاره ودوافعه ومشاعره (المترجم)

أمثال بلزاك، تلك الروايات هي شهود مجتمع معين.

-إن روايات كافكا لاتصف إضرابات عمال القطارات في براغ ولكنها ستبقى مع ذلك، أحد أعمق شهود الإنسان الحديث. ويقولون يجب حرق جميع أعماله بالنار، وكذلك أعمال «لوتريمونت» أو «مالكولم لوري». أنظروا أيها الفتيان، لقد قلت لكم إنه تبقى لي قليل من الوقت، وسوف لن أبدده في هذا النوع من الفلسفات المزعزعة.

قالت سيلفيا:

ـ أعتقد أننا نبدد الوقت عبثاً.

فقال ساباتو

ـ وأنا أعتقد كذلك أيضاً. لقد تكلمت عن ذلك حتى العياء، ولكنني ألاحظ أننا نعود إلى الحجج ذاتها دائماً. ليس هنا وحسب. أنظروا ذلك التحقيق الصحفي الذي نشره «أستورياس».

ـ عن أيّ شيء يتحدث

ـ عنا نحن، عن بعض الكتاب الأرجنتينيين. يقول إننا لانمثل أمريكا اللاتينية. شيء من هذا القبيل قاله أيضاً ناقد أمريكي منذ قليل: ليس لدى الأرجنتينيين أدب وطني. واضح أن عدم توفر لون محلي صارخ، يضلل هذا النوع من الرقباء الذين يطالبون في أعماقهم بصورة مسرحية مزركشة، كي يمنحوا الشهادة. يرى أولئك المتخصصون بأبحاث علم الوجود أن رجلاً أسود في مزرعة موز هو واقع، ولكن طالب معهد يفكر في وحدته في إحدى ساحات بوينس أيرس ليس سوى هزال ذاتي، ويَدْعون هذه السطحية واقعية. لأن ذلك الذي هو وطني مرتبط كلياً

بمشكلة الواقعية الغامضة دائماً. تلك الكلمة «تشي»[1]، كم يداهنون يمثلها. إن كنتُ نائماً وحلمتُ بتنين، فينبغي أن يستنتج من ذلك - نظراً لعدم وجود تنانين في الأرجنتين - أن أحلامي ليست وطنية؟ كان يتعين سؤال ذلك الكاتب الأمريكي إن كان عدم وجود أسماك حوت ماورائية في أراضي الولايات المتحدة يحوّل «ملفل» إلى وطني. أرجوكم، لندع مثل هذا الغباء...! لقد بلغ السيل الزبى.

نزع ساباتو نظّارتيه ومسح عينيه وجبينه بيده بينما كانت سيلفيا تناقش القوزاقي وأراوخو. لم يكن هو يصغي إليهم أو يسمعهم، لكنه عاد فجأة للحديث:

- إن مصدر هذا الغباء هو إفتراض أن دور الفن هو رسم الواقع، ولكن حذار: حين يتحدث هؤلاء الناس عن واقع فإنما يعنون واقعاً خارجياً، والآخر، الداخلي، نعلم جيداً أن له صحافة سيئة، كأن الأمر هو تحويل الكاتب إلى آلة تصوير. وفي جميع الأحوال، بالنسبة لأولئك الذين يعتقدون أن الواقعية تكمن في إكتشاف ذلك الواقع الخارجي، يبرر تشكل الأرجنتين على قاعدة من المهاجرين الأوربيين، وطبقتها الوسطى القوية، وصناعتها، إنتاج أدب لايهتم بإمبريالية مزارع الموز. ولكن هنالك أسباباً أصحّ، لأن مهمة الفن ليست كما يتصور أولئك الناس. فليس سوى ساذج من يتخذ بعض لوحات «فان كوخ» كوثائق يحاول بوساطتها دراسة وضع الزراعة في ضواحي باريس في أواخر القرن الماضي. واضح أن الفن لغة أقرب ماتكون إلى الحلم والأسطورة وليس إلى الإحصائيات وأخبار الصحافة. هو كالحلم والأسطورة علم تخيل.

صاح القوزاقي منبّها

---

(١) تشي تعبير شعبي شائع في الأرجنتين يستخدم لإسترعاء الإنتباه والمخاطبة وكان يطلق على «ميفارا» تحبباً ورمز الأرجنتنيه (المترجم)

- ماذا، علم ماذا؟

- تخيل. كشف الواقع. ولكن الواقع كله... أقول كله، ليس الخارجي وحسب بل والداخلي، ليس العقلاني فقط، بل وغير العقلاني. أتفهمون. ذلك أمر بالغ التعقيد، لأنه يعاني من إشباع قوي بما هو موضوعي، ولكنه يحتفظ بعلاقة خفية جداً وبالغة التعقيد ومتناقضة أيضاً مع هذا العالم الموضوعي، إن كان المجتمع هو العنصر الحاسم والوحيد، فكيف يمكن تفسير الإختلاف بين أدب كأدب «بلزاك» وأدب معاصره «لوتريمونت»؟ أو كأدب «كلوديل» وأدب «سيلين»؟ ثم إن كلّ أدب هو في نهاية المطاف فردي، لأنه رؤية واقع عبر فرد.

قاطعة أراوخو بحدة

- إننا نبتعد عن المشكلة.

- الذي يبتعد عن المشكلة هو أنت..! وأحذرك إنني لم أنته بعد. كنت أقول لكم إن كلّ فن هو فردي، وهذا هو الإختلاف الجوهري بينه وبين المعرفة العلمية. مايكتسب أهمية في الفن هو بالتأكيد ذلك المخطط الشخصي والفريد، ذلك التعبير المحدد عن الفردية. ولذلك يوجد في الفن أسلوب، بينما ليس في العلم أسلوب. مامعنى الحديث عن أسلوب «فيثاغورث» في نظرية وتر الزاوية؟ إن لغة العلوم يمكن، بل يجب أن تشمل على دلالات مجردة وشمولية. العلوم هي الواقع منظور إليه من قبل شخص يمكن الإستغناء عنه. الفن هو الواقع منظور إليه من قبل شخص لايمكن الإستغناء عنه. هذا العجز، عجز يجب أن يوضع بين قوسين، هو قيمته حقاً، وهو الذي يتيح له تقديم كلية الخبرة الإنسانية، ذلك التفاعل، تفاعل الأنا والعالم الذي هو الواقع المتكامل للإنسان. وإنطلاقاً من هذا الرأي فإنه لمن السخف حقاً إتهام «بورخس» أنه ليس

ممثلاً أصيلاً. ممثل ماذا؟.. ماذا؟ إنه يمثل، كما لايمكن لأحد أن يفعل «بورخس ـ العالم». ذلك الواقع لايتعين أنه يكون هو الذي نراه نحن من هنا من الأرجنتين، مصوراً تصويراً. إنه يعبر عن تلك الطريقة الفريدة لرؤية العالم: بلغة فريدة أيضاً، لغة لامفرّ من تسميتها، لغة ـ لهجة. كلمة مريعة قد تكون مرادف كلمة أسلوب، وفي النتيجة سيكون من المفيد ونحن في هذا المستوى من تطور أدبنا (وحذار فإن عمرنا ليس ماية وخمسين عاماً، وليس أدبنا أدباً جديداً، وإنما بلغنا ألف عام، إننا أحفاد «كانتارديل سيد» مثلنا مثل أي كاتب في مدريد)، أقول سيكون من المفيد حقاً وضع حدّ لكلّ هذا الخداع. ولنقبل مرة واحدة وإلى الأبد بأنه يمكن أن يكون بيننا ـ وبلا أي مشكلات نوايا سيئة ـ فنانون معارضون أمثال «بلزاك» ولوتريمونت».

نهض، وكان في سبيله إلى أن يذهب. كان ثائراً، فتوقف ثم أضاف.

ـ ياله من صنيع تافه يقدمه هؤلاء المقلدون لماركس حين يجعلونه مسؤولاً عن أي حماقة تخطر لهم، كتلك العلاقة المباشرة والنسبية بين مزارع الموز وأدب الإستبطان. إنكم تحترمون واقعة تفضيله «بلزاك»، ولكن آمل ألاّ تقولوا لي إنه هو الكائن الوحيد في هذا العالم الذي يحق له أن يفضّل، فحينئذ يجب أن نفضّل «بلزاك» لأنه هو قال ذلك، وسيكون عندئذ شاعر مثل «لوتريمونت» شخصاً مشكوكاً بأمره، وعميلاً للرأسمالية لأنه هرب بهذيانه من واقع فرنسا في عصره، غلاء البطاطا، لست أدري أين قرأت ـ قد يكون أحد أولئك المقلدين ـ إنه يمكن أن يفعل رجل مثل «لوتريمونت» ذلك في فرنسا. لكن إن فعلناه نحن هنا، نكون مقلدي الأدب الأوربي. وإذن فإن كان رجل فنٍ مثل ذلك سيحلم، فإنه لايمكن أن يحلم إلا في فرنسا. وهنا ينبغي ألا ننام، وإن نمنا فيجب نحلم برفع الأجور وإضرابات المعدّنين. ولن أقول لكم شيئاً عن قلقنا

من قضية الموت. لست أدري من كان ينتقدني من هؤلاء لأن ذلك الموضوع الأوروبي شغلني. طبعاً، نحن لانموت، نحن هنا فولكلور خالد. الموت قضية يشك بإرتباطها بـ «وول ستريت». ألمآتم مسألة مسخرة لخدمة الإمبريالية، كفى بحق الله.. كفاكم فلسفة غوغائية.

نهض ثانية، فقالت له سيلفيا

ـ لا، أرجوك لاتذهب.

ـ لماذا؟ لم يعد لهذه المناقشات معنى

ـ ولكن، أرجول. توجد الآن بعض الأمور التي نود أن نسألك عنها.

ـ أي أمور.

أمسك برونو بذراعه وطلب إليه أن يهدىء من روعه

ـ حسناً، ولكن لماذا

أضاف بعد أن هدأ.

ـ مايحدث فعلاً، هو أن هؤلاء الناس لايفهمون حتى الماركسية، فإن كان الأدب عدو الثورة أو كان، في أقل تقدير، ضرباً من إستمناء ذاتي، فليس هنالك تفسير إذن لإعجاب «ماركس» بـ «شكسبير» وبالملكي ورجل البلاط «غوته». لاشك أن هؤلاء الأقزام سيدّعون أن الوضع الآن أشد خطورة، وبخاصة في «العالم الثالث» وأنه لامكان في الوقت الحاضر للأدب. إنني أسألهم، أكان ذلك الوقت الذي كان «ماركس» يذهب فيه إلى مكتبة لندن حين كان يُستغلّ في مناجم الفحم أطفال لاتتجاوز أعمارهم الأعوام السبعة هو وقت للشعر والرواية. لم يكن «ديكنز» يكتب آنذاك وحسب، بل تينسون .. وبرونينغ وروسّيتي. وكافي خضم

الثورة الصناعية التي كانت أحد أقسى الوقائع التاريخية التي لاترحم، شعراء مثل «شيلي» و«بيرون» و«كيتس». وكثيرون منهم كانوا يقرأون «ماركس» أيضاً ويعجبون به. ياله من معروف تسدونه إلى معلمكم حين تعزون إليه بلاهات من هذا الحجم..! ثم، تلك الفكرة المزيفة والسطحية الأخرى التي تقول إن الفنّ إنعكاس للمجتمع وللطبقة التي ينتمي إليها. ليس الفن وحسب: والفكر أيضاً. ولكن لايمكن بهذا المعيار يارجل أن يكون «ماركس » ماركسياً، فقد كان بورجوازياً. كان يتعين أن يخترع الماركسية عامل منجم في «كارديف». يبدو لي أنكم لم تفهموا حتى الجدل الماركسي. أفترض أنكم قرأتم «ماالعمل» لـِ «لينين»، أليس كذلك؟ حسناً، إن الطبقة العاملة بذاتها عاجزة عن الوصول إلى الإشتراكية وليست قادرة على تجاوز النقابية الصفراء. لقد خلق الإشتراكية بورجوازيون مثل «ماركس» و «انجلز»، واستقراطيون مثل «سان سيمون» و«كروبوتكين» ومثقفون مثل «لينين» و«تروتسكي».

- «تشي غيفارا».

- وماقلته عن المفكرين ينطبق أيضاً على الشعراء والكتاب. فالخيال كالحلم، وهو بصورة عامة ولأسباب متشابهة، عمل مضاد للواقع وليس مجرد إنعكاس إيجابي. وهذا مايفسر كونه، في كثير من الأحيان معادياً لمجتمع عصره، ويجب أن أقول إن الأمر هنا أقرب مايكون إلى الجدل بالمعنى الذي قصده «كيركيغارد»

سأل «أراوخو» فجأة

- كيف، كيف؟

- أجل أيها الفتى. «كيركيغارد». هل سمعت جيداً. لاأرى سبباً يدعوك إلى الحذر والتطير، لأن ردّ فعل العقل النير ضد هذا الكائن القائم بذاته

الذي هو الإنسان لم يكن من فعل «ماركس» وحسب، بل و«فيرباخ» و«كيركيغارد» أيضاً، دفاع الإنسان العياني. ولكن الفنّ عادة، كما كنت أقول لكم، هو عمل مضاد وهو كالحلم، كثيراً مايتناقض مع الواقع، وعلى نحو صارخ أحياناً. أترون الولايات المتحدة، ذروة الجنون، لقد أنتجت أحد أبرز الآداب على مرّ العصور. وروسيا القيصيرية؛ لاحظوا الآلية السرية في ذرواتها: في ذلك الأمير «تولستوي»، الأرستقراطي حتى نخاع عظامه، الذي يقدم أشد شهود الطبيعة الإنسانية كآبة. وأما الآخر، فهو ذلك القيصري الذي يدعى «دوستويفسكي».

قال «أراوخو» لكن الفن البروليتاري.

فأجاب «ساباتو».

- ماذا يكون ذلك؟ أين هو؟ أتعني تلك البطاقات البريدية الملونة، وستالين ممتطياً جواده يقود معارك لم يحضرها قط؟. تلك البطاقات البريدية المزركشة التي كان ذلك الرجل يعتقد أنها ذورة الجمال الثورى بينما هي كانت أكثر أشكال الواقعية البرجوازية سطحية؟. إنه لأمر غريب ويستحق أن يمعن المرء النظر فيه: تبدو الثورات كأنها تفضّل دائماً الفن الرجعي والسطحي. رجال مطافىء الثورة الفرنسية المشهورين. انظروا أين يصل الأمر بنظرية الإنعكاس الشهيرة. ليس «ديلاكروا» هو فنان الثورة وإنما «دافيد» وآخرون أسوأ من ذلك المدرسي. وبينما كان «ستالين» ينتشي أمام تلك المنتجات، كان يحظّر الفن الغربي العظيم.

قال «أراوخو» بإلحاح:

- نعم، ذلك أنه كان في خضم الثورة، ومايعرقل الثورة أو يعرضها للخطر لايمكن إحتماله. إنها حرب. والقضية هي النصر أو الموت. وأي

عمل فني يدعم العدو أو يضعف المناضل أو يلهيه تملك الثورة الحق التاريخي لتحريمه.

سأل «ساباتو»

ـ فن معاد للثورة تقصد.

ـ نعم.

حتى «سيليفينا» كانت تنظر إليه صامتة.

ولكنّ ماأقلق «ساباتو» لم تكن عبارات «أراوخو» ولاصمت الفتاة وإنما نظرة رفيق «مارسيلو» الذي لاحظ فجأة أنه كان يطيل النظر إليه. كان طيلة الوقت يشعر بالقلق من جراء ذلك الحضور القوي، قويّ لمجرد نقائه أو لأنه كان يذكره بأسارير «كارلوس» ١٩٣٢ . كانت عيناه تلمعان بصمت وسط وجهه الصارم الهادىء المفعم بالألم، كجذوتين في أرض قاحلة جافة. وكان «مارسيلو» بجانبه كملاك طيب يرعى مخلوقاً قوياً وأعزل أيضاً في خضم عالم رؤيا مرعب وفاسد، أجل كان يتذكر عذاب «كارلوس» وماسيعانيه عاجلاً أم آجلاً هذا الفتى الآخر، أو لعله قد عاناه. وكانت الكلمات التي يتفوهون بها كلها، وذلك الشرر الفلسفي كله يتحول إلى سبب يدعو للخجل أمام الصمت الأعزل لامرىء، هات من يعلم في أي منطقة فقيرة برز، كضحية وشاهد على مظالم وإذلال لانهاية لهما. قال ساباتو بصوت خفت شيئاً فشيئاً وهو مطرق كمن يحدّث نفسه:

ـ أجل أيها الفتيان... ولكن، إحذروا هذه الكلمات، إحذروا من تطبيقها بحقد وخفة، ذلك أن أناساً مثل «كافكا»...

كان يشعر بكآبة بالغة. يفكر من ناحية، بأن أيّ شيء يقوله يمكن

أن يؤدي أو يجرح مشاعر ذلك الفتى، ويحس من ناحية أخرى بواجبه في أن يوضّح وأن يشرح، واجبه في أن يمنعهم، يمنع أحدهم، أنقاهم، من أن يتمكن في يوم من الأيام من إرتكاب ظلم فادح، حتى وإن كان ظلماً مقدساً.

- ليست المعضلة هي أدب إجتماعيّ، وأدب فرديّ أيها الفتيان.. المعضلة هي بين الخطورة والطيش. عندما يموت أطفال أبرياء بالقنابل في فيتنام، عندما يتعرض للتعذيب أكثر الناس نقاء في ثلاثة أرباع العالم، عندما يهيمن الجوع والقلق في أغلب أرجاء المعمورة، أفهم أن يُهتف ضد بعض ضروب الأدب... ولكن ضد أيّ ضرب أيها الفتيان.. ضد أيّ نوع..؟ أعتقد أن لكم ملء الحق في رفض اللهو التافه والإنشاء المحض والتسلية الكلامية... ولكن يجب أن تحذروا من نبذ العظام والمبدعين الكبار الذين هم أعظم شهود الإنسان، لأنهم يناضلون هم أيضاً من أجل الكرامة والخلاص. أجل، صحيح أن الأغلبية العريضة تكتب لأسباب ثانوية، لأنها تبحث عن الشهرة أو المال، لأنها تملك الإمكانية، ولأنها لاتقاوم غرور رؤية الإسم مكتوباً بحروف مطبوعة، تكتب للّهو أو اللعب؛ ولكن يبقى الآخرون، القليلون الذين يروون، الذين ينصاعون للحكم المبهم بأن يكونوا شهود مأساتهم وترددهم في عالم كئيب، وآمالهم في خضم الرعب والحرب أو الوحدة. إنهم شهود زمنهم العظام أيها الفتيان؛ إنهم بشر لايكتبون بسهولة بل يتمزقون. رجال يحلمون الحلم الجماعي قليلاً، لايعبرون عن قلقهم الشخصي وحسب بل عن قلق البشرية بأسرها... تلك الأحلام يمكن أن تكون مريعة كذلك، ولكنها مقدسة، وهي مفيدة لأنها مريعة.

قالت «سيلفيا»:

- التنفيس.

رمقها «ساباتو» بنظرة ولم يقل شيئاً. كان يبدو قلقاً جداً وحزيناً. نزع نظارتيه وضغط على جبينه وسط صمت مطبق، ثم قال شيئاً لم يفهم تماماً، وذهب.

الموت في سبيل قضية عادلة

كان «برونو» يفكر وهو يرى «مارسيلو» ورفيقه يبتعدان في شارع «دفنسا». الموت من أجل فيتنام. أوريما هنا. وتلك الضحية ستكون عبثاً وسذاجة، لأن النظام الجديد قد يكون في نهاية المطاف حِكراً على مستهترين وتجار. تطوع «بيل» المسكين في «سلاح الجو الملكي» وها هو الآن بلا ساقين، محروقاً، يفكر وهو ينظر من النافذة المطلة على شارع «موران»: ألكي يؤدي الأمر برجال الأعمال الألمان، وكثير منهم نازيون أو نازيون مستترون، إلى عقد صفقات جيدة مع رجال الأعمال الإنكليز أثناء ولائم شهية وإبتسامات لطيفة. ينتهون إلى عقد صفقات؟ ولكن ألم تتعاون مع هتلر، حتى أثناء الحرب، شركة «آي تي تي»؟ أو لم تَبِعهُ شركة «جنرال موتور» خفية، محركات للدبابات؟

طبعاً، كيف لايعجب بـ «غيفارا». ولكن شيئاً ماكان - بصمت وألم - يوسوس في صدره بأن ثورة ١٩١٧ الروسية كانت رومانسية أيضاً، وقد غنّى لها كثير من الشعراء. لأن كلّ ثورة مهما كانت نقيّة محكوم عليها، خاصة عندما تكون نقيّة، بأن تتحول إلى بيروقراطية بوليسية قذرة، في حين ينتهي الأمر بأنقى النفوس إلى الزنزانات أو إلى مشافي الأمراض العقلية.

أجل، كلّ ذلك كان وياللمرارة صحيحاً.

ولكن الإنضمام إلى «سلاح الجو الملكي» كان عملاً مثالياً خالداً لاتشوبه شائبة: لايستطيع أحد، حتى ولا ألف واحد من صناع المعلبات،

إنتزاع تلك الجوهرة من «بيل»، فماذا يعنيه إذن ماستؤول إليه، يوماً ما، أي ثورة، بل، (فكر بدهشة وهو يتذكر «كارلوس» يخضع للتعذيب لاعلى يديّ المسيح أو ماركس وإنما كودوفيا): لايعنيه أيضاً حتى إن كانت العقيدة صحيحة أولم تكن. لقد كانت تضحية «كارلوس» مطلقاً، وكرامة الإنسان بسلوكه فقط أُنقذت مرة أخرى. وعلى الرغم من أنه كان مخدوعاً، ولأنه كان كذلك، فقد أنقذ الإنسانية بأسرها من الإستهتار والمحسوبية والحقارة والعفن. ها هما ذاهبان معاً. بجانب ذلك الإرستقراطي الخجول الذي تنازل عن إمتيازات طبقته، كان الآخر يسير هزيلاً ومتواضعاً، مستعدين للموت من أجل امرىء قد يخونهما أو يخدعهما، في يوم من الأيام.

هاهما ذاهبان في شارع «دفنسا». إلى أي مصير ـ مريع إنما رائع ـ ياترى؟

منذ سنوات عديدة

لم يكن «س» يتمشى في حديقة «ليساما». جلس أمام تمثال «سيريس» ومكث يفكر بمصيره. ثم ذهب ليشرب كوباً من القهوة في المقهى الصغير الواقع عند تقاطع شارعي «برازيل» و «بالكارسي» حيث كثيراً ماكانت «اليخاندرا» تشرب شيئاً ما هي ومارتين. نظر شارداً لما حوله. كانت هنالك مناقشات. «بانزيري»[1] ليس سوى مبالغ. لاياسيد، إنه رجل لايبيع نفسه، هذا هو الواقع. «بانزيري» لايرى سوى كوارث. المراهنة على فرق كرة القدم لها جانبها المفيد الذي يخدع. كان رجل فتيّ، شاب تقريباً، لم يدرك (كان يعيش بحذر دائم ذلك أقل ما يمكنه قوله) أنه كان للحظات يسترق النظر إليه من وراء الجريدة. يمكن أن لاتنطوي الحادثة على أهمية تذكر، طبعاً، فقد يكون واحداً من فتيان كثيرين يعرفونه.

(١) بانزيري: معلق رياضي مشهور في التلفزيون الأرجنتيني (المترجم)

ولكن أوحى له القليل القليل مما تمكن من رؤيته من جبينه، بأنه قد رآها في مناسبة أخرى. ولكن أين؟ وكيف؟

لم يكن قد رآه من قبل قط

ولكن كان هو بلا أدنى شك. كان بوسعه أن يعرفه بين آلاف، ليس من صورته، وإنما لأن قلبه خفق بشدة عندما لمحه في ذلك الركن من المقهى، وكما لو كانت بينه وبين «ساباتو» إشارة صامتة وسرية، بوسعها إقامة تلك المعرفة في أي مكان في العالم، بين ملايين الأشخاص. إن خجله من أن يعرفه، حمل «مارتين»[1] مراراً على أن يختبىء وراء الجريدة التي اشتراها منذ قليل. ولكنه كان ما بين لحظة وأخرى يسترق النظر إليه كمن يرتكب فعلاً ممنوعاً ومريعاً. وحاول أن يكتشف أصل ذلك الشعور، لكن النتيجة كانت صعبة، وكما لو أنه كان يتعين عليه أن يقرأ عبارات رسالة تكتسي أهمية بالغة، لكنها تكاد تكون غير مفهومة بسبب نقص الإضاءة وغموض الخط، الذي قد يعود إلى التلف وبلى الورق ومرور الزمن. كان يحاول بإصرار أن يحدد ذلك الشعور الغامض، حتى فكر أنه ربما كان يشبه شعور من يشاهد، بعد أن سافر إلى بلاد نائية جداً، وجه امريء يقال إنه وجه والده الذي لم يكن قد رآه في حياته من قبل قط.

كان يحاول أن يكتشف ماكان خفياً وراء ذلك القناع المكون من عظام ولحم متعب. لأن «برونو» كان يقول له، إن العظام واللحم لاتكفي لبناء محيا، فهو أقل مادية إلى حدّ بعيد جداً من بقية أجزاء الجسم، لأنه يتّسم بمجموعة من تلك الصفات الخفيّة التي تتجلى فيها الروح أو تحاول أن تتجلى، عبر اللحم. ولذلك فإن المرء، فكر «برونو»، ما أن يموت حتى يتحول جسمه إلى شيء مختلف إلى حدّ عجيب؛ مختلف إلى درجة يمكننا

(١) مارتين: الشخصية الرئيسية في رواية «ساباتو» أبطال وقبور (المترجم)

معها أن نقول: «لايبدو أنه الشخص ذاته»، وإن كانت عظامه هي نفسها والمادة ذاتها التي كان يتركب منها منذ ثانية مضت، منذ ثانية قبل تلك اللحظة التي تفارق فيها الروح الجسد وتخلفه ميتاً كالبيت الذي غادرته إلى الأبد (بعد أن أخذت معها أشياءها الشخصية جداً) تلك الكائنات التي قطنته، وفي جنباته تألمت وأحبت.

أجل، فكر «مارتين»: خفايا الشفاه، الغضون الصغيرة التي تحيط بالعينين، تلك الصور الغامضة لسكان في الداخل، أولئك المجهولون الذين يُطلّون من نوافذ العيون على نحو خفي وعابر ويكاد يكون شفافاً: صور الأشباح الداخلية.

كان أمراً عسيراً، وكاد يكون أمراً مستحيلاً إكتشاف كلّ ذلك من بعيد.

وهكذا، فإن ذلك الرجل، ذلك الوجه، كاد يبدو له مثل لغط حديث بعيد، نعلم إنه بالغ الأهمية ونود بحماس حلّ رموزه.

إنني يتيم، قال «مارتين» بجرس مفعم بالحزن، دون أن يدرك لماذا؟

خرج من المقهى وعاد إلى الحديقة

هنالك كان «دون بيدرودي مندوسا» غطريساً عنيداً يشير بسيفه إلى المدينة التي كانت رغبته بالذات هي التي أملت أن يشيد هناك: سانتا ماريا دي بوينس أيرس ١٥٣٦ ياللبرابرة، تلك هي الصفة التي كانت تجري على لسانه دائماً، وتلك النسوة إيزابيل دي غيفارا، ماري سانتشس، الفيرا بينيدّا..

تلك الحماقات التي ابتدعها الفكر الإنساني المجرد: جميع الناس متساوون، جميع الشعوب متساوية. كان هنالك أناس كبار وأناس

أقزام، وشعوب كبيرة جداً، وشعوب صغيرة جداً.

قسوة الغزو. الذين يودون إضفاء فضائل على الدولة الخالصة. وغزو أمريكا من أجل الذهب...!

مثلما نفترض أن المقامر يلعب من أجل المال وليس بدافع الهوى. المال كان الوسيلة وليس الغاية.

جلس على أحد المقاعد، عندما رأى الفتاة ذات القميص الأصفر تصل حذرة.

ماذا، أكانت تتبعه؟

كان سؤاله ينم عن الغضب: كان يكره أن يتبعوه، كما كان يخشى من ذلك أيضاً.

نعم، لقد تبعته، رأته يدخل المقهى، كانت تنتظره في الحديقة حتى يخرج.

لماذا؟

وكانت تبدو له أنها حسيرة البصر أكثر مما كانت أثناء الإجتماع وأشد خجلاً كذلك: لم تكن الفتاة الذكية كما كانت منذ ساعات مضت.

ولكن هل تدعى حقاً «خنتيلي»..؟

بلى.

ولكن، أليست من ألسفارديم» أو شيء من هذا القبيل؟

شيء من هذا القبيل؟ كان جدها من نابولي.

قال«س»

- نابولي. ولبأت الموت بعدئذ.[1].

وضحك من الـ «كليشيه»

كانت تبدو من قرب نحيلة جدّاً، ببشرتها المزرقة وأنفها المعقوف.

- لديك وجه شرقي.

لم تجب.

- وحسيرة البصر جدّاً، أليس كذلك؟

نعم، كيف لاحظ ذلك.

كان يتعين عليه أن يغيّر مهنته إن لم يكن دقيق الملاحظة. من طريقة النظر والمشي والرأس المشدود إلى الأمام.

نعم، عندما كانت طفلة كانت تتعثر حتى بالأبواب.

ولكن لماذا لاتستخدم نظّارتين؟

- نظّارتان؟

بدت كأنها لم تسمع جيداً.

بلى، نظّارتان.

تأخرت في الإجابة كثيراً، وبعد ذلك تمتمت: لأنها بشعة جداً حتى بلا نظّارتين.

---

(١) وردت العبارة في الأصل باللغة الإيطالية (المترجم)

بشعة؟ من قال لها ذلك؟

هي التي قالت لها. المرآة؟

- لديك شيء من روح الدعابة. ذلك الذي قلته اليوم عن البنيوية

لم تجب.

- أليس كذلك؟

نعم، بين الناس.

- كيف؟

- عندما أكون مع شخص آخر لوحدنا أشعر بالخجل جدّاً.

- عجباً، يحدث لك عكس مايحدث للآخرين.

- نعم.

ولماذا كانت تتبعه؟

لم تكن تلك أول مرة.

ذعر «س» فأضاف، ومالسبب.

- لاتغضب. بدا لي أن إجتماع اليوم أثارك. لم نكن نرغب في ذلك. أنا، في أقل تقدير، لم أكن أرغب.

- هكذا، إذن، كان يرغب آخرون..؟

لاذت بالصمت.

حسناً، كان الأمر واضحاً. ولكن بحق الشياطين، لماذا كان يتعين عليه أن يؤدي إمتحاناً أمام أشخاص مثل أراوخو؟ فهو لم يطلب من ذلك الفتى أن يقرأ كتبه، ولا أن يؤيد وجهات نظره. عندما كان «أراوخو» مايزال طفلاً صغيراً، كان هو قد درس، ليس «ماركس» وحسب، بل «هيغل» أيضاً. إنما ليس في مقهى؛ كان قد درسه مُعرّضاً حياته لخطر طيلة سنوات.

نعم، كانت تعرف.

حسناً، إذن ليدعه وشأنه. عجباً، فالحياة بذاتها بالغة القسوة، حتى في غياب هذا الطراز من الأشخاص.

قال لها بحنو فجأة بعد أن أمسك بذراعيها:

- تعالي، لنتمشى قليلاً، سوف لني تتعثري بأيّ تمثال هنا.

وقفا يتأملان التماثيل البرونزية ملياً.

سأل بتلك اللهجة السادية التي كانت تبرز منه على نحو عفوي عندما يتحدث مع أشخاص يقدرهم.

- أتستطيعين رؤيتها؟

- نعم، تقريباً «الأسود المفكرة»[1] أليس كذلك؟

عندما يهمل المرء، يكتب على نحو تقريبي، يرتكب هفوات، أنا في أقل تقدير.

لاحظي التعبير تماماً.

---

(١) تعبير استخدمه ساباتو في روايته «أبطال وقبور» (المترجم)

سألت بتخاذل ساخر:

ـ كيف؟ كان يجب أن أقترب كثيراً.

ـ ثقي إذن فيما قلته لك: أساريرها صلبه وتفكر في الوقت ذاته. ياللغرابة. ماالذي كان يود ألنحات قوله.

تمتمت بصوت متردد.

ـ أليخاندرا؟

ماذا.

أكانت حية؟ هل كانت موجودة حقاً؟

أجابها «س» بشيء من القسوة، كيف، وهي كذلك؟

ـ تعالي، اجلسي، كانت هذه المقاعد فيما سبق من خشب. لن يمضي وقت طويل قبل أن نجلس على مقاعد من البلاستيك، ونأكل أقراصاً. أنا لحسن الحظ لن أرى كل ذلك. أرأيت كيف أنني رجعي؟ في أقل تقدير، هذا ما تظنونه بي أنتم الماركسيون.

ـ ليس جميع الماركسيين.

ـ عجباً، هذا أخف وطأة. يكفي أن أقول أسطورة، أو غيب، كي يتهموني فوراً بقبض أموال من السفارة الأمريكية. وبمناسبة ذكر الأمريكيين، هل تعلمين؟ ذكر أحدهم في بحثه ـ ولست أدري من أي جامعة كان أن روايتي بدأت أمام تمثال «سيريس». هكذا.

ـ وهذا؟

- آلهة الخصب، أوديب.

ولكن، هل فعلت ذلك عمداً؟

ماذا؟

مسألة تمثال «سيريس».

أتقولين جادة؟

بلى، طبعاً.

- ولكن لا أيتها الحمقاء. كان في ذلك الوقت هنا عدد كبير من التماثيل. أذكر أنني اخترت في البدء تمثال «أثينا». لكنه بعد ذلك لم يعجبني، لست أدري لماذا، إلى أن اخترت «سيريس».

يحتمل إذن أن يكون عقلك اللاواعي هو الدافع.

- يحتمل.

- و«النفق» تبدأ بأمومة كذلك.

- لقد قالوا لي هذا أيضاً، أولئك الذين يكتبون أبحاثاً يكتشفون كل شيء. أود أن أقول إنهم يكتشفون مالم يكن أحدنا يعرفه عن نفسه.

- أنت موافق إذن.

- بالمعنى الضيق، لا. ولكن أعتقد أنك لو هجرت دوافعك وكتبت، لحدث بعض مايحدث في الأحلام. تأخذ الهواجس العميقة بالخروج. كانت والدتي جبارة، ولقد أمسكت بنا، إن صح القول، نحن الاثنين الأخيرين «أرتورو» وأنا، حبستنا تقريباً. يمكن القول إنني رأيت العالم

من خلال نافذة.

ـ الأم المفرطة في الحماية.

ـ أرجو أن لاتستخدمي هذه اللغة. نعم، لعلّي كنت بلا وعي ألف وأدور حول الأم. يقوم آخر على طريقة «يونغ» بتحليل هذه الرموز أو تلك. لا، ليس واحداً وإنما أكثر من يفعل ذلك الآن. لابد أن يكون هنالك شيء ما إذن. ولكنه ليس نتيجة قراءات أحياناً. على هذا النحو، تفهمين عندما نحلم بأعماق البحار أننا قرأنا «يونغ». وإذن، قبل «يونغ» لم يحلم أحد بأعماق البحار. الأمر نقيض ذلك: «يونغ» موجود بفضل ذلك النوع من الأحلام.

إنك كثيراً ماتقول، بين الفن والحلم رابطة قرابة.

ـ طبعاً، في اللحظة الأولى، على الأقل، في اللحظة التي يغوص فيها الفنان في اللاوعي، مثلما يحدث عندما تنامين. ولكن فيما بعد تحدث لحظة أخرى، هي لحظة تعبير presion، لاحظي تماماً: ex - presion ضغط نحو الخارج. ولذلك فإن الفن مُحَرِّر، والحلم ليس كذلك، لأن الحلم لايخرج. الفن يخرج وهو لغة، محاولة إتصال مع آخرين. تجاهرين بهواجسك للآخرين حتى وإن كان بالرموز. مايحدث حقاً هو أنكِ ما أن تستيقظي حتى تختلط بتلك الرموز حينئذ قراءات وأفكار وإرادة خلاقة وروح ناقدة. هنا، حيث يختلف الفن جذريّاً عن الحلم. أتفهمين؟. ولكن لايمكنك إنتاج فن حقيقي دون ذلك الغوص المبدئي في اللاوعي. ولذلك فإن مايقترحه أولئك الأغبياء أمر يثير السخرية: واجب إنتاج فن وطني وشعبي. وكما لو أنكِ قبل أن تنامي تقولين: حسناً، والآن هيا لنحلم أحلاماً وطنية وشعبية.

ضحكت سيلفيا.

ـ وإذن فإنك سليلة أسرةً نابوليتانيةً.

لا، من ناحية أمي يوجد إسبان.

ـ حسناً، تماماً. طليان، إسبان، مسلمون، يهود. إنها نظريتي حول الأرجنتين الجديدة.

أية نظرية.

ـ محطة ثلاث قوى كبرى، ثلاثة شعوب كبيرة: إسبان، طليان، يهود. لو أنك فكرتِ قليلاً، لرأيت أن فضائلنا ومساوئنا تأتي من هنا.

أجل، طبعاً، يوجد أيضاً باسك، وفرنسيون ويوغسلاف، وبولونيون، وسوريون، وألمان. ولكن ماهو أساسي يأتي من هناك. ثلاثة شعوب كبيرة. ولكن فيها بعض العيوب. ويالها من عيوب. قال لي إسرائيلي في القدس: أليس معجزة؟ وسط صحراء؟ محاطة بملايين العرب؟ على الرغم من الحرب؟. فأجبته، ولكن لايارجل، هذا هو السبب بالذات. ففي اليوم الذي تعيشون فيه بسلام، وهذا مالايريد «يهود»، لن يدوم هذا حتى ولا دقيقة واحدة. أتتصورين ياسيلفيا مليونين من اليهود بلا حرب؟ مليوني رئيس جمهورية. وكلّ واحد منهم بأفكاره الخاصة حول المسكن والجيش والثقافة واللغة. هيا احكمي هذا الرجل الذي يبيعك شطيرة، يشرع بالحديث عن «هايد يجين» والفردية الإسبانية..؟ والإستهتار الإيطالي؟ نعم ثلاثة شعوب كبيرة، ولكن يالها من تركيبة، ياإلهي..! الأمر الوحيد الذي كان بوسعه أن يضمن خلاصنا هو حرب قومية صحية جيدة، لنقل منذ خمسين سنة.

ـ يبدو لي أنك متشائم جداً.

ـ نعم.

ولماذا التصميم على الكفاح إذن..؟ وعلى البقاء هنا؟

ـ وما أدراني.

نظر إليها بهدوء

ـ هل تنتمين إلى أحد التنظيمات البيرونية؟

ترددت.

ـ أعني أحد تنظيمات البيرونية، الماركسية؟

ـ نعم، أعني لا... مازلت أشك... لدي أصدقاء... وسنرى.

ـ ولكنك ماركسية.

ـ نعم.

ـ انظري، مازلت أعتقد، كما كنت في ذلك الزمان، كيف أقول.. ماقبل التعميد، بأن ماركس هو أحد الفلاسفة الذين قلبوا التفكير المعاصر. ولكنني أخذت، فيما بعد، أبتعد في كثير من الأمور... أتتذكرين مفاجأة ماركس، تردده أمام التراجيديا الإغريقية؟

ـ لا

ـ يلوذ بالتفكير ـ لنقل ذلك على نحو ما ـ في الشكل الذي بقي فيه أولئك الشعراء يثيرون العواطف، على الرغم من أن البنى الإجتماعية التي انبثقوا منها قد اندثرت. يجب الإقرار بأن هنالك قيماً «أسطورية تاريخية» في الفن، وهذا ماكان بكلّ تأكيد يخجله. هل تدرسين الفلسفة؟

قالت كما لو أن الأمر يثير السخرية:

ـ لا، أدرس الأدب.

ـ يبدو لي أن الفلسفة تستهويك أكثر.

ـ أعتقد ذلك. أقرأ فلسفة أكثر مما أقرأ أدباً، ولكن يبدو لي أنني قرأت قليلاً جداً، وعلى نحو سيء جداً أيضاً.

ـ لاتقلقي. وأنا لم أدرس كثيراً. إنني أكثر قليلاً من كاتب يقوم منذ أكثر من ثلاثين سنة بطرح معضلة الإنسان، أزمة الإنسان، قليل الفلسفة الذي أعرفه، تعلمته خبط عشواء. تعلمته من خلال مطالعاتي الشخصية في العلوم والسوريالية والثورة. وهو ليس حصيلة مكتبة، وإنما إسراف في القراءة. لديّ بحيرات شاسعة منها، ومثلها لديّ في الأدب، وفي كلّ شيء. كيف أشرح لك ذلك؟

مكث يفكّر.

ـ كما لو كنت باحثاً أفتش عن كنز مدفون في غابة، يتعين عليّ لكي أصل إليها اجتياز جبال خطيرة وأنهار متدفقة، وصحارى. لقد ضللت مرات عديدة، لاأدري أين أتشبث. أعتقد أن الذي نجّاني لم يكون سوى غريزة حبّ البقاء. وإذن: هذه الطرق أعرفها، فإنني، في أقل تقدير، عشتها، لم أعلم من خلال كتب جغرافيا. ولكن أشياء لانهاية لها موجودة خارج هذه الطريق لاأعرفها. بل وأكثر من ذلك: فهي لاتعنيني. فقد تمكنت من أن أتعلم ما يستهويني بشكل حيوي وحسب، ماله علاقة بذلك الكنز.

كانت سيلفيا تبدو كأنما تمد رأسها أكثر مما هو معتاد وهي تتأمله.

قالت بجرس قاطع.

ـ نعم، أفهمك.

تأملها «س» بحنو، وقال:

ـ حسناً. لقد نجوت من كلية الآداب، فالبعض من أمثالك، في الواقع، لاتضيرهم الكليّة في شيء أبداً.

نهض.

ـ تعالي لنتمشى قليلاً.

قال لها وهما يتمشيان:

ـ في الوقت الذي انغمست فيه بالفيزياء انغمست بالماركسية أيضاً.

وهكذا استطعت أن أعايش أشد تجربتين عصفا وزعزعة في عصرنا. نشرت في ١٩٥١ مايمكن أن أطلق عليه حصيلة التجربتين: «بشر ومسننات»، فكادوا يصلبونني.

كانت ضحكته مفعمة بالألم.

ـ أرأيت؟ كنت أتحدث عن الجنون الآخر، عن التقنية، وعن «التقنو وثنية». إتهموني بالرجعية لأنني هاجمت العلم، موروث العقل النيّر. ذلك أنكِ لكي تكوني من أنصار العدالة الإجتماعية، فلا بدّ من أن تركعي أولاً أمام بطارية «فولتا».

انحنى. تناول حصاة، طوح بها بعيداً نحو خزان المياه. ثم، بعد قليل تابع.

ليس الأمر مشيناً الآن، بعد ماركوس، وتمرد فيتان أمريكا الشمالية وطلاب باريس. ولكن طبعاً، أنا لم أكن سوى كاتب أمريكي لاتيني بائس.

كان صوته مفعماً بالمرارة.

قالت سيلفيا:

- ولكن الجنون التقني يعود إلى سوء استخدام الآلة. فليس للآلة أخلاق، إنها خارج نطاق القيم الوجدانية. فهي أشبه ماتكون ببندقية: يمكن استخدامها بهذا الإتجاه أو ذلك. هذا الجنون التقني لايحدث أبداً في مجتمع يتخذ الإنسان غاية.

- ليس هنالك حتى الآن أيّ مجتمع أثبت ماتؤكدينه ويطبق في البلدان الكبرى ذات النظم الجماعية [1] أسلوب تحويل الإنسان إلى «ربوت»، إلى إنسان آلي - كما في الولايات المتحدة تماماً.

- يمكن أن تكون تلك مرحلة إنتقالية. ثم، كيف يمكن حلّ مشكلة الإنسان والتزايد المضطرد للسكان بلاإنتاج وفير من الغذاء والسلع. الإنتاج الوفير يتطلب العلم والتقنية. أيمكن رفض التقنية في وقت يتضوّر فيه ثلاثة أرباع سكان العالم جوعاً.

- يجب القضاء على الفقر والظلم الإجتماعي. ماأقوله لك هو أنه لاينبغي الإنتقال من مصيبة التخلف إلى مصيبة التطور الصارخ، من الفقر إلى المجتمع الإستهلاكي. أنظري إلى حال شباب أمريكا الشمالية: عبودية أسوأ من الفقر.

لست أدري إن كان لايُفضّل الجوع على المخدرات.

- ولكن، ماالذي تقترحه إذن؟

- لست أدري. ماأعرفه حقاً هو أننا يجب أن نعي هذه المشكلة المريعة.

---

(١) المقصود بالنظم الجماعية هنا تلك التي تلغي حق الملكية الفردية (المترجم)

ولما كنا نصف متطورين، فيجب أن لانكون بلهاء بحيث نكرر كارثة التطور الصارخ.

- إن لم تتطور البلدان الفقيرة، فإنها تساعد على الإبقاء على عبوديتها. الحديث في مناجم بوليفيا ضد المنافع المادية ليس حديثاً ذا وقع شيق.

- لم أقرّ الإستغلال قط، كما تعلمين. ماقلته، والذي مازلت أقوله - على الرغم من أنه الآن ليس سهلاً ومقبولاً - هو أنه ليس من الضروري أن تقوم بثورة دموية، لكي نملأ البيوت، في يوم من الأيام، بأمتعة سخيفة لافائدة منها، وبأطفال يحولهم التلفزيون إلى حمقى، إن كنا نحكم على النتائج فهنالك بلدان فقيرة جداً أفضل من الولايات المتحدة. بماذا تغلبت فيتنام على أكثر بلدان العالم تقنية؟.. بالإيمان، وروح التضحية، وحب الأرض. وهذه قيمة روحية.

- نعم، ولكن لم تقل لي كيف ستطعم سكاناً يتزايدون على نحو مضطرد. (وهنا فإنني لاأحدثك عن أشياء سخيفة لافائدة منها).

- لست أدري، قد يتعين التوصل إلى إستقرار عدد سكان العالم. ولكنني، في جميع الأحوال، أعرف مالاأريد. لارأسمالية كبرى، ولاإشتراكية كبرى، لاأريد دولاً عظمى سكانها آلات (ربوت). كم الساعة؟

قربت سيلفيا عينيها حتى كادتا تلامسان الساعة: كانت السابعة وعشر دقائق. كانا في شرفة المنتجع القديم. كان «س» متكئاً على الحاجز يشرح لها كيف كان النهر يصل حتى هناك، تحت، حيث تنطلق السيارات الآن بجنون. أنشد «س» كما لو أنه يحدث نفسه: أيتها الحديقة الكئيبة العجوز..

ماذا؟

قال بعد لأي.

- أسطورة التقدم العظمى. الثورة الصناعية. دمروا، والكتاب المقدس بأيديهم، ثقافات بأسرها (حسن دائماً إرتكاب مساوىء بحجج شريفة)، دخلوا مخيمات أفريقية وبولينيزية قديمة بالدم والنار، لم يتركوا حجراً فوق حجر، لماذا..؟ لكي يتخمونا بأشياء تافهة مصنوعة في مانشيستر، لكي يستغلّوا الشعوب بلا أدنى رحمة: كانوا، في الكونغو البلجيكي، يبترون أيديهم إن سرقوا شيئاً صغيراً، هم أولئك الذين سرقوا البلد بأسره. إنهم لم يستعبدوهم وحسب: حرموهم من أساطيرهم القديمة وانتزعوهم من إنسجامهم مع الكون ومن سعادتهم الساذجة. البربرية التقنو- وثنية، العجرفة الأوربية. إننا ندفع الآن ثمن تلك الخطيئة الكبرى، يدفعها الفتيان مدمنو المخدرات الضالّون في لندن أو نيويورك.

- إنك لست الآن في معرض نظم قصيدة حنين رومانسية عن البَرَصِ أو سوء التغذية أو الزحار؟

نظر إليها «س» بسخرية ممزوجة بالحنان.

- لندع هذا جانباً ياسيلفيا. أفضل أن نتحدث عن أمر آخر بقي معلقاً أثناء الإجتماع. لاشك أن الماركسية تصيب في بعض الوقائع الإجتماعية والسياسية لهذا المجتمع، ولكن هنالك وقائع أخرى تقاوم.

قالت سيليفيا وقد مدت رأسها الشرقي.

- تقاوم؟

- طبعاً: الفنّ، الأحلام، الأسطورة، الشعور الديني.

قالت بخجل (كان التباين غريباً بين سيليفيا الجريئة الساخرة المتألقة

أثناء الإجتماع، وسيليفيا هذه الموجودة في الحديقة الآن): إن الإلحاد الماركسي كان سياسياً وليس لاهوتياً. ولم يكن هدفه موت الإله وإنما تحطيم الرأسمالية. انتقدت الماركسية الدين بقدر ماكان يشكل عقبة في وجه الثورة.

نظر إليها «س» بريبة لاحدود لها

ماذا، ألا توافقني الرأي؟

ـ نعرف أن الكنيسة دعمت الإستغلال. حدثتك من قبل عن مسالة الكتاب المقدس في إفريقيا، ولكنني الآن أتكلم عن أمر آخر، لا عن الموقف السياسي للكنيسة، بل عن الحس الديني. كان «ماركس» ملحداً حقاً، كان يعتقد فعلاً بأن الدين خدعة، لم يكن سوى واحد من العلمانيين، لاأقل ولاأكثر.

ثم ضحك بعد ذلك.

ـ إن التلفزيون أفيون الشعوب. هذه هي الحكمة الحقيقية. ولكن لاتغضبي، فأنا أكن الإعجاب لماركس. لقد بدأ جنباً إلى جنب مع «كيركيغارد» في تحرير الإنسان العياني، ولكن ماأعنيه الآن هو إيمانه بالعلم الذي أوصلنا، كما ترين، إلى ضرب آخر من الجنون. هنا، حيث أختلف مع نظريته. كذلك يحدث لي مع ماركسيين جدد من مستوى رفيع مثل «كوسيك». ففي الأعماق هم عقلانيون.

ـ ولكن العقل الجدلي ليس هو العقل البسيط السابق.

ـ سواء كان جدلياً أو لم يكن، فإنه يبقى مجرداً، ويريدون كشف كلّ شيء. لاأعني، طبعاً، أولئك الذين يفسرون «شكسبير» بالتراكم البدائي لرأس المال. فذلك ليس سوى دعابة.

جلس ومكث يفكر بعض الوقت، وبعدئذ قال:

ـ انظري ماالذي حدث للأسطورة. جماعة الموسوعة، ضحكوا: خداع خالص، إبهام محض. وإليك أصل هذه الليلة: تجريد الإبهام من إبهامه هو مثل تجريد الأسطورة من أسطوريتها. وكان رجال العلوم يموتون من الضحك. أنت لم تعرفي هؤلاء الناس كما عرفتهم أنا الذي عملت مع حائزي جوائز نوبل في مراكز أبحاث كبرى. ولكن هنالك حالة تبدو لي مؤكدة: «ليفي بروهل». أتعرفينه؟

ـ لا، لاأعرف سوى «ليفي شتراوس». هل هما قريبان؟

ـ لا، هذا الذي أحدثك عنه تختلف كتابة اسمه عن الآخر بدأ عملاً لكي يبرهي على إرتقاء العقلية البدائية إلى الوعي العلمي. أتعلمين ماذا جرى للمسكين؟ شاخ وهو يحاول البرهان على ذلك، ولكنه كان شريفاً وانتهى به الأمر إلى الإقرار بهزيمته والإعتراف بأن العقلية «البدائية» ليست طوراً دونياً من أطوار الانسان وأن العقليتين تتعايشان جنباً إلى جنب في إنسان اليوم. ياللفظاعة..! أليس كذلك.؟ لاحظي أن تلك العقلية «الإيجابية» (النعت يثير فيّ ضحكاً لايمكنني تلافيه) حقنت في الغرب فكرة مفادها أن الثقافة العلمية أرقى من ثقافة الـ «بولينيزيين» مثلاً. ماقولك؟.. وأن العلوم أرقى من الفنّ طبعاً. عندما هجرت الفيزياء لم يعد «هوساي» يحييني. أتعلمين؟.

ـ لا

ـ يزعم العقل النيّر إن الإنسان كان يتقدم بقدر ما كان ينأى عن الحالة الخرافية ـ الشعرية. قال ذلك بوضوح في ١٩٢٠ بائس يدعى «توماس لوي بيكوك»: إن شاعراً في عصرنا هو بربري في مجتمع متحضر. مارأيك؟

كانت سيلفينا تفكر.

كشفت تحريات المسكين «ليفي بروهل» مدى خطأ تلك المحاولة وغرابتها وغطرسة أصحابها. ولقد حدث ماكان يجب أن يحدث: ما أن طَرَدَ الفكر الأسطورة حتى لجأت إلى الفن، مما أدى إلى هتك حرمتها، وإلى إستعادة مواقعها في الوقت ذاته. ذلك يثبت لك أمرين: الأول هو أنه لايمكن هدم الأسطورة أو إجتنابها، وهي ضرورة أساسية للإنسان، والثاني هو أن الفن سوف ينقذنا من الجنون المطبق، من ذلك الفصل الوحشي بين التفكير السحري، والتفكير المنطقي. الإنسان هو كلّ في آن واحد. ولذلك فإن الرواية التي تضع رِجْلاً في كلّ من الجانبين، قد تكون العمل الذي يمكن أن يعبر عن الكائن الكلي على نحو أفضل.

انحنى ورتب بعض الحصوات على شكل حرف «ر»

ـ سألني ناقد ألماني منذ زمن، لماذا يتوافر لدينا، نحن الأمريكيين اللاتين، روائيون عظام، ولكن لايتوافر لدينا فلاسفة عظام. فأجبته، لأننا برابرة، ولأننا نجونا، لحسن الحظ، من الإنفصام العقلاني الكبير، مثلما نجا الروس والإسكندنافيون والإسبان، ومن جاورهم. إن كنت تود نظرتنا العالمية، أقول لك أبحث عنها في روايتنا، وليس في تفكيرنا المحض.

أعاد ترتيب الحصوات على شكل مريع.

ـ أعني طبعاً، الروايات الكلية، وليس مجرد الحكايات البسيطة. يأتوننا من أوربا، ليقولوا لنا إن الروايات يجب أن لاتحتوي أفكار، الموضوعيون. ياإلهي..! لما كان الإنسان هو مركز كل! تخيل (ليست هنالك روايات موائد أوزواحف) فإن ذلك الإعتراض ينم عن الحمق. قال «عزرا بوند»، لايمكن أن نسمح لأنفسنا بتجاهل أفكار «دانتي» الفلسفية واللاهوتية،

ولابالتغاضي عن مقاطع من روايته وشعره الغيبي التي تعبر عنها بوضوح أشد. وليست وحدها الأفكار المتجسدة هي الأصيلة، بل والأفكار الأفلاطونية الخالصة أيضاً. أليس الذين وصلوا إلى هناك بشراً؟ لايمكن إذن عمل رواية يكون أفلاطون أحد شخصياتها إلا إذا كنّا سنقضي على جزء كبير من روحه. إن رواية اليوم، بأقصى طموحاتها التعبيرية، في أقل تقدير، يجب أن تحاول وصف الإنسان وصفاً كلياً، بدءاً من هذيانه حتى منطقه. أيّ قانون مقدس يحرم ذلك؟ من يملك اللائحة المثالية التي تنظم قواعد مايجب أن تكون عليه الرواية..؟ لقد قال «فاليري» بإشمئزاز قاطع، كلّ العيوب عيوبه[1]. وأعتقد أنه كان يدمرها. ولكن الشيء الوحيد الذي فعله كان إطراؤها. وأقول لك الرواية لأنه ليس هنالك ماهو هجين أكثر منها، وسيتعين في الواقع، إختراع فن يمزج الأفكار الخالصة بالرقص، والصراخ بالهندسة، شيء مايتحقق في فناء محكم ومقدس، عمل طقسي تكون الإيماءات فيه متحدة مع أنقى ضروب الفكر، وخطاب فلسفي على إيقاع رقصات محاربي الزولو، تركيب من «كانت» و«خيرونيموبوش» من«بيكاسو» و«انشتاين»، من «ريلكي» و«جنكيز خان». طالما أننا لسنا قادرين أن نعبر على نحو توحيدي متكامل، فلندافع إذن، في أقل تقدير، عن حق عمل روايات عملاقة.

عاد مرة أخرى يرتب الحصوات على شكل حرف «ر».

في الفن فقط يتكشف الواقع، أعني الواقع كله. ويأتون ليقولو لنا إن إلباس الفن ثوب الأسطورة عمل رجعي، وبال، ويعود للقرن الثامن عشر الرومانسي. طبعاً، لقد رأت عبقرية «فيكو» الرومانسية البدائية على نحو واضح، مالم يتوصل مفكرون آخرون، بعد زمن طويل، إلى

---

(١) وردت العبارة في الأصل باللغة الفرنسية (المترجم)

فهمه. يبدأ هو ماسيفعله فيما بعد «يونغ» وعلى نحو مختلف ظاهرياً، «ليفي بروهل» و«فرويد»، لأنهما كانا ينتميان إلى المدرسة العلمية، كانت أفكار الرومانسية الألمانية قد طواها النسيان، أو استخفت بها الثقافة سيئة النية. ولذلك يجب الإتيان على ذكرها. قال «شوبنهارو» هنالك لحظات تكون الرجعية فيها تقدماً، والتقدم، رجعية أولعل «نيتشيه» طور عبارة «شوبنهاور» هذه، لاأذكر تماماً، التقدم يكمن اليوم في إحياء تلك الفكرة القديمة. كان فلاسفة الرومانتيكية الألمانية بعد «فيكو» أول من رأى الأمر بوضوح، كما أنهم أدركوا فكرة البنية، فكرة صحيحة إلاّ أن رجال العلم قد نبذوها جانباً. فانظري.

أراها إحدى الحصوات.

- عقلية العلم تعمل على هذا النحو: هذه الحصاة فلزات، والفلزات مركبة بدورها من جزئيات، والجزئيات من ذرات كذا وكذا. من المركب إلى البسيط، من الكل إلى الجزء، تحليل، تفسخ. هكذا يقولون.

نظرت إليه سيلفيا.

- لاأعني التقدم التقني. طبعاً، عندما يتعلق الأمر بحجارة وذرات فذلك يجوز. لكن أكلمك عمّا تعنيه كارثة إفتراض أن الطريقة ذاتها يمكن أن تطبق على الإنسان. الإنسان عمّا تعنيه كارثة إفتراض أن الطريقة ذاتها يمكن أن تطبق على الإنسان. الإنسان ليس حجراً، لايمكن تحليله إلى كبد وعيون وبانكرياس وسلاميات، إنه كلّ. إنه بنية، حيث لامعنى لجزء من دون الكلّ، وحيث كلّ جهاز يؤثر في الأجهزة الأخرى، وهي تؤثر فيه أيضاً. يصاب كبدك بمرض فتصفرّ عيناك. كيف يمكن أن يكون هنالك أخصائيو عيون؟ جزّأ العلم كل شيء، والأخطر من ذلك هو إن لم تتعرض لالتهاب شديد أو إن لم تكسر إحدى رجليك.

وضع الحصوة ثانية في مكانها.

وقف واتكأ على الحاجز.

- هناك تحت، لديك العالم الذي أقمناه، نتاج العلم. قريباً سيتعين علينا أن نعيش في أقفاص زجاجية. ياإلهي، كيف يمكن أن يكون هذا مثلاً أعلى لاأحد.

كانت سيلفيا تفكر ملياً، عاد هو بعد ذلك ليجلس.

- الأسطورة كالفنّ إنها لغة، تعبير عن ضرب من ضروب الواقع بالطريقة الوحيدة التي يمكن التعبير بها عن ذلك الواقع، ولايمكن اختزالها إلى لغة أخرى. أقدم لك مثالاً بسيطاً: تسمعين إحدى رباعيات «بيلا بارتوك»، تخرجين ويطلب أحدهم منك أن «تشرحيها» له. طبعاً لايرتكب أحد حماقة كهذه. ومع هذا، فإننا نفعل ذلك بإسطورة أو بعمل أدبي. يطلب مني أحدهم في كل حين أن أشرح له «التقرير حول العميان». الأمر نفسه يحدث للأحلام. يود الناس أن تفسري لهم الكابوس، ولكن الحلم يعبر عن واقع بالطريقة الوحيدة التي يمكن أن يعبر بها عن ذلك الواقع.

مكث يفكر.

قال بعدئذ.

- إنه لأمر غريب أن يقبل رجل مثل «كوسيك» هذا الدور الكاشف للفنّ إنما ليس للأسطورة. هنا تظهر له تلك البقية من التفكير البَيِّن. ولكنه عندما يتحدث عن الأسطورة يقول تقريباً إنه بفضل العقل الجدلي يمكننا الإنتقال من الفكرة البسيطة إلى العلم، من الأسطورة إلى الحقيقة. أرأيت؟ الأسطورة ضرب من الكذب، الغموض «ينمو» منتقلاً من التفكير السحري

إلى التفكير العقلاني. الأمر ذاته حدث «لفرويد» رغم كل عبقريته. بالمناسبة لقد استرعت إنتباهي دائماً «ثنائية فرويد» عبقريّ ذو وجهين: حدسه عن اللاوعي، عن الظلمات من جهة، يجعله قريب الرومانسيين، ومن جهة أخرى فإن تكوينه اليقيني يجعله ضرباً من دكتور أرّامبيدي.

- أرّامبيدي..؟

- لا، كنت أتصور فقط.

مكث يفكر ثانية، ثم عاد ليتحدث.

- النور مقابل الظلمات. لافائدة ترجى، فذلك راسخ لديهم. لقد كانوا على قناعة دائماً بأن الإبداعات الأسطورية يجب أن تنطوي على معنى مفهوم. وأنهم إن أخفوها بتصورات وهمية ورموز، فيجب «نزع القناع عنها». إن أمر «كوسيك» غريب حقاً... عندما تقرأين كتابه سترين كم أنه فريد. ومع ذلك.. فإنه يقول، من جهة، إن الفن نقيض الفكر الأسطوري، وثوريّ، فهو يقود من الأفكار الزائفة إلى الواقع ذاته، إلاّ أنه من جهة أخرى، لايفهم قضية الأسطورة. إن حلماً ما مثلاً، هو دائماً حقيقة خالصة. كيف يمكن أن يكذب؟، وكذلك يحدث في الفن عندما يكون عميقاً. يمكن لمذهب في الحقوق أن يكون زائفاً، ويمكن أن يكون هو الأداة التي تستخدمها طبقة مميزة لكي تخلد شرعياً. ولكن كيف يمكن أن يكون دون كيخوته تزييفاً؟.

لأول مرة بعد وقت طويل كانت تبدو فيه سيلفيا أنها تدور حول محدثها، وتفكر، قالت:

- حسناً، ولكنني أعتقد أن الماركسية تنطوي على شيء من الحقيقة عندما تعتبر أن الفن لاينشأ من العدم، وإنما من مجتمع معين، توجد

في جميع الأحوال علاقة بين الفن والمجتمع، علاقة تشابه.

- طبعاً، توجد علاقة ما بين الفن والمجتمع، مثلما توجد علاقة ما بين الكابوس والجياة اليومية. ولكن هذه العبارة «ما» هي التي يجب أن نتفحصها بالمجهر، لأن جميع الأخطاء تأتي من هنا. لأن «بروست»، يؤكدون لك، كان سيداً متأنقاً، فأدبه هو التعبير العفن لمجتمع ظالم. أتفهمين؟. توجد علاقة، ولكن لايجب أن تكون بالضرورة مباشرة. يمكن أن تكون عكسية أو مضادة أو تمردية. وليس علاقة إنعكاس، ذلك الإنعكاس الشهير. إن الفن عمل خلاّق يغني به الإنسان الواقع. يؤكد «ماركس» ذاته أن الإنسان هو الذي ينتج الإنسان، مما يتناقض تناقضاً صارخاً مع ذلك الإنعكاس الشهير، وكأنه ضربة توجه لمرآة. يجب، في هذا الأمر كما في كثير من المقولات الماركسية أن ننحني إحتراماً «لهيجل» ورأيه في الخلق الذاتي للإنسان. هذا الكائن الذي يخلق نفسه ا يفعل ذلك عِبْرَ كلّ ماتقدر الروح الذاتية على فعله: بدءاً من عربة قطار وإنتهاءاً بقصيدة شعرية. هيا بنا نشرب كوباً من القهوة.

سارا بإتجاه تقاطع شارعي «برازيل» و«فنسا»

- لم يكن يتوفر لديّ، في ذلك الإجتماع التافه، لاالهدوء ولاالصبر ولا الرغبة لكي أشرح كلّ هذا. ثم، إنني لاأدري لماذا يتعين عليّ أن أقدم إمتحاناً أمام مدعي علم من أمثال «أراوخو» الذي فرغ منذ سبع وعشرين دقيقة من إكتشاف الماركسية في أحد الكتيبات الصغيرة. لايرى هؤلاء الثوريون في أيّ عمل فني يأتي من الطبقة الغنية إلاّ مصالح طبقة مقنعة. إنهم يلحقون أذى كبيراً، إذ فيما بعد، هنالك أناس يحسبون أن نبذهم لماركس إنما هو نبذ لتلك الصور المسوخة. كان «ماركس» يكن إعجاباً لبلزاك الملكي ويهزأ بالمقابل من شيوعي يدعى «فالي» كان قد كتب عملاً عنوانه كما أذكر «المتمرد»، ولو كان حياً لاحتقر هذا الأدب

البروليتاري الذي يفرضونه بالدم والنار في روسيا. بين تلك المنتجات، وأعمال غطريس الحي السادس، ذاك الذي كان مفتوناً بالأميرات، ليس هنالك أدنى شك: فالذي سيدوم هو أعمال ذلك السيد المتأنق. لأن الإبداع الفني ينبجس من كليّة الكائن البشري. أتسمعين؟ من كليّته: ليس من الجزء الواعي، ومن الأفكار التي يمكن أن تكون خاطئة وهي عموماً كذلك وحسب، وإنما (حتى أرسطوطاليس أخطأ في هذا كثيراً)، من مناطق لاتتوصل العلاقات الإقتصادية إلى تغييرها. مازال يوجد في أيامنا هذه أمثال «أوديب» كما كان في عصر «سوفوكليس». لاشأن «لأوديب» وأمثاله بالعلاقات الإقتصادية الإغريقية. فمعضلات الحياة والموت، والنهاية، والكآبة والسعادة، هي حدود الطبيعة البشرية التي وجدت منذ كان الإنسان إنساناً. ولذلك فإن التراجيديين الإغريق مازالوا يثيرون عواطفنا، على الرغم من أن البنى الإقتصادية التي برزوا منها لم تعد موجودة.

عندما وصلا إلى المقهى ووجد أن الساعة تجاوزت الثامنة قال لها «س» إنه يتعين عليه أن يذهب، وربما عاد يوماً للحديث ثانية.

متى...؟

لم يكن يدري.

ولكن أكان بوسعها أن تكتب إليه؟

نعم.

وهل سيرد..؟

نعم.

كان برونو يفكر، لا، ليس خلوداً حقيقياً، لأن «أليخاندرا» التي كانت ماتزال في روح «مارتين»، تستعر، وإن على نحو جزئي، بقيت في قلب الفتى وفي ذاكرته كجذوات مخفية بين الرماد، ستدوم مادام مارتين حياً، ومادام هو «برونو» كذلك، وربما «ماركوس مولينا»، وحتى «بوردينا بي»، وأناس آخرون أيضاً (كرام أم لئام بعيدون أم قريبون) ممن كان لهم يوماً نصيب من نفسها، أو في جزء رائع أو مريع من روحها. لكن، وبعدئذ؟ تخبو بإنقضاء السنين، وتصبح في كلّ يوم أشد إلتباساً وإبهاماً، وتتحول بمرور الزمن، يوماً بعد يوم، إلى أجزاء أشد تشوشاً ونأيا، شأنها شأن ذكرى بلدان جبناها في عهد الشباب، ولكن دمرتها فيما بعد، عواصف وكوارث وحروب، وميتات، وخيبات أمل: ما أن تفنى تدريجياً مناطق واسعة من تلك الذكرى بفناء من كانت لهم ـة «باليخاندرا»، حتى تأخذ روحها تضمر أكثر فأكثر، وتتشيخ ـدم من بقي حياً بالسن، لتموت بموت من شاركوا، على نحو أو آخر، بذلك السحر المشترك: بالحب أو الرغبة، بشعور رقيق أو عهر دنيء. وعندئذ سيأتي الموت النهائي شيئاً فشيئاً. ليس موت ذلك الجسم الذي مثل، في أحد الأيام عارياً أمام مارتين يرتعد، في برج «باركاس» القديم، وإنما في تلك الروح التي كانت ماتزال باقية على نحو جزئي في نفس «مارتين»، وفي ذاكرته هو، «برونو» نفسه. ليس خلوداً حقيقياً وإنما يكاد يكون موتاً مؤجلاً ومشتركاً بين أولئك الذي عكسوا على نحو مباشر، أو منكسر روح أليخاندرا. وعندما يموتون (مارتين، برونو، ماركوس مولينا، بوردينابي، وحتى موليناري الذي جعل مارتين يتقيأ) ويموت أيضاً من استودعهم هؤلاء أسرارهم، سوف تختفي إلى الأبد، ذكرى آخر ذكرى، وإنعكاسات الذكريات في نفوس أشخاص بعيدين، ودلالات الأعاجيب، والإنعكاسات والحب الخالص والنزوة

الجنسية المنحطة.

وسأل «برونو» حينئذ.

- كيف كيف؟

وأجابه «مارتين» إن الوقت كان عند الفجر حين شعر بأنهم يهزونه من كتفيه بعنف. ورأى وهو يظنّ أنه في حلم، وجه «أليخاندرا» المشرق فوقه، في وقت لم يكن ينتظر أن يراها أبداً. وقال بصوت كئيب ومتهدج إنها قالت له:

- لاشيء، كنت أود أن أراك، بل أفضل أن أقول، كنت أحتاج إلى رؤيتك. ارتد ثيابك، أود أن أخرج من هنا.

وبينما كان «مارتين» يرتدي ثيابه أشعلت لفافة بيد مرتعدة ثم أخذت تُعِدّ القهوة. كان «مارتين» مبهوراً فلم يستطع أن يحول نظره عنها ولو للحظة واحدة وهي مرتدية ثيابها: كانت تحمل معطفاً من الفرو وتبدو كأنها آتية من حفلة، لكنها كانت بلا زينة، شاحبة الوجه منهكة العينين، وكانت تبدو أيضاً كأنها ارتدت ثيابها بلا إهتمام كمن يتعين عليه أن يهرب من مكان ما بسرعة، مثلما يحدث أثناء هزة أرضية أو حريق. اقترب وحاول أن يلامسها لكنها صرخت به ألاّ يمسها. فمكث كالمشلول. كانت قد صرخت محذرة بينما لمعت عيناها بذلك البريق الوحشي الذي كان قد خبره جيداً حين تكون متوترة كأنها نابض مشدود يوشك أن ينقطع، ولكنه سرعان ماطلب منها المعذرة وسقط منها مشرب اللفافة.

قالت، كما لو أنها تقدم تفسيراً

- أرأيت؟

بقيت يداها ترتعدان كما لو أنها مصابة بحمى شديدة. أما «مارتين» فخرج ليغسل، ولكي يعيد ترتيب أفكاره بخاصة. وعندما عاد، كانت القهوة قد أعدت. وكانت «أليخاندرا» جالسة تفكر، وكان «مارتين» يعرف أن أفضل مايفعله هو أن لايسألها شيئاً، وهكذا شربا القهوة بصمت. وبعدئذ طلبت منه قرص «إسبرين»، وكعادتها مضغته بلا ماء، ثم عادت تشرب مزيداً من القهوة. وبعد مضي برهة قصيرة نهضت وقالت كأنما ذلك القلق يعادوها، هيا بنا نخرج.

ـ لنتمشى على الضفة. أو أفضل أن نصعد فوق الجسر.

التفت بحّار، وفكر مارتين بألم، إن ذلك الرجل ظنها، بمعطف الفرو، وبذلك الوجه، وفي تلك الساعة من الفجر، عاهرة.

فقالت هي بصوتها الجاف، مدركة ماكان يدور في ذهنه:

ـ لاتقلق كثيراً، فهو في جميع الأحوال، سيصاب بالخيبة.

صعدا فوق الجسر، واتكأ على الحاجز عند منتصف النهر ينظران نحو المصب مثلما كانا يفعلان من قبل، في أيام أسعد بما لايقاس، أيام (كان برونو يفكر) كانت في ذلك الحين تبدو «لمارتين» أنها تعود إلى حياة سابقة، إلى تجسيد بعيد يتذكره المرء على نحو ملتبس كما يتذكر الأحلام. كانت تلك الليلة إحدى ليالي آب/ أغسطس الباردة المكفهرة، وكانت رياح الجنوب الشرقي تهب فتطالهما من الجانب، لكن «أليخاندرا» كانت تفتح معطفها كما لو أنها تريد أن تتجمد، وتتنفس قلقة بعمق. إلى أن لفّت في نهاية المطاف معطفها، وضغطت على ذراعه، وقالت وهي تنظر نحو الأسفل:

ـ يجعلني كلّ هذا أشعر بالراحة: أن أكون معك وأن أرى حياً كهذا،

حي أناس يشتغلون ويعملون أشياء بسيطة، صحية ومحددة: برغي، عجلة. فسرعان ماأشعر بأنني أتمنى أن أكون رجلاً، واحداً منهم، وأن يكون مصيري بسيطاً كمصيرهم.

مكثت تتأمل بعمق، وأشعلت لفافة من بقايا للفافة التي انتهت من تدخينها.

- كانت لدينا تدريبات روحية، خلوات.

نظر إليها «مارتين» وهو لايفهم شيئاً. فضحكت ضحكتها الفظة المشؤومة.

- ألم تسمع الأب «لابورو» يتحدث؟ كان يقدم أوصافاً للجحيم تدب في قلوبنا الرعب. العذاب الأبدي. منطقة بحجم الأرض، تسقط قطرة ماء فتفنيها. وعندما تنتهي تلك المنطقة، تبدأ منطقة مثلها، وبعد ذلك أخرى وأخرى أيتها الفتيات، ملايين المناطق كلّ منها بحجم الأرض. مناطق لانهاية لها. فكِّرنَ أيتها الفتيات. في حين أنهم يشوونكن على.... يبدو لي الآن بالغ السذاجة. إنّ الجحيم هنا.

عادت تلوذ بالصمت وتمتص لفافتها بنهم.

كان مركب من بعيد، في عرض النهر يطلق صفارته.

كم كان أمر الذهاب من «بوينس أيرس» بعيداً الآن.

كان «مارتين» يفكر أنّ مايدور في خلد «أليخاندرا» لم يكن السفر وإنما الموت، قالت:

- أود أن أموت بالسرطان، وأن أتعذب جدّاً. بنوع من أنواع السرطان الذي يجعل المرء يتألم طيلة سنوات، في حين يتعفن ويتشوه شكله.

وعادت تضحك تلك الضحكة الفظة، ثم لاذت بالصمت بعض الوقت، وبعد ذلك قالت:

«هيا بنا»

سارا نحو «لافولتادي روتشا» صامتين، وحينما وصلا إلى شارع استراليا توقفت، ثم أمسكت به وجذبته نحوها بقوة ونظرت إليه بعينين شبيهتين بعيني من يهذي من شدة الحمى، وسألته إن كان يحبها.

فأجابها «مارتين» بكآبة وحزن:

- إن سؤالك ينطوي على الحماقة.

- حسناً، إسمع ماسأقوله لك. ترتكب سوءاً بالغاً إن أحببتني، والأسوأ منه هو أنني أنا التي أرجوك أن تفعل. ولكنني بحاجة إليك، أتفهم؟ أحتاج إليك، وإن كنت لن أراك ثانية أبداً. إنني بحاجة إلى أن أعرف أنك في مكان ما من هذه المدينة النجسة، في زاوية ما من زوايا هذا الجحيم، موجود، وأنك تحبني.

وكما لو أن حجراً يتأرجح، وتمكنت قطرات من الماء من أن تتسرب من بين شقوقه الجافة، خرجت بعض العبرات من عينيها، وسالت على وجه بالغ القسوة هزيل.

مابين «أليخاندرا» هذه، وتلك التي كان قد عثر عليها منذ سنتين مضتا، في إحدى حدائق «بوينس أيرس»، انفتحت هوة من سنين مريعة وفجأة، وقبل أن تودعه، خرجت تركض في شارع استراليا بإتجاه منزلها.

أدرك «برونو» كيف كان «مارتين» ينظر نظرة تنطوي على التساؤل،

كتلك التي تعوّد أن يوجهها إليه، وكما لو أنه يمكن أن يجد عنده مفتاح سرّ تلك الوثيقة السرية، العلاقة مع «أليخاندرا». لكن «برونو» لم يرد على التساؤل الصامت، بل مكث يفكر في عودة «مارتين» تلك، بعد خمس عشرة سنة، إلى الأماكن التي كانت تبعث الذكرى العنيدة حيّة عندما كان مايزال فتى لايتجاوز ثمانية عشر عاماً، كانت ترفعه عزلته ومراهقته إلى تلك الدروب في حديقة «ليساما» التي كان يطوف بها الآن وهو رجل تجاوز ثلاثة وثلاثين عاماً، لكنه لم يكن قد توصل بعد إلى تفريغ تلك الشحنة، وكان يبدو على نحو ما، أخرق، إنما بالغ الرقة، بالمطواة البيضاء التي كثيراً مافتحها وطواها أمام «أليخاندرا» أو أمام «برونو» نفسه، مستغرقاً بالتفكير لايراها. فيما كانت روحه تتمتم كلمات حب أو قنوط. وكانت تلك الدروب والممرات القديمة المتواضعة المفروشة بالتراب والأنقاض قد عبدت بالإسفلت، وكانت تلك التماثيل قد سحبت (بإستثناء وحيد وعجيب أبقى نسخة «سيريس» التي كان السحر قد بدأ أمامها)، وكانت تلك المقاعد الخشبية قد انتزعت بفعل ذلك الميل الأرجنتيني الغبي إلى عدم ترك أيّ أثر للماضي القصير والذي هو - كما كان «برونو» يفكر - لهذا السبب بالذات مثير للعواطف. لا، لا، لم تكن تلك حديقة «ليساما» أيام مراهقته. وكان يتعين عليه أن يجلس كئيباً على المقعد المجرد البارد الإسمنتي، لكي ينظر من بعيد إلى التمثال ذاته الذي قدم في تلك الأمسية من ١٩٥٣ نداء «أليخاندرا» الصامت، لم يقل له هكذا، طبعاً، لا، حياؤه كان يثنيه عن الحديث عن وقائع ذات مغزى حول الزمن والموت. ولكن كان بوسع «برونو» أن يدركها، لأن ذلك الفتى (ذلك الرجل؟) كان مثل ماضيه، وكان بوسعه أن يحل رموز أفكاره الخفية عبر كلمات بالغة التفاهة، مثل عجباً، وياللأسف، وتلك المقاعد الإسمنتية، وهذه الممرات الإسفلتية، ولست أدري، وأعتقد، بينما كان يطوي ويفتح مطواته على نحو كان يبدو أن مايهدف إليه هو

التأكد من صلاحيتها. وهكذا كان بوسع «برونو» أن يعيد بناء أفكاره عن تلك الترهات، وكان يتصوره في تلك الأمسية يتأمل تمثال «سيريس» طيلة ساعات، حتى يرخي الليل سدوله مرة أخرى على المخلوقات المتوحدة التي تعيد التفكير بمصيرها، وعلى العشاق الذين يجربون سرّه الصارخ أو يستقبلون سحره المتواضع. وربما (بالتأكيد) يعود ليسمع الصفارة الخرساء لمركب بعيد كما في ذلك الزمن العجيب، زمن اللقاء الأول. وربما (بالتأكيد) بحثت عيناه اللتان يغشاهما الضباب عنها عبثاً وبألم بين الظلال.

«كيلي» في بيت «بيبا»

- لو أن «ساباتو» كتب تقريراً عن الحمائم بدلاً من ذلك الخطاب البليغ عن العميان لكان أفضل. هل رأيتم من قبل حيواناً أسمج منها وأقذر؟. وجميع أولئك الذين يذهبون إلى ساحة «مايو» لتقديم الحبوب وفتات الخبز للحمامة المسكينة، حمامة السلام. وذلك الماكر «بيكاسو» «مليارديز الشيوعية» أيضاً. أخذ في أحد أيام الأحد يعمل عصاه، حيث لم يكن أحد موجوداً تقريباً، لم يكن يعرف من أين يبدأ، فالخيارات كثيرة جداً لكنه تمكن قبل أن يطارده الغوغاء من أن يترك خارج المعركة عدداً كبيراً من طيور سوف لن تكون مصدر إزعاج بعد الآن.

- رجاء يا«كيلي»، عنصر كيميائي، جوهري للحياة، ستة حروف.

- لقد سمعت إطراءات بالغة عن مقابلتك التلفزيونية ياعزيزي.

نظر إليها الآخر وبعدم ثقة، ورد على نحو غامض:

- ماذا تقول.

ثم نهض «ساباتو» كي يذهب، وقال لـ «بيبا» ببرود

«يتعين عليّ أن أتحدث وإياك».

خرج وذهبت «بيبا» في إثره، وقالت وهي ممسكة ذراعه

«لاتكن مملاً هكذا بوقارك»

صاح عندما أصبح في الغرفة الأخرى.

- ليس الأمر هو الوقار، إنه يتعلق «بمارسيلو»، لقد قلت لك.

- متى قلت لي؟

- ماأن وصلت، ولكنك لاتسمعين شيئاً عندما يدخل ذلك المهرج. ذهب

استنشاق هواء الليل جعله يشعر بالراحة.

كان في الهواء شيء بادر قارس بدا كأنه يدل على النقاء.

إن البرد الآن أشد

وفي المساء نجوم أكثر

ونحن نطفو على غير هدى

أرجوكم (إن فض أحدكم هذا المكتوب)

رددوا بأفواهكم الكلمات التي كانت إسماً لنا.

سأقول لكم كل ماتعلمناه.

سأقوله كله.

كان يمشي ببطء نحو ساحة «بولوني ـ سور ـ مير»

حين شعر أن «بيبا» تناديه بإسمه: .. أسمع... عجباً...!

لا، لقد انقضى زمن طويل منذ أن ذهب «مارسيلو»

لا، لم يكن يعرف أحدٌ ماجرى.

كان كلّ شيء معقداً، لأنه لم يكن يتكلم مع أحد، وأنت تعلم.

صمتت، ومكثت تنظر إليه بأسى: لم تعد «بيبا» المرحة كما كانت في زمن آخر، أو في أماكن أخرى، إن لم يذهب بعيداً ويقول، منذ برهة.

ـ إنني بحاجة إلى أن أراه.

حسناً، سوف تقول له إذا ماظهر، إذا ماتحدث بالهاتف.

لا، لم تكن تعرف أين عساه يكون قد قطن بعد أن ترك غرفته وأخذ حوائجه.

كانت خائفة.

خائفة؟ مم يمكن أن تخاف؟

لم تكن تدري، كان في غرفته مرة أحدٌ صفاته كذا وهكذا.

فكر (س) في الفتى الذي كان في الإجتماع: أكان قصير القامة أسمر اللون، رثّ الثياب؟

بلى كان كذلك.

لقد كان لدى «بيبا» انطباع.

ماهو؟

إن ذلك الفتى كان مقاتلاً.

لماذا؟

لقد كان مجرد إنطباع، دلالات بسيطة.

قال لها «ساباتو»، ولكن لم يكن «مارسيلو» ممن يمكن أن ينضم إلى منظمة مقاتلين. أكانت تتخيل أنه يمكن أن يقتل أحداً أو يحمل مسدساً؟

لا، طبعاً لا. ولكن كان بوسعه أن يقوم بأشياء أخرى.

اي أشياء.

مساعدة امرىء تعرض للخطر مثلاً، بإخفائه أشياء من هذا القبيل.

ما أن خرج «ساباتو»

حتى رفع «كيلي» عينيه وذراعيه نحو السماء تعبيراً عن الشكر.

- هيا، تابع الحديث عن زرع الأعضاء.

- إنكنّ تهوين الحكايات السخيفة حتى الموت. ولكنني أنا رجل نظريات عظيمة. أقدم لكنّ مثالاً مدرسياً:

يقضي الفتى الأسود «جيفرسون ديلانو سميث» نحبه ويزرعون قلبه في جسم المعدّن «جون شوارزر» الذي سيتخذ منذ ذلك الوقت اسم «شوارزر - سميث» وإلا يكون علم الحقوق محض هراء. يمكن كتابة الاسم الثاني بحروف طباعة أصغر، هذا ممكن:

شوارزر - سميث

وذلك بنسبة مايخصه من جسم المعدّن الضخم المذكور. ثم، إن هذا القنطورس مريض القلب يتلقى كلية «نانسي هندرسون» الصناعية، ويصبح اسمه «شوارزر سميث هندرسون» مع تغيير بسيط في الجنس، الذي يمكن أن يسجل في وثائقه، مذكر ـ مؤنث درجة ٢ . بعدئذ يزرعون له كبد قرد (تغيير بسيط في طبيعته الحيوانية).

ولكن «كيكي...!....

صه، قرنية السيد «نيك مينيلي» صاحب «بيتزادروغستور» (تغيير طفيف ليس في الإسم وإنما في المهنة أيضاً) متر وعشرين سينتميتر من أمعاء الجزار «رالف كافاناج» (تغيير طفيف في المهنة وغيرها)، بانكرياس وذراع لاعب الـ «بيسبول» «جودين بيرتو».

الغدة النخامية للبروفسور السابق «سول شابيرو» من مستشفى «دايان ميسوريال» في «نيوجيرسي».

مشط يد «سيمور، سوليفان جونس «مدير شركة كوكاكولا» وبالتالي فإن المعدّن الذي كان «شوارزر» أصبح يسمى، للتسهيل، السيد «جون شوارزر سميث» وشركته المحدودة (يناديه أصدقاؤه تحببا محدودة) يعاني من: زرع مبيض السيدة «جيرالدين دانيلسون»، في أعقاب الإكتشاف العظيم الذي قام به البروفسور «موشي فولينبرغ» من جامعة «بالو ألتو» كاليفورنيا ـ الذي أثبت أن زرع مبيض في جسم رجل (أو خصية في جسم أمرأة) هي الطريقة الوحيدة بدءاً من سن معينة (وشركة شوارزر سميث قد بلغت ١٧٢ سنة) لإعادة المرونة إلى شرايين الدماغ، ولايحتاج الأمر إلى زرع دماغ جديد، وهي عملية لاتعتبر ضرورية في الوقت الحاضر.

ـ ولكن اسمعني ياكيكي.

ـ أمر لا يصدق، بسبب الاختلاطات التي أخذت تنجم عن عملية الزرع هذه بدءاً من العام الثاني، فإن شركة شوارزر ـ سميث بدأت تنمّي صدرها، ورغبت، كبرهان على شبابها العتيد الناجم عن عملية الزرع الحديث، في المبادرة كما يقال، لإقامة علاقات غرامية مع السيد «دوبون» أو شركته، في أوهايو. ومن أجل تلك الرغبة طلبت في نهاية الأمر دمج مهبل الآنسة كريستينا ميشيلسون»، التي توفيت أخيراً نتيجة «فشل» عملية زرع غدة كظر ليست في حالة جيدة.

وبسبب سلبية أسرة «ميشلسون» التي تبشر بقناعات متشددة في الكنيسة المعمدانية الجديدة، انضم إلى جسم «مؤسسة شوارزر ـ سميث» عضو بلاستيكي صنعته «شركة المعدات الطبية البلاستيكية الدولية» المعروفة، خصيصاً حسب مقاس السيد، أو شركة، أو مؤسسة «دوبون». ولما كانت النتائج إيجابية فإن العملية أتاحت، بعد مضي ثلاثة أسابيع، الفرصة لإتحاد الشركتين في عملية، سمها إن شئت زواج عقلاني. انتهى باحتفال عظيم، صناعي ولاهوتي في معبد «لاكريستيان ساينس ريفورمادا» في «ايلينوس» حيث تملك أولى الشركتين المذكورتين مجموعة الأسهم الرئيسية في مصنع «كوكاكولا» وهي مجموعة حصلت عليها كإرث جزئي من نصيبها الناجم عن زرع بانكرياس السيد «د. ر. باركنسون» المحترم الخائب، رئيس الشركة السابق في ولاية «ايلينوس».

كلّ ذلك إيجابي قطعاً من وجهة نظر تطور العلم والتقنية، وهو مثير أيضاً من وجهة نظر الديمقراطية الأمريكية التي أتاحت لدهمائي مثل المعدّن «جون شوارزر» أن يتبوأ بفضل أمعاء بحالة جيدة منصب رئيس شركة محترمة دولياً، وأن يتحول من طبيعته الفظة كفحل محض، إلى مرتبة خنثوية خفية، وهي حالة تتيح له أن يكون قنبلة حقيقية في وسط

الطبقة الراقية.

في حين أن رجال أعمال شطاراً قد أسرعوا لإنشاء بنوك أعضاء. قرأت في أحد الإعلانات الطلبات الآتية:

«جوفيليسيبلو» في مدينة «سالت ليك»: أمعاء دقيقة في حالة جيدة.

«جوشوا لوث مارشال» من «ماساشوستش»: أمعاء دقيقة ٢ يارد، وصمام بطين.

«شول شابيرو»، نائب رئيس شركة الأفلام السينمائية، «بانوراميك»: بحاجة ماسة إلى كبد.

«توماس جيفرسون سميث» عامل بناء من «أركانساس»: أنف أسود، يفضل أن يكون دقيقاً.

«مايك ماسوح»، محقق خاص، من «أوتاه»: مدمع يميني

«جين لوباكونو» من «كولورادو»: خصية.

ثم تتبع العروض.

«ايديسون وينبرغ ٤٠٠ سنة، موسيقى، مات في حادث سيارة، بروكلين نيويورك: أحشاء متنوعة في حالة جيدة.

«كونيليوس كوغلان» ٢٣ سنة، من باريس، لواء، توفي في حريق شركة «كاتير بيلر» أعضاء أنقذت من الحريق.

«رودناي مونرو»، عامل بناء، ٣٥ سنة، سقط من سلم من الطبقة الخامسة، أعضاء في حالة جيدة.

وفكرة المجمدين ياكيلي؟

لقد رويتها لكن، كم مرة ينبقى تكرار المعلومات ذاتها أيتها الحمقاوات؟

فكر أول مليونير بأن يوضع في البراد، لكي يبقى السرطان مجمداً إلى أن يكتشف الدواء. بعدئذ انتشر الأمر. أنتم تعرفون ذلك. وهكذا سرعان ماتأسست بمبادرة من «هـ. ب. نيدهام»، رئيس مجلس إدارة شركة جنوب «كليفينتارو» وشركة «هارتفورد»، مؤسسة سرطان «كليفينتارو»، وذلك بالتعاون مع السيد «ويليام. و. سابيسون»، الرئيس السابق لشركة «ماجستيك تلفزيون» (مصاب بسرطان الكبد) و«سام كابلان» مدير التسويق في شركة الأفلام السيمائية «لوس انجلوس»، كاليفورنيا» (مصاب بسرطان الحنجرة). عنابر كبيرة فيها البرادات التي يوضع فيها الأغناء، حيث يخرجون منها مؤقتاً للنظر في أمور عاجلة. يُحملّون بحمام مياه ساخنة، وبعد العمل يعودون فوراً لوكرهم القطبي، وبما أنهم مشغولون جداً، ويجب أن تكون مواعيدهم دقيقة، فقد اخترعت برادات ذات منبه: أيقظوني في شباط وربع. إلا أنه في أعقاب اختراع شركة «راديو الكترونيك كوربواشن»، فإن المجمدين يمكن أن يكونوا على إتصال بوساطة نظام تضخيم قدرة أجهزة الاتصال. وهكذا فقد أتاحوا فرصة لأن يكون بوسع همسات الأغنياء المجمدين الوصول إلى مسامع سكرتيراتهم وإلى بقية أعضاء مجلس الإدارة. وهنالك اختراع كخيار آخر، لكنه متمم وهو الدخول في حالة سبات مع سكرتيرة. وإن كانت مصابة بسرطان فذلك أفضل (حيث يرمي عصفوران بحجر واحد) وتلك هي حالة «سام كابلان» المذكور الذي جُمِّد جنباً إلى جنب مع سكرتيرته «لوسيل نورنبرغ». البالغة من العمر ٢٧ عاماً، ومصابة بسرطان معوي. وهكذا فإنه لمن المتواتر الآن قراءة إعلانات تطلب سكرتيرة تتقن الألمانية والاسبانية، مصابة

بسرطان الثدي وذات شكل حسن، بمرتب جيد، وقد عقد للمرة الأولى مؤتمر سنوي للمجمدين في فندق هيلتون واشنطن تحت شعارات كبيرة وابتسامات عريضة برئاسة أكبر المصابين بالسرطان «نوا. هـ. بيدرسون» (طحال، بانكرياس، وجزء من المعدة). بدا جيداً على شاشة التلفزيون ترافقه سكرتيرته المفضلة (قال وهو يبتسم) المصابة بسرطان بسيط في الرحم.

والآن، كفى، فإن واجباتي في السلطة الرابعة بحاجة إليّ.

لا، كيف يمكن أن يسأله «مارسيلو» عن شيء؟

كان هو الذي تكلم، الذي كان بحاجة إلى أن يتكلم. قال بجرسه القروي وبخجل. لقد كذبت عليك فأسمي ليس «لويس» وإنما «نيبوموسينو»، وبعد برهة صمتٍ تمتم «مارسيلو» وقد تضرج وجهه، ليقول شيئاً ربما كان يعني، أنت لايتعين عليك أن تروي لي أي شيء. ولكنهم، لم يكونوا ينادونه «باليتو» أيضاً ـ سأل بعد أن رفع بنطاله قليلاً، وبخجل، أترى؟ وابتسم كأنه مذنب، وهو يعرض ساقيه الهزيلتين، وقد أوشك جلدهما أن يلتصق بالعظم، وعلى الرغم من مضي أيام عديدة وهما يعيشان معاً، فإنه كان يتلافى أن يتعرى أمام «مارسيلو»، أو في الضوء، لقد كانوا ستة إخوة يعيشون مع أمهم التي كانت تغسل بأجر أيضاً، ولم يأت على ذكر والده، لعله كان ميتاً، أو ربما كان يعمل بعيداً، فكر «مارسيلو»، وكل ذلك لكي يبرر أمر ساقيه الهزيلتين.

شربا «ماتي» بصمت.

ـ لدي الكثير كي أرويه «يامارسيلو»، إنني بحاجة إلى أن تعرف.

ـ أنا..

ـ الـ «تشي»، القائد، «غيفارا».

تأثر «مارسيلو» أكثر من ذي قبل، كان يشعر بالخجل، وأحس فجأة بأنه يخمن ماسيسمع، وكان يعتبر انه لايستحق ذلك.

ـ كنت هناك، شاركت في الحملة كلها، تمكنت من الهرب مع الـ «إنتي» ولكن كنت أوفر حظاً.

ثم صمت، ولم يتكلم تلك الليلة أكثر من ذلك.

> **بلدان أخرى من العالم تطلب إسهام جهودي المتواضعة، يمكنني أنا أن أفعل مالا تستطيع أنت بسبب مسؤولياتك في قيادة كوبا. لقد حانت ساعة فراقنا. هناك أترك أطهر آمالي وأحب الكائنات قاطبة إلى قلبي. إنني أعفي كوبا من أي مسؤولية، إلا تلك التي تنبثق منها كمثال. وإذا ماحانت ساعتي الأخيرة تحت سماوات أخرى، فإن آخر أفكاري ستكون لهذا الشعب ولك بخاصة يا «فيديل».**

الـ «إنتي بيريدو». هل سمعتهم يتحدثون عنه؟ لا.. حسناً، نعم، كان يشعر بالخجل لو أعترف له أنه كان قد رأى كتاب مذكراته في إحدى المكتبات، فقد كان يبدو أنه ليس من العدل في شيء أن يتحدث عن مكتبات أمام أمرىء مثل «باليتو» الذي كان أمياً تقريباً. قال له: لقد كان الـ «إنتي» شخصاً عظيماً، كان الـ «تشي» يحبه كثيراً، وإن كان يصعب جداً معرفة متى كان «تشي» يحب أحداً، مع أنهم كانوا هم أحياناً ينتبهون إلى ذلك. كان في أحد الأيام تحت شجرة يستريح، أو لعله كان يفكر، كان شهر آب / أغسطس قاسياً، وقضوا أيام جوع وعطش، وشرب بعض الرفاق البول، على الرغم منَ أن القائد كان قد حذرهم، ذلك سبب آلاماً طبعاً. بدأ الـ «مورو» وهو الطبيب الوحيد يشعر بآلام

في ظهره، كان يتألم على نحو لايطاق أثناء المسيرة، وماالذي كان بالوسع علاجه، كان اليأس ينتشر والخوف أيضاً. مسألة «كامبا» مثلاً. تحدث إليهم الـ «تشي» تلك الليلة، وقد تحلّقوا حول الموقد، بصوت هادىء لكنه حاد، ذلك كان لكي تُخْتَبر رجولتهم كما قال. فمن يشعر بأنه ليس أهلاً يجب أن يتخلّى عن القتال في تلك اللحظة بالذات. لكن الذين بقوا شعروا أن حبهم للقائد وإعجابهم به ازداد عن ذي قبل، ووعدوا بالقتال حتى النصر أو الموت. كانت لحظات صعبة للغاية، لأن مجموعة «خواكين» وقعت في كمين عند معبر نهر «جيسو» في ٣١ آب /أغسطس نتيجة لوشاية فلاح بائس يدعى «هونوراتو روخاس». أليست كلمة «هونوراتو» مشتقة من كلمة شرف؟ نعم مشتقة من كلمة شرف.

حسناً، فقد انتظر الجيش حتى ساقه ذلك البائس إلى الفخ، وعندما كانوا يعبرون النهر قتلوهم غيلة من الخلف، ومات هناك كثيرون بينهم «تانيا»، كانت فتاة شجاعة جداً، وبقي ٢٢ رجلاً فقط، بعضهم في حالة سيئة جداً، مثل الـ «مورو»، وآخرون، ويجب أن نقول بصراحة وإن كان ذلك مخجلاً، كانوا خائفين، وهكذا فإن القائد استأنف جلسات التثقيف كل ليلة، بأحاديث ونصائح وبتوبيخ أبوي أيضاً، لكنه صارم. وفي إحدى تلك الليالي رآه وحيداً يجلس إلى جذع شجرة مطرقاً ينظر إلى الأرض. لم يكن يدري لماذا اندفع ليقترب. كان يفكر، قال له الـ «تشي» وكما لو أنه يعتذر، إنه كان يفكر في «سيليتا»، ابنته التي تركها في كوبا.

عاد «باليتو» ليلوذ بالصمت. أشعل لفافة أخرى، وكان مارسيلو يرى في الظلمة كيف كانت تتأجج كلما امتصها رفيقه.

... والدّي العزيزين: أشعر مرة أخرى تحت كعبي أضلاع «روسينانتي»[1] فأعود إلى الطريق ودرعي على

ساعدي. منذ حوالي عشر سنوات كتبت لكما رسالة وداع أخرى. أسفت جداً، كما أتذكر، لأنني لم أكن جندياً أفضل ولاطبيباً أفضل. المهمة الثانية لم تعد تعنيني كثيراً، وكجندي فإنني لست سيئاً جداً... يمكن أن تكون هذه هي الأخيرة، لاأبحث عنه ولكنه ضمن الحسابات المنطقية. إن كان الأمر كذلك فاعانقكما العناق الأخير. أحببتكما جداً لكنني لم أعرف كيف أعبر عن محبتي؟ إنني صلب جداً في أفعالي وأعتقد أنكما أحياناً لم تفهماني ومن جهة أخرى فإن فهمي لم يكن أمراً سهلاً، صدقاني اليوم فقط.

ـ نعم يامارسيلو، لقد كنا أحياناً ننتبه، حين مات «بنخامين» مثلاً، الذي كان فتى أضعف مني (ضحك بخجل)، لكنه يتمتع بإيمان هائل، تألمنا كثيراً أثناء تلك المسيرة، وكان الأمر منذ البدء بالغ القسوة، فبقي الكثيرون منا، منذ الأيام الأولى بلا أحذية تقريباً، وبملابس تحولت إلى أسمال بالية. الأشواك كثيرة وتلك النباتات، والحجارة، والمعابر. كانت فكرة «تشي» هي الوصول حتى نهر «ماسيكوري»، لكي نرى الجنود أول مرة، وليس للاشتباك في معركة. أمضينا حوالي شهر في تلك المسيرة مع المرض، والذباب وكلّ أنواع الحشرات، والتعب، فأصبحت الجعب والأسلحة كلّ يوم أثقل من ذي قبل، وفي نهاية الشهر لم يبق لدينا تقريباً مانأكل. عانى «بنخامين» في النهر الكبير من صعوبات بسبب جعبته، لأنه كان كما قلت لك، ضعيفاً جداً، وكان متعباً جداً، وكان في الواقع أمراً مؤلماً، رؤية النهر يجرفه على ذلك النحو. كنا نسير فوق صخرة، ولست أدري كيف تعثر وانزلق إلى النهر الذي كان غزيراً ومتدفقاً. لم يكن لديه قوة لكي يقاوم قليلاً. قفز «رولدان» إلى النهر ولكنه لم يتمكن من الإمساك به، ولم نره بعد ذلك. كنّا جميعاً نحب

---

(٢) روسينانتي: اسم الفرس الهزيل الذي كان يمتطيه دون كيخوته (المترجم)

«بنخامين» فقد كان رفيقاً من الطراز الأول. لم يقل القائد شيئاً ولم يتكلم طيلة ذلك اليوم، كان يسير صامتاً ورأسه مطرق. كان يحدثنا دائماً كلما كنا نتوق، أو نجتمع لنأكل شيئاً حول موقد، ويعلمنا أشياء. قال لنا في تلك الليلة إن سلاح الجيش الثوري الرئيسي هو معنوياته وانضباطه، فالمحارب يجب أن لاينهب السكان أبداً، ويجب أن لايسيء إلى الناس وإلى النساء بخاصة، ولكنه يجب أن يضع نصب عينيه النصر والقتال حتى الموت من أجل المثل التي اعتنقناها. وقال إن الانضباط أمر أساسي، لكنه ليس ذلك الانضباط الذي يفرضونه علينا أثناء الخدمة العسكرية، بل انضباط الرجال الذين يعرفون لماذا يقاتلون، ويعرفون أن ذلك الذي يقاتلون من أجله هو أمر عظيم وحق. ولم يتحدث بكلمة عن «بنخامين»، لكن صوته كان في تلك الليلة مختلفاً. وكلنا شعر بان ماكان يشرحه كان يمت بصلة ماإلى «بنخامين» وإلى طريقته في تحمل الآلم. لأننا رأيناه مراراً يساعده ويخفف من حمله، فهو «تشي» كان يحمل دائماً الحمل الأثقل ويقدم على الأمور الأخطر، حتى حين بدأ الربو يشتد عليه أكثر من أي وقت مضى، لأن الدواء كان قد نفد. إنك تعلم ماهو الربو.

رأى مارسيلو في الظلمة أنه أشعل لفافة أخرى.

ـ أتريد واحدة؟ إن واحدة فقط لاتؤذي شيئاً.

كانا صامتين، كلّ منهما مستلق على ظهره في السرير ينظر نحو السقف.

ـ عندما رأيته أول مرة لم أصدق. كان ذلك في الغابة ليلاً. كان يبدو واحداً كالآخرين.. ولكنك سرعان ماترى أنه ليس كذلك.

صمت وهو يدخن.

ـ سوف لن تعتقد ـ يبدو أنه كان يود أن يوضح ـ أن «تشي» كان يوحي بأنه مختلف. لا، ليس الأمر كذلك، ماكنت أود قوله.... لا، ماكنت أعنيه هو أنك تحس بوجوده، دون ان يرغب هو. لم يكن قاسياً، أعني، مثلما يمكن أن يكون قائد عسكري. كان أمراً آخر، كان يمزح أحياناً. ولكن أشياء أخرى لم يكن يتسامح بها، لم يكن يتحمل التهاون أو الإهمال مثلاً. أنت تعلم: عندما يكون المرء لمدة طويلة في الغابة، في الجبل، يبدأ بالتهاون شيئاً فشيئاً، فإن أهملت قليلاً لايبق لديك سوى أسمال بالية، بسبب الأشواك، والمسيرات، والأمطار وماسوى ذلك. ولأنه يصعب أن تستحم، أو لأنك كثيراً ماتأكل بيديك، فما أن يتهاون المرء حتى ينقلب إلى حيوان. حسناً، قلت لك إن «تشي» لم يكن يتحمل ذلك. وكان يتعين على المرء أن يعتني بنظافته، ويصلح ملابسه، ويهتم بجعبته وكتبه. قلّما سمعته يصرخ، وحينما كان يفعل يكون على حق. كان يُقَوِّم الاعوجاج بحنان، إنما بحزم. ماأن نصل إلى مكان مختار لإقامة المعسكر حتى يبدأ بتوجيه ماكان يسميه هو مازحاً، الأشغال العامة: كانت تُبنى مقاعد، وفرن لصنع الخبز، ومالإلى ذلك. وكان مابين وقت وآخر يأمر بالقيام بحملة تنظيف شاملة للمعسكر، حتى وإن كان معسكراً مؤقتاً. وكان لدينا كلّ يوم مابين الساعة الرابعة والساعة السادسة دروساً. من كانوا مُتَعَلِّمين أكثر يُعَلِّمون، و نحن الآخرين كنّا نتعلم: قواعد اللغة، وحساب وتاريخ وجغرافيا وسياسة ولغة هنود الـ «كيتشوا». وحتى أثناء الليل كانت هنالك دروس ـ ولكنها اختيارية ـ لمن يودون أن يتعلموا أكثر، ويقاوموا أكثر. كان «تشي» يُعَلِم في الليل اللغة الفرنسية، كان يقول، ليس الأمر إطلاق الرصاص، ليس إطلاق الرصاص وحسب. يتعين، إذا ماانتصرنا في هذه الحرب، ان يصبح بعضكم في يوم من الأيام قادة. وكان يقول: فالقائد يجب أن لايكون جريئاً وحسب، بل يجب أن يكون ناضجاً عقائدياً أيضاً. ويجب أن يكون قادراً على التحليل السريع

وعلى اتخاذ القرارات الصائبة، يجب أن يكون أهلاً للوفاء والانضباط ولكنه قبل ذلك، يجب أن يبني مثال الانسان الجديد، الذي نوّد أن يكون في مجتمع عادل.

توقف مرة أخرى ودخن بصمت.

- الإنسان الجديد - تمتم، كما لو أنه كان يفكر في دخيلته - لقد قال أشياء كثيرة عن الإنسان الجديد، أنا ليس بوسعي أن أشرح لك، لأنني لست شخصاً متعلّماً. و لكنه حينما كان يتكلم ويحاول أن يشرح لنا ذلك، كنت أحملق إليه وأفكر بأن الإنسان الجديد هو، القائد «تشي غيفارا». لقد كان يتكلم كما لو أن الأمر شيء آخر مختلف، شيء عظيم لابد من إيجاده أو بنائه في يوم من الأيام. ولكنني كنت أفكر، وأظن أن رفاقاً آخرين كانوا يفكرون أيضاً أن الإنسان الجديد هو أمرؤ مثله، مثل «تشي»: يتمتع بروح تضحية من أجل الآخرين وجرأة، وحنان في الوقت ذاته و....

بدا أنه تردد لحظة، كما لو أنه لم يستطيع أن يتابع الحديث، وكما لو أن الذكريات جعلته يغص بالألم. ولكنه في نهاية المطاف قرر أن ينطق الكلمة التي توقف عندها، قالها كأنه خجل:.... وحب.

ثم صمت، ووجد عندئذ أنه يتعين عليه أن يفسر:

- حب... لست أدري... لا أود أن أقول ذلك الذي يبدو في الروايات الرومانسية... لاأود أن تخطيء فهمي.. كان... كان يقول إنه لايمكن الكفاح من أجل عالم أفضل دون ذلك، من غير حبّ الإنسان.. إن ذلك هو قضية مقدسة وليس مسألة كلمات بسيطة، بل يجب، في كلّ يوم وفي كلّ مرة إثباته.

كم من مرة رأيناه يعامل، دون ضغينة، جنوداً كانوا قبل قليل ينقضّون عليه لقتله، وكيف كان يضمد جراحهم ويستهلك الأدوية التي كنّا نفتقر إليها. لقد قلت لك إنه بعد مضي زمن قصير بدأ ينضب الدواء الذي يعالج به الربو، وأخذ يعاني كثيراً. وكان يغضب حين نحاول مساعدته أو تشجيعه، أو أنْ أعطاهُ الطباخ طعاماً أفضل، أو عندما كنّا نحاول تغيير وقت حراسته إلى ساعات أفضل.

عاد يلوذ بالصمت ويدخن بهدوء.

ـ أول مرة تعين علينا أن نقاتل فيها، كانت أثناء كمين «نيكانكا هواسو». أسرنا عدداً كبيراً، وكان بينهم ضابط يدعى «بلاتا». كانت رؤيته يجبن على ذلك النحو تثير الخجل. وحتى جنوده طلبوا منّا إعدامه لأنه كان رجلاً لايرحم. نزعنا لباس الجنود وأعطيناهم ألبسة مدنية، عالجنا الجرحى، وكان «إنتي» يشرح لهم أهدافنا، لأنه كان يتعين على «تشي» أن يموه على وجوده في بوليفيا. وكان يقول لهم إننا لانقتل الأعداء الأسرى. وهكذا فإننا عاملنا ذلك الشخص كما كان «تشي» قد علمنا: معاملة كائن بشري بكرامة واحترام. مسألة أخرى: الملازم «لاريدو». وجدت في مذكراته أثناء الحملة رسالة من زوجته، طلبت منها إحدى صديقاتها أن تأتيها بخصلة شعر من أحد المقاتلين لكي تزين غرفة الجلوس بها: هكذا قالت: لكي تزين غرفة الجلوس. إلا أن «تشي» قال إنه يجب إرسال مذكرات ضابط الصف ذاك... ـ لقد تذكرت الآن، كان ضابط صف ولم يكن ملازماً ـ إلى والدته: لأن ضابط الصف العدو قال ذلك في المذكرات. وقد احتفظ بها «تشي» في جعبته لكي يرسلها يوماً ما. ولقد وجدت في الجعبة عندما مات في كمين نهر «جورو». سوف أروي لك مسألة أخرى. كنّا في الثالث من تموز / يوليو مانزال قرب طريق شركة البترول، حيث اشتبكنا مع الجيش. كان «تشي»

قد أمر بنصب كمين، وكنا ننتظر مرور شاحنات. كان يتعين على «بومبو»أن يقوم، من موضعه حيث يراقب، بالتلويحْ بمنديله عندما تصبح أول شاحنة في مرمى نيراننا. وبعد خمس ساعات ونصف من الانتظار مرت الشاحنة، ولكن «تشي» الذي كان يجب أن يطلق أول طلقة من بندقيته لم يفعل. وهكذا مرت الشاحنة آمنة مطمئنة، هل تعرف لماذا؟

بدا كأنه ينتظر جواب صديقه الذي لم ينبس ببنت شفة.

- أتسمعني؟ أم أنك نمت؟

- نعم يا «باليتو»، أسمع كلّ ماتقول

- أتعلم لماذا؟ لأنه لم يكن في مؤخرة الشاحنة سوى جنديين نائمين متدثرين ببطانية، وبجانبهما الخنازير التي كانت الشاحنة تنقلها. قال «تشي»، جنديان، وكانا نائمين. أتظن أن ذلك كان نتيجة ضعف ياامارسيلو؟

- أنا....

- قال لنا في تلك الليلة بينما كنّا حول الموقد، إن عملاً كهذا يمكن أن يعتبر ضعفاً ، وإن ضعفاً على هذه الشاكلة يمكن أن يكون قاتلاً للمقاتلين. ولكن هنا تظهر مرة أخرى قضية الإنسان الجديد. إن قتل جنديين أعزلين نائمين بريئين، بلا سبب، لأنهما في نهاية الأمر يقاتلان تنفيذاً للأوامر، كان في الواقع ضعفاً؟ أيمكن خلق ذلك الإنسان الجديد الذي حاربنا من أجله على أساس فظاعات كهذه...؟ أيمكن تحقيق أهداف نبيلة بوسائل دنيئة؟ إنه لمن الصعب، هل تعلم، أن كثيرين بعد ذلك انتقدوه.

- من هم؟

ـ وأنا، ماأدراني... ثوريون أشد صلابة وأكثر واقعية.. هكذا يقال؟ لقد سمعت مثل هذا النقد الموجه لـ «تشي» كثيراً. كانوا يقولون.. مثالي، برجوازي صغير... شيء من هذا القبيل. كان يتعين عليّ مرة أو أوجه لكمة إلى شخص قال ذلك باحتقار، وانقضضت عليه. أعتقد أنني كدت أن أقتله.. لقد كنت أنا وحدي هناك في ذلك الاجتماع أعرف من هو «تشي غيفارا» ولقد جرحني سماع تلك الأشياء، أناس لم يكن بوسعهم عمل جزء من ألف مما كان «تشي» أهلاً للقيام به... ولكني أقول لك، أنا، لست أدري، أنا لست إنساناً مثقفاً.. الذي قال لي ذلك كان شيوعياً يعرف الكثير عن ماركس ولينين.. قال هذا ليس ماركسية ـ لينينية. وأنت ماتظنه؟ أهو كذلك؟ وكعادته، فقد تأخر مارسيلو في الجواب:

ـ أنا لست من يستطيع الحديث عن الماركسية ـ اللينينية، ولكنني أعتقد أن «تشي» كان مصيباً.

ـ وأنا أيضاً. وإن قاتلنا، فما ذلك إلاّ لكي لايكون هنالك أناس يمكنهم إطلاق النار من مخبأ على فتيين مسكينين نائمين ذاهبين إلى الموت ولايعرفان لماذا؟

ـ هل قرأت مذكراته.

ـ نعم.

ـ يقول في مذكراته إنه لم يجرؤ على إطلاق النار عليهما. ولكن أنت تعلم أن ماكان يفيض عن «تشي» هو الجرأة. كان يعني شيئاً آخر. ثم إن ماجرى، هو أنك حين تكون جزءاً من مجموعة مقاتلين في الغابة، تكون لديك مشاعر لايستطيع أن يفهمها الناس في المدن. عندما جرحوا «توما» في بطنه تعين علينا أن نأخذه حتى «بيراي». لكن كبد «توما» كان ممزقاً وكذلك أمعاءه، ولم يكن بالوسع عمل أي شيء. كان يوماً

تألمناً فيه كثيراً كلنا، لأنه كان أحد أكثر الرفاق مرحاً وأكثرهم حباً لخدمة الآخرين، إلى جانب أنه كان قائداً شجاعاً. كان «تشي» يحبه محبة أب لابنه، وهكذا يقول في المذكرات. ولعله تألم أكثر من الجميع، على الرغم من انه، كعادته «تشي» عمل المستحيل كي لايظهر ذلك. عندما سقط «توما» ظن أنه سيموت هناك بالذات، فأعطانا الخاتم لنسلمه لـ «تشي». هكذا كانت العادة، لأن القائد كان سيسلمه فيما بعد، او يرسله إلى الزوجة أو الأم، حسب الحال، كان لـ «توما» إبن لم يكن قد عرفه قط، لأنه ولد حين كنّا في الجبل، طلب أن يحفظوا الخاتم حتى يصبح كبيراً.

«قضيت أربعة أيام في الكتيبة الأولى من الفرقة الرابعة مع دورية في تلك الغابة العذراء الملوءة بالحيات و الأفاعي، والعناكب الضخمة والنمور «من رواية موراي سيل، مراسل لندن تايمز الحربي».

كان أيلول / سبتمبر أسوأ من آب / أغسطس. وكان يتعين علينا القيام بمسيرات مريعة. فقدنا رجالاً وخضنا عدة معارك وبدأنا نفتقر إلى مالايمكن الاستغناء عنه. والأخطر من ذلك هو أننا علمنا أن مجموعة «خواكمين» لن تعود ثانية، فقد قُضي عليها. كان «مورو» يعاني من آلام لاتطاق وكان وضع القائد يسوء يوماً بعد يوم، لأن أدوية الربو قد نفذت منذ مدة. كان ينزوي أحياناً هنا أو هناك كي لانراه حين يكون في أشد حالات الربو سوءاً. كان هدفنا المباشر هو «لاهيغيرا». ولكننا نعلم جميعاً أن الجيش يعرف موقعنا، فقد عثر «كوكو» على برقية في منزل عامل البرق في «فايي فراندي» يُخبرُ وكيل رئيس المخفر الوكيل القضائي بوجود المقاتلين. خَرَجَتْ حول ظهر يوم ٢٦ طلائعنا القليلة في محاولة للوصول إلى «خاغوي». فسمعنا بعد نصف ساعة، عندما خرجت مجموعة الوسط ومجموعة الطليعة في الاتجاه نفسه، إطلاق

نار غزير من ناحية «لاهيغيرا». نظم القائد الدفاع حالاً، بانتظار رجال الطليعة أو من تبقى منهم، لأننا كنّا على يقين بأنهم وقعوا في كمين. وهكذا انتظرنا الأنباء الأولية قلقين.

وصل «بنيغنو» أولاً وقد اخترقت كتفه رصاصة، حدث مايلي: جرحوا «كوكو» أولاً، فركض «بينغنو» لانقاذه، وبينما كان يجره أصابوه برشقة رشاش: قتلوا «كوكو»، وجرحت إحدى الرصاصات التي اخترقت جسمه كتف «بنيغنو»، أما الآخرون فكانوا إما أمواتاً أو جرحى. كانت صدمة قاسية جداً لـ «إنتي»، لأن «كوكو» كان أكثر من أخ له: كنا معاً في السجن وفي الكفاح، وانخرطا في صفوف المقاتلين معاً. حدث في أحد الأيام - لإعطائك فكرة - أن دار الحديث في الجبل حول موت «ريكاردو» وكيف صدمت تلك الميتة شقيقة «أرتورو»؛ فقال «كوكو» عندئذ لـ «إنتي»: لاأود أن أراك ميتاً أبداً، لست أدري كيف سأتصرف، ولكن لحسن الحظ سوف يقتلونني قبل، أعرف ذلك. وهكذا حدث فعلاً. لقد كان «كوكو» رفيقاً معطاءاً جداً وجريئاً كذلك، لكنه بكى يوم قتلوا «ريكاردو».

لحسن الحظ، لم يشهد «إنتي» موته. لم يكن يبكي ولكنه أصبح منذ ذلك اليوم أشد انطواء من ذي قبل.

عاد «باليتو» ليلوذ بالصمت، وكان صوته قد بدأ يغص في حلقه كلما تقدم في رواية تلك الذكرى البائسة. وكأنَّ صوته قد أصيب بالنكبة المتنامية ذاتها التي لحقت بمسيرة تلك القوة الصغيرة المحكوم عليها بالموت.

نهض وقال «أنا ذاهب للحمام»، وكان ذلك أمراً مألوفاً، و «مارسيلو» كان يعرفه، فكليتاه لم تكونا كليتي رجل سليم. عندما عاد، استلقى ثانية وتابع حديثه:

ـ كان كمين «لاهيغيرا» ضربة مريعة، كان في الواقع بدء النهاية.

يوم ٢٧ ـ استأنفنا المسيرة عند الرابعة ونحن نحاول أن نجد مكاناً للصعود، فتمكنا من ذلك عند السابعة، ولكن من الناحية الأخرى المقابلة للمكان الذي كنّا نبحث فيه، كانت تواجهنا هضبة جرداء لاتصلح للدفاع كما يبدو. وصعدنا قليلاً لكي نحتمي من الطيران في حرش صغير وقليل الكثافة جداً،وهناك اكتشفنا أن في الهضبة طريقاً ولكن لم يمر فيه أحد طيلة النهار. وعند المساء صعد فلاح وجندي حتى منتصفها ولبثا قليلاً ـ هناك من غير أن يريانا. قام «انسرتو» بعملية استكشاف ورأى في بيت قريب مجموعة كبيرة من الجنود. ذلك كان أسهل الطرق بالنسبة إلينا. وها هو مغلق الآن. رأينا عند الصباح رتلاً يصعد هضبة مجاورة، وكانت معداته تلمع تحت أشعة الشمس. وعند الظهر كانت تسمع طلقات متقطعة وبعض الرشقات «وبعد ذلك صيحات مثل: «هاهو» «أخرج من هنا» «ستخرج أم لا»، وكان يصحبها طلقات رصاص، لم نكن نعرف ماأصاب الرجل، وافترضنا أنه يمكن أن يكون «كامبا». خرجنا عند المساء لنحاول الهبوط إلى الماء من ناحية أخرى، فبقينا في أجمة أشد كثافة من الأخرى، وكان يجب البحث عن ماء في الوادي ذاته، فقد [illegible] هنالك صخرة تحول دون ذلك. أتانا المذياع بأنباء اصطدامنا بحملة «غاليندو» وأننا خلّفنا ثلاثة قتلى ستنقل جثثهم إلى (ف . ج) للتعرف عليها. يبدو أنهم لم يأسروا «كامبا وليون»: كانت خسائرنا كبيرة جداً هذه المرة، كانت خسارة «كوكو» أشد إثارة للشجون ولكن «فيجيل» و «خوليو» كانا مقاتلين عظيمين، والقيمة الإنسانية للثلاثة

كانت هائلة. كان «ليون» يرسم جيداً - ارتفاع ١٨٠٠ متر (من مذكرات «تشي غيفارا»).

كان القائد يبحث عن منطقة تكون فيها الأرض أفضل، كي نتمكن من إقامة استحكامات واعداد طعام، ولكن كان يتعين علينا لتحقيق ذلك كسر طوقين: الذي كان مضروباً حولنا هناك بالذات، والآخر طوق كبير كان الجيش قد نشره حولنا كما علمنا من البيانات التي كان المذياع يبثها. حاولنا في الأيام الأخيرة من أيلول / سبتمبر، والأيام الأولى من تشرين الأول / أكتوبر، أن نبقى أثناء النهار مختبئين، وإن كنا نقوم بسبر إمكانيات تلمّس مخرج. والأسوأ من ذلك أنه لم يكن هنالك سوى مياه شديدة المرارة. يتعين علينا لكي نحصل عليها التعرض أثناء الليل لأخطار جسيمة، بالاضافة إلى إزالة مانخلفه من أثار نتركها على الأرض. كنا نحس بمرور الجنود على بعد خطوات، وكانوا كلّ مرة يزدادها دون عدداً وعدة. وعندما كنا نشعل النار، كان يتعين علينا أن نخفيها بالأغطية لكي لايرو.

كان من المتوقع أن يقع القائد «إرنستو تشي غيفارا» مابين لحظة وأخرى، فهو محاصر منذ عدة أيام بنطاق حديدي، والتراب وعقص الحشرات هنا يحولان جلد أي إنسان إلى عباءة رثة. والنباتات المتشابكة الجافة المغطاة بالاشواك تجعل التنقل شبه مستحيل حتى أثناء النهار، هذا بالإضافة إلى الجداول التي ضُرب نطاق من الحراسة عليها. لايمكن أن يفهم المرء كيف يستطيع المقاتلون تحمل هذا الحصار. عطش وجوع ورعب. قال لنا أحد الضباط «إن هذا الرجل لن يخرج حياً». (أحد المراسلين الحربيين).

هكذا وصلنا إلى الثامن من تشرين الأول/أكتوبر. حتى مساء امس

نكون قد قضينا ١١ شهراً في حرب الأنصار.. كانت ليلة باردة جداً وكان السير بطيئاً جداً، لأنه كان يصعب على «تشينو» أن يمشي ليلاً. وكانت رجل «مورو تؤلمه، وكان القائد، بلا دواء لعلاج ربوه، يعاني كثيراً: توقفنا عند الثانية صباحاً لنستريح، ثم استأنفنا عند الساعة الرابعة. كنا ١٧ رجلاً نتقدم وسط الظلمة في وادي نهر «جورو» يخيم علينا الصمت. عندما أشرقت الشمس أخذ القائد يدرس الوضع، ويبحث عن هضبة للوصول إلى نهر «لورنسو». ولكن الجبال كانت عارية تقريباً والخروج يكاد يكون مستحيلاً، ولذلك فإن القائد قرر أن يرسل ثلاث دوريات استطلاع: واحدة نحو اليمين، وواحدة نحو الأمام، وأخرى نحو اليسار. ولكن سرعان ماعاد الجميع ليؤكدوا أن جميع المنافذ مغلقة. ولم يكن بوسعنا أن نعود القهقري لأن الطريق الذي سلكناه ليلاً كان يستحيل سلوكه نهاراً. فقرر القائد عندئذ أن نختبيء في فجوة جانبية وأن نؤخر بدء المعركة ماستطعنا إلى ذلك سبيلاً. فلو أنهم بدأوا بعد الثالثة، كما قال، لكان بوسعنا المقاومة حتى غروب الشمس، وحينئذ تتاح لنا فرصة اخرى للهرب.

> عند الساعة الثامنة صباحاً، هرع أحد أبناء البلد، ويدعى فيكتور، إلى موقع «لاهيغيرا» العسكري ليقول إن رجالاً مجهولين كانوا يتمركزون بين الأجمات قريباً من كوخه. أعطى الضابط نقوداً للمخبر وبدأ يبث الأخبار إلى وحدات الحراسة المنتشرة في المنطقة. أصدر الرائد «ميغيل أجورروا»، قائد فرقتي الحرس اللتين تعملان في المنطقة أوامر باللاسلكي لفرض حصار على منافذ وديان «سان انطونيو» و «جاغوي» و «جورو». ذهب النقيب «برادو» مع فصيلة إلى وادي نهر «جورو» واشتبك رجاله مع المقاتلين حوالي الظهر. جرح جنديان في أول اشتباك، واستمر تبادل إطلاق النار على نحو غزير حوالي ثلاث

ساعات، وأخذ جنود الحرس يعززون مواقعهم ببطء حتى وصلوا إلى بعد ٧٠ متراً من العدو. عند الساعة ١٥,٣٠ فقد المقاتلون أول ضحية مرئية (من الجانب العسكري).

كان بدء المعركة ظهراً مصيبة، ذلك أن أمل «تشي» كما قلت لك، كان أن تتأخر حتى الساعة الثالثة. أخذنا نسمع الرشاشات التي كانت تطلق - لحسن الحظ - على الطريق الذي كنا قد سلكناه أثناء الليل. كان واضحاً أنهم كانوا يعتبرون أننا مازلنا متأخرين. وذلك وفّر لنا مزيداً من الوقت. وزع القائد القوة إلى ثلاث مجموعات وحدد مكاناً للقائنا عند حلول الظلام. ولكن حين وصلت مجموعتي لم نعثر على الآخرين. نظر بعضنا إلى البعض الآخر، ثم سقطنا على الأرض من شدة التعب والكآبة، يحدونا برغم ذلك، أمل بأن يكون «تشي» ومجموعته، الذين استحال عليهم الوصول إلى المكان الذي كنا فيه، قد اختاروا محاولة الوصول إلى «سان لورنسو».

صمت «باليتو» أمام «روسيلو» فكان يشعر بصدره وهو مستلق في سريره على ظهره يعصره الربو. وفكر كمن يفاجأ وهو يرتكب أبأس عمل قام به في حياته «ربوي أنا». وبعد صمت «باليتو» الطويل المريع، سمعه يقول بصوت يكاد لايفهم: «لم نكن نعلم أن المجموعة كلها سقطت في الكمين، وأن القائد «مارسيلو» لم يتمكن من سماع الكلمة الأخيرة جيداً. وبعدئذ لم يتكلما تلك الليلة.

انتشرنا لكي نطوق المقاتلين، ثم انقضضنا عليهم في الحال. كان أول من رأينا من العصاة هو الذي عرفنا فيما بعد أنه «ويلي» وبعده آخر عرفنا فيما بعد أنه «تشي». أطلقنا النار فوراً فجرحنا «تشي» برشقة مدفع رشاش. حاول «ويلي» والآخرون عندئذ أن يجروه

والمعركة مستمرة. الرشقة الثانية أصابت خوذة القائد وجرحته في صدره بينما كان رفاقه يغطونه. تمكن «ويلي» من أن يقود رئيسه إلى ربوة حيث كان يوجد هناك أربعة جنود من الحرس. وصل «ويلي» وجسم رئيسه على ظهره خائر القوى من شدة التعب. وحين وقف لكي يستعيد قوته ويرعى «غيفارا» قليلاً، أمره الجنود بالاستسلام، وقبل أن يتمكن من إطلاق النار، اطلقوا هم أولاً. وبعد ذلك وصلوا إليهما. كان «تشي» مصاباً إصابة بالغة والربو يمنعه من التنفس.

فقمنا ببث الرسالة باللاسلكي مرموزة: «ألو، بابا في قبضتنا» (تقرير النقيب برادو) نقل غيفارا بعباءةٍ حملها أربعة جنود إلى «لاهيغيرا» التي تبعد عدة كليومترات عن مكان القبض عليه. هناك سلم النقيب «برادو» السجناء إلى العقيد «سيليس» الذي كان قائد الموقع. أحصي ماكان في جعبة «غيفارا»: سجل مذكرات، سجل رمز، سجل ملاحظات مع رسائل مرموزة، كتاب شعر بخط «تشي»، ساعة وثلاثة، أو أربعة كتب أخرى (من تقرير الجيش البوليفي).

كان العقيد «سيليس» هو الذي كلم الـ «تشي». وكنا نحن الجنود الجرحى وغيفارا في عنبر، ولكنه هو، كان في الطرف الآخر ولم نفهم تماماً ماقالاه، وإن كنّا سمعنا العقيد بوضوح لأنه كان يصرخ. كان يتحدث عن أمريكا. بقي العقيد زمناً طويلاً مع «غيفارا» ، ربما ساعة أو أكثر. كانا يتناقشان حول أمر يود العقيد أن يعرفه، ولكن «تشي» يأبى أن يقول، حتى أن «غيفارا» تناول في لحظة العقيد بضربة من يمناه. عندئذ نهض العقيد وذهب. كان الرائد «غوسمان» يود نقل «غيفارا»

بطائرة مروحية إلى مستشفى، ولكن العقيد عارض، ونقلنا نحن لوحدنا (رواية الجندي «خيمنس»).

... ما أن غادرت الطائرة المروحية بالجنود الجرحى والموتى حتى أخذت آلام المقاتل تشتد أكثر فأكثر. تمتم بشيء ما.. قربت أذني من فمه وفهمت أنه يقول «أشعر بأنني في حالة بالغة السوء، أرجوك أن تفعل شيئاً مايخفف من ألامي». لم أكن أعرف ماذا أفعل، ولكنه هو الذي دلني بأية حركة يجب أن أساعده بها. «هناك في الصدر أرجوك»، هذا ماقاله لي. ثم أمضى الليل بكامله يتألم. (رواية الملازم المسؤول عن السجين).

نقل الـ «تشي» مع السجناء الاخرين إلى مدرسة في «لاهيغيرا»، وقضى في إحدى قاعات التدريس تلك الليلة كلها (تقرير أحد الصحفيين).

.... هاكِ إياي، أيتها الأماكن المهجورة، وحيداً لاأنسى.....

يوم الأحد التاسع من تشرين الأول/ اكتوبر، عند الساعة الثانية مساء، تلقى الرئيس «بارّينتوس» والجنرال «أوفاندو» أنباء القاء القبض على «غيفارا». عقد اجتماع لكبار القادة. كان الجنرال «توريس» والجنرال «فاسكيس» هما اللذان قدما اقتراح إعدامه. لم يعارض أحد بأن صمتوا جميعاً. بعد قليل بعث الجنرال «اوفاندو» إلى «فاجي غراندي» الأمر التالي: «حيوا بابا....» ولقد تلقى الأمر في «لاهيغيرا»: العقيد «ميغيل أجورو» فنقله إلى النقيب «بيرس» الذي نقله بدوره إلى ضابط الصف «ماريو تيران» والرقيب «هوانكا». حمل القاتلان بندقيتهما، وكان المقاتل «ويلي» موثقاً في المكان الذي سجن فيه الـ «تشي». عندما وصل «تيران»، شتمه «ويلي» فأطلق الأول الرصاص

على رأسه، كما أطلق «هوانكا» الرصاص على رأس «ريناغا» الذي كان مسجوناً في القاعة المجاورة. دلوا «ماريوتيران» على المكان، لكي يقتل القائد «غيفارا»، وما أن خرج من القاعة التي قتل فيها «ويلي» حتى قرر مذعوراً أن يستبدل سلاحه بسلاح أشد فعالية. ذهب حيث كان النقيب «بيريس» ليطلب منه بندقية (أم - ٢) التي تطلق رشقات أوتوماتيكياً. كان «تيران» رجلاً قصير القامة نحيلاً (رواية انطونيو ارغيداس - وزير الحكومة السابق - التي ادلى بها لـ «برنسا لاتينا».

منتصب وجاهز للموت:

انظروا إلي، أيها التعساء المتباهون، مغدوراً إلى الأبد أيتها الأيام والسنون والغيوم ماذا ستفعلين بي...

عندما وصلت إلى قاعة التدريس، وقف الـ «تشي» وقال لي:

- لقد أتيت لتقتلني.

- شعرت بارتباك، فاطرقت ولم أجب.

سألني:

- ماذا قال الآخرون.

فأجبته لاشيء.

لم أجروء على إطلاق النار، رأيت في تلك اللحظة «تشي» كبيراً جداً وهائلاً. كانت عيناه تلمعان بشدة. شعرت أنه انقض علي وجعلني أصاب بالدوار.

قال لي:

ـ قف بجد، وصوب جيداً.

قل لنا أين اختبأت، أيه... ياأيها الموت فلم يستطيع أن يراك أحد.

مستحيل، وصامت.

> عندئذ، تراجعت خطوة نحو الوراء باتجاه الباب وأغمضت عيني واطلقت أول رشقة، فسقط «تشي» ورجلاه ممزقتان، على الأرض، واختلج بدأ ينزف دماً غزيراً. فاستعدت شجاعتي وأطلقت الرشقة الثانية التي أصابته في ساعده، وكتفه، ثم في القلب (رواية صف الضابط «تيران» لـ «أرغيداس»).
>
> جُرّ جثمان الـ «تشي» على الرغم من أنه كان مايزال ساخناً إلى نقالة قرب المكان الذي ستنقله منه طائرة مروحية، وبقيت جدران وأرض قاعة الدرس ملطخة بالدم. ولم يرض أحد من الجنود أن ينظفها. فعل ذلك راهب الماني، حيث قام صامتاً بغسل البقع، وجمع في منديل، الرصاصات التي اخترقت جسم «غيفارا».
>
> ما أن وصلت المروحية حتى ربطت النقالة في إحدى قواعدها، كان جثمانه قد لف بقطعة من القماش وهو مايزال مرتدياً سترة المقاتل. اقترب كوبي يدعى «ايدي غونسالس» كان يتولى أثناء حكم «باتيستا» إدارة ماخور من جثمان القائد الميت ليتاول وجهه الجامد بضربة.
>
> حين وصلت المروحية إلى مقرها، وضع الجثمان على لوح خشبي ورأسه متدل نحو الخلف والأسفل، وعيناه مفتوحتان عرياناً تقريباً، وممدداً في حوض مِغْسل تغمره

أضواء المصوريـن.

كانت يداه محطمتين بفأس كي لاتعرف هُويته. لكن الجسم كان مقطعاً أيضاً في نواح أخرى. استولى العقيد «اناجا» على بندقيته، والجنرال «اوفاندو» على الساعة. ونزع أحد الجنود الذين شاركوا في العمليات حذاءه الذي كان أحد رفاق «غيفارا» قد صنعه له في الجبل. ولكنه لما وجده بالياً من كثر الاستعمال والرطوبة، طوح به بعيداً. (من الأخبار الصحفية).

ستكون هنالك أزهار تتذكرك، وسماء، وأمطار كهذه، وستعيش بلا زيف، كذلك الذي حدث.

نم، متحرراً من الخصومة والعنفوان كله ومن الحزن.

لا ياسيلفيا، رسائلك لاتزعجني

ولكن لايتوفر لدي لا الوقت ولا الرغبة للقاء «أراوخو». إبدئي بقراءة «هيغل» وسترين أن هيغل «ماركسي» وآخر «وجودي» وعندئذ ستدركين لماذا يمكن أن تبدأ وجودية اليوم حواراً مثمراً، ومتكاملاً مع الماركسية، إنما يشترط أن تدعا جانباً التهديدات والشتائم.

وأما «الغيبية» فهي اتهام تقليدي آخر.

إن «أراوخو» يبحث عما يصمني فيه، مثل صيادي الساحرات الذين يحاولون العثور على علامة الشيطان الفارقة بين الثنايا الخفية. ولكن أقول لك إنني أستخدم تلك الكلمة لكي أشير إلى بعض مشكلات الطبيعة الإنسانية الأخيرة. إنه لمن المفهوم أن الخوف من المطلق، وإرادة التملك، والميل إلى التمرد، والكآبة من الوحدة والموت، هي مشكلات وليس مقولات بورجوازية عفنة، بل يمكن أن تطال أيضاً (وهي تطال) سكان

الاتحاد السوفييتي المؤمنين.

إن كلية الإنسان العيانية تتضمن هذه القضايا، ولايمكن بلوغها إلا بالفن، وبالمناسبة، فإن ذلك لايقوله، مصابون بالجذام من أمثالي: يؤكده ماركسيون كبار. كلّ الفلاسفة حين أرادوا تلمّس المطلق، تعيّن عليهم اللجوء إلى شكّل من أشكال الأسطورة أو الشعر. أما الوجوديون فحدثي ولا حرج. ولكن حتى أولئك الفلاسفة التقليديون: فكري في أساطير «أفلاطون» وستذكرين «هيغل» وهو يلجأ إلى أساطير «دون جوان» أو «فاوست» لكي يجعل مأساة الوعي البائس مفهومة.

إنني متعب يا «سيلفيا» الساعة تشير إلى الثانية صباحاً وأشعر بأنني لست على مايرام، لاأستطيع أن أوضح لك لماذا. إن تمكنت من عمل الرواية من هذا الصخب، فعندئذ تستطيعين إدراك شيء من واقعي، من كلّ واقعي: وليس ماترينه من المناقشات الفلسفية.

يدخل خجلاً

إلى مدرج القنال ١٣ الكبير، فينادي «بيبو[١]»، والميكروفون في يسراه وذراعه ممدودة بشدة نحوه. ينطق اسمه ويقول:

تصفيق حاد، قوي قوي جدّاً.

ويصفق الجميع ويصرخون، ثم يدعوه للجلوس في مقعد وثير، ويجلس القرفصاء بجانبه، ويخضعه لاستجواب صعب ، ضرب من امتحان تحليل نفسي لطلاب متخلفين عقلياً حيث يذكر وقائع ويتعين على ساباتو أن يجيب:

---

(١) بيبو: شخصية هزلية من شخصيات التلفزيون الارجنتيني (المترجم)

رجل يصعد سلماً.

مظلة

محفظة نسائية ضخمة

قطار يصعد ربوة بجهد هائل

صنبور يصب حليباً.

وكلما أجاب مريضه على نحو صحيح، يطالب «بيبو» بتصفيق حاد ويضاعف الجائزة، لأن البرنامج الآن ليس سوى أسئلة وأجوبة. يتصبب ساباتو عرقاً باستمرار، لابسبب الحر الشديد الناجم عن عاكسات الضوء وحسب، بل لأنه عريان إلا من سرواله الداخلي، أمام مئات من الأشخاص الذين يراقبونه باهتمام كذلك. لايستطيع تنفس الصعداء حتى عندما تبدأ فترةُ الإعلانات، لأنه يبقى معروضاً، في حين يشرح للجمهور بصوت عال أن (أورورا تسبق المستقبل) وأنه يجب أن لايشك بأن تعامله مع (مصرف غاليسيا) يعود عليه بالنفع، وأنه لاينبغي شرب نبيذ إن لم يكن معتّقاً على أيدي خبراء، وأنه لمن الغباء تفويت عريس أو وظيفة بسبب رائحة كريهة مصدرها الفم. وطالما وجد شيء مثل الـ (بوكول) الذي لايشتت الجراثيم وحسب، وإنما يقضي عليها هكذا... «ضربةٌ من قبضة هائلة على جرثوم» .... وهكذا «ضربة آخرى على جرثوم آخر»، إنه يجب أن تشتري من (فرافيغا) لأن (فرافيغا) تعطيك «الخمر والذهب» وأن (اسلابون دي لوخو) هي بكّل بساطة الكلمة الفصل، وأن (سوبر كومبكتا) يستطيع حفظ أي شيء «يخرج فيل من البراد». وأن تلك كانت هي. (تتصب عرقاً، تضطرب، ليس لديها وقت لترى المسرحية ولا الذهاب إلى الحفلة) حتى تبنت «فيرو» ولم يكن بوسعها أن تحضر حفلات بسبب لامبرر له وهو عدم استعمال «اودورنو»، (يبين

من قرب كيف أن العرق الراشح من إبطها يجعل رفاقها يشيحون بوجوههم عنها). وان مشكلات الزكام قد حلت نهائياً بأقراص «روس» (اسرة مرحة صباحاً تغمرها السعادة) وذلك بسبب «والدروف» الذي يقدم ٧٤ متراً من النعومة المعطرة، وتنتهي الفترة بظهور قزمين يرتديان ملابس أطفال في متجر لبيع الأدوات المنزلية ويطلبان بصخب «دريان»..! وها هما الآن قد أتيا بها إلى أمهما. ساباتو يشعر بانزعاج شديد لأنه يفكر بأن عاكسات الضوء لاتتسامح أبداً، في حين تدخل «ليبرتاد ليبلان»[1] ويطالب «بيبو» الجمهور بالتصفيق الحاد. ثم يصيح بأن الأمر كما كانت قد أعلنته آلات تصوير القناة ١٣ في برامج السبت بأنه سيعقد قران «ساباتو» على النجمة اللامعة، في حين يقدم «بيبو» يده إلى «ساباتو» أمام آلات التصوير، وتصفيق الجمهور الحاد والمتاصل. يتبع ذلك فترة إعلانات طويلة يروج فيها للمنافع الكبرى لأنواع من «الشامبو» التي تفيد الجلد، ولمزيلات عرق يدوم تأثيرها طيلة أربع وعشرين ساعة في اليوم، ولخمور مزّة وحلوة، وأنواع صابون تستخدمها نجوم الفن، ومعجون أسنان، وبرادات وتلفزيونات وورق صحي شديد المقاومة والامتصاص، أكثر من أي نوع آخر، ولفائف أطول من أي نوع عرف من قبل، وغسالات آلية وسيارات. بعد ذلك يطلب «بيبو» وسط التصفيق دخول «خورخي لويس بورخس» الذي كان يرتدي «السموكن» لكي يكون عرّاب الزواج. عكازه الأبيض يثير مشاعر التعاطف الذي يغذيها كلب كبير مروض يتخذه دليلاً له، وكذلك حديث «بيبومانسيرا» الذي يركز على مايحمله من معاني التضحية، حضور رجل مثل «بورخس» برنامج تلفزيون. قالت عجوز سمينة وآلات التصوير مركزة عليها، ياللأعمى المسكين..! ولكن «بورخس» يحرك يده بإشارة تنم عن الخجل، وكما لو أنه يقول كفى مبالغة. و «ليبرتاد لابلان»

---

(١) ليبرتاد ليبلان: ممثلة ارجنتينية تشتهر بعرض مفاتن جسدها (المترجم)

بلباسها الأسود المفتوح حتى السرة بجانب «ساباتو» العريان إلاّ من سرواله الداخلي، لكنه واقف الآن ويده بيد النجمة، ينظر نظرة عطف إلى «بورخس» الذي يتقدم بخطوات مضطربة نحو وسط المسرح. يقول «بيبو» عندئذ، «السيد المدير جهز آلات التصوير». وكانت تلك الكلمات إشارة لكي تبدأ فترة إعلانات أخرى، في حين يفكر «ساباتو»: ألهذا الحد، هو وأنا شخصان مشهوران». ويشعر بأن دموعاً تتساقط من عينيه.

فتح «س» الكتاب ووجد علامته.

خطه الصغير إنما المريع على هامش كتاب السحر يحذرّه: «ثقب الجدار...!».

يجب إطلاق سراحه، وإن كان سيثب إلى وجهها، مثل حشرة سوداء مجنونة، من بطن تلك المومياء. ولكن لماذا إطلاق سراحه؟ لم يكن يعرف. أكان يود أن يهدىء من روع «س» ؟ كان مثل إله مريع يتعين تقديم الأضاحي له.

لم يكن يهدأ، كان يترصده من الظلمات دائماً. حاول أن ينساه ولكنه كان يعرف أنه هناك مزيج من شاعر وفيلسوف وإرهابي. هذه المعارف المختلطة، أي معنى لها؟..فوضوي بورجوازي أو رجعي، كم يكره هذه الحضارة، حضارة تخترع الاسبرين «لأنها ليست أهلاً لتحمل آلام صداع». لم يكن يترك له مجالاً للراحة، لم يكن يستطيع فتح كتاب دون أن يجد نفسه امام خطه البغيض. كان في أحد الأيام يحنّ إلى أيام الرياضيات ففتح كتاب «وايل» عن النسبية، فوجد على هامش إحدى نظرياته الاساسية، تعليقه: حمقى.! لم تكن تستهويه أيضاً السياسة ولا الثورة الاجتماعية التي كان يعتبرها دون الواقع، واقع من الدرجة

الثانية ذلك الذي كان يقوم بأود الصحافة. «الواقع»!... كان يكتب بين معترضتين ويضع بسخرية إشارة التعجب.. لاتشكل المظلات ولا حرب الطبقات ولا حرفة البناء، حتى ولا سلسلة جبال «لوس اندس» واقعاً. كل ذلك ليس سوى أشكال من خيالات وأوهام هذّائين بائسين. الواقع الوحيد هو العلاقة بين الإنسان وآلهته، بين الإنسان وشياطينه، الحقيقي هو دائماً رمزّي، وواقعية الشعر هي الحقيقة الوحيدة وإن كانت غامضة، أو لأنها كذلك: العلاقات بين البشر والآلهة كانت دائماً غامضة. النثر لاينفع إلا لصنع دليل هاتف، او نشرة حول تشغيل غسالة، أو محضر أجتماع مجلس إدارة.

إن هذا العالم قد انهار، والأقزام تراكضوا مذعورين بين فئران واساتذة يتعثرون بأوان بلاستيكية مملوءة بالقمامة.

هنالك كانت

بمعطفها الأحمر الرث، ورأسها الممدود نحو الأمام يعلو كوب قهوتها، تقترب من واقع موجود دائماً أبعد قليلاً من مدى نظرها. بصرها الحسير يثير شجونه. ونظارتاها السميكتان، ومعطفها الوضيع كذلك.

قال لها من غير قصد:

ـ يمكنك أن ترسمي شيئاً.

أطرقت برأسها.

شربا القهوة بصمت. ثم قال لها: إنهما سيتمشيان.

ـ ولكن الجوّ بارد في الخارج.

أمسك بذراعها وخرج دون أن يقول شيئاً.

كان الخريف قد بدأ، خريف رذاذ ورياح. عبرا إلى حديقة «بلغرانو» وسارا بين الأشجار إلى أن وصلا حتى أحد المقاعد الخشبية تحت شجرة وارفة. كانت مناضد الشطرنج وحيدة.

قالت هي

ـ تحب الحدائق

ـ نعم، حين كنت فتى، كنت آتي لاقرأ هنا، ولكن هيا، الطقس بارد. سارا تحت شجيرات الموز الكبيرة ذات الأوراق المحمرة الذابلة. انعطفا في شارع «اتشيفيريا» باتجاه شارع «كابيلدو».

كان هو يراقب كل شيء كما لو أنه سيشتريه. وكانت «سيلفيا» تراه صامتاً كئيباً، لكنها سألته في نهاية المطاف إلى أين كانا ذاهبين.

لسنا ذاهبين إلى أيّ مكان.

لكن لم تبدُ لها كلماته حقيقية.

تمتم فجأة.

ـ الرواية كشعر غيبي

ـ ماذا؟

ـ لاشيء، لاشيء، ولكنه كان في أعماقه يردد: الكاتب كنقطة تقاطع بين الواقع اليومي والأوهام، كخط حدود فاصل بين النور والظلمات. وهنالك، «شنايدر» هناك كان، أبواب العالم المحرم.

قالت:

ـ كنيسة «بلغرانو».

نعم كنيسة «بلغرانو».

نظر إليها «ساباتو» مرة أخرى بريبة قدسية وفكر بدهاليز أقبيتها.

ـ أكنت تعرفين هذا المقهى من قبل؟

دخلا لتناول كوب من القهوة في «ابسيلون» طلباً للدفء. بعدئذ عاد ليأخذها من ذراعها ليعبرا شارع «خورامنتو».

قال وهو يحث خطاه.

ـ لنعبر هذا الجحيم بسرعة.

عبرا شارع «كابيلدو»، وتابعا السير في «خورامنتو» حتى بداية الرصيف العتيق، بحجارة كبيرة، ولغز «بلغرانو» القديم. توقف في منعطف شارع «فيدال»، ينظر إلى الدارة القديمة، بقايا منتجع. تفحصه كأنه يود أن يمتلكها. وكانت «سيلفيا» قد لاحظت ذلك. وقالت له، فابتسم:

ـ شيء من هذا القبيل.

ـ قرأت مرة أنك تتجول بحثاً عن دار لرواية. أذلك صحيح؟ وهل هو ضروري؟

ـ ضحك، ولكنه ترك السؤال بلا جواب، كما لو أنه مخرج سينمائي، ثم من أجل أي رواية؟ كان يبدو أنها شخصيات تبحث عن كاتب، بيوت تبحث عن شخصيات تطرق أبوابها.

كانت الدار الكائنة في منعطف شارع «كرامر» قد تحولت إلى مطعم باسكي «الموضة».

قال لها بجد ساخر.

- أقسمي أن لاتأكلي في مطعم كهذا أبداً.

- ولكن هل تكتب رواية حقاً؟

- رواية... ؟ نعم... لا.... لست أدري ماأقول.. نعم، تثير هواجسي بعض الأشياء، ولكن كلّ شيء يصبح هيناً جداً. أعاني كثيراً من هذه القصة، ثم...

أضاف بعد خطوات يقول:

- أتدرين ماذا جرى للفيزياء في مطلع القرن؟ أخذ كلّ شيء يوضع موضع الشك، أعني الأسس، كان الأمر كما لو أن البناء يهتزّ ويتعين أن تُفحص الأسس، وبدأ العمل، لا بالفيزياء، وإنما بالتفكير في الفيزياء.

استند إلى الجدار، وبقي برهة ينظر إلى المطعم الباسكي.

- ويحدث للرواية أمر مشابه، يجب تفحص الأسس، ليس من قبيل المصادفة، لأنها ولدت مع هذه الحضارة الغربية وتتبع مسارها كلّه، حتى الوصول إلى لحظة الأنهيار هذه، هنالك أزمة الرواية، أو رواية الازمة؟ الأمران معاً، يُتفحص جوهرها، ورسالتها وقيمتها. ولكن كلّ ذلك يتم من الخارج. كان هنالك محاولات للقيام بالفحص من الداخل، ولكن يجب الذهاب بعيداً في العمق. رواية يكون فيها [illegible]ائي ذاته جزءاً من اللعبة.

- يبدو لي أنني قرأت شيئاً من هذا القبيل، أليس هنالك روائي تطابق؟

- نعم ولكنني لاأتحدث عن ذلك، لاأتحدث عن كاتب ضمن الرواية، أتحدث عن الإمكانية القصوى التي تجعل كاتب الرواية هو الذي يكون

في الداخل، ولكن ليس كمراقب، أو كراو، أو شاهد.

ـ كيف إذن؟

ـ كشخصية من الشخصيات، مثل الشخصيات الأخرى التي هي، مع ذلك، منبثقة، من ذاته. كشخص مصاب بمس يتعايش مع آرائه ذاتها، ولكن ليس بروح بهلوان، ليرحمني الله، وإنما ليرى إن كنا على هذا النحو يمكن أن نتغلغل أكثر في هذا اللغز الكبير.

ظلّ صامتاً، بينما كان يسير. لا، لا، ذلك هو الطريق. الدخول في الظلمات ذاتها.

كأنما كان «على رأس لسانه» شيء ما محرم غامض، أمر خفي، قوة قدسية و قامعة تمنعه من الرؤية بوضوح. وكان يشعر به كأن نبوءة هائلة ومستحيلة في الوقت ذاته. ولكن لعل ذلك السر يتضح له كلما تقدم، وربما تمكّن في نهاية المطاف من رؤيته في الضوء المريع لشمس ليله، حين تصل تلك الرحلة إلى منتهاها، تقوده خيالات ذاتها نحو القارة التي لاشيء سواها يمكن أن يقوده إليها. وهكذا كان يشعر فجأة، فيما هو معصوب العينين بأنها تقوده إلى شفا جحيم، في أعماقه مفتاح السر الذي كان يعذبه.

كانا قد انعطفا في شارع «غرامر» باتجاه شارع «مندوسا» الذي سارا فيه ببطء، حتى وصلا معبر القطار. كان ذلك المنعطف يبدو في ضوء الغسق بالغ الكآبة: قطع الأرض المهجورة، الأشجار، الفانوس الذي تعبث به رياح الجنوب الشرقي، كومة التراب. كان ضرب من البؤس يخيم على ذلك المكان. نظر ساباتو مذعوراً. جلس على حافة الرصيف وبدا كأنه يقوم بإحصاء يستدعي الأسف، وعندما مرّ القطار الكهربائي بسرعة وصخب، مزق الكآبة، مثلما يمزق الجنازة تبادل إطلاق نار.

كانت تمطر وكان البرد يشتدّ أكثر فأكثر.

قال (س) فجأة بصوت خافت كما لو أنه يحدث نفسه:

- مكان رائع ليقوم فيه فتى بالانتحار.

نظرت إليه «سيلفيا» مستغربة.

فأضاف بابتسامة حزينة.

- لاتقلقي أيتها البلهاء، فتى رواية، أحد اولئك الذين يبحثون عن المطلق، ولايجدون سوى قمامة.

تمتمت هي بشيء ما.

- ماذا؟

قالت له الفتاة، إن فكرة الانتحار كانت تطاردك، كنت تفكر في «كاستيل» و «مارتين».

نعم، حقاً.

ثم أضاف.

- ولكنهما في النهاية لم ينتحرا.

- لماذا؟

- لست أدري. إن الروائي لايعرف مبررات شخصياته. لقد كان هدفي أن أحمل «مارتين» على الانتحار، وها إنك ترين.

- ألانك أنت في أعماقك لم توافق؟

بدا أنه يوافقها الرأي، إنما كان مرتابا.

- وتلك الشخصية...

بدأت «سيلفيا» العبارة، ولكنها ندمت.

- كيف؟

- لاشيء.

- ولكن، تكلمي.

- ذلك الفتى، أعني هذا المكان. أهو شيء تفكر أن تكتبه؟

لم يجب في الحال، تناول بضع حصوات ورتبها في الأرض على شكل حرف «ر».

- لست أدري. في هذا المستوى، لست أدري أي شيء تقريباً. نعم، ربما أكتب عن فتى مثل ذاك، أحد يأتي يوماً ما إلى هنا لينتحر. ولكن طبعاً، لعله.. ولم يتمم الجملة. نهض وقال: «هيا بنا» وذهب بها إلى محطة قطار «بلغرانو». قال لها

- أنا، يجب أن أبقى.

- سأعود لأراك؟

- لست أدري يا «سيلفيا» لست على مايرام. أعذريني.

تحذير

كان في سبيله إلى أن يبدأ، فقد وضع ورقة في الآلة الطابعة، ولكن نظراته أخذت تطوف في الغرفة على غير هدى. ثم عاد إلى الطابعة آلياً.

وبدا أنه حزم أمره فكتب: «يجب ألا ننسى نصائح «فرناندو». اتوه بالبريد في تلك اللحظة. قلب المغلفات، حتى قرر أن يفتح واحداً كبيراً مصدره الولايات المتحدة. كان يحتوي على دراسة «ليليا ستروت» عن «الشرّ في ابطال وقبور». المقطع مأخوذ من العهد القديم. سفر الأمثال ٢٢/٣ ، كان يقول: «لاتفتش عما ترى أنه جميل في عينيك، ولاتبحث عما هو أبعد من قدرتك». مكث يستغرق في التفكير ثم سحب الورقة من الطابعة.

تحقيق صحفي.

- هل أنت راض عما كتبته؟

- لست وغداً إلى هذا الحد.

- من هو أرنستو ساباتو؟

- كانت كتبي محاولة للجواب على هذا السؤال. أنا لاأود أن أرغمك على قراءتها، ولكنك إن أردت معرفة الجواب، فعندئذ يتعين عليك ان تفعل.

- هل يمكن أن تخبرنا ماالذي تكتبه في هذه الأيام؟

- رواية.

- هل اخترت عنوانها.

- أعرف العنوان بصورة عامة في النهاية، عندما أنتهي من كتابة الرواية، مازالت حالياً متردداً ، يمكن أن يكون «ملاك الظلمات» أو ربما «أبدّون المدمر».

ـ عجباً، إنه عنوان غامض، أليس كذلك؟

ـ نعم.

ـ يسرني أن يكون بوسعك أن تجيب عن بعض الاسئلة: مارأيك بالطفرة الأمريكية اللاتينية؟ اتعتقد أن الكاتب يجب أن يكون ملتزماً؟ ماالنصائح التي تسديها لكاتب مبتدىء؟ في أي أوقات تكتب؟ أتفضل الأيام المشمسة أما الغائمة؟ هل تتمثل شخصيات روايتك؟ هل تكتب خبراتك أم تبتدع؟ مارأيك في «بورخس»؟ هل يجب أن يتمتع الفنان بحرية تامة؟ هل مؤتمرات الكاتب مفيدة؟ كيف تُعرِّف أسلوبك؟ مارأيك بالطليعة؟

ـ أنظر ياصديقي، لندع الترهات جانباً. ولنقل الحقيقة كلها مرّة واحدة، ولكن هكذا: الحقيقة كلها، وأعني لنتحدث عن كنائس ومواخير، عن آمال ومعسكرات أعتقال، فأنا، في أقل تقدير، لست مستعداً للهزل.

لانني سأموت.

ومن ينشد تخليداً يمكنه دوماً.

ترديد كلام الدهماء.

أما أنا فلا: أيامي معدودات (ولكن أي إنسان ياصديقي الصحافي، قل بربك، قل لي ويدك على قلبك، ليست أيامه معدودات...)

وأنا أبغي إجراء مراجعة.

لأرى من هذا كله

ماذا يبقى

(أشجار أو كتّاب عقود)

وأرى هل أن الآلهة، هي أسمى حقاً.

من ديدان

لابد سريعاً، أن تسمن من فضلاتي.

أنا لاأعلم، لاأعرف شيئاً (فلماذا أخدعك).

لا، لست دعياً ولا أبله

كي أعلن فوز الديدان

(فليق الأمر إذن إلحاد صبيان)

لك أعترف بأن الحجة تأسرني.

فالتابوت

وعربة المأتم

وطقوس الموت المضحكة

شواهد واضحة لحياة فانية.

ولكن، من أيها الصحفي، من يعلم.

لعل الآلهة لاتتنازل، لاتهبط جداً.

لاتساير الحطاط الدهماء

لتكون على نحو مضحك مفهومة.

ولكي تنتظرنا باستعراضات مشؤومة.

بعد أن يكون الخطاب الأخير قد ألقي.

ويكون جسمنا الوحيد.

قد فارق ذاته إلى الأبد

(ولكن، لاحظ، قد فارق حقيقة، وليس تلك المفارقات الناقصة، القلقة غير المفيدة، التي تقدمها لنا الحياة)

فانتظر الهجمة اللامعدودة.

للديدان.

وإذن، لنتكلم ، بلا وجل.

إنما، وبلا مزاعم أيضاً.

ببساطة

بشيء من روح دعابة

تداري شجون الأمر المنطقية

لنتحدث قليلاً عن كلّ شيء.

أعني:

عن تلك الآلهة الغامضة

عن هذي الديدان الواضحة

عن وجوه البشر المتقلبة.

لاأعرف شيئاً ذا بال عن هذه المعضلات الغريبة.

لكن ماأعرف، أعرفه حقاً.

ماهو إلا خبراتي

وليس حكايا كتب، مقروءة.

وبوسعي أن أتحدث عن حب أو عن جزع.

كما يتحدث قديس عن نشوته

أو ساحر مسرح (في جمع عائلي بين أناس ذوي ثقة)

عن حيلته

لاتنتظروا شيئاً آخر

لاتنتقدوني بعدئذ، لاتكونوا شريرين ياعجبا.

ولا مساكين

أحذركم: تواضعوا أكثر

فمصيركم أنتم أيضاً (ترالالا، ترالالا، ترالالا)

غذاء لتلك الديدان.

وإذا مااستثينا المجانين والآلهة الخفية (التي قد تكون موجودة)

فالجميع سيحسنون صنعاً لو أنهم استمعوا إليّ، إن لم يكن احتراماً فليكن، في أقل تقدير، تنازلاً.

- يسأل كثير من القراء ياسيد «ساباتو» كيف يمكن أن تكون قد كرست نفسك للعلوم الفيزيائية والرياضية.

- حسناً، ليس هنالك ماهو أسهل من شرح ذلك. أعتقد أنني رويت لك أنني هربت من الحركة الستالينية ١٩٣٩ في بروكسل وأنا لاأملك مالاً ولا وثائق شخصية. قدم لي «غيرمو» مساعدة. كان «تروتسكيا»،

وتمكنت أن آوى إلى عناية في مدرسة إعداد المعلمين العليا في شارع «أولم». أتذكر ذلك كما لو أنه اليوم، سرير كبير ولكن لم يكن هنالك تدفئة في تلك الأيام. كنت أدخل عبر النافذة عند الساعة العاشرة ليلاً، وأنام هناك في سرير البواب المزدوج. كان شخصاً عظيماً، لكن الشتاء كان فظيعاً، ولم يكن هنالك تدفئة، ولذلك كنّا نضع طبقة من أعداد صحيفة «لاومانيتي» فوقنا. وكنا كلما تحركنا قليلاً نسمع خشخشة الصحف (مازلت أسمعها). كنت في فوضى كبيرة، وكثيراً مافكرت وأنا أتمشى على ضفاف «السين» في أن أنتحر، سوف لن تصدق، ولكن كنت أشفق على المسكين «ليرمان» البواب «الألزاسي» الذي أعطاني بضعة فرنكات لآكل شطيرة من تلك الشطائر الكبيرة، مع كوب من القهوة بالحليب. وهكذا تحملت إلى حد لم يعد يطاق، وبكثير من الحذر سرقت من مكتبة «جيلبرت» كتاب «بوريل» في التحليل الرياضي. وعندما بدأت أطالعه في إحدى المقاهي، وأنا أشرب قهوة ساخنة، والبرد يشتد في الخارج، أخذت أفكر في أولئك الذين يقولون:

إن هذا السوق الذي نعيش فيه

مكون من مادة واحدة وحيدة

تتحول إلى أشجار، ومجرمين، وجبال.

يحاول محاكاة متحف متحجر

من أفكار

يؤكدون

(رحالة قدماء، دارسو أهرامات، أناس التقوه في أحلامهم، بعض معلمي أسرار الدين) إنه مجموعة مذهلة من أشياء جامدة وساكنة: أشجار خالدة، نمور متحجرة، ومثلثات

وسطوح متوازية

وكذلك إنسان كامل

من بلورات خلود كَّون

ويحاول بغباء أن يشبه

(رسم طفل)

أكداس من جزئيات كونية

كانت ملحاً، وماء، وحماً

ناراً، وغيمة

روث حصان، وثورا

أحشاء متفسخة في ساحات معارك

وبهذا الخليط النجس (يستطرد أولئك الرحالة قائلين، وإن كانوا يغمزون الآن بأطراف أعينهم سخرية)

من قمامة وبقايا أطعمة،

بتطهيره بالماء وبالشمس،

ورعايته وصيانته

من القدرات المنحطة والمستهترة

لقوى الأرض الهائلة

(البرق ، الإعصار، البحر الهائج، الجذام)

يقوم الإنسان البلوريّ بمحاولة محاكاة مضحكة.

لكنـه، وإن نمـا، وإن أزدهـر(أمـورك تسيــر على مــايــرام
أليس كذلك؟)

فسرعان مايـدأ يتـردد

يبذل جهـوداً يائسة

ثم يموت

ويعـود ليصبـح طينـاً، وروث بقـرة.

إن لم يتمكن من أن يبلغ، كـرامـة النـار

ـ أتود أن تضيف شيئاً إلى هذا التحقيق ياسيد «ساباتو»؟

مسرحية، أو قطعة موسيقية مفضلة؟ شيئاً حول التزام الكاتب؟

ـ لا ياسيد، شكراً.

حتى التقيا في نهاية المطاف،

كانا يسيران في دروب «بلغرانو» صامتين. وكعادته دائماً عندما يكون مع «مارسيلو» كان يشعر بأنه مرتبك، ومضطرب لايعرف ماذا يقول له. كان يبدو أنه يحاول أن يبرّيء نفسه كأنما هو أمام محكمة تتسم بطيبة بالغة ولكنها منزهة لاترتشي. كان أحدهم قد عرّف كرسي الاعتراف بأنه محكمة غريبة تبريء من تتهم. كان يشعر أمامه بأنه عريان، وكان يتهم نفسه بلا رحمة وعلى الرغم من أنه كان يستبعد تبرئته فقد كان دائماً يشعر بعدم الراحة. ذلك أن نفسه ربما كانت بحاجة إلى العقاب وليس البراءة.

جلسا إلى منضدة في مقهى.

سأله فجأة، وكما لو أنه بدأ بالدفاع بدلاً من أن يوجه له سؤالاً.

ـ ماهو الواجب الأساسي للكاتب؟

نظر إليه الفتى بعينيه العميقتين.

ـ أتحدث عن مؤلف الروايات. واجبه ليس أكثر، إنما ليس أقل، من قول الحقيقة. ولكن الحقيقة الكبرى يا «مارسيلو». وليس إحدى تلك الحقائق الصغيرة التي نقرؤها في الصحف كلّ يوم. و بخاصة الحقائق الأكثر خفاء.

انتظر إجابة «مارسيلو» ، ولكن «مارسيلو» شعر بأنه ينتظره فتضرج وأطرق وبدأ يحرك بالملعقة بقايا القهوة.

قال «س» بصوت غاضب تقريباً

ـ ولكنك أنت، أنت قضيت حياتك تقرأ أدباً جيداً، أليس كذلك؟

تمتم الفتى.

سأله «س» وقد اشتد غضبه.

ـ كيف، كيف؟ لم أسمعك.

ثم سمع أخيراً شيئاً ما، بدا أنه تأكيد.

وإذن، لماذا صمتت؟

رفع «مارسيلو» ناظريه بحياء، وقال له بصوت خافت جداً إنه لم يكن قد اتهمه بشيء قط، وإنه لم يكن يشارك «أراوخو» الرأي، وإنه يعتبر أن له ملء الحق في أن يكتب ماكتب.

ـ ولكنك أنت أيضاً ثوري، أليس كذلك؟

ـ نظر إليه «مارسيلو» ملياً، ثم عاد ليطرق خجلاً من عظمة الكلمة. فأدرك «ساباتو» وصحح قائلاً: إنك تؤيد الثورة. حسناً، كنت أظن ذلك...لم أكن أعرف.. على نحو ما..

كانت كلماته القليلة متبوعة بنعوت خففت أو جعلت الأفعال أكثر تواضعاً، نعوت وصفات، جعلته كأنما صمت ولم يتكلم. ثم إن خجله أيضاً ورغبته في أن لا يجرح أحداً، كانا يمنعانه من أن يفتح فمه.

ـ ولكنك أنت قرأت، ليس شعر «هرناندس» النضالي وحسب، بل قرأت شعره حول الموت أيضاً. وماهو أسوأ من كلّ ذلك، أنك معجب بـ «ريلكي»، ويبدو لي أنني رأيت معك كتاب «تراكل». ألم يكن كتاب «تراكل» ذلك الكتاب باللغة الألمانية الذي كان معك في «داندي»؟

أومأ مؤكداً باشارة خفيفة. كان يبدو له أن الحديث عن تلك الأشياء علناً ينطوي على الوقاحة تقريباً. كان يحمل الكتب ملفوفة بغطاء دائماً.

سرعان مافهم «ساباتو» أنه كان يرتكب ضرباً من الانتهاك، رأى بألم وبشعور بالذنب، كيف كان «مارسيلو» يتناول عقار الربو.

ـ اعذرني يا «مارسيلو» لم أكن أرغب في أن أقول مثل هذه الأشياء في الواقع..

ولكن، أجل، الأمر الخطير هو أنه كان يود أن يقول ماقاله تماماً. مكث مضطرباً وغاضباً، ليس من الفتى ولكن من نفسه.

قال بعد برهة، دون أن يدرك أنه يقدم على تدخل آخر بما لا يعنيه:

ـ رفيقك؟

رفع «مارسيلو» ناظريه.

- أنتما صديقان حميمان، أليس كذلك؟

- بلى.

- أهو عامل؟

بدا له أنه سمعه يقول إنه كان عاملاً في مصنع «فيات».

يقطن معك في غرفتك. أليس كذلك؟

تأمله «مارسيلو» ملياً، ثم أجاب.

- بلى، ولكن هذا مالا يعرفه أحد.

- أجل، طبعاً. إنما تعلم، إنه يشبه رفيقاً كان لنا «برونو» وأنا، أثناء مظاهرات ١٩٣٢ «كارلوس».

تنشق «مارسيلو» عقار الربو. كانت يده ترتعد.

شعر «ساباتو» بأنه مذنب بسبب الموقف اللامعقول، وبذل جهداً لكي يبدأ حديثاً عن جلسة لـ «تشابلين» كان قد رآها في مسرح «سان مارتين»، أطمأن «مارسيلو» كمن كان على وشك أن يعريه مجنون. وسط ساحة عامة، فرآى المجنون ينسحب ويدعه وشأنه، ولكن ذلك لم يكن سوى شعور مؤقت.

قال «ساباتو»

- الإنسان كائن ثنائي. ثنائي. على نحو مأساوي. ومايتسم بالخطورة والحماقة في الأمر، هو أنه منذ «سقراط» تجرى محاولة إلغاء جانبه

الغامض. فلاسفة المدرسة العقلانية أخرجوا اللاوعي من الباب بالقوة، ولكنه عاد ليدخل ثانية من النافذة. إن هذه القوة لاتقهر. وعندما أريد تحطيمها قبعت، ثم تمردت بعنف وضلال أشد. أنظر فرنسا العقل المحض، لقد قدمت مجانين أكثر من أي بلد آخر، من «ساد» حتى «رامبو» و «جيني».

مكث صامتاً ينظر إليه.

ـ طبعاً لم يكن بوسعي أن أقول هذا في ذلك الوقت، لست أدري. بدا لي أن صديقك... المهم... كيف سأقول لك.. يؤلمني أحياناً أن أقول أشياء أمام آخرين...

كان «مارسيلو» قد أسبل ناظريه.

ـ يتناول الحديث مهمة الرواية، وكما لو أننا نتحدث عن مهمة الأحلام...! أنظر إلى «فولتير»، وأحد من فلاحي العصر الحديث. أتظن ذلك...! تكفي قراءة «الأبلة» لكي يدرك المرء ماوراء تلك القشرة من التفكير العقلاني.

ضحك «ساباتو» ولكن لم تكن ضحكته بريئة.

ـ والآخر أشد إثارة للسخرية، إنه مدير الموسوعة ذاته تماماً. مارأيك؟ لقد قرأت «الحفيد» أليس كذلك؟

أومأ «مارسيلو» برأسه نافياً

ـ يجب أن تقرأها. هل تعلم أن ماركس امتدحها؟ لأسباب أخرى طبعاً، كما أعتقد. ولكن مع ذلك، فإنني كنت أقول إنها دخلت من النافذة، ليس من قبيل الصدف أن تطور الرواية يتطابق مع تطور العصر الحديث. إلى

أين كان الجنون سيلجأ؟ يتحدثون كثيراً عن «الإنسان الجديد» ولكن سوف لن نخلق هذا الإنسان إن لم نسترده. إن هذه الحضارة العقلانية والآلية حضارة البلاستيك والحاسوب قد مزقته. لقد كانت القوى الخفية في الحضارات البدائية قوى مبجلة.

كانت قد بدأت تظلم وشعر «مارسيلو» بالفرج لإنحسار النور.

- إن حضارتنا مريضة. ليس هناك استغلال وبؤس وحسب: هنالك بؤس روحي يا «مارسيلو». وإنني لعلى يقين بأنك يجب أن توافقني الرأي، ليس الأمر توفير برادات كهربائية لجميع الناس. وإنما خلق إنسان حقيقي. ولذلك فإن واجب الكاتب هو كتابة الحقيقة، لا المشاركة بالانحطاط في الكذب.

لم يقل «مارسيلو» شيئاً، وكان يشعر في كلّ لحظة أنه أسوأ من قبل. كان - نظرياً - يحس بكلّ ذلك، ولكن الجانب الأخلاقي فيه، وحتى البورجوازي، ربما كان يعذبه: ياللعميان المساكين....! هذا النوع من الأشياء، وما الذي كان يريد؟ أن يصفق له «مارسيلو» لأنه يصف فضائع؟ كان يعلم، من ناحية أخرى، أنه برغم كياسته وخجله، يؤمن إيماناً راسخاً ببعض الأمور وأنه ليس هنالك من يستطيع أن يثنيه عن شيء إلاّ إذا لم يعد يؤمن به.... أم أن تلك الاستقامة هي التي كانت تجعله يدور حوله، لكي يحاول أن يحصل منه على أيّ ضرب من ضروب الإقرار؟

- شعر بأنه في وضع سيء جداً، فاعتذر ثم ذهب. سار في شارع «ايتشيفيريّا» وسرعان ماوجد نفسه أمام الكنيسة. وبدأ بكآبة قبتها وسط سماء مكفهرة. كانت تمطر والبرد شديداً، مالذي كان يفعله هناك كالأبله؟ فكر، العميان، فيما كان يتطلع نحو الكنيسة الضخمة، ويتطور

دهاليزها وأنفاقها السرية، وكان يبدو كما لو أن هواجسه الغامضة هي التي قادته حتى رمز كآبته ذاك. كان يشعر بالسوء، وكان يعذبه قلق لايدري له سبباً، فلا يعرف ماذا يفعل. وخطر له فجأة أنه لم يكن قد تصرف بشكل لائق مع صديقه، وأنه قد تركه على نحو فظ وغبي، وأن ذلك ربما كان قد مس مشاعره. نهض من المقعد الذي كان قد جلس عليه وعاد إلى المقهى. كان النهار قد انحسر، وكان، لحسن الحظ، مايزال هناك. رآه من الخلف يكتب على وريقة، فكر فيما بعد، لو أنه كان يعلم من قبل، لما تسلل بصمت على ذلك النحو. عندما انتبه «مارسيلو» إليه أخفى الوريقة بحركة مضطربة، وتضرج وجهه بحمرة الخجل. فكر «ساباتو» «قصيدة شعر» وشعر بالخجل لأنه قطع عليه سلسلة أفكاره. تظاهر بأنه لم ينتبه، وقال، كأنما يتابع الحديث:

ـ انظر. لقد عدت، لاعتقادي أنه كان يتعين عليه أن أقول لك أشياء أخرى. أعني... أشياء مختلفة عن التي... أود أن أطلب منك أن تسدي لي معروفاً.

رفع الفتى، الذي كان مطرقاً قليلاً، رأسه وانتظر الطلب بأدب.

احتد «ساباتو».

ـ ألا ترى؟ ماأن بدأت أتكلم حتى أخذت تستعد لتسمع باحترام إلى أيّ شيء أقوله. هذا تماماً ماكنت أود أن أطلبه منك. أن لاتكون هكذا، أن لاتكون، في أقل تقدير، هكذا معي. أعرفك منذ أن ولدت، أريدك أن تناقشني، أن تعرض أفكاري المخالفة. عجبا.... لست أدري... إنك واحد من الأشخاص... و إذن...

كانت ملامح «مارسيلو» قد أخذت تبدو كأنها تعبر بجدية واهتمام ـ وإن على نحو خفي جداً ـ عن ضرب من القلق.

فقال:

- ولكن إنما أنا....

- أمسك «ساباتو» بذراعه، ولكن برقة كالتي يمسك بها جريحاً.

- «مارسيلو»: إنني بحاجة...

ولكنه لم يثابر، وبدا كأنما الحوار قد انقطع نهائياً. راقب الفتى كيف كان رأس «ساباتو» ينحني فوق المنضدة، لأنه كان يعتبر أن واجبه يملي عليه أن يساعده، قال:

- ولكن طالما أنني أتفق ... حسناً.. أعني... عموماً.. طبعاً.

وكان «ساباتو» قد رفع ناظريه وتأمله ملياً بمزيج من الاهتمام والغضب،فقال:

- أرأيت؟ الحال ذاتها دائماً.

- أرخى «مارسيلو» ناظريه. وفكر ساباتو: «لافائدة ترجى». ومع ذلك كان يشعر بالحاجة إلى أن يتحدث وإياه.

- طبعاً، أدرك أنني أبالغ، إنني لست سوى مبالغ دائماً، وفي الأعماق إرهابي، لقد أمضيت العمر أذهب من تطرف إلى نقيضه، وأخطيء بغضب أيضاً. كان الفن يستهويني ولكنني أندفعت إلى الرياضيات. وعندما وصلت إلى آخر الشوط تماماً، هجرتها بشيء من الحقد و'قصة ذاتها جرت لي مع الماركسية والسوريالية. حسناً، الهجر.... وسيلة للتعبير، أتفهم، إن أحب امرؤ بشدة تبقى فيه دائماً بقايا العاطفة؛ في بعض العبارات، وفي بعض الحركات، في الأحلام... نعم، في الأحلام بخاصة.. تعود للظهور، تلك الوجوه التي كنا نظن أننا نسيناها إلى الابد... نعم،

مبالغ يا «مارسيلو». لقد قلت لك يوماً إن الشعراء هم إلى جانب الشياطين دائماً، وإن كانوا أحياناً لايعلمون، وانتبهت إلى أنك لم تكن موافقاً... المبالغة هي لـ «بليك»، ولكن ليس لذلك أهمية، إنني أكررها دائماً، لأمر ماستكون. ولقد قلت لك أيضاً: لذلك يسحرنا جحيم دانتي، ويسبب لنا الملل نعيمه. وأن الخطيئة والدينونة الهمتنا «ميلتون» بينما سلبه النعيم اندفاعاته الخلاقة.. أجل، طبعاً، شياطين «تولستوي» و «دوستويفسكي» و «ستيندال» و «توماس مان» و «موسيل» و «بروست». كلّ ذلك صحيح، مع هذا الطراز من الناس، في أقل تقدير. ولذلك فإنهم متمردون، إنما نادراً ماهم ثوريون بالمعنى الماركسي للكلمة. ذلك الشرط المريع ـ لأنه شرط مريع حقاً، أعلم ذلك ـ لم يجعلهم أهلاً لمجتمع مستقر، وإن كان الذي حلم به الماركسيون. لعلهم يفيدون كمتمردين في المرحلة الرومانسية. ولكن بعد ذلك... «ماياكوفسكي»، تصور. لكن ليس هذا ماكنت أود أن أقوله لك. اعتقد أنني كنت أود أن أقول: إنك يجب أن لاتصمت إنك يجب أن لا توافق على مبالغاتي، وقسوتي، هذا الهوس في اختيار الأمثلة التي تبرر هواجسي ... أعلم، حين حدثتك، سرعان مافكرت في «ميكيل هرناندس» الذي ـ وإن كان هاجسه الموت، وكثير من شعره يتسم بالماورائية ـ ليس مسوساً كما يمكن أن يكون «جيني» مثلاً. ولك ملء الحق في أن تفكر: لاتبالغ يا «ارنستو»، ليس الأمر دائماً هكذا، ويمكن أن يكون هنالك شاعر ليس من عصابة الشياطين ..... وهنالك من يمكن ان يكونوا عربيدين ومرحين بوسعهم أن يشعروا بالانسجام مع الكون... وبعض الرسامين.

صمت. وشعر ثانية بأنه غير مسرور، كان يجد نفسه، بمعنى ما، كأنه يكذب. وبتصميم مريع وقف ثم ذهب.

قادته خطواته ثانية نحو الساحة.

جلس على مقعد يتأمل قبة الكنيسة المستديرة وسط سماء غائمة مكفهرة. كان يتصور «فرناندو» يطوف عند الفجر حول ذلك المدخل للعالم المحرم، ثم يلج في نهاية المطاف إلى العالم التحتي.

الدهالين، العميان.

«فون آرنيم»: تدخل في تركيبنا أرواح كثيرة تترصدنا في الأحلام، وتنطق بتهديدات غامضة، وتقوم بتحذيرات يصعب أن نفهمها، إنها تخيفنا. كيف يمكن أن تكون غريبة عنّا إلى حد تصل معه إلى أن تخيفنا؟ ألاّ تخرج من قلوبنا نحن؟ ولكن ما «نحن»؟ وتلك الفتنة التي تغوينا، برغم كلّ شيء، على الاستغاثة بها والتضرع اليها وإن كنا نعلم أنها يمكن أن تجلب لنا الرعب والعقاب.

لا، لم يتمكن من تذكر قضية «فون آرنيم» ولكن، كأنما كائنات خفية تتلصص علينا من عالم أسمى، لا يمكن أن يدركها سوى الخيال الشعري فقط. العرافة.

ولكن ماذا لو أنقضّت تلك الضواري المريعة الخفية بعد أن نتوسلها ولا نتمكن بعدئذ من السيطرة عليها؟ فإما أن توسلنا ليس صحيحاً، وليس قادراً على فتح أبواب الجحيم، أو أنه صحيح، وعندئذ نتعرضّ لخطر الجنون أو الموت.

وما الذي كان يجري لـ «فون آرنيم» وتطلعاته الأخلاقية؟ وتولستوي؟ القصة ذاتها دائماً، ولكن ماكان يقوله، ماكان يقوله. إيمان المبدع بشيء لم يخلق بعد، بشيء يجب أن يخرج للنور بعد أن يغوص في الجحيم ويسلم روحه للفوضى. أهو مقدس؟ بلى، يجب أن يكون كذلك، ويتعين أن لا يطعن فيه أحد، لقد فرض عليه ما يكفي من العقاب لتصديه

الرعب كهذا.

أتت الرياح برذاذ كالثلج.

كان ذلك حين رآها في الساحة كأنها تسير وهي نائمة، وتتجه نحو أحد تلك الدهاليز القديمة قرب «ابسيلون». كيف يمكن أن لايتذكرها؟ طويلة القامة، بشعرها الأسود الداكن، وخطواتها. ركض نحوها، مسحوراً، وأمسك بذراعها وقال (صرخ) «اليخاندرا». ولكنها اكتفت بالنظر إليه بعينيها الرماديتين الزرقاوين وفمها المشدود إباء..، ازدراء..؟ ارتخت ذراع «ساباتو»، وابتعدت هي من غير أن تلتفت. فتحت باب ذلك البيت الذي كان يعرفه هو جيداً، وأغلقته خلفها.

هاتفه في تلك الأيام «ميمي فاريلا»

قالت له، جلسة، يوم الجمعة بدءاً من العاشرة ليلاً مع «دانيري». وأن يأتي معه بأحد يتمتع بقدرات، لتجميع قوة أكبر. أقترح «الونسو».

- الونسو؟

لم تكن تعرفه، ولكن ذلك حسن. اقترح أيضاً «ايلس موللر». حسناً، تعرفه بالاسم فقط، ممتاز. وسرعان مابدا لـ «ساباتو» أنه لمن المضحك حقاً جمع هذا العدد الكبير من العرّافين، من أشخاص يتسمون بعلاقات استثنائية: جميعهم برجل خشبية، وعين زجاجية، وجميعهم صمّ. لا، لقد ذكر لها «الونسو» ولكنه بعد أن فكر الآن قليلاً، يعتقد أنه في البرازيل. حسناً، حسناً، كانت تنتظره هو و «ايلس موللر».

أخذ معه أيضاً «بيتو»، وكأنما يأخذ مراقب «محفوظات موازين ومكاييل باريس»، لم يكن يود أن ينجرَّ وراء انطباعات، وخبرات ملتبسة.

وصل، بعد قليل، «دانيري» الشهير ببزته الزرقاء ونظارتيه السميكتين الغامقتين البارزتين في رأسه اللبِّني الأصلع الذي اتخذ شكل بيضة رأسها نحو الأعلى. كان هائلاً قليلاً: كتلة هلامية، حشرة من كوكب آخر بلا شمس، ألبس حسب عاداتنا لتقديمه في كوكب الأرض. أمرؤ عاش دائماً في الظلمة أو تحت أنابيب «نيون». لابدّ أن يكون وجهه رخواً كالزبدة الطرية، وهيكله العظمي غضروفياً كهيكل بعض الحيوانات الدنيا. هل خرج ياترى من كوكب أقل استقراراً من اليورانيوم حيث تصل أشعة الشمس كالذكرى؟ أم أنه بعد إقامة سنوات عديدة في قبو مغلق، أبيض، فاصبح بابتسامته يبدو كبزّاقة.

وصلت أيضاً «مارغوت غريمو» بنظارتي الشاطيء السوداوين اللتين لا تنزعهما أبداً، وحاجبين كإشارتي المد كأنما عانت من جميع ألوان الميتات والأوبئة، وعمليات الرحم، والذهول، والأورام، تواقة للاتصال مع أحد من العالم الآخر، او عالم أصبح غريباً لايمت إليها بصلة، مع إبن، مع عشيق؟

دار في البدء حوار تقني بين «ايلس» و «دانيري» كتلك الحوارات التي تقام في مؤتمرات دولية للمتخصصين (في اللغات، والنبات، والأذن والأنف والحنجرة) بمصطلحاتهم المحكمة، أناس لايعرف بعضهم البعض الآخر من قبل، ولكن يتتبعه من خلال مجلات المهنة، أصدقاء مشتركون؟ السيد «لوك» طبعاً.

ثم بدأت المباراة، كلّ منهم روى خبرات، إضافات (كلمة من الاختصاص)، أحلام، عرافة، جلسات تستحق الذكر.

ميمي:

عندما كانت طفلة تذهب إلى مدرسة إنكليزية، قالت في درس التاريخ،

لست أدري ماذا جرى في درجة السجن الثانية الذي كانت فيه ماري أنطوانيت. عندما انتهت ناداها الأستاذ وسألها من أين كانت تعرف تلك المعلومة الدقيقة التي كانت مذكورة في موسوعة لم تكن «ميمي» قد رأتها من قبل قط: تابعوا الرواية باهتمام، واستنتجوا في نهاية الأمر أنه لايمكن تفسيرها إلا بأن تكون ماري انطوانيت قد تجسدت في ميمي.

«ايلس موللر»

كان يجتمع دائماً مع مجموعة أصدقاء خلاه الصيف في بيته في «ماردل بلاتا» لعقد جلسات مع امرأة بارعة تدعى «مارييتا فيدالفو» كائن رائع حقاً. كان الوقت في ساعة متأخرة من الليل وكانوا قد قضوا ساعات عديدة وهم يحاولون، إنما عبثاً، لقد كان الجهد كبيراً وكانوا قد تعبوا جميعاً. عند الثالثة تقريباً غلبهم النعاس فناموا في أيّ مكان، على مقاعد وكنبات. وفجأة سُمع صوت صدمة هائلة، وأُلقي بالمنضدة إلى أحد الأركان.

وافق «دانيري» بهدوء تقليدي وابتسامة ضفدع أبيض: عضو أكاديمية آداب حليم يروون له، في اجتماع معلمات متقاعدات، إجابات أطفال عن استخدام حروف الجر.

قال:

- هكذا إذن، هكذا إذن.

وإذا مافُحص من قرب، لكان من المحتمل أن يُلاحظ خروج خيط سائل لبني رفيع من فمه.

حالة تعتبر إضافة روتها «ميمي» : تسقط ورقة ويأخذها صهرها

«كونيتو» الذي كان يشارك بالارتياب التقليدي لأولئك الدخلاء المستعدين للهزل، التقطها مبتسماً ولكنه عندما رأى الخط أصيب بالبكم. ماالذي جرى، ماالذي جرى؟ كان الخط خط والده الميت. الورقة رسالة منه.

وذكرت حالات، رسائل بالإغريقية، والعربية، وحتى بلغة الغجر، نقلها وسطاء لم يكونوا يعرفون تلك اللغات.

استراحة استغرقت حوالي نصف ساعة.

بعد ذلك استؤنفت المحاولات. سُمع صوت صدمة. أصغوا بانتباه، كانت هنالك رسائل من عدة أشخاص لكنهم مخطئون.

قالت ميمي لـ «مارغوت غريمو» التي كانت حزينة صامتة مقطبة الحاجبين:

- إنها لك.

أصغت باهتمام، حاولت أن تفك رموز الرسالة، ولكنها لم تستخلص شيئاً مفهوماً. رجل يتخبط في البحر؟ سألتها ميمي بقلق إن كان يحتمل أان يكون «برناسكوني» لكن «مارغوت» انكرت بايماءة تنم عن اليأس. ومع ذلك فإنهم أصرّوا على تفسير الرسالة ولكن عبثاً.

بعد ذلك حدثت بعض الأفعال الاعتباطية، بعضها تافه حقاً، كنوع من الدعابات بكلمات مزيفة.

قال «دانيري».

- إنها دعابات، وهو أمر مألوف.

قالت ميمي بأسى:

ـ لافائدة ترجى هذه الليلة.

عندئذ بدأ الحديث يتخذ منحى أبسط، رويت حكايات واشياء لاتنسى، وتصرفات بارزة أو حاقدة قامت بها الأرواح. أيتذكر أحد ما قاله السيد «لوك» للدكتور «الفريدو بلاسيوس»؟ لا، نعم، تقريباً. تنبأ أن «كارليتوس كولاوتي» سيتزوج عندما يبلغ الخامسة والأربعين. عظيم، إذا ماأخذ بعين الاعتبار أن عمره في ذلك الوقت كان أكثر قليلاً من عشرين عاماً. وكان دائماً على وشك أن يتزوج والخ.

عندما أصبحا في الشارع، أعرب له «بيتو» عن دهشته لاهتمامه الزائد وتركيزه. فقال وهو يتفحصه بذهول.

ـ مهرجون كهؤلاء.

لم يجبه.

ـ سوف لن تقول لي إنك تؤمن بمثل هؤلاء المهرجين.

شعر «ساباتو» بأنه يجب أن يرد على نحو ما. ولكن لم يخطر بباله ما يتعين قوله.

حتى سأله إن كان قد شاهد «طفل روزماري».

ـ وماذا.

ـ أقول لك، إن تلك البيئة كلها موبوءة بثرثارين وعجائز بائسات مستعدات للتصديق، ومتعالين، ومزورين. ولكن ذلك لايبرهن على أن القوى الخفية غير موجودة. عالم مريع وخطير أشد رعباً وخطورة مما

يمكن أن تتصور.

- وماعلاقة «بولانسكي» بكّل ذلك.

- ظن أنه يتسلى. ولقد رأيت ماحلّ به.

لاذ «بيتو» بالصمت، ولكن كان بوسع «ساباتو» أن يصف ماكان يعلو ملامحه من إمارات التعب والريبة وسط الظلمة.

- فهمت يا «بيتو» إنه مثل كرنفال مشؤوم: يخفي مهرجين، وفظيعين أيضاً.

معلومات يحسب لها حساب.

اسحاق الأعمى هو أبو «القبالا»[1]. الحديثة. كان يقطن في ناحية ما من جنوب غرب فرنسا في القرن الثامن. «اسحاق الأعمى»! رموز، وأحرف، وأرقام، تخرج من علوم السحر القديمة والغنوصية ورؤيا يوحنا. الرقم ٣ عند «دانتي». يوجد ٣٣ نشيداً، توجد ٩ سماوات، مقسمة إلى ٣ مراتب كلّ مرتبة من ٣ . هل استلهم في «الرحلة الليلية» الصوفي محي الدين بن عربي؟ أكانت له صلة ما باسحاق الأعمى؟

سلسلة من العرفانيين، منذ القديم وحتى تفتيت الذرة. كان نيوتن ينتمي إلى تلك السلسلة، ومايعلنه في كتاباته يكاد يكون قشرة ماكان يعرف. كتب. يقول: «تلك الطريقة لإشباع الزئبق حافظ على سريتها الذين كانوا يعرفون، ولعلها تشكل السبيل إلى شيء أنبل (من صنع الذهب)، شيء لايمكن أن يكون معلناً دون أن يتعرض العالم إلى خطر

(١) القبالا: والقبلانية، فلسفة دينية سرية، أو مذهب سري ديني يقوم على أساس تفسير «الكتاب المقدس» تفسيراً صوفياً. وشاع هذا المذهب عند أحبار اليهود وبعض مسيحيي العصر الوسيط (المترجم)

هائل».

من هنا تأتي لغة الكيميائيين الغامضة، رموز العرفانيين.

معلومات أخرى يجب أن تؤخذ بالحسبان.

«شياطين تحت الأرض» يشكلون الصنف الخامس لشياطين يقطنون في مغاور وكهوف، حلفاء أو أعداء الذين يحفرون آبار والذين يبحثون عن كنوز مخبأة في أعماق الأرض، على استعداد دائماً لدمار الإنسان بوساطة الصدوع والوهاد، البراكين أو الانهيارات.

«أعداء النور»، الذين يهربون من الضوء، هم سادس وآخر صنف، لا يستطيعون أن يتجسسوا إلاّ ليلاً. «ليوناردو» بينهم هو المعلم الأكبر للمجنون السبتي والسحر المؤذي، و استاروت» الذي يعرف الماضي والمستقبل هو واحد من الأمراء الجهنميين الستة الذين مثلوا أمام الدكتور «فاوست».

أحداث وقعت في باريس حوالي ١٩٣٨

اعتقد أنني قلت لك مرة، إن ظهور «أبطال وقبور» أطلق ، على نحو سافر، القوى التي بدأت منذ سنوات تخرج للعلن، وإن كان على نحو أكثر خفية وأشد مخادعة، مما جعلها، لهذا بالذات، مخيفة أكثر.بوسع المرء أن يدافع عن نفسه أثناء الحرب لأن العدو يكون ماثلاً أمامه. يلبس زياً مختلفاً، ولكن مالعمل حين يكون بيننا، يرتدي ملابس كالتي نلبس؟ أو حين نجهل حقاً أن الحرب قد انفجرت وأن عدواً بالغ الخطورة يقوم بلغم أرضنا.؟ لو أنني علمت في عام ١٩٣٨ بتلك التحركات الخفية، فربما تمكنت من أن أدافع عن نفسي بنجاح. ولكن الدلائل لم تنبهني. فمن يدقق في أيام السلم أو يهتم في ذلك السائح الذي يصور جسراً؟

كان «أرنستوو برنسو» قد عرفني بـ «دومينغس» قائلاً لي: إنه الرسام الذي قلع عين «فيكتور براونر»: عملٌ فظيع وذو معنى، ولكن لم ينصحني بأي شيء عن المستقبل. الدليل الثاني، ولعله الأسوأ كان بروز «ر» من بين الظلال، لكنه طبعاً، دليل من وجهة نظر الاحداث التي تلت. أعتقد أننا لو عرفنا مستقبلنا لرأينا في كلّ برهة أحداثاً صغيرة تبرز هنا وهناك تدلّ عليه وتصوره مسبقاً. ولكن لما كنّا لانعرفه فإنها تبدو وكأنها مصادفات غير مقصودة ولامعنى لها. فكّر بما ينطوي عليه من معنى مريع، لمن يعرف النهاية الفظيعة، دخول عريف ذي عينين براقتين وشاربين كشاربي «شابلين» حوالي ١٩٢٥ ، إلى حانة في ميونيخ.

أدرك الآن أيضاً أنه لم يكن من قبيل المصادفات أنني كنت في ذلك الوقت سأشرع بهجر العلوم: العلوم عالم النور...! كنت أشتغل في مخابر «كوري. كأنني أحد أولئك القسيسين الذين يهجرونَ إيمانهم لكنهم يثابرون على تأدية الصلاة على نحو آلي، تهيمن عليهم الكآبة أحياناً بسبب الرياء.

- أراك شارداً.

قال «غولدشتاين» وهو يراقبني بنظرة متفحصة خائفة كما لو أنه صديق للقسيس ،حميم ومتشدد لاهواتياً، يتفحص صديقه أثناء تأدية الصلاة.

- لست على مايرام، لست على مايرام أبداً.

ذلك كان على نحو ما صحيحاً. وهكذا وصل بي الأمر في أحد الأيام إلى القيام بمعالجة مادة «الاوكتانيوم» بإهمال أدى إلى إصابتي بحرق صغير، لكنه خطير، في إصبعي دام سنوات طويل.

بدأت أشرب، وكنت أجد في غيبوبة الكحول لذة تعيسة.

كنت في أحد أيام الشتاء الكئيبة أسير في شارع «سان جاك» متجهاً إلى المنزل حين دخلت حانة صغيرة أشرب نبيذاً ساخناً. بحثت عن ركن مظلم ـ لأنني كنت قد بدأت اتفادى الناس، ولأن النور كان يؤذيني دائماً (لقد انتبهت الآن إلى ذلك، ولكنني كنت طيلة حياتي هكذا) ـ لكي استسلم للعادة الوحيدة في اجترار أجزاء من أفكار ومشاعر بقدر ماكان مفعول الكحول يزداد تأثيراً. كنت قد أصبت بالدوار حين انتبهت إليه: كان ينظر إلي على نحو ثابت نافذ، وكذلك (هكذا بدا لي في أقل تقدير) إلى حد ما ساخر، مما أثار سخطي. أشحت بوجهي عنه، لعل موقفي يردعه، ولكن تعين علي أن أعود لألتقي عينيه. لأنني لم أتمكن من تجنبه أو لأنني كنت أشعر بنظرته النافذة مسمرة فيّ. بدا لي أنه أحدٌ ما أعرفه، إنما على نحو غامض: كان عمره كعمري تماماً (قال لي فيما بعد في أكثر من مناسبة بتلك الضحكة الجافة التي تجمد الدم، إننا توأمان).. وكان كلّ شيء فيه ينم عن طائر ضخم جارح، نسر ليلي هائل (ولم أره في الواقع إلا أثناء الوحدة والظلمات وحسب) كانت يداه ضامرتين، شرهتين، مفترستين لاترحمان. وبدت لي عيناه رماديتين، خضراوين تتناقضان مع بشرته الداكنة، وكان أنفه دقيقاً لكنه ضخم ومعقوف. وعلى الرغم من أنه كان جالساً فقد قدرت أنه لابد أن يكون فارع الطول ومحدودب الظهر قليلاً. كان يرتدي ملابس رثة، ولكن كانت تبدو أرستقراطيته من خلال بلاها.

كان يتابعني مراقباً، بل دارساً. ولكن أشد ماأثار حفيظتي ليس إصراره على السخرية وحسب، بل تركيزه على ذلك أيضاً.

إني كما تعلم متهور، ولذلك لم يكن بوسعي إلا أن أنهض كي أطلب منه تفسيراً. فكان جوابه الوحيد، دون أن يكلف نفسه عناء الوقوف،

هو قوله:

ـ هكذا، لم تعرفني إذن، إيه؟

كان صوته كتلك الأصوات التي يتميز بها الناس الذين يدخنون كثيراً، خشناً، فظاً، ولكنه مُتْعَب وأجش. راقبته بدهشة.أخذ شيء من التردد ممزوج بالاشمئزاز يخالط نفسي، مثلما يحدث عندما نصحو وتبدأ معالم الكائن الذي عذبنا أثناء الكابوس تتراءى لنا. وكما لو أنه استغرق طويلاً وهو في حالة عطالة غير مريحة أبداً، اكتفى بالقول: «روخاس». فكرت إنه اسم أسرة، واستعرضت في ذاكرتي آل «روخاس» الذين كنت أعرفهم. قاطعني، كما لو أنه قادر على قراءة مايدور بذهني، وقال برما:

ـ ولكن لا يا رجل، القرية.

القرية؟

قلت بجفاء

ـ لقد تركتها حين بلغت الثانية عشرة.

وكأنما كنت أود أن يدرك إنه لمن الغطرسة أن يتصور أنني يمكن أن أعرفه بعد كلّ تلك السنوات.

قال:

ـ أعلم ذلك، ولاضرورة لأن تفسره لي ـ أعلم سيرتك جيداً، أتابعك من قرب.

ازددت غضباً لما كانت تنطوي عليه تلك الكلمات من تدخل في شؤوني

الخاصة، فقلت بتشف:

- وأنا كما ترى، فإنني لاأتذكرك أبداً.

رسم ابتسامة ساخرة على وجهه.

- ذلك ليس له كبير أهمية. ثم ، إنه أمر منطقي أن تحاول أن تنساني.

- أحاول أن أنساك..!

وعلى الرغم من كلّ ذلك فقد جلست. إلا أنني، كما هو معلوم، لم أكن أنتظر من شخص كهذا دعوة. لم أكن قد جلست وحسب، بل طلبت كأساً أخرى من النبيذ الساخنِ على الرغم من تلعثم صوتي وثقل رأسي.

- ولماذا كان يتعين عليّ أن أود نسيانك؟

كان يدفعني إلى العدوانية دفعاً، وشعرت أن اللقاء كان في سبيله إلى أن ينتهي بالعنف.

ابتسم وبدت تصعيرة على وجهه، في حين رفع حاجبيه وقطب جبينه فارتسمت عليه سلسلة غضون متوازية وبارزة جدّاً.

قال بحزم.

لم تكن تحبني قط. بل أعتقد أنك كنت تكرهني دائماً. أتَذْكُر مسألة الدوري؟

كانت صورة الكابوس تبدو أمام عيني الآن بوضوح. كيف يمكنني أن أنسى تلك العينين وذينك الحاجبين، وتلك التصعيرة الساخرة؟

كذبت

دوريّ؟ عن أي دوريّ تحدثني؟

- التجربة.

- أية تجربة؟

- رؤيته كيف يطير بلا عينين.

صرخت

- كانت تلك فكرتك.

التفت كثيرٌ من الناس نحونا.

قال معاتباً.

- لاتحتد كثيراً. نعم، كانت تلك فكرتي، ولكنك كنت أنت الذي اقتلعت عينيه برأس مقص.

انقضضت عليه بعزم وأنا أرتعد، وقبضت على عنقه فأبعد يدي بقوة وثقة، وأمرني أن أهدأ.

قال لي:

- لاتكن أحمق. الآمر الوحيد الذي ستجينه هو أن يخرجونا من هنا بمساعدة الشرطة.

جلست وقد هيمين عليّ الضيق. أخذ يستولي عليّ حزن شديد، ولست أدري لماذا فكرت في تلك اللحظة بـ «م»، تنتظرني في غرفة نزل شارع «دوسوميرارد» وبابني في المهد.

شعرت كيف كانت الدموع تسيل على خدي. عادت أساريرهُ تتسم

بالسخرية أكثر من ذي قبل.

قال بأسلوبه الشيطاني في إدارة الأحاديث العامة والذي أتقنه منذ ان كان طفلاً وحسنته السنون الطويلة.

- حسناً، ابكِ، ذلك يفرّج عنك.

أعيد قراءة ماكتبته لك الآن، وأنبه إلى أنني لست في سبيلي إلى الإيحاء بانطباع غير متزن عن اللقاء. نعم، يجب أن أعترف، فقد كانت صلاتي به تتسم بالنفور دائماً وكنت منذ البدء أكن له الحقد. إن مافرغت به كتابته الآن، والصورة التي رسمتها لصفاته وصوته، هما أقرب إلى الرسم الكاريكاتوري منها إلى صورته. ومع ذلك وعلى الرغم من محاولة تغيير بعض العبارات، فإنني لست أدري كيف أصفه على نحو مختلف. يجب أن أقول، إنه كان، في أقل تقدير، يتسم بضرب من كرامة، وإن كانت كرامة شيطانية، وبقدرة على التحكم بالأفعال تجعلني أشعر بأنني وضيع وتافه. كان فيه مايذكر بـ «ارتود».

أمام صمته ونظرته المتفحصة، دفعت ثمن الكؤوس وكنت أتهيأ للذهاب حين أضاف اسماً جعلني أقف كالمشلول: «سوليداد». تعين عليّ أن أجلس. أغمضت عيني كي لاأرى ذلك الوجه المباحثي البغيض، وحاولت أن أستعيد هدوئي.

درست الصف الثالث في مدرسة «لابلاتا» الثانوية وكان «نيقولاس اورتيس دي روساس» أحد زملائي. كان والده حاكم الولاية. ومنذ ذلك الوقت استقرت الاسرة هناك. وعاشوا على نحو متواضع في أحد تلك البيوت ذات الطبقات الثلاث التي بنيت عندما أسس «داردو روتشا» المدينة. كانت تبرز في القاعة صورة زيتية لـ «خوان مانويل دي

روساس»[1] بالوشاح الأحمر القاني، كأنها قنبلة في أمسية هادئة.

عندما رأيته أول مرة كاد يغمى علي: تأثيرات الأسطورة المدرسية التي روج لها الوحدويون. كان الطاغية الدموي يتأملني (لا الفعل المناسب هو «يراقبني» من الأبدية بنظرته الجامدة الغامضة، وفمه المطبق بلا شفتين).

كنا نطالع نظرية هندسية عندما هيمن علي الذعر وكما لو كان وراء ظهري أحد تلك الكائنات التي يقولون إنها تأتي إلى الأرض بصحون طائرة وهي مزودة بقدرة الاتصال دون أن تتكلم. التفت فرأيتها عند الباب المؤدي إلى الفناء الرئيسي: كانت عيناها رماديتين وملامحها الجامدة ملامح سلفها ذاتها. كنت بعد مضي سنوات عديدة أتذكر ظهورها خلف ظهري وأتساءل إن كانت تحاكي روساس من غير أن تعي أم كانت تتكرر فيها ضروب الخصائص ذاتها، كأوراق الشدة، حيث تتكرر فيها مع الزمن التركيبات ذاتها من ملوك وغلمان. لم يكن بينها وبين «نيقولاس» أي شيء مشترك سوى لون عينيهما. كان مرحاً مضحكاً، يحاكي قرداً معلقاً على غصن شجرة، ويقلد صرخاته ويقشر موزة، ولكنه كان أمامها يصاب بالبكم وكانت تصرفاته، كتصرفات من هدد بوجود رئيسه. سألته بصوت، يمكنني أن أقول الآن إنه كان ينطوي على استبداد مضمر، عن شيء ما (والغريب هو أنني لاأستطيع أن أتذكر بأي أمر كان يتعلق). وأجاب «نيقولاس» كأنه أحد الرعايا المجهولين أمام ملك مستبد، بصوت لم يكن هو الصوت الذي عهدته فيه، إنه لايعرف شيئاً. عندئذ انسحبت بصمت مثلما أتت من غير أن تكلف نفسها عناء تحيتي.

---

(١) كان روساس أحد حكام الارجنتين في العقود الأولى من القرن المنصرم وأسمه الحقيقي «أورتيس دي روساس» اتخذ شعاراً له اللون الأحمر القاني، وكان حزبه «حرب الاتحاديين» عدو حزب «الوحدويين» ومنذ أن أطاح به الوحدويون في ١٨٢٣ اقترن في الكتب المدرسية الأرجنتينية بصفة «الطاغية الدموي» (المترجم)

تأخرنا برهة قبل أن نعود للنظرية. كان هو قد مكث قلقاً كما لو أنه خائف تقريباً. وأما أنا فقد استولى علي ذلك الانطباع الملتبس الذي فحصته باهتمام، عندما أصبحت كبيراً، وعندما كنت أعود إلى التأمل ملياً بذلك الاقتحام في حياتي: لقد ظهرت «سوليداد» في القاعة لكي تجعلني أعرف فقط أنها كانت موجودة وأنها حاضرة ولكن لم يكن بوسعي في ذلك الحين طبعاً تمييز المشهد والأشخاص كما أفعل الآن، وكما لو أن تلك اللحظة كانت قد صورت وأقوم الآن بدراسة الصورة القديمة.

قلت إنه يتكرر فيها شيء ما، كان موجوداً في «روساس»، ولكنني لم أكنت في الواقع أعلم (وكما لو كان يحيط بها سرّ مشؤوم ينبغي ألاّ يُكشف) ما صلة القرابة التي كانت بينها وبين «نيقولاس»، وبينها وبين آل «كارّانسا» حتى وإن كانت توجد صلة قرابة بينهم أصلاً. كنت أميل إلى افتراض أنها كانت ابنة غير شرعية من إمرأة مجهولة لأحد آل «اورتيس روساس» لا أعرفه، كما كان شائعاً في ريفنا أثناء طفولتي. عندما عزمت على الذهاب تجرّأت على أن أسأله إن كانت أخته.

أجاب «نيقولاس» وقد أشاح بناظريه عني.

ـ لا.

لم تكن لدي الشجاعة الكافية لاسأل عن تفاصيل أخرى، ولكن فكرت أن عمرها كان كعمرنا، حوالي خمسة عشر عاماً. وأقول الآن إنه لمن الممكن أن تكون ابنة ألف، وأنها عاشت في أزمنة نائية جداً.

حلمت تلك الليلة بها، كنت أتقدم بمشقة في سرداب تحت الأرض، يضيق شيئاً فشيئاً، ويصبح خانقاً أكثر فأكثر، أرضه موحلة ونوره ضئيل، عندما رأيتها فجأة واقفة تنتظرني في صمت: طويلة القامة،

فارعة الذراعين والساقين، عريضة الردفين بما لايتلاءم وجسمها النحيل. كان يميزها وسط الظلمة المطبقة ضرب من الفوسفورية، ولكن ماكان يجعل منها مريعة، وهو محجراها الخاليان من عينيها.

كان يستحيل في الأيام التالية أن أركز انتباهي على الدراسة، ولم أفعل شيئاً سوى الانتظار قلقاً لحظة العودة إلى منزل «نيقولاس»، لكنني ما أن اجتزت الباب حتى أدركت أنها ليست هناك: كان يخيم على الجوّ هدوء كالذي يأتي بعد المطر الذي يهطل صيفاً في أعقاب أيام تكون السماء فيها مشحونة بالكهرباء.

لم أكن بحاجة إلى أن أسأله، لكنني مع ذلك فعلت.

كانت قد عادت إلى «بوينس أيرس».

إن جواب «نيقولاس» الذي أكد شكوكي جعلني أشعر بالقوة وأثبت لي أنه كان بيني وبينها اتصال خفي، لكنه جبار.

سألته إن كانت تعيش في «بوينس أيرس» مع والدها، فأجابني بشيء من التردد قائلاً، إنها تعيش حالياً مع آل «كارانسّا» . أما كلمة «والدين» فقد تجنبها كمن يلف ويدور لكي لا يمر بمكان يفضل أن يتلافاه.

كان هاجسي في تلك الأشهر فكرة الذهاب يوماً إلى ذلك المنزل في «بوينس أيرس». مرّ الشتاء وأتى الصيف، وانتهت سنتنا الدراسية. كنت أتوق للعودة إلى لقياها ثانية حين بحثت في أحد الأيام عن «نيقولاس». قال لي إنه في تلك اللحظة ذاهب إلى «بوينس أيرس»، إلى منزل آل «كارّانسا». كان سيقضي ذلك يوم الأحد مع الفتيان. أدركت أن هذا اللقاء لايمكن أن يكون مصادفة، فسألته بدون أي تدخل لإرادتي الواعية، بينما كنت أشعر أن قلبي سينفجر، إن كان بوسعي أن أرافقه.

أجاب بأريحيته المعهودة والعفوية:

ـ طبعاً.

كان يتحرك في بعدآخر غير البعد الذي كنّا نتحرك فيه أنا و«سوليداد»، فكيف يمكنه أن يتصور ماذا كانت تنطوي عليه أفكاري الخفية؟ كان قد حدثني مرات عديدة عن «فلورنسيو» و «خوان باوتيستا كارآنسا»، وكان يكرر لي دائماً أنهما سينالان إعجابي الشديد، وبخاصة «فلورنسيو»، وذلك ماأكدته الوقائع فعلاً. ولكنه كان بعيداً كلّ البعد عن هاجسي.

لست أدري إن كنت تعرف الدارة الكائنة في شارع «أركوس» ذات الرقم ١٨٤٥ . أتذكر، كما يبدو لي، أنني ذكرتها في إحدى المناسبات وقلت لك إنه يروق لي أن أجعل أشخاص رواية يعيشون فيها مرة. رواية لم أكن أعرف تماماً، كما يحدث لي دائماً ماذا تعني، ولا إذا ماكنت سأقرر مرّة أن أكتبها. إن الدارة خالية حالياً، وقد تهدمت، ولكن حالتها في ذلك الحين كانت سيئة أيضاً، وكأنما كان أصحابها فقراء جداً، أو مهملين. فهي تكاد لاترى من الشارع بسبب تشابك أغصان أشجار ونباتات الحديقة الأمامية، التي تمتد نحو الجانبين وتحيط إحاطة تامة بما لابدّ أنه كان في أواخر القرن المنصرم دارة كبيرة. كان الصمت المخيم عليها أثناء هاجرة الصيف مطبقاً، ويوحي بأنها مهجورة فعلاً. فتح «نيقولاس» باب السياج الكبير الصدىء، وطفنا حول الدارة حتى وصلنا الحديقة الخلفية حيث كان هناك منزل صغير، ربما كان في زمن مضى معداً للخدم.

كان الفتيان يعيشون هناك، وسط فوضى شاملة. إنني أضحك الآن مما ساورني من قلق حين سألت إن كان بوسعي أن أذهب أم لا: لقد

كان بوسع أي مغامر أو غريب أن يصل إلى تلك الدار وأولئك الفتيان، ويقيم في إحدى غرفها ويقضي بقية حياته هناك من غير أن يُفاجأ أحد.

تعرفت «فلورنسيو كارّانسا» في ذلك الحصن غير المعقول. كان عمره كعمري، خمسة عشر عاماً، كما تعرفت أخاه «خوان باوتيستا» الأصغر قليلاً. كان الاثنان متشابهين ويشبهان «مارسيلو»: ملامحهما رقيقة، وبشرتهما ناصعة البياض تكاد تكون شفافة، وشعرهما كستنائي. ماكان مميزاً هو أن العينين واسعتان سوداوان لكنهما غارقتان جداً تحت جبين بارز نحو الأمام كثير البروز يكاد يكون بالغاً. أما الوجه فكان ضيقاً والذقن ناتئة قليلاً.

ولكن على الرغم من التشابه الجسمي بينهما فقد كان هنالك مايسترعي الانتباه حالاً: عينا «فلورنسيو» الشاردتان كما لو أنه يفكر دائماً بأمر بعيد عمن كانوا حوله، بشيء ماكأنه منظر جميل وهادئ لكنه موجود في مكان آخر، وليس هنالك حيث كان. ولولا حدة ذكائه التي كانت تظهر في بعض الأمور، لكان بوسع المرء أن يفكر أنه ليس سوى أحد من كانوا يسمونه قديماً «أهبل قليلاً»، وهذا في الواقع تعبير لازم إلى حدّ بعيد لوصف بعض أصناف الأشخاص.

كنت سأتوصل مع الأيام، إلى أن اصبح صديقاً حميماً لـ «فلورنسيو»، الذي كان يظهر دائماً كأنه قاض أحكامه القصوى أن يلوذ بصمت، كان يخرقه بعد قليل فجأة لكي يصفق لي بود، وكما لو أنه يودّ أن يزيل عن تلك المأثرة الخفيفة التي كنت أفسرها أنا بأنها نوع من الاستنكار، أية قيمة عقابية.

أتذكره محتضنا الـ «غيثار» دائماً، لايفعل شيئاً سوى مداعبة أوتاره

وكأنما لم تكن لديه الإرادة، أو العنفوان ليعزف بعمق: كأنما الـ «غيثار» لم يكن سوى ذكرى «غيثار» بعيد، وكأن ماتبوح به الأوتار من مداعبات ليس سوى أصداء مبعثرة لأغنية عاطفية رقيقة. قال لي أحدهم بعد سنوات إنه سمعه حين كان يظن نفسه وحيداً في المنزل في «لابلاتا» كيف كان يعزف على نحو يثير الإعجاب. لكن الذي كان يثنيه عن إظهار فضائله هو خجله أو رقته، فلم يكن يود أن يظهر أنه متفوق على الآخرين. حين دخلنا الكلية معاً، لم يكن يتقدم للامتحانات ولم يكمل دراسته طبعاً، على الرغم مما كان يتمتع به من قدرات في الرياضيات. لم يكن يهتم بالشهادات والألقاب والمراكز، وانتهى به الأمر ليصبح مساعد فلكي في مرصد متواضع في محافظة «سان خوان»، حيث لاشك أنه ثابر هناك على شرب الماتي وعلى مداعبة أوتار الـ «غيثار»، كان يضلّ في الطريق، وكما لو أنه مايهمه لم يكن الوصول إلى مكان، بل الاستمتاع بروائع الطريق البسيطة.

كان نقيض أخيه «خوان باوتيستا» تماماً. عمليّ وواقعي. والأمر الغريب هو أن «مارسيلو» لم يكن يشبه أباه وإنما «فلورنسيو» عمه.

لست أدري لماذا استغرقت في الحديث عن ذلك الفتى، بدلاً من أن أتحدث عن «سوليداد». لعلّ ذلك يعود إلى أنني وأنا وسط الظلمات (و «سوليداد» هي مفتاح سرّ تلك الظلمات) كان «فلورنسيو» كالنور الخافت البعيد الذي يأتي من ملجأ تقطنه كائنات طيبة وخيرّة.

لم أشارك بالأحاديث التي دارت في تلك الأمسية الحارة من عام ١٩٢٧ تقريباً. فقد عكر صفوي قرب «ماريا دي لاسوليداد» الغامض الغريب. أين كانت؟ ولماذا لم أرها؟.... لم أجرؤ على طرح مثل هذه الأسئلة على الفتيان؛ ولكنني قررت أخيراً أن أسأل على نحو غير مباشر، من هم الذين يعيشون في الدار الكبيرة؟ وأين كان الوالدان؟

أجاب «فلورنسيو:

- الوالدان في الريف وكذلك الأخوان الكبيران «أمانسيو» و«ايولوخيو» فقلت

- إذن، ليس هنالك أحد الآن في البيت كله؟

بدا لي أن الانزعاج خيم برهة على الجميع، ولكن ربما كان ذلك مجرد تصور من تصوراتي.

أجاب «فلورنسيو»

- حسناً، نعم، تسكن في إحدى الغرف «سوليداد».

زادت تلك الكلمات قلقي شدّة. داعب «فلورنسيو» الـ «غيثار» قليلاً وبقي الآخرون صامتين. بعدئذ ذهب «خوان باوتيستا» ليشتري خبزاً من الفرن، وكان «فلورنسيو» يصب الماتي للآخرين خارج الغرقة. لم يكن قد تبقى شيء من ضوء النهار حين تسلق «نيقولاس» شجرة كافور وبدأ يصرخ ويقلّدُ قرداً يقشر ويأكل موزة: إنها خفته المعهودة. عندئذ شعرت أن شيئاً ما كان يحدث وراء كتفي، وأحسست في الوقت ذاته بذلك أيضاً في رقبتي، فنزل «نيقولاس» عن الغصن ومكث الجميع صامتين.

التفّت ببطء وأنا أشعر في بشرتي بذلك الإحساس الذي كان يرافق مثل ذلك الظهور دائماً. ورفعت رأسي كأنني أعرف المكان ذاته مصدر ذلك الإحساس، فرأيت عبر عتمة المساء، من نافذة الطبقة العليا وإلى اليمين صورة «سوليداد» الساكنة. كان من العسير، بسبب ندرة الضوء والبعد، أن أحدد تماماً إلى أين كانت تصوب نظرتها التي تصيب بالشلل، لكنني كنت على ثقة مطلقة بأنها كانت تنظر إليّ.

وبعدئذ أختفت بصمت مثلما كانت قد ظهرت، واستؤنفت شيئاً فشيئاً أحاديث الفتيان، ولكنني لم أكن أسمعهم.

أخذ البعوض يزعجنا فدخلنا إلى المنزل، وأخذ «فلورنسيو» بعد ذلك يقلي بيضاً وكمية كبيرة من البطاطا التي كنّا نأكلها بأيدينا. ثم أكلنا بعض الحلوى التي تأتي من الريف في أوان كبيرة، في حين كنت أتصور «سوليداد» تأكل هناك في الأعلى أو في مطبخ الدارة وحيدة.

لاأشعر بأنني أتمتع بقوة لكي أروي لك الآن (لعلّي في مناسبة أخرى أفعل) ماذا جرى لي في ذلك اليوم. سأكتفي بالقول إن «سوليداد» كانت على مايبدو، يتطابق مع ماكانت فعلاً [1]. كان يبدو أنها تحتفظ بسرّ قدسي من تلك الأسرار التي يقسم أعضاء بعض الطوائف على المحافظة عليها طي الكتمان. كانت رزينة وكان يبدو أن عنقها الداخلي مكبوت تحت ضغط كالمرجل. مرجل تغذية نار جليدية. لم تكن تتحدث عن الوقائع اليومية والعادية، بل كانت بالقليل من العبارات (وأحياناً بصمتها) توحي بوقائع لاتتصل بما ندعوه عادة الحقيقة، وإنما بذلك النوع من الأحداث التي تقع في الكوابيس. كانت شخصية من شخصيات الظلمات، وحتى شهوانيتها كانت من تلك الطبيعة أيضاً. يمكن أن يبدو الحديث عن شهوانية فتاة ذات شفتين قاسيتين ونظرة تصيب بالشلل أمراً غير معقول، ولكن الأمر كان كذلك، على الرغم من أن تلك كانت شهوانية تشبه شهوانية الأفاعي. أليست الأفاعي رمز الجنس في سائر المعارف القديمة تقريباً؟

كانت تعرف أشياء تثير الدهشة وتجعل المرء يفكر في «وسطاء». خطرت لي هذه الكلمة وأنا أبتعد عن الآلة الطابعة، ويبدو لي أنها معبرة. من هم؟ أين كانت تراهم؟ كانت وسيط من ياترى؟

---

(١) يعني اسم «سوليداد» باللغة الاسبانية وحدة أو عزلة (المترجم)

أجل، كان الشخص المشؤوم الذي لقيته أمامي في حانة شارع «سان ـ جاك» ذا صلة بما جرى، أثناء مراهقتي، مع «ماريا دي لاسوليداد»، حين كان عمري حوالي سبعة عشر عاماً. وحتى أنني لست أدري إن كانت تلك الأحداث حقيقة أم حلماً.

اسمح لي بأن لاأتحدث عن ذلك الآن. أعود إلى تلك الحانة القذرة في باريس، إلى اللحظة التي ذكر لي فيها «ر» اسم «سوليداد». لقد قلت لك إنه تعين عليّ أن أجلس لكي استرد هدوئي. ماأن سكنت قليلاً حتى نهضت وذهبت. أخذ هواء الشارع البارد يساعدني على أن أصحو، وعندما وصلت إلى غرفتي في شارع «دوسوميراد» لم أكن، على كل حال، أرتعد.

فكرت أن اللقاء لن يتكرر، لم أكن أجهل أنه سيتكرر وحسب، بل كنت أجهل أيضاً أن عودة ذلك الشخص ستكون أمراً حاسماً في حياتي.

لم أفه بأية كلمة عن ذلك الظهور أمام «م»، وأفكر الآن أن مافعلته كان أمراً طبيعياً. ولكن ماأرى أنه غريب حقاً هو أنني لم أحدثها قط في السنوات التي تلت ـ ليس عن ذلك اللقاء وحسب ـ بل عمّا جرى أثناء مراهقتي، ومن ثم في هذه الأيام الأخيرة. ولعل السبب هو أنها عانت أكثر من أي أنسان آخر من التأثير المريع الذي مارسه ذلك الشخص عليّ، ويكفي أن أقول إنه كان هو الذي أجبرني على أن أهجر العلوم، الأمر الذي كان مفاجئاً للجميع تقريباً، وكان يتعين عليّ أن أبرره بالعديد من التفسيرات المتكررة (وغير المفيدة). قلت، مع ذلك، إن في «بشر ومسننات» التفسير الأكمل الروحي والفلسفي لذلك الهجران، ولكنني أكدت أيضاً آلاف المرات أن الإنسان كائن مستعص على التفسير ويجب، في جميع الحالات، البحث عن أسراره، ليس في أفكاره، وإنما في أحلامه وهذيانه. كان ذلك الدخيل أيضاً هو الذي أجبرني على كتابة الروايات،

وتحت تأثيره الشرير بدأت أكتب في تلك الفترة من عام ١٩٣٨ في باريس «النبع الأخرس»، وبعدئذ نصّب نفسه بطل «مذكرات مجهول» التي أجهضت ولم أنشرها، وبطل عمل مسرحي آخر أجهض أيضاً. ولكن بما أنه ظهر بعد أن طرأ عليه تحول (كنت أدعوه في تلك الأعمال باتريسيو دوغان) أو لأن الظروف كانت تختلف عن الظروف الواقعية بما يجعل صفات «باتريسيو» ليست هي صفاته الحقيقية تماماً، فقد تابع ضغطه عليّ بحقد مضاعف، كما يبدو لي، حتى أصبح في السنوات الأخيرة لايطاق. وهكذا راح يتحول إلى «باتريسيو» هذه الرواية، شخصية كانت تبدو لي كلما مرّ الزمن كأنها سراب في الصحراء، شبه من تلك الاشباه القلقة التي ماأن يلمحها العطشان حتى تبتعد، وبقدر مايقترب منها تنأى عنه أكثر (على الرغم من أن الأمر والحالة هذه أشبه مايكون بمقلوب سراب) وبقدر ماكنت، بدافع من، خوف أو سواه، أبعد شبحه، كانت «م» تشعر به أكثر، وحتى أنه ظهر مرات عديدة في أحلامها. كنت في مثل تلك المناسبات أشعر بغواية الحديث معه عن وجوده وعن تدخله في حياتي، ولكن الأمر كان ينتهي بي دائماً إلى أن ألوذ بالصمت. فقد أخذت تتشكل لدي بمضي الأعوام فكرة مفادها أنه لم يكن سوى كابوس يتعين عليّ أن أنساه إلى الأبد. ومع ذلك، فإنه عاد حين نشرت «أبطال وقبور» ليعترض سبيلي كأنه دائن قديم يعود بعد أن سددنا له جزءاً من دينه بشيكات لارصيد لها، لتحصيل حسابه المخجل والسرّي، مهدداً بفضحنا أمام الناس الذين يعتبروننا مستقيمين. وعندما ترافق ذلك الظهور الأخير وبروز شنايدر ومؤامراته، ظننت أنها فرصة مناسبة لكي أريح ضميري فأحدث «م» عن القضية. لم أفعل. ولما كنت بحاجة إلى الانعتاق، بشكل من الأشكال، بحيث كعادتي بوجوده (على نحو غامض، فعلاً) لـ «بيبا» التي أظنّ أنها كانت تسمعني كأنما تستمع إلى طفل يهوى ابتداع الأساطير.

ولكنني أعود إلى حادثة شارع «سان - جاك». بعد زمن قصير حدث اللقاء الثاني. حين خرجت من المخبر، سرت بعض الوقت، ثم دخلت إلى حانة أخرى (لم أعد إلى تلك التي كانت مسرح اللقاء الكئيب مع ذلك الشخص، قط)، لكي أستسلم وحيداً إلى رذيلة كؤوس الخمر والأفكار الغامضة عن مصيري. ولابد أن الوقت كان ساعة متأخرة من الليل حين قررت أن أغادر ملجئي، وكنت أتجه إلى شارع «دي كارم» في سبيلي إلى غرفتي عندما أحسست أنه أمسك صامتاً بذارعي. كنت أعرف، قبل أن أراه، من يكون.

قلت بعنف:

- لست راغباً في أن أراك أبداً...! أعتقد أن ذلك واضح.

أجابني.

- حسناً، حسناً، لستُ راغباً بأي شيء آخر سوى التحدث وإياك قليلاً. لقد مضت سنوات طويلة. ثم، سأقول لك إن لدينا مصلحة مشتركة.

قال «مصلحة مشتركة» بذلك الجرس الساخر الذي كان يضيفه دائماً على الجمل الجاهزة. ولقد أثارتني لهجته السمحة أكثر، لأنني كنت أعرف أنه ليس أهلاً لمثل تلك المشاعر.

قلت له:

- أنظر، لست أدري ماتعنيه أنت بالمصالح المشتركة، ولكن ليست لدي أي نية لقبول صحبتك. لا الآن، ولا في أي وقت آخر. ثم، أسمح لي أن أضحك قليلاً من تلك المصالح المشتركة.

هزّ كتفيه، وابتسم

قال:

- حسناً لندع الأمر هكذا الآن، ولكن يسعدني أن نشرب شيئاً ما سوياً.

فقلت له إنني متعب جداً وأتحيّن لحظة ذهابي لأنام.

قال:

- المنزل، إيه؟

كان التذكير مبتذلاً، ولكنه أعطى ثماره كالمعتاد. ووجدني أشرب في حانة قذرة كالأخرى. لقد حرمني الدخان والكحول والتعب من أن أفكر بوضوح، في حين كان هو، يبدو كالفولاذ المسنون تجرحني كلماته بلا رحمة، تفتح دماملي وتدع القيح الذي تجمع في السنوات الأخيرة من العمل في العلوم والمخبر، يخرج كلّه. قمت بملء اختياري بالدفاع عن مواقف لم أكن أومن بها. في حين كان هو يهيمن علي بأفكار لم تكن سوى ماكنت، على نحو ما، قد بدأت أومن به. لكن ذلك، كما يبدو، كان تأملات تلوح لي الآن ولا أدري حقاً إن كانت قد نوقشت تلك الليلة. يبدو لي أن الحديث عن أفكار وعن مناقشات وتحاليل خطأ. لم تكن تلك أفكاراً بالمعنى المدرسي للكلمة، لم يكن هناك أي شيء مرتب، لم تكن الإضاءة منسقة ومنظمة بل أشبه ماتكون بانفجار خزانات نفط في مستودع قمامة مظلم حيث كنت أحتمي من الحروق، وأصبحت فجأة لاأستطيع أن أرى، تبهرني الانفجارات وأشعر أنني أتخبط في الوحل والروث. أظن أنني أتذكر كيف كان يبدو في بعض الأحيان كقاض ظالم ضخم وبالغ القسوة، وكان الحوار يدور على هذا المنوال:

- منذ أن كنت طفلاً والكهوف ترعبك.

لم يكن سؤالاً ولا تأكيداً يتعين علي أن أقره.

قلت وأنا أحملق إليه مسحوراً.

- نعم.

- كنت تشمئزّ مما هو طري ولزج.

- نعم.

- ومن الهوام.

- نعم.

- ومن القمامة، ومن الروث.

- نعم.

- ومن الحيوانات ذات الجلد البارد التي تعيش في الجحور الأرضية.

- نعم.

- سواء كانت عظاءة أو فأرة أو ابن مقرض أو ابن عرس.

- نعم.

- ومن الوطاويط.

- نعم.

- لأنها ولاشك فئران مجنحة، ومن ثم حيوانات الظلمات.

- نعم.

ـ إذن فررت نحو النو، نحو ماهو نظيف وشفاف، نحو ماهو بلوري وجامد.

ـ الرياضيات.

ـ نعم، نعم.

فتح ذراعيه فجأة، ورفع وجهه نحو السماء وصاح كما لو أنه في خضم ابتهال غامض.

ـ كهوف، نساء، أمهات.!

لم نكن في الحانة. لست أدري متى وكيف كنا قد خرجنا. كنا في مكان منعزل وهادىء، مكان يشبه الرابية. لابدّ أن الوقت كان ساعة متأخرة من الليل، فقد اكتسب صوته في العزلة والظلام أبعاداً حانية.

عاد بعدئذ نحوي، ومد ذراعه الأيمن وأشار بسبابته مهدداً. قال:

ـ يجب أن تتوفر لديك الشجاعة كي تعود. أنت جبان ومنافق.

وأمسك باحد ذراعي (وكنت أشعر كأنني طفل) وجرني نحو مكان فيه مغارة. دخلنا حتى شعرت تحت قدمي بطين يزداد طراوة أكثر فأكثر. أجبرني عندئذ على أن أنحني، وأمرني أن أضع يدي في ذلك المستنقع.

قال:

ـ هكذا.

ثم أضاف.

ـ هذا هو البدء فقط.

كنت بحاجة إلى أن أروي ذلك لأحد ما، فذهبت نحو منزل «بوناسوّ» بدلاً من ان أذهب إلى المخبر. استيقظ معكر المزاج. ماذا كان ذلك الذي يُوْقَظُ من أجله في تلك الساعة من الليل. كانت تلك دعابته التقليدية. جلست على حافة السرير ومكثت صامتاً بعض الوقت. تثاءب «بوناسو» ومرر يده على وجهه كأنه يتحسس الذقن التي لم تحلق منذ يومين.

- هنالك سنوات ينهض فيها المرء، وليس لديه رغبة في عمل أي شيء.

- جلس بصعوبة، وعاد يتثاءب، ثم وقف في نهاية المطاف، فانتعل خفاً وذهب إلى حمام في الممر وعندما عاد أخذ يتأملني باهتمام.

- هل جرى لك طارىء ياهذا!.

ثم بدأ يغتسل قليلاً، وفيما كان ينشف الماء، تأملني بطرفي عينيه.

رويت له قصة الليلة السابقة، توقف «بونا سوّ» عن تجفيف الماء من غير أن يدع المنشفة ونظر إلي بدهشة.

سألت بشيء من الفظاظة.

- ماذا، ألا تصدقني؟

علق المنشفة في مكانها وهو يفكر، ثم راقبني باهتمام، فازددت حنقاً.

- قلت له.

- ماذا دهاك؟

قال وقد قطّب حاجبيه:

ـ كنت ياصاحبي ليلة أمس معي ومع «أليخاندروسوكس» . لن تقول لي إنك لاتتذكر.

كانت صدمة قاسية.

ـ كيف؟

طبعاً، استشارك ذلك المجنون حول مسألةٌ «جمعية الحماية».

ـ «جمعية الحماية»؟

ـ طبعاً يارجل. إحدى تلك الجمعيات التي يبتدعونها كلّ يوم للدفاع عن الفيزيائيين الذريين كما أعتقد.

أصبت بالبكم. ومكث «بوناسو» يراقبني بقلق.

ذهبت مدعياً أنني سأصل متأخراً جداً إلى المخبر، ولكنني ذهبت إلى منزل «سوكس» قالت لي حارسة الباب إنني يمكن أن أجده في «دوبون لاتين». وكان هناك حقاً يتحدث مع فرنسي.

قال ماأن رآني:

ـ أنظر، يالها من مصادفة. كنت أشرح الموضوع أمس لـ «ساباتو». أنت تعلم، أنه يعمل في مخبر «كوري».

في تلك الايام وصلت «سيسيليا موسين» تحمل رسالة تعريف من «سادوسكي». كانت تود العمل في الأشعة الكونية، ولكنني ردعتها: أعتقد أنك يجب أن تعملي معي في المخبر. فكرت بخبث في خضم ذلك الاختلال العقلي، فتاة مستعبدة، قدمتها لـ «ايريني جولييت كوري». وافقت، وبدأت تأتي بمعطفها الأبيض الناصع. كانت تراني أصل عند

الساعة العاشرة أو الحادية عشرة صباحاً، دون أن أحلق، وشبه نائم، وكانت تحضر بذعر قدسي لقاءاتي ومدام «جولييت» وأنا شارد.

في تلك الاثناء ظهر لي «مولينيللي» مع امرىء لابد أنه يشبه إلى حد بعيد «تروتسكي» أثناء مراحل دراسته: مثله إنما أقصر، ونحيل من شدة الحرمان. كان أنفه المعكوف حاداً جداً، لكنه يستخدم نظارتين بلا إطار، كنظارتي الزعيم البولشفي المعروف، جبينه العريض ذاته، والشعر المنكوش أيضاً. كانت نظرته الحادة تنطلق من عينين براقتين، يراقب ماحوله بحرص مثقف، لايستطيع سوى يهودي إتقانه، ذلك الحرص الذي يمكن أن يجعل يهودياً أمياً آت من «غيتوكاركوفيا» يصغي بحماس طيلة ساعات، إلى عرض لنظرية النسبية دون أن يفهم أي كلمة. ربما كان ذلك الرجل يموت من الجوع، كما كانت تدلّ بزته الرثة الموروثة من أمرىء آخر أكبر منه، ولكنه مع ذلك يبقى مشغولاً بالبعد الرابع وتربيع الدائرة ووجود الله وحسب.

لست أدري إن قلت لك إن مولينيللي ضخم وبدين. كان فيه مشابه من «تشارلز لوغتون» بلغدة وفمه الموارب الذي يمكن أن يسيل منه ، في أي لحظة، خيط من لعاب. كان التناقض بينه وبين «تروتسكي» مضحكاً جداً، ولو لم أكن في ذلك الوضع الذي هيمن عليّ في تلك الأيام، لكان من الصعب أن أحجم عن الضحك حتى وإن كنت أعرف «مولينيللي».

أعرب مولينيللي على نحو غريب عن رغبته في أن يتحدث وإياي على انفراد. لم تكن الصورة التي أوحى بها البدين ومرافقه النحيل القلق ملائمة جداً لتغيير الفكرة التي أخذت «سيسيليا» و «كولدستاين» يشكلانها عن مستقبلي في العلوم. وكانا ينظران إليّ باهتمام كالذي يُتابع به شخص على وشك أن يغمى عليه في وسط الشارع.

ذهبنا إلى ركن، حيث كنا نشكل مشهداً كان كلّ من سيسيليا و كولدشتاين يرى فيه، بكلّ تاكيد، صورة «كاريكاتورية» وسط أجهزة قياس كهربائية الجسم. أخبرني مولينيللي بصوت جاسوس خافت أن لدى صديقه «ثيترو نينبوم» (ونبهني إلى أن الاسم يبدأ بحرف ث وليس س) بعض الأمور الهامة عن الكيمياء يود استشارتي فيها.

نظرت إليه: كانت عيناه الصغيرتان تشعان حماساً.

كانت مشاعري مختلطة على نحو غريب، فقد كانت، من ناحية، تغويني على الضحك، كانت تضحكني فكرة مقارنة قامته الصغيرة بسيارة «ستروين»، ولكنني كنت من ناحية أخرى أختبر شيئاً يحميني.

كرر بصوت محايد، الكيمياء.

سألني: «مولينيللي»:

ـ مارأيك بـ «تيبود»؟

«تيبود»؟ لم أكن أعرف تماماً، كنت قد قرأت مرة كتاباً عن النرويج.

ـ و «هيلبونير»؟

نعم كان «هيلبونير» فيزيائياً ـ كيميائياً ،طبعاً.

قال الفتى «ثيترو نينبوم» بدون أن يبعد ناظريه عني وكما لو أنه يود أن يباغتني بزلة.

ـ إنه خبير في المحاكم.

في المحاكم؟

نعم خبير بالكيمياء.

خبير كيمياء؟ . لم أكن أعرف ماذا أفعل، ولكنني فكرت أن أفضل ماأقوم به هو أن أبقى هادئاً. أنجدني «مولينيللي» فقال: هنالك دائماً أناس يقومون باختراعات آلات للحركة المستمرة. كيمياء، ولكن هذا ليس المهم: أن «ثترونينبوم» (وقام بحركة جانبية مشيراً إليه) قد توصل بتلك الواسطة إلى أن يتصل بامرىء ذي أهمية هائلة. وسأل هل قرأتُ أنا كتب «فولكانيللي»؟ لا ، لم أكن أعرفه.

قال لي:

ـ يتعين عليك أن تقرأها.

حسناً، بماذا أستطيع أن أفيدكما. نفى «مولينيللي» بايماءة من رأسه وأمارة تعني أن ماكان يود أن يقول تقريباً «ليس هذا هو الأمر الهام» أو «إن الأمر يتعلق بشيء آخر». إن الرجل اختفى منذ لحظة إعلان تحطيم ذرة اليورانيوم.

من الذي اختفى؟ «فولكانيللي»؟

لا، كان يتحدث عن الكيميائي الذي عرفه «ثترونينبوم» بوساطة «هيلبرونز» شخص غامض.

ولكن، لماذا كنت تحدثني عن «فولكانيللي»؟

لانه يمكن أن يكون، برأيهما، الشخص ذاته، يعني الكيميائي، و «فولكانيللي» قال لي «فولينيللي» وهو ينظر بشيء من الخوف نحو «غولدستين» و «سيسيليا»، اللذين كانا يراقباننا مذهولين دون ان يفعلا .شيئاً.

ـ أنت تعلم أن هنالك سراً كبيراً يكتنف «فولكانيللي».

حدث في تلك الأثناء أمر طارىء، مازلت أضحك منه، لم يكن يتفق إطلاقاً والكآبة التي كانت تحول في تلك الأيام بين النوم وبيني: بدأت أضحك إنما بجنون تقريباً.

كانت تبدو على «مولينيللي» بفمه الموارب ولغده الضخم دهشة بالغة.

سأل بصوت مرتعد:

ـ ماذا جرى لك؟

ارتكبت أشد مايمكن ارتكابه من الأخطاء حماقة: قلت له بدلاً، من أن أسكت عن السبب: مولينيللي وفولكانيللي، جففت عيني بالمنديل، وعندما كنت مستعداً من جديد لأستمع إلى ضيفيّ، أدركت فداحة تصرفي: مكث «مولينيليي بفمه الموارب مندهشاً صامتاً، أما صديقه بعينيه اللامعتين فقد وصل به الأمر إلى اقصى درجات التوتر، فنظر كلٌ منهما إلى الآخر، وخرجا من دون أن يودعاني.

لم أوفق في البدء للقيام بأي شيء، التفت نحو «غولدستين» و «سيسيليا» اللذين مكثا ساكنين يتابعان المنظر. وبعدئذ ركضت نحو المخرج. ناديت «مولينيللي»، لكنهما لم يلتفتا. فوقفت حينذاك أرى كيف كانا يبتعدان في الممر: واحد ضخم مترهل، والآخر صغير ببزّته الموروثة.

عدت إلى المخبر وجلست صامتاً أفكر.

بقيت طيلة أيام مكتئباً لاأستطيع أن أنام. وحين أتمكن كانت الأحلام

تبدأ. لم يكن أحد تلك الأحلام ينطوي على أمر خطير من حيث الظاهر، لكنني استيقظت بعده مذعوراً.كنت أسير في أحد أقبية المخبر، دخلت إلى غرفة «ليكوين» فرأيته من الخلف منكباً على لوحاته، ولكنني حين ناديته والتفت نحوي كان وجهه وجه «ثيترو نينبوم».

لماذا استيقظت قلقاً؟ لست أدري، ربما كان ذلك يعود إلى ضميري المثقل بما حدث لـ «مولينيللي». نهضت وقررت أن أبحث عنه لأطلب منه المعذرة. إلاّ أنني عندما بدأت أصحو بعد أن خرجت من السرير، كنت مقتنعاً بأن الكابوس لم يكن نتيجة ذلك الشعور بالذنب وإنما نتيجة أمر أشد عمقاً. ولكن، ماهو؟

ذهبت إلى حظيرته المملوءة بأوراق عن العرافة، كان الوقت مبكراً جدّاً والضباب مخيماً، فرأيت عبره قبة الـ «بانتيون» مما جعلني أشعر بالكآبة أكثر من القلق. كانت الأحداث التي جرت مع «ر» تبدو أنها أصبحت نائية جداً، وحلّت، بدلاً من الشعور بالذعر، حالة من الكآبة كانت تشتد كلما ذهبت إلى باريس ١٩٣٨ تلك. صعدت حتى الغرفة وقرعت الباب طويلاً إذ لابدّ أنه كان نائماً. عندما أجابني وأخبرته من أنا، مرت فترة صمت استغرقت زمناً طويلاً، لم أكن أدري ماذا أفعل، ولكنني لم أكن أود أن أذهب من دون أن أطلب عفوه.

اقتربت بعد برهة من خصاص الباب وقلت له بصوت عال إنه يجب أن يعذرني، فإنني كنت في حالة سيئة، سيئة جداً، وأن تلك الضحكة كانت ضرباً من الجنون.. الخ لقد قلت لك إنه كان إنساناً طيباً جداً (توفي منذ حوالي سنتين)، لايقوى على الحقد، وهكذا فتح الباب، وجلست، فيما كان يغسل، على مقعد ذي ثلاث قوائم وحلت محل الرابعة كومة من كتب العرافة. حاولت أن أقدم له تفسيراً، ولكنه طلب مني بلطف أن لاأفعل.

قال:

ـ آسف من أجل «تشيرونينبوم»

ولم يشرح لي لماذا، وما يمكن أن تكون ضحكتي قد فعلت بذلك الفرنسي الصغير. وكرر فيما كان ينشّف الماء عن وجهه.

ـ من أجله فقط.

كنت أشعر بالخجل، وأظن أنه أدرك ذلك، ولهذا فإنه تكرم بتغيير الحديث فيما كان يعد القهوة. ومع ذلك، فإنني رجوته أن يحدثني عما كان يفكر بأن يقوله لي أثناء تلك الزيارة. رفع إحدى يديه كأنه يقول، لم يعد لذلك كبير أهمية، وأراد أن يستمر بالحديث عن أمر حدث في اليوم المنصرم مع «بوناسّو».

قلت له:

ـ أرجوك.

عاد ليحدثني ـ وإن على نحو لا يتصل بالأمر ـ عن مسألة «فولكانيللي» بحث عن أحد كتبه وأتاني به: يتعين أن تقرأه.

ـ أنت تعلم، لم يره أحد من قبل قط. يعود هذا الكتاب إلى ١٩٢٠ ألا ترى؟ طيلة عشرين سنة تقريباً، ليس هنالك شخص واحد يمكنه أن يقول من هو.

ـ والناشر؟

نفى بإيماءة من رأسه. أكان يتذكر مسألة «برونو ترافن»؟ وصلت المسودات بالبريد. الأمر مع «فولكانيللي» كان معروفاً، فهي في أقل

تقدير، وصلت بوساطة شخص يدعى «كانسيليي».

وإذن كان يسهل بحث شيء ما عن الكاتب.

لا، لأن «كانسيليي» ذاك أنكر بشدة، هل أدركت الآن لماذا كان لقاء «ثيترونينبوم» ذا أهمية بالغة؟

لا، لم أكن أدرك.

ولكن يارجل، كان البروفسور «هيلبرونر» خبيراً في المحاكم وكانت له صلة مع أكثر من كيميائي، حقيقي أو مزعوم. أرسل في أحد الأيام يطلب من «ثيترونينبوم» أن يجتمع إلى سيد كان يشتغل في مخبر تجارب «شركة الغاز». حذره هذا السيد من أن «هيلبرونر» وكذلك «جولييت» ومساعديها، كي لانتحدث سوى عن الفرنسيين، كانوا على شفا هاوية. حدثه عن التجارب التي كانوا يقومون بها على الثنائي، وأقول لك إن هذه الأشياء كان يعرفها بعض الأشخاص منذ قرون مضت، ولأمر ما لاذوا بالصمت، وحفظوا كلّ شيء عندما وصلت التجارب إلى نقطة معينة، ورووا ماكانوا يعرفون بلغة تبدو غير معقولة، لكنها كانت في الواقع سرية، وبيّن له أن الكهرباء أصبحت غير ضرورية، وكذلك المسرّعات، وأنه تكفي بعض الاستعدادات الهندسية لمواد بالغة النقاء لإطلاق القوى الذرية. لماذا أسدل ستار من الصمت على كلّ ذلك؟ لأنه بخلاف الفيزيائيين العصريين، ورثة صالونات القرن الثامن عشر الوضاءة الداعرة، فإن لأولئك الكيميائيين اهتمامات دينية عميقة. طبعاً، لم يكن يتحدث عن الجميع فقد كان يوجد بين أكثريتهم الواسعة جداً، غشاشون وثرثارون، وأشخاص يدعون عمومتهم للملك أو الأمير فلان. أناس غالباً ماانتهوا إلى المقصلة أو التعذيب. لا، كان هو يتحدث عن الحقيقيين، عن العرفانيين حقاً، عن تلك السلسلة من الأشخاص أمثال

«باراسيلو» أو «كونت سان جرمان»، وحتى «نيوتن» ذاته، هل كان يعرف كلمات «نيوتن» المبهمة والتي تنطوي على معنى، في الأكاديمية الملكية؟ تاريخ الكيمياء كله، وفي أقل تقدير، ماأشتهر في أيامنا، اناس ماديون مثلنا في هذه الحضارة كانوا يتحدثون عن تحويل النحاس إلى ذهب، ومالإلى ذلك من خرافات، محض تطبيقات لشيء هو في جميع الأحوال أشد عمقاً بما لا يقاس. الأمر الأساسي هو تحويل الباحث نفسه، سرّ قديم جداً يقتصر في كلّ قرن من الزمان على واحد أو أثنين من ذوي الحظوة، «العمل العظيم».

مكثنا برهة صامتين نشرب القهوة.

سألته:

- وهذا هو الرجل الذي اختفى منذ قليل؟

نعم، حين بدأت صحف العالم أجمع تتحدث عن تحطيم ذرة اليورانيوم.

- ولكن لماذا أختفي؟ لم أكن أفهم.

هزّ كتفيه، إن فرضية «ثيترو نينبوم» هي أن ذلك الرجل من شركة الغاز لم يكن سوى «فولكانيللي»، صديق آخر من أصدقائه يدعى «بيرجر»، كان يفترض ذلك أيضاً.

مكثت أفكر في ذلك كلّه، ولكنني لم أتوصل إلى معرفة السبب الذي أتيا من أجله لرؤيتي.

أجاب:

- إن ذلك أمر يطول شرحه. ثم، إن له علاقة وثيقة بـ «ثيترو نينبوم». ولكن فات الآوان لسوء الحظ الآن. لاأعتقد أنه يود العودة لرؤيتك.

غضبت: لقد قدمت له جميع ضروب التفسير. نعم، طبعاً، طبعاً، ولكن «ثيترو نينبوم» هو طراز آخر من الأشخاص . وأضاف وهو يحملق إليّ:

عبقري.

سألته إن كان سيراه قريبا. طبعاً، طبعاً. ولكنني فهمت أنه من غير الممكن حالياً ، في أقل تقدير، عمل شيء آخر.

بقيت بضعة أيام أحاول أن أنظم أفكاري ولكني لم أكن أجد حلاً.

مررت بـ «الدوم»، كان «مارسيل فيراي» مع «تريستان تزارا» و «دوممينغس» كانوا يديرون حواراً تافهاً:

- علبة سردين طولها مئة متر، ماهي؟

خدعة منغولية.

- ماهي اللحظة المأساوية.

حسب زهرة منسية.

- ماهو مينوطور الأفطار؟

ألفراغ

اعترض من منضدة أخرى «اليخاندرو سوكس» قائلاً: تأتي الحرب وأنتم بهذه التفاهات.

نظر إليه «دومينغس» بتلك النظرة الحانية كثور مُخدّر.

سألني «سوكس» عن مسألة اليورانيوم. كان يجب تنظيم لجنة فوراً.

كان الشعار جاهزاً لديه: «دفاع». إنه لمن الصعب تنظيم لجان جمعيات على الورق، طبعاً. كانت الأخيرة «جامعة مناهضة استخدام بطارية الاولمينيوم في المطبخ». ما أن حدثته عن اليورانيوم حتى فكر بانشاء جمعية.

- الأمر المهم هو إيجاد شعار جيد، يمكن تذّكره بسهولة «الدفاع عن فيزيائيين وكهربائيين وطبيعيين بارزين، جمعية مغفلة».

إن شيئاً تافهاً ينظم على شكل جمعية مغفلة (مركب من الجنون والرصانة التجارية) يثير فيّ الضحك.

ذلك أثار غضبة.

ولكن لماذا كهربائيين؟ ماكان يثير فيّ الضحك أيضاً: الفكرة الشعبية عما يمكن أن يكون المخبر الذري. أكان السبب الشعار عجباً..! ألم يكن قد بين لي أن الشعار يجب أن يصدم، يجب أن يكون مُذِكّراً؟

آه، حسناً، حسن جدّاً إذن.

كانوا قد تركوا الحوار التافه وكان «دومينغس» قد بدأ، وكأنه يمارس طقساً حزيناً جداً، أو مملاً جداً، عيناه كعيني ثور كئيب، وشفته متدلية يشتم قانطاً أناساً يبدو أنهم فرنسيون، كان يقول: يمتلي الـ «دوم» يومي السبت والأحد بفرنسيين بورجوازيين يثيرون الاشمئزاز. ثم وقف متثاقلاً، عملاقاً يرتعد ليذهب ويشتم على نحو سافر جداً، عجوزاً ذا لحية بيضاء، ترافقه زوجته التي كانت تستمتع بشرب كأس من الخمر. انحنى «دومينغس» بإجلال، كما تفعل الفيله المدربة في السيرك، وهو يقول بفرنسيته البغيضة، مدام، مسيو، ثم أخذ أحد قفازي المرأة وبدأ يعضه كما لو أنه يود أكله. ومكث العجوز مذهولاً من الدهشة

لايقوى على القيام بأي حركة. ثم سرعان ماوقف بغضب يتناقض مع حجمه: كان صغيراً نحيلاً. توقف دومينغس ومكث ينظر إليه بتلك الرقة البالغة بعينه اللتين تشبهان عيني ثور ووجهه المشوه المائل قليلاً نحو الجانب.

كان «سوكس» الذي تابع خطوات الحادثة التي لايمكن تجنبها قد دفع الحساب بسرعة وأمسك بذراعي وجعلني أخرج مذكراً بما حدث لنا جميعاً عندما تعين على المصارع «البيرواني» أن يتدخل.

لم نكن قد خرجنا بعد عندما راحت تُسمع أصوات فضيحة الشجار.

كان «سوكس» غاضباً.

صاح ماأن جلس في (لاكوبل).

حقيرون، تأتي الحرب وهؤلاء يقومون بمثل هذه التفاهات.

أخرج بضع أوراق وكتب عدة أرقام.

- كلّ منتسب يجب أن يدفع دولاراً في السنة.

اغتنمت وصول «ويلفريدو لام» كي أرحل، لم يكن لديّ أي هدف معين فأيام الآحاد تجعلني أشعر بالكآبة. سرت على غير هدى، وسرعان ماوجدتني في شارع «غراند شوميير». كانت خطاي قد ساقتني بلا وعي إلى «مولينيللي»، صعدت فوجدته يحضّر قهوة، كعادته دائماً. كان يبدو وكأنه سمع الحديث مع «سوكس».

قال:

- يبشر بالنهاية.

- النهاية؟ ماهو الذي يبشر بالنهاية؟

- انشطار اليورانيوم. الألف سنة الثانية، وأنت تتمتع بامتياز وجودك بجانب حدث كهذا.

كان يحمل في جيوبه مثل أخي «فيسنتي» كمية من الأوراق المطوية لا على التعيين مجعدة، ومن درجات مختلفة في القدم: رسائل، مخططات، حسابات، فتش عن ورقة فيها مخطط وأراني إياها: هنا الحوت، وهنا الشمس. عندما تدخل الشمس برج الحوت يظهر المسيح ويبدأ اليهود شتاتهم. يستغرق ٢٠٠٠ سنة. الآن، حين تقترب نهاية الفترة يعودون إلى أرضهم، ذلك يبشر بشيء أساسي لأن للشعب اليهودي مصيراً عجيباً غير طبيعي بعد ٢٠٠٠ سنة. فكرت، دون أن أقول له بـ «ثيترونينبوم».

أشار بقلم قصير جداً، ومقضوم: هذا هو برج الدلو. ندخل الآن برج الدلو في نهاية الـ ٢٠٠٠ سنة.

ثم رفع ناظريه، وأشار بالقلم القصير وأضاف:

- نكبات كبرى.

أية نكبات؟ سرعان ماتأتي حرب مريعة وأختبار كبير لليهود. ولكن ليس بوسعهم القضاء عليهم تماماً لأن مهمة كبرى تبقى أمامهم، يجب أن يؤدوها. كتب بقلمه على ظهر إحدى الأوراق بحروف مطبعية وضمن إطار:

مهمة أخيرة

- عاد ينظر إليّ نظرة حادة إنما بهدوء.

إن لتلك النكبات صلة بالطاقة الذرية. يتوقع كبار رجال الـ «لاما» أن تلك الكوارث ستكون بدء «الحرب الحاسمة» من أجل السيطرة على العالم. ولكن حذار: لاأتكلم عن السياسة، لاشيء من هذا القبيل. إن القوى السياسية (فرنسا، المانيا، انكلترا) هي الشكل الذي تظهر فيه تلك «الحرب» (وضع الكلمة بأحرف بارزة في الورقة) أمام البشر. ولكن وراء ذلك المظهر كان يوجد ماهو أخطر: هتلر عدو المسيح.

إن البشرية توجد الآن في «الدورة الخامسة».

«الدورة الخامسة»؟

نعم، البرهة التي يصل فيها العلم والعقل إلى قدرتهما القصوى، عظمة مشؤومة. ولكن الأسس كانت تحضّر على نحو خفيّ من أجل مفهوم جديد روحي للعالم.

ثم عاد يشير إليّ، وأضاف:

ـ نهاية حضارة ماديّة.

كنت أزداد قلقاً، فقد كان يبدو أن ذلك الحوار يتصل على نحو أو آخر بلقاء «ر» وبالمشهد الغريب معه.

أكنت أعرف أنا لِمَ تعود «الدورة الخامسة» من النبوءة المشرقية؟

لا، لم أكن أعرف.

إنها تعود إلى «الملاك الخامس» في «رؤيا» القديس يوحنا «أورانوس» أولاً، ثم «بلوتون»، إنهما رسولا الأزمنة الجديدة، سيعملان كبركانين ثائرين، سيرسمان الحدود بين العصرين، المفترق الكبير.

«بلوتون» ـ قال وهو يدق بالقلم الصغير على الأوراق ـ سيسود بالتجديد من أجل الهدم.

وبعد برهة صمت، كان خلالها يبدو أنه يتفحّص أعماق عيني، أضاف هذه الكلمات الغريبة:

ـ أنا أعرف أنك تعلم شيئاً، ربما ليس كلّ شيء بوضوح بعد، ولكن هنالك شيء ما في عينيك.

لم أقل شيئاً، ولكنني أطرقت وأخذت أحرك حثالة القهوة بالملعقة، سمعته يضيف:

ـ «بلوتون يحكم عالم الإنسان الداخلي، سيكشف أخطر أسرار النفس وأعماق البحار، العوالم الغريبة والتحتية التي تدخل في نطاق صلاحياته.

رفعت ناظري. مكث طيلة دقيقة صامتاً، ثم قال وهو يشير إليّ بالقلم ثانية:

ـ إننا نجتاز حالياً الولاية الثالثة والأخيرة للحوت، تحت سيطرة العقرب، حيث يكون «أورانوس» هائجاً. فحشاء، خراب وموت..!

كتب هذه الكلمات الأخيرة بحروف كبيرة في ورقة قذرة أخرى، وعاد ينظر إليّ كما لو أن لي صلة بكلّ ذلك.

كان الظلام قد أوشك أن يحلّ، فقلت له إنني متعب جداً وإنني سأذهب لأنام.

قال وقد وضع يده على ظهري:

ـ حسناً، حسناً.

ذهبت لأنـام، ولكنني لم أتمكـن. كانت تـدور في رأسي كلمـات «مولينيللي» وكذلك وجه «ثيترونينبوم» أيضاً، بدون أن أدري لماذا. لقد قلت لك من قبل إنه يبدو وكأنه وجه «تروتسكي» عندما كان طالباً، ولكنني أدركت الآن أن ذلك لم يكن وصفاً حسناً. لعلّ ماكان قد فاجأني هو الشبه العضوي والحدة في العينين اللتين كانتا تبرقان خلف زجاج نظارتين بلا إطار. لا، لم يكن ذلك، أو إن ذلك ـ في أقل تقدير ـ لم يكن هو كلّ شيء. ولكن ماالذي أعنيه بـ «كل شيء»؟ بزتّه الرثة الموروثة ممن هو أبدن منه، كتفاه النحيلان، صدره الغـارق، يـداه النحيلتـان العصبيتان. ولكن كان هنالك شيء آخر، على الرغم من أنني أرتاب فيه، فإنه لم يكن بوسعي تحديده في ذلك المسخ المفتون بحقيقة عليا. قد يكون ذلك هو حقاً، «الحقيقة العليا»، شخص يبشر بما هو أبعد من مجرد السياسة، مما يضفي عليه شيئاً مريعاً.

ثم نهضت وذهبت إلى المخبر. سألت سيسيليا إن كانت قد عملت المقاييس التي كلفت بها. نعم، طبعاً. كانت نظرتها متفحصة ومشبعة باللوم الذي تكنه أم لابنها المبذر، وهي تناوله ملابسه النظيفة المكوية.

صحت:

ـ ماذا جرى؟

خافت وجرت إلى مقياسها الكهربائي.

بحثت عن الإناء الذي يحوي الـ «اكتانيوم»، وأخرجته من أنبوب الرصاص، لكنني كنت شارداً فأخطأت على نحو أخرق. أعدته إلى الأنبوب وقررت أن أذهب لأشرب كوباً من القهوة.

ساعدني البرد وأنا في الشارع على أن أصحو.

كنت أشعر أن هواجس قديمة كانت تخيفني عندما كنت طفلاً، وتخيفني الآن أكثر من ذي قبل، لأنها كانت بالتأكيد تعاود شخصاً كبيراً محاطاً بآخرين لايؤمنون إلا بمعادلات رياضية وجزئيات ذرية وتفاسير.

تذكرت «فرازن»، الروح التي تسافر أثناء النوم، وفراق الجسد. إننا نحن الغربيين بدائيون جداً. أكان أشخاص مثل «هوفمان» و «بيو» و «موباسا» مجرد مبتدعي أساطير..؟ ألا يمكن أن يكونوا هم الكوابيس الحقيقية، بمعنى أشد عمقاً؟ وشخصيات الرواية (أتحدث عن الأصيلة التي تنبثق كالأحلام، وليس المصطنعة) ألا تزور مناطق بعيدة كما تفعل الروح خلال الكوابيس؟ والمشي أثناء النوم، أين كنت أذهب حينما كنت أنهض وأنا طفل؟ أي قارات كنت أجوب في تلك الرحلات؟ كان جسمي يذهب إلى القاعة، إلى غرفة والدي. ولكن روحي؟ الجسم يتحرك باتجاه، أو يبقى في السرير. ولكن الروح تشرد هناك.

أحاول، منذ تلك الحقبة أن أعثر على حلّ لغز العقدة الغامضة، وعلى الرغم من أنني كنت، كما أعتقد، ألمحه أحياناً، لكنني مازلت أنتظر، لأن خبرتي الطويلة تثبت لي أن وراء العقدة توجد دائماً عقدة أخرى أشد خفاء أو أقل ظهوراً. ومع ذلك فإنني أحاول في هذه الأيام الأخيرة أن أنسّق بين أفكار متفرقة يبدو أنها تهديني وسط المتاهة. ولكن تلك الأحداث وقعت فجأة في الوقت الذي بدأت فيه هجر العلوم، التي هي عالم النور. بعدئذ، حوالي ١٩٤٧ أدركت أن مصدر كلّ شيء لدى «سارتر» يأتي من النظرة، وأنه هو أيضاً كان قد التجأ إلى الفكر المحض، في حين كانت مشاعر الذنب تدفعه إلى أعمال الخير. ذنب = عمى؟ أخيراً «الرومانسية الجديدة»، مدرسة النظرة الموضوعية. أو لنقل، العلوم ثانية، الرؤية الصافية للشيء الذي لدى المهندس (روب - غريللي). لأمر ما فإن (ن. ساروّت) يضحك من «هواة الوعي المزعومة». إنه يضحك...

ذلك لكي نقول بطريقة ما. فكلهم في الأعماق خائفون، جميعهم بلا استثناء يعرضون عن العالم المظلم، لأن قوى الليل لاتغفر للذين يحاولون أن يقتلعوا منها أسرارها، ولهذا فهم يكرهونني أيضاً: وللسبب ذاته الذي يكره فيه الخونة أولئك الذين يقاتلون العدو المحتل معرضين حياتهم للخطر.

إنه أمر ملتبس، أعرف ذلك، ولستم بحاجة إلى أن تنبهوني إليه. سيبدو لكثيرين خيال أمرىء يهذي. فكروا كما يحلو لكم: فإن مايشغلني هو الحقيقة لاغير، وإن كان على نحو مجزأ، مع بروق تكاد تتيح لي أن أتبين في أعشار ثانية هوات عميقة لاقرار لها، أحاول أن أعبر عنها في بعض كتبي.

أفكر بكلّ هذا الآن. لأنَّ أي شيء في ذلك الشتاء من عام ١٩٣٨ لم يكن واضحاً، فالفترة التي قضيتها في المخبر صادفت نصف ذلك الطريق من حياتنا الذي ينعكس فيه عادة ـ كما يقول بعض العرافين ـ معنى الوجود. جرى ذلك لأناس مشهورين «نيوتن» و «سويدنبرغ»، و «باسكال» و «باراسيلسو». فلماذا لايحدث أيضاً لأناس أكثر تواضعاً؟ لقد كنت: أنعطف ـ دون أن أدري ـ من جزء الحياة المنير إلى الجزء المظلم.

كنت في تلك الأثناء، وفي خضم أزمة نفسية، قد بدأت بوساطة «بوناسّو» أتصل «دومينغس». لم أقل، حتى الآن، ماحدث فعلاً في تلك الظروف، وماهو الخطر الذي تعرضت له، والذي لم يشأ «دومينغس» أن يتجنبه أو لم يتمكن من تجنبه، مما أدى به إلى الانتحار. (قطع شرايينه في المرسم ليلة ٣١ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٧ . فلطخ قطعة القماش التي كانت على الحامل بدمه). إنني أعرف أن قوى كبرى كانت متورطة في اللعبة قبل أن يقتلع عين «فيكتور براونر» بوقت طويل، فذلك الحادث

لم يكن سوى أحد مظاهرها.

يجد المرء مايبحث عنه، بوعي أو بلا وعي. أتحدث عن اللقاءات التي يكون لها غاية، وليس الترهات. لو التقى أحدنا امرءاً في الشارع، فلن يكون لذلك نتائج حاسمة تذكر في حياتنا. ولكن ستكون للقاء مثل هذه النتائج حين لايكون عرضاً، حين تكون القوى الخفية التي تهيمن علينا قد دفعت إليه. لم ألتق «دومينغس» مصادفة ولم يكن من قبيل العبث أن ذلك حدث عندما كان يتعين عليّ أن أهجر العلوم. كان لقاؤنا ينطوي على أهمية كبيرة، وإن لم يبد كذلك في ذلك الحين. الزمن كفيل، فيما بعد، بوضع الوقائع في مكانها الصحيح، وكثير من الأمور التي تبدو تافهة من البدء تتبين أهميتها بعد ذلك، وهكذا فإن الماضي ليس شيئاً متبلورا كما يفترض بعضهم، ولكنه يأخذ بالتغير بقدر ماتتقدم بنا الحياة، ويصل إلى معناه الحقيقي في اللحظة التي نموت فيها. حينئذ يظل متحجراً إلى الأبد. فلو كان بوسعنا في تلك اللحظة أن نرد الطرف نحوه (ويحتمل أن يفعل ذلك من يحتضر) لكنا أدركنا في نهاية المطاف، الصورة الحقيقية التي أعد فيها مصيرنا، ولكانت تفاصيل بالغة الصغر كنّا في الحياة نحتقرها قد بدت حينئذ كتحذيريات خطيرة أو كتحيات كئيبة أبدية، وحتى ماكنّا نعتقد أنه مجرد هزء أو محض زيف يمكن أن ينقلب في ذلك المنظور للموت إلى نبوءات مشؤومة.

ماحدث في ذلك الوقت للسوريالية كان قليلاً.

كنت ذاهباً إلى مرسم «د» لأعمل (أرجو أن يعطي هذا الفعل مدلوله الأكثر إثارة للسخرية) بتلك الدعابة التي عمّدتها باسم «مزامنة» والتي كان «بريتون» سينشرها فيما بعد في العدد الأخير من «مينوطور». كلّ ذلك إلى جانب ماكنا نخترعه وماكان يثر ضحكنا، ورسالة «ديلادييه» حول «البابا»، والهزء في «المترو» كان يبدو مجرد تسليات مثلها مثل

الكثير مما قاموا به وأدى إلى أن يفكر كثير ممن لايتوجسون الشر أن السوريالية، إنما هي خدعة. والحقيقة هي أنه حتى في الوقت الذي كان فيه ممثلوها يعتقدون أنهم يرتكبون حماقات بسيطة (وهذا حدث لـ «ر» ولي) كنا من حيث لاندري، في خضم أخطار مميتة: كالطفل يلعب في ساحة معركة قديمة بقنابل يظن أنها لاتضر لكنها سرعان ماتنفجر، فتنشر الدمار والموت. كانت البيانات النظرية الفصيحة تعلن أن السوريالية تطرح فتح بوابات العالم السرّي، المنطقة المحرمة. وكثيراً ماكانت الطفرات والترهات تبدو أنها تكذب كلّ شيء. ولكن الشياطين كانت تظهر فجأة. مَنْ أفضل من «د» لتمجيد هذه المفارقة الكئيبة.

لست أدري إن كنت تعرف تاريخ «برونر»، إنه يهودي روماني شغلته مسألة ظواهر التنبؤ والعرافة. وصل إلى باريس في ١٩٣٧ ، واعتقد أنه بوساطة «برانكوسي» الذي كان رومانيا أيضاً تعرف «جيوكومتّي» و «تانغوي». وهما قدماه فيما بعد لـ «بريتون». والآن، انتبه تماماً لما سأرويه لك. رسم طيلة عشر سنوات، أي أنها من ١٩٢٧ حتى ١٩٣٧ ، صوراً عن اللاوعي! تتعلق بالعيون بعضها عدواني جداً. لوحات يُحل فيها محل العين، فرج المرأة أو قرن ثور، ولوحات يجرد فيها الأشخاص جزئياً أو كلياً من عيونهم. ولكن الأمر الغريب حقاً هو أن إحدى اللوحات التي رسم فيها نفسه في ١٩٣١ تصوّر تماماً المأساة التي كان بطلها فيها بعين مثقوبة ومقتلعة. ولكن صورة ١٩٣١ كانت مرعبة حقاً: تبدو عينه اليمنى مقتلعة بسهم يتدلى فيه حرف «ر». هنالك واقعة أخرى تكاد لاتصدق: صورّ «برونر» في ذلك العام نفسه ١٩٣١ واجهة البيت الذي سيكون يوماً ما مسرح الرعب: مرسم «دومينيغس» في الرقم ٨٣ من شارع «بولفار مونيارناس». ظن أنه كان يصوّر وجه بصيرة كانت تقف أمام ذلك إلى رومانيا ولكنه عاد في ١٩٣٨ «لكي» يعاني من عملية الاستئصال. كتب بعد سنوات: هذا الاستئصال مايزال ماثلاً كما في

اليوم الأول «وبشكل غير الزمن الواقعة الرئيسية في وجودي».

أنقل اليك هنا روايته: «كنا تلك الليلة مجموعة كبيرة، ولم يكن قد خطر لنا من قبل قط أن نجتمع كما أجتمعنا في تلك المناسبة بلا أية رغبة أو دافع. وكان السأم يهيمن في تلك الليلة الحارة من آب /أغسطس. كنت شخصياً أشعر بالنعاس والكآبة بعد ان قضيت حوالي ثمان وأربعين ساعة في مسيرة طويلة مع «و» أمس، بدأت أشعر بخوف خفيّ وقويّ. أخذ الأصدقاء يذهبون، وبدأ «دومينيغس» وهو في أوج ثورته مناقشة مع «ي»، ولكن لما كانت باللغة الاسبانية، فإننا لم نكن نفهم كثيراً. وفجأة شحب لونه وأخذ يرتعد من الغضب، واندفع كلّ منهما نحو الآخر بعنف لم أشهده من قبل قط. فاندفعت بشعور فجائي بالموت لامسك «ي». عندئذ اندفع «س» و «و» نحو «د» في حين ذهب الآخرون، لأن الأمر أصبح مقيتاً. تمكن «دومينيغس» من الإفلات وكان لديّ بعض من الوقت لأراه، فقد طُرحت أرضاً بضربة مريعة على رأسي. رفعني الأصدقاء وأرادوا أن يأخذوني. كان يستولي على وهن شديد، وكانت سحابة تغشي بصري في الوقت ذاته، فطلبت منهم أن يدعوني أعود إلى بيتي لأنام. لكن أصدقائي أخذوني. كانت وجوههم تسفر عن ألم وكآبة مريعين. ولم أكن أدرك شيئاً مما حدث، حتى اللحظة التي مررت فيها أمام مرآة فرأيت وجهي ينزف دماً وعيني اليمنى كفرحة ضخمة. فكرت في ذلك الحين باللوحة التي رسمت فيها نفسي، ذلك الالتباس في عقلي، مثله مثل تلك القرحة، أيقظني على الحقيقة».

أعود إلى الروح التي تسافر خلال الحلم وتتمكن من رؤية أشياء من المستقبل بعد تحررها من الجسد الذي يكبلها - في الإنسان - بسجن المكان والزمان. الكوابيس هي مناظر جحيمنا ومانتوصل إليه في الحلم كلنا، يتوصل إليه الصوفيون والشعراء بوساطة النشوة والتخيل. «أقول

لابد أنه راحل فيرحل...»[1]. وفي إحدى حالات تلك النشوة وعبر ذلك الامتياز المرعب الذي يتمتع به الفنان، رأى «فيكتور براونر» مستقبله المريع. ورسمه. لاتكون الرؤى واضحة تماماً، وتكاد باستمرار تشارك الأحلام غموضها وإبهامها. ويعود ذلك من ناحية، إلى الطبيعة المظلمة لتلك المنطقة المرعبة التي قد تتبينها الروح كأنها تلوح عبر ضباب، بسبب عدم كمال انسلاخها عن الجسد، لأنها لاتكون قد تمكنت من التخلص كلياً من ثقل اللحم، ومن ارتباطها بمن تتجسد به في الماضي، ويعود من ناحية أخرى، إلى أن الإنسان لايبدو أنه قادر على تحمل فظائع الجحيم الوحشية. فغريزة حب الحياة وغرائز جسدنا التي تتمسك رغم كلّ شيء بكلّ قوتها بتلك الروح المطلقة على الجحيم، تصوننا بأقنعة ورموز من فظائعه وعذابه.

عدت إلى المخبر في ساعة متأخرة جداً. كان «غولدستين» قد ذهب، أما «سيسيليا» التي كانت، ولاشك تنتظرني، مستعدة للذهاب بعد أن نزعت معطف العمل، كانت نظرتها تتوسل، بعينيها المتعبتين جداً، عيني سيدة من يهود «الايدش».

قلت لها:

- حسنا يا «سيسيليا»، لاشيء يستحق الذكر. أشعر بصداع مؤلم جداً.

تركت لي المقاييس وذهبت، وحينما كانت عند الباب سألتني أن كنت أود الذهاب في تلك الليلة لسماع «كونشرتو» على «الأرغن»، لست أدري في أي كنيسة. لا، لم أكن أرغب، شكراً. رأيتها تختفي بجسمها النحيل وخطواتها القصيرة. فكرت: «أنني أسيء معاملتها جداً». أكدت لها منذ

---

(١) وردت في الأصل باللغة الفرنسية (المترجم)

البدء قلة ذكاء «مدام كوري» وكادت تبكي، فالتزمت أن أبرهن لها في اليوم التالي على أن تلك المرأة كانت عبقرية.

عدت لأخرج أنبوب الـ «أكتانيوم» المصفح ووضعته فوق المنضدة التي أعمل عليها. كانت عيناي تلتهبان من النعاس وتزعجاني جداً، وكان النور يؤذيني أكثر من المعتاد. أطفأت المصباح ومكثت في وحدة المخبر الموحش الذي يكاد ينيره ضوء خافت آت من غرفة مجاورة.

نهضت واقتربت من النافذة ونظرت نحو شارع «بيير كوري». كان المطر قد بدأ يهطل. وأخذ غم كئيب يلقي من جديد بثقله عليّ كما هو الحال دائماً. عدت إلى مقعدي وعيناي مثبتتان على أنبوب الرصاص الذي يحتوي الـ «اكتانيوم» المريع ورحت بلا وعي أغرق في نعاس: أيقظني فجأة وجه «ثيترونينبوم» بنظرته الغامضة الشيطانية.

عادت عيناي تتوقفان على أنبوب الرصاص الذي كانت له، على نحو ما، علاقة بكآبتي. كان مظهره حيادياً لايدل على شيء، ومع ذلك فقد كانت تدور في داخله كوارث مريعة مصغرة، كوارث خفيّة كونية مصغرة لرعب «الرؤيا» التي كان «مولينيللي» قد حدثني عنها، والتي قام أنبياء غامضون بالجهر بها، مباشرة أو عرّافة، على مدى قرون من الزمان. فكرت إن كان بالوسع تصغيري، بشكل ما، لأصبح قزماً من سكان تلك الذرات المحبوسة هناك في سجنها الرصاصي الحصين، وإن كان بوسع أحد تلك العوالم المتناهية في الصغر أن يتحول أيضاً إلى نظام شمسي خاص بي، لكنت سأشهد حينئذ وقد تملكني ذعر، قدسي، كوارث مريعة وصواعق رعب وموت جهنمية. الآن بعد ثلاثين عاماً تعود إلى ذاكرتي أيام باريس تلك، عندما طوى التاريخ جزءاً من النبوآت المشؤومة. فقد جسد الأمريكيون في السادس من آب / أغسطس الرعب الفظيع في هيروشيما. يوم السادس من آب / أغسطس يوم النوريوم تجلى المسيح

في جبل الطور.

ياللمسكين «موليني‌للي»: ناطق مثير للسخرية بحقائق تفوق حياته ومظهره. وسيط يكاد يثير الضحك، بين آلهة الظلمات والبشر. («أورانوس» و«بلوتون»، رسولا «الأزمنة الجديدة»، سيعملان كبركانين ثائرين، وسيرسمان الحدود بين العهدين) هذا ما قاله وهو يحملق إليّ. وليكن معلوماً إن تلك التنبؤات قيلت في ١٩٣٨ عندما كنا نجهل أن ذرات «اليورانيوم» و «البلوتونيوم» ستكون هي فتيل الكارثة.

كفى، أفضل أن لاأستمر في تذكر حقبة بالغة الكآبة، حين نلتقي، يوم الجمعة، أوثر أن أتحدث عما يجري لي الآن.

تحقيق صحفي

ذهب في تلك الأيام فتى يدعى «ديل بوستو» ليجري معه لقاء صحفياً لمجلة «سيمانا غرافيكا».

- لماذا كان قد ذهب من «لابلاتا»؟

كيف يمكنه أن يعرف، كانت حياته كلها سلسلة من الأفعال غير المعقولة وغير المترابطة. ولكن مما لاشك فيه أنه كان راء تلك الأمور نظام، يعني، نظاماً خفياً. هل كانت مغادرة «لابلاتا» تعني هجران عالم العلوم إلى الأبد؟ حسناً، ذلك ممكن. وكيفما كان الأمر فإنه أتى إلى «بوينس أيرس». كان «انريكي فيرنيك» سيعرّفه بامريء قد يؤجره، لقاء لا شيء تقريباً مأوى في جبال «كورديا». هكذا عرف «دون فيدريكو فاجي»، رجل الكهوف. وهكذا ذهب ليعيش في ذلك المكان المنعزل على ضفة نهر في قرية لاكهرباء فيها ولا ماء ولا زجاج.

بينما كان يتحدث و «ديل بوستو»، بدا أن كلّ شيء ينتظم، فمن

الفوضى أخذ النور ينبلج: الشمس السوداء، وأخذا يتحدثان على نحو لايمكن تجنبه، عن الكهوف والأقبية، وعن العميان.

قال «ديل بوستو».

- البوابون.

البوابون؟ وماذا دهى البوابين؟ طرح «ساباتو» هذا السؤال وقد اعترته رعشة ربما بدت في صوته، لأن «ديل بوستو» نظر إليه بحذر. روى له حينئذ ماكان هو يعرفه، ماسيأتي أحد، عاجلاً أم آجلاً، ليرويه له. ومع ذلك فإنه استمع إليه باهتمام بالغ:

- إن الشقق، بدءاً من الطبقة الأرضية فما فوق، إن هذه الشقق حالياً نظيفة جداً، من إسمنت وبلاستيك ومن زجاج والمينيوم وبمكيفات هواء. إنها متقنة تماماً.

أضاف «ساباتو»، وقد أوشك أن يفرغ صبره، كي يختصر الحديث:

- مثالية.

- أجل، مثالية. والفئران تحت. أثناء الليل حول المراجل البراقة.

البواب. جنس غريب، الرجل الذي يتحكم بالبوابة بين العالمين.

تأمله «ساباتو» بصمت. ثم قال فيما بعد:

- طبعاً.

كان المساء قد بدأ يخيم، وكانت تسمع زقزقة العصافير التي لم تكن قد أوت إلى أعشاشها بعد.

- يجب أن تأتي إلى هنا.

- نعم، طبعاً.

- عاجلاً أم آجلاً.

قال «ديل بوستو».

- أجل، إن العميان يفتنونني دائماً.

لم يعد بوسعه تقريباً رؤية ملامح الفتى الذي أضاف:

- كنت أود أن يكون هذا العمل عن البوابين والفئران تحت رعايتك، على نحو ما.

- تحت رعايتي؟

- نعم، إن لم يكن لديك مانع. ولذلك فإن ذلك التقرير حول العميان، ماأن قرأته حتى شعرت بالقلق، وجعلني أصغي لأنواع من الجلبة.

- الجلبة؟

- أعني في نفسي بالذات.

- هل تكتب؟

- لا، هذا أول عمل لي، عهد فيه إليّ «والكر» لأنني حدثته عن الموضوع فهو يود أن يراك. إنني في الواقع مصور.

- مصور؟

«مسجل نور» وقد قرر أيضاً هجر عالم النور....!

روى له الفتى «ديل بوستو» أشياء أخرى، حصيلة أبحاثه: حرب «بيت المال» ضد الفئران التي تأكل الأوراق النقدية. وبعد سنوات من حسابات ومشاريع دقيقة، وحروب فاشلة، بنوا حصناً حصيناً من الإسمنت المسلح. فشل أيضاً. هل دخلت الفئران من المجاري؟ هل تكاثرت ضمن الحصن؟

تحدثا عن إمكانية القيام ببحث كامل في أنفاق وأقبية وبلاليع ومجاري، بحث بالغ التعقيد ويفترض مسبقاً أنه فظيع.

كان، في اللحظة التي نهض فيها الفتى «ديل بوستو» على وشك أن يحدثه عن مسألة البوابين. ولكن بدا له أن الحديث في ذلك الحين لم يكن مناسباً.

ولعله، لم يكن ضرورياً كذلك.

كان يسير في شارع «كورينتس»

حين رأى «أستوربياسولا»، وكان يستعد ليتحدث وأياه عندما أدرك أنه كان مخطئاً: كان مخلوقاً آخر. وقف الرجل مستغرباً، بينما ابتعد «س» خجلاً. انعطف في أول شارع كأنه هارب. كان في شارع «سويباتشا». مكث برهة يتصنع مشاهدة إحدى الواجهات، وحين هدأ روعه بحث في مقهى ليشرب شيئاً ما. كان قرب مقهى «تيوكارلوس». لم يكن «كوهن» أمام صندوق القباضة، فبحث عن أية منضدة أخرى. رأى حينذاك «بياسولا» الذي حياه بابتسامة. سأله «استور».

- ماذا، هل تخيفك ذقني؟

- لا، ليس هذا.

- هل أصابك مكروه؟

تردد في أن يحدثه عما جرى، إلى أن روى له ماحدث وهو يرتعد على نحو لم يتمكن «أستور» من تبريره.

قال له:

- إنها محض مصادفة يارجل.

حدجه «س» بنظرة تنم عن الغضب.

- أفي مدينة تضم حوالي تسعة ملايين؟

حدثه «أستور» بعدئذ عن مشروع قيامهما معاً بقداس في إحدى كنائس بوينس آيرس.

سأله «س» وهو شارد الذهن.

- كيف.

- قداس في بوينس آيرس.

كانت حالته الصحية سيئة جدّاً، وكان متوتر الأعصاب. سوف يرى، ثم سرعان ماودعه منتحلاً عذراً، وتابع طريقه نحو «السيرفو».

وجده «برونو» غريباً، فسأله عن صحته.

أجابه وهو شارد:

- حسن، حسن.

شرب كأسا من الجعة، وبعد برهة قال لـ «برونو».

لعلك تفكر أنني بالغت في حديثي معك عن «شنايدر».

ـ بأي معنى؟

ـ أقول، بصورة عامة.. قُدْراته..

بدأ «برونو» ينسق بعض نكاشات أسنان.

تابع «س» يقول:

ـ لقد فقدت أثره منذ سنوات، لكنه موجود، حتماً في مكان ما في «بوينس آيرس».

(فكر وقد اعترته رعشة «فقدت أثره»)

رفع برونو عينيه الزرقاوين ومكث ينتظر.

ـ لقد قلت لك كيف ظهر في ١٩٦٢ ثانية، أليس كذلك؟

ـ نعم.

ـ هل رويت لك حين تابعته في «المترو»؟

ـ لا.

ـ منذ ذلك اللقاء في ١٩٦٢ ، تذكر، رأيته في ثلاث أو أربع مناسبات. وحده أحياناً، ومع «هيدويج» احياناً أخرى. طبعاً، رأيتها هي مراراً، حتى اختفت. أكان لقاؤنا وإياك في حانة «زوربوست»؟

أومأ برنو مؤكداً.

ـ نعم، اختفيا. ولكن فكر. إنني كنت أشعر دائماً أنهما يتجولان هنا،

في مكان ما من المدينة، أما هو فقد رأيته ثانية في منعطف شارعي «اجاكوتشو» و «لاس ايراس» ولكنه ما أن لمحني)ذلك في اقل تقدير هو ماأعتقده(حتى دخل إلى المقهى.

ثم مكث يفكر، وتمتم كأنه يحدث نفسه «لقد كان هو، إنني لعلى يقين».

- وأما «هيدويج».

- ألم ترها ثانية؟

لا، لكنها في بوينس أيرس، إنني لعلى يقين ، إنها أداة. ولقد كانت تعاني جداً من تلك المهمة. قُدرة الرجل؟ أو ضرب من التبعية، أو العبودية التي تجد نفسها مجبرة على أن ترضخ لها. ذاك، ذاك هو: عبودية. تلك هي الكلمة الصحيحة، بالإضافة إلى إهانة أخرى وهي أن الأمة مُتفوقة على السيد. لا أقول ذلك بسبب مرتبتها الاجتماعية طبعاً.... على الرغم من تدهورها الجسماني والمعنوي... سرعان مايراها المرء.

أخذت كلماته تضيع، كأنه عاد يحدث نفسه، بينما كان «برونو» يقول في دخيلته إنه هو أيضاً كان قد توصل إلى هذا الانطباع لأن البلى لم يكن قد لحق بجمسها وحسب، بحيث أن محاسنها القديمة تكاد لا تدرك عبر الطفيليات المتنامية، والإهمال والتلف)كالمحاسن القديمة لحديقة ضخمة تُرى عبر القضبان المحطمة والأنقاض(وإنما لحق الفساد روحها أيضاً، بفعل تناوب الزمن، وماأصاب اللحم من خطوب، وبفعل الخيبة والمرارة كذلك ولكن، فوق كلّ هذا، بفعل عبوديتها لذلك الشخص الحقير، وهكذا، فقد كان صحيحاً أنه كان بوسعه في لحظات، في لحظات عابرة ومحزنة وحسب أن يتصور روحها القديمة وسط الأنقاض.

كان «س» قد طلب كأساً أخرى من الجعة.

ـ لست أدري ماذا أصابني. أشعر بظمأ دائماً.

كان يتأمل الجعة وهو يفكر.

ـ في ذلك الوقت حين ظهور «أبطال وقبور» رويت لك إنه كان قد صادفني وبدأت أتتبع حركاته. حتى تمكنت في أحد الأيام، بعد جهود مضنية عقيمة، من أن أصل إلى نتيجة.

أضاف وهو ينظر إلى صديقه.

ـ نتيجة مروعة.

ثم تابع بعد برهة.

ـ كان ذلك في يوم كنا اتفقنا على أن نلتقي، تبعته بعد أن افترقنا حتى دخل «مونيش» في شارع «كونستيتوسيون». مكثت في الساحة أنتظر خروجه. بقي هناك حوالي ساعتين. كان الظلام يحلّ حينما خرج. دخل إلى «المترو» فدخلت إلى العربة التالية بحيث أكون في حالة تمكنني من رصد حركاته. عندما وصل إلى محطة «المسلة» استقل قطار «باليرمو» وعدت لأدخل إلى العربة التالية. بدا لي إن تصرفه يوحي بأنه ينتظر شيئاً ما في «المترو» ذاته. تصورت للحظة وبوجل، ان قواه تتيح له أن يعرف أنني كنت قريباً منه وأنه يمكن أن يفاجئني. حسناً، إذا حدث ذلك فإنني سأعزوه إلى مصادفة. وإذا لم يصدقني)بفضل قواه دائماً(ماالذي سأخسره...؟ سيرى، في أقل تقدير، أنني كنت حذراً ولن أكون في أي حال، غنيمة سهلة. وحتى كان يحتمل معرفة بعض النقاط في تقديره. كنت أفكر في كلّ ذلك حين رأيته يتقدم في اتجاه معاكس للاتجاه الذي كنا فيه، نحو أعمى عظمات باقات القمصان، الذي شاخ

أكثر من ذي قبل، لكنه فظ وحقود كما كان حين استرعى «فيدال اولوس» الانتباه حول شخصيته. انتابتني الرعشة حين تذكرت فجأة «فرناندو» في المترو ذاته يقوم بمهمة المطاردة ذاتها)ولكن من يطارد من؟(وقد ارتعدت لما كان سيحدث: لم يمر الأعمى أمام «شنايدر» كما لو أنه يمر أمام أي شخص كان، فحاسة الشم لديه، أو حاسة السمع، أو ربما إشارة سرية لايعرفها سواهما، جعلته يقف ليبيعه عظمات ياقات القمصان. اشتراها «شنايدر» منه، ولكنني تذكرت بارتعاشة أخرى ياقة قميصه المهملة التي لاتتغير أبداً. ثم تابع الأعمى مسيرته، وعندما توقف القطار، نزل «شنايدر»، ونزلت خلفه، لكنني فقدت أثره بين الحشد الكبير.

صمت «س»، ومكث كأنه يفكر زمناً طويلاً، وبدا أنه نسيّ «برونو» الذي لم يكن يعرف ماذا يفعل، حتى سأله في نهاية المطاف، إن كان يُفضل الخروج، أو البحث عن مقهى آخر أقل ضجيجاً. كيف، كيف...؟ بدا أنه لم يكن قد سمع أو فهم تماماً.

ـ كنت أقول لك إن الضجيج بالغ هنا.

ـ آه، نعم، يوجد ضجيج فظيع. كلّ يوم يمرّ يجعلني أشعر بصعوبة أكبر في تحمل ضجيج «بوينس آيرس».

نهض وقال إنه ذاهب ليتكلم بالهاتف. لاحظ «برونو» أنه حين كان يتجه نحو الهاتف كان يتلفت يميناً ويساراً. وعندما عاد قال له.

ـ لقد بينت لك أن الأمور أخذت تتعقد منذ أن نشرت «أبطال وقبور»، أرويت لك ذلك؟

أجل لقد رواه له.

- ولكن عندما اقترب مني أولئك المساكين، تلك الجلسة في القبو، أتتذكر؟ بدا لو أن طريقاً فتح... ولكن قوى من هذه الطبيعة ليس من السهل هزيمتها. وأعتقد انني قلت لك إنهم كانوا قد حذروني: إن الصراع سيكون لمصلحتي، إن كنت على استعداد لهزيمتها إلى الأبد. وَعَدْتُ بذلك في اللحظة التي كاد يغمى عليّ فيها. أشير إلى التفاؤل الذي شعرت به في اليوم التالي. وأدرك الآن أنه كان سابقاً لأوانه ودليلاً على مدى مايصل إليه المرء من سذاجة حين يكون يائساً، حيث يثق بأناس: بدائيين مسلحين بعصي للدفاع عن أنفسهم من القصف الذري. ولكن كائناً ما كان السبب، فقد أيقظتني رغبات للقتال وآمال كذلك. تعترف «م» لي الآن - قبل ذلك لم تكن تتمتع بالشجاعة لتفعل - بأنها كانت ترى في حلم، فناء مصغراً تحتها، كانت تتحرك فيه، وكأنها تتحرك في ممسوخ فناء سجن، أقزام مجنونة لكنها فاجرة تومىء وتبدو كأنها تصيح، وإن كانت صرخاتها لاتسمع، كما لو أنها في فيلم صامت: تنظر نحو الأعلى بعصبية بالغة وربما بجنون وكأنها تطلب عوناً. قالت لي: إنها شخصيات روايتك. إن لم تحررها سوف تؤدي بي إلى الجنون.

نظرت إليها ولم أقل شيئاً، فتوسلت:

- بحق الله.

أثرت نظرتها فيّ جداً: نظرة رعب ووحشة.

- إن لم تكتب، فإن هؤلاء الناس سيدفعونني إلى الجنون.

أعرف ذلك، وحينئذ كنت أنزوي في غرفتي، أجلس وراء منضدتي، واحياناً انزع الأوراق، مئات الصفحات المتناقضة واللامعقولة. وكنت بجهد جسدي حقيقي أضعها أمامي وأمكث أراقبها طيلة ساعات واجماً. وحينما كانت «م»، لأي سبب كان)لأي حجة كانت(، تطل، كنت أقلب

كومة الأوراق أو أتكلف تصحيح شيء ما بالقلم. ثم، عندما كانت تخرج من الغرفة كنت أشعر بأن عينيها ماتزالان تنظران إليّ، فأذهب إلى الحديقة مطأطيء الرأس، ولكنني لم أكن أتمكن من خداعها.

كان ذلك يحدث بخاصة، قبل أن أتعرف اولئك الناس. ثم، كما شرحت لك، فقد لذت)ياله من فعل معبر...(ببعض الآمال. أحاول، وأنا أنفخ وأحمي الشعلة الواهنة من الرياح، أن أجعل النار تتأجج، وفي نهاية المطاف، تنتشر.

لقد أثرت في نفسي الجلسة في القبو، وبخاصة حين عزفت الفتاة الشقراء قطعة «شومان». ولكنني فكرت في اليوم التالي باختلال التوازن بين أولئك الأشخاص الممتازين وضخامة القوى الأخرى. وأخذت أنتقص من قيمة ماحدث في القبو: تلك القطعة يعزفها كثير من التلاميذ في مرحلة ما من تعليمهم. أليس ممكناً أنها كانت تعرفها، وقد عزفتها مدفوعة بقوة التخاطر الكامنة فيّ؟

يجب أن لاأبالغ، لم يكن ذلك أمراً بالغ الأهمية. ليس لأنني كنت أعتقد أنهم غشاشون: كانوا أصيلين. أناس طيبون.

كنت مع ذلك أتساءل إن كانوا غير فعالين أبداً، كنت ألاحظ كثيراً من الفوائد في نفسي، كمن كان مصاباً بمرض عضال وبدأت تهفو نفسه ليأكل بعض الأطعمة وليخطو بعض الخطوات.

المسألة هي حرب لاهوادة فيها وبلا معسكر، تقدم وتقهقر، يجب شن معركة مستمرة وعدم الاهمال أبداً وعدم الركون إلى الاستيلاء على هضبة ما او انسحاب العدو الذي يمكن أن يكون بكلّ بساطة مجرد خدعة. إنني أشن هذه الحرب منذ سنوات باشتباكات غريبة، غرابة مسألة التمثال.

كان أطفال الحيّ يتأملونه خائفين)أدركت ذلك فيما بعد، طبعاً(هناك كان بين الأغصان مخبأ تقريباً تحت النخلة في الصدر. أجل، منذ أن لاحظت أن أطفال الحي و «ديّاس» أيضاً ينظرون إليه تطيراً. بدأت ادرك أن فيه شيئا ما مشؤوماً. رويت في أحد الأيام ذلك لـ «ماريو»، فأجابني وكأنه يحدّث قاصراً: ولكن ألا تعلم ياوالدي أن أي ممثل لايعمل في مسرح حيث يوجد تمثال من الجبس؟

- لماذا؟

- ومأأدراني. لكن يعرف ذلك الناس كلهم.

لم أتمكن تلك الليلة من أن أنام، إلى ان بدا لي فجأة كلّ شيء جلياً. كيف لم أشك بذلك من قبل؟ عند الصباح قلت ذلك لـ «م».

- ألم يخطر لك قط أن ظهور التمثال على الرصيف في ذلك الصباح كان امراً من الصعب تفسيره؟ لماذا يترك تمثال ضخم من الجبس، تمثال امرأة بحجم طبيعي على رصيف بيتي؟ من أين خرج؟ كان من صنع نحات وليس صانع تماثيل للحدائق: صنع نحات حديث، من بوسعه حيازة شيء مماثل في «سانتوس لوغارس»، حي عمال وأناس كلّ مايمكن أن يزينوا به بيوتهم ليس أكثر من تماثيل سوقية صغيرة؟ ثم، لماذا تركه على رصيفنا، وفي الليل. ألم يخطر لك شيء؟

مكثت تفكر، لأنها حاربت دائماً أفكاري الهذاءة.

- تذكري. طيلة سنوات وأنا أود حيازة تمثال في حديقتي، أحدى نسخ تلك التماثيل الاغريقية أو الرومانية الموجودة في الحدائق. تذكري أنني بحثت بجميع الوسائل كي أحصل على تمثال من تلك التماثيل التي كانت في حديقة «ليساما» او في بيت الرواية: بيت «لينيرس» و «هـ.

ايريغوين». كثيرون من معارفنا يعلمون ذلك. كثيرون منهم أكدوا لي أنهم سيحاولون أن يجدو لي واحداً، حتى «بريبيش» عندما كان رئيس بلدية.

- أجل.

- أمر آخر. ماالذي فكرنا به عندما رأينا التمثال على الرصيف؟

- إنّ ذلك دعابة. دعابة صديق، أحد أولئك ترك التمثال ليلاً لكي يكون مفاجأة لنا في اليوم التالي.

- تماماً، ولكن لم تدركي أمراً.

- ماهو؟

- ان هذا الصديق لم يعرف قط. لماذا يبقى مجهولاً؟ أكان في الأمر مايشين..؟ إن كانوا قد تركوه لكي يسعدونا، فلماذا هذا الصمت؟ لقد انقضت أشهر، وشيئاً فشيئاً أصبح الوضع مشؤوماً أكثر والأمور تسير من سيء إلى أسوأ والتمثال يبدو كلّ يوم في ذلك الركن مشؤوناً أكثر. سألني «دون ديّاس» مراراً. لماذا أحتفظ به في الحديقة.

- نعم.

- لنفكر الآن على نحو معكوس. لنفترض أن أحدهم أراد أن يسبب لنا ضرراً بشيء أُدخل إلى البيت. امرؤ كان يعرف رغبتي في الحصول على تمثال. الأمر في غاية البساطة: يترك التمثال في تلك الليلة على الرصيف، يعرف حامل الرقبة المؤذية أنني أنهض باكراً، باكراً جدّاً ،أخرج إلى الحديقة، ويتصور أنني أراه على الرصيف وسرعان ماأدخله... والخ. ألا يمكن أن يكون الأمر كذلك؟

نظرت الي بصمت. طلبت منها إجابة، فقالت:

ـ أجل، طبعاً.

قضيت ماتبقى من الليلة قلقاً جداً، كان ذلك الوجه بنظرته المجردة كنظرة عمياء، والذي له شكل امرأة، يبدو ماثلاً أمامي على نحو جلي بملامحه الشريرة.

ما أن أصبحت، حتى نهضتُ وذهبت إلى الحديقة. لقد كان هناك يحملق إليّ بوجهه المشؤوم كله من بين النباتات.

فكرت أولاً أن أخرجه أنا بالذات ولكنه كان ثقيلاً جداً. انتظرت بفارغ الصبر ظهور «دون ديّاس» على الرصيف كعهدي به كلّ صباح، ثم طلبت منه أن يساعدني. أخرجناه إلى الشارع ثم بحث هو عن حبل في بيته وربطه على نحو يتمكن معه، من حمله على ظهره وطلب مني أن أدعه لوحده، فهو سيأخذه إلى مكان ما.

أين، لم أكن أود أن أعلم. والأمر الغريب هو أن «ديّاس» لم يقل لي أيضاً.

مكث «ساباتو» ينظر إلى «برونو» كما لو أنه يسأله مارأيه.

فقال بعد أن توقفت نظرته برهة.

ـ أمر بالغ الغرابة فعلاً.

ـ أليس كذلك؟

ـ مكث ذاهلاً يفكر. «كاستيل» وانتقام الطائفة. منذ أن أدرك «فرناندو» ذلك ذعر وقرر وضع محيطات تفصله عنه. ولكنه لم يتوصل في تلك

الرحلة من تحقيق شيء سوى مواجهة مصيره ثانية. الأمر الغريب هو أنني أدركته مسبقاً، ومع ذلك لم أتوقف عن الركض. هو أيضاً كان يود تفادي مصيره، ولكن تلك القوى الغامضة كانت تجبره على الغوص أكثر فأكثر في ماكان يودّ أن يتفاداه. نعم، كثيراً مافكرّ في هجر ذلك كله. فتح مشغل صغير في حيّ مجهول، وربما ترك ذقنه تكبر.

وبقدر ماكان يشعر بأنه محاصر، كان يدغدغه بكآبة أشد، ذلك الاحتمال اللامعقول. ذلك هو الفعل الصحيح: يدغدغه. كان يشعر الآن بأن كل شيء ينتهي في تلك الصفحات.. وعلى الرغم من أنه لم يكن يعرف ماالذي كان سينتهي تماماً، فإنه كان متأكداً من الانتقام.

إلاّ أن: الحياة كانت تهمه جدّاً.! كان يوّد أن يكتب عن أشياء كثيرة..!

وكان بوسعه على نحو ما أن يفعل، طالما كان الأمر لايتعلق بمجرد أفكار. فالقوى لاتخاف الأفكار، وحتى أن الآلهة لاتنزعج. الأحلام، التخيلات، هذه هي التي تخيفها.

قال فجأة:

- والآن، ذلك الدكتور «شنيتزلر»؟

- كيف؟ أليس اسمه «شنايدر»؟

- لا، إنني أتحدث عن شخص آخر، عن أستاذ، حشرة غريبة. غريبة جداً، أرسل إليّ بضعة رسائل.

- رسائل؟

- نعم رسائل.

ـ تهديدات؟

ـ لا، لاشيء من هذا. إنه أستاذ. بدأ يكتب إليّ عن بعض أفكاري حول الجنس.

بحث في أحد جيوبه.

ـ أنظر هاك رسالته الأخيرة.

توجد في «البيانو»، ياعزيزي الدكتو، النغمات المنخفضة (المظلمة) إلى اليسار. العالية أو الواضحة إلى اليمين. اليد اليمنى تعزف الجزء المعقول (المفهوم)، النغم. انتبه كيف تبدأ اليد اليمنى باكتساب أهمية لدى المؤلفين الرومانسيين، إيه؟.

بدائياً، كان يكتب من الأعلى إلى الأسفل كالصينيين، أو من اليمين إلى اليسار كالساميين. مؤخراً فإن كلمتي (أعرف نفسك) في معبد الشمس تسير من الشمال إلى اليمين، لاحظ يادكتور ساباتو: الشكل الأول كان النزول إلى الأرض الثاني الذي يعود للساميين نحو اللاوعي أو الماضي: وحالياً، الأخير الذي نكتبه نحن، يتجه نحو امتلاك الوعي.

هرقل في مفترق الطرق يأخذ طريق اليمين، الأموات العادلون، برأي أفلاطون يتخذون الطريق نحو اليمين والأعلى: والظالمون نحو الأسفل واليسار. فكّر ياعزيزي الدكتور، فكّر. مازال لديك وقت، وآمن بشخص، الخ...

ـ ولكن لاأرى لماذا يتعين عليك أن تقلق.

ـ لدّي خبرة مؤلمة. هناك شيء ما في هذه الرسائل، إلحاح على رؤيتي، شيء له علاقة بعالم العلوم، أعني النور، الذي.... المهم... إنها

مسألة شم، ألا تعلم؟. رسائل أصبحت في كلّ يوم أشد تصميماً، تنطوي على شيء ما وراء كياسته المتكلفة. والآن قررت جازماً أن أمسك بقرنيه. والحقيقة - نظر إلى ساعته - وقد وطدت العزم على زيارته حوالي الساعة السادسة، يتعين عليّ أن أذهب الآن. سنلتقي قريباً.

الدكتورشنيتزلر

حين قرع الجرس، شعر أولاً أن عيناً صغيرة تتفحصه عبر عدسة المراقبة من الباب زمناً خاله طويلاً، ثم انفرج الباب قليلاً فرأى رأساً هجيناً من عصفور جرذ يطل منه.

أعرب بصوتيه الحاد القلق عن سعادة عصفورية أيضاً. كان نحيلاً استهلكته سنون بين كتب. وكانت عيناه الصغيرتان عينا الجرذ، تلمعان خلف نظارتيه المستديرتين المحاطتين باطار معدني اتخذه «الهبيون» مؤخراً زياً جديداً، ولكنه هو قد اشتراه منذ نصف قرن في المانيا وحافظ عليه بحرص ، كالحرص الذي حافظ به على كتبه في المكتبة، مرصوفة كجيش جرماني، نظيفة، معقمة ومرقمة.

أجل، هكذا: كان يتحرك بقفزات سريعة كقفزات العصافير حين تمشي على الأرض. وَثْباتٍ نَزِقة وقاطعة: ضرب من إيقاع إحدى قطع «هايدن» الموسيقية المضحكة. كان يشير إلى الصفحة تماماً في الكتب التي يعود إلى وضعها بحرص بالغ في المكان الذي يجب أن تكون فيه. فكر: لو أن هذا الشخص وجد نفسه مجبراً، تلبية لأمر يتعين احترامه . ليكن قراراً من الحكومة الالمانية مثلاً)، على إعارة أحد تلك الكتب، لا عرب عن الأسى الذي تعاني منه أم حانية، يتعين على ابنها أن يذهب إلى حرب فيتنام.

كان يفكر ، يقوم بإحصاء كلّ شيء في المكتب وهو يريه، لايدري

أي مقطع. ثم فُتح بابٌ قليلاً وظهر من الفتحة المواربة بدقة، طبق فوقه كوبان من القهوة، تحمله يدان هزيلتان لامرأة خفية. تلقى «د. شنيتزلر» الطبق دون أي كلام.

أين كان قد رأى وجه ذلك العصفور ذي عيني الجرذ ياترى؟

لقد وجدته مألوفاً، أليس كذلك؟ ثم دله بابتسامة شيطانية على صورة «هيس» في المكتبة مهداة إليه.

طبعاً، طبعاً: وجه المجرم الزاهد ذاته واقفاً على شفا الإجرام بدافع فلسفي أو أدبي، أو ربما، ضرب من الاحترام مهني خفي.

كيف لم ينتبه إلى ذلك من قبل؟ لأن الشبيه كان بكلّ تأكيد، يضحك دائماً: الشقيق المزركش. للمجرم العبوس.

- لقد تكاتبنا.

- ياللأسف، للأسف لايعثر المرء هنا على أي أثر للهرطقة، ولكنه كان قد صور من المكتبة ماكان بحاجة إليه. وبينما كان «ساباتو» يوضح له أنه قبل أخيراً إعارة الطبع، سأله من قبيل الحيطة، كيف كان بوسعه أن يهتم حتى هذه النقطة. فتح بعد عدة قفزات خزانة نظيفة جداً وأخرج منها ملفاً معقماً.

- أنظر، أنظر، لقد أهتممت دائماً بموقفك يادكتور.

فكرّ بإعجاب. إنها المانيا، فلو اكتشف المانيّ أن أحداً أصبح دكتوراً، وإن ولم يكن ذلك قد حدث سوى في حياة تقمص سابقة، فلا يمكن لأحد أن يرغمه (إلاّ الحكومة طبعاً) على السكوت عن ذلك اللقب. حاول، على نحو مثير للضحك، أن يذكّره أن ذلك يعود إلى عصر ماقبل التاريخ، إلى

عصره حين كان في طور الضفدع، ولكن الآخر نفى بحركات نفي خاطفة من سبابته، كأنه. مقياس شدة الصوت يسجل نغمة حادة سريعة. فالأمر كان كما يرى «شنيتزلر» مثل محاولة طلب الإقرار بعدم وجود يد لمجرد كونها تحت قفاز، كان ذلك عبثاً. كان يعرفه بالخبرة الطويلة.

نعم، كما كان يقول له، لقد كان يهتم بتطوره دائماً.

- غريب جداً يادكتور، غريب جداً....!

كان «ساباتو» يقول في دخيلته إنه كان يدرسه بابتسامة عصفور ماكر ينتمي إلى محفل ماسوني. كانت ملامحه تعني «إنك لن تخدعني»، في حين كان «ساباتو» يتساءل بحذر بالغ، أي خداع كان يعني.

ولكن استغرابه كان أشد حين قرأ «أبطال وقبور». كان ينتظر جوابه: لأي سبب؟ ولماذا..؟

مكثا برهة صامتين صمتاً مطلقاً، برهة بدت له مقلقة. وسرعان ماأدرك ماكان يدور في خلد ذلك الرجل، لكنه أمسك عن إعلانه. على النقيض من ذلك، انتظر جوابه وكما لو أنه يتساءل بذكاء بالغ ماذا كان بوسع «شنيتزلر» أن يكون قد وجد في عبارة «غريب جداً».

وصلت كلماته بدقة قاطعة، وعلى الرغم من أن ذلك كان منتظراً، فقد أصابته يقشعريرة.

- العميان ، يادكتور.

قال ذلك وهو يحملق إلى عينيه.

ياللشياطين لماذا وافق على رؤيته؟ بل والتقاه في شقته. استخلص: لأنه كان يخشاه، لأمر كانت تشي به رسائله خفية. ماالذي كان يبغيه

من ذلك الإصرار على رؤيته؟ وكان من الأفضل في جميع الأحوال، مواجهة الخطر وسبر الصخور الخفية، وقياسها ووضع المخطط. لقد كان تنقيبا صعباً، في حين كان الآخر يحملق إلى عينيهٔ. وفكر فجأة بتلك المرأة التي أتت بالقهوة، لماذا لم تظهر؟

ـ ولكن، أنت متزوج، أليس كذلك يادكتور «شنيتزلر»؟

بقي خلال زمن طويل بعد ذلك اللقاء الأول يتساءل ماذا كان يقصد بتلك العبارة «ولكن».

أبدى البروفسور مظهر الجد، بدا أنه يدرس موقف العدو. ثم أجاب بعد ذلك بتمتمة تفيد الإيجاب، وهو يراقب ردود فعل الآخر.

لاشك أنه وضع عبارة «ولكن» من قبيل الحيطة، فلم تكن هنالك أي عبارة من عبارات الأثنين تبررها، ذلك كان يجب أن يوضح له (فكر ساباتو) أن عقلي كان يعمل في مستويين: مستوى الحوار السطحي، والآخر الأشد عمقاً وسرية. وكحصان حساس يقف متحفزاً أمام كومة قش عندما يحدس بأن شيئاً غريباً وخفياً هناك، فإن «شنيتزلر» ذعر، حتى أنه لم يعد بوسعه المحافظة على ابتسامته الدائمة التي كان يخفي وراءها نواياه.

قال كأنه يعتذر.

ـ بلى، إنني متزوج.

وفجأة عادت الابتسامة بينما كان يبحث في المكتبة عن كتاب أستاذ في أكسفورد.

ها هو : مشكلة اليد اليمنى.

وافق «ساباتو» بإيماءة آلية، ولكن عقله كان مايزال يفكر بسرعة: إن الشقة صورة مصغرة، فهنالك لايمكن أن يعيش سوى الرجل وزوجته، بعض الدلائل تشيرإلى أنه كان يكره النساء، أو أنه في أحسن الأحوال، كان يحتقرهن بسخرية شيطانية. مالم يكن قد اتضح له بعد هو، لماذا كان يشعر بالحذر من تصفيق «شنيتزلر»، فقد كان يؤكد بعدة كتب، أفكار «أبطال وقبور» حول الحضارة المثالية، على الرغم من وصوله إلى حدود لم يكن هو يشاركه الرأي فيها. وفي جميع الأحوال فإن غريزته كانت تحذره من أنه أمام عدو وليس حليف.

كان يردد فرحاً.

ـ أنت الذي قلته، لاتنسى!

قال وهو واقف،وسبابته تشيرإلى رأسه الذي يحاكي رأس العصفور، كأستاذ لغات مهرج يشير إلى كلّ جزء من أجزاء جسمه، في حين ينطق الكلمة المعنية: الرأس، إيه، حضارة عقلانية ومذكرة.

اليد اليمنى.

النظام المجرد، القواعد

الحق (كلمة ذات معنى ياعزيزي الدكتور ساباتو!)

الموضوعية.

الخ.. الخ... الخ..

كان في غمرة حماسة يبدو كأنه نسي القهوة، حماس؟ نسيان؟ رشف قليلاً من القهوة الباردة. وَعَدّدَ، من كتاب ألماني بيده، ماكانت هذه الحضارة المذكرة قد قمعته: الحيوي، اللاواعي، غير المنطقي، شبه

المنطقي، السفسطة، الذاتي.

ورشف عندئذ قليلاً من القهوة، وكانت عينا الجرذ، القلق المسرور كما يبدو، تلمع خلف الكوب، وهو يراقبه.

كان ساباتو يفكر بسرعات شاقة، لماذا كان حذراً، ألم يكن يردد ماكان هو قد ذكره في كتابه؟ كانت تبدو دعابة فلسفية، ومع ذلك فإن خوفه كان يشتد.

شقيق «هيس» المبتسم، ربما كان أشد شؤماً بابتسامته القاطعة. كان قد أمسكه من معطفه كأنه خياط وسأله كأنما يسأل تلميذاً في الامتحان: ماالوجه اليميني لقطعة قماش؟ إنه هو المهم، أليس كذلك؟ الوجه الآخر هو الذي ينبغي أن يُخفى.

ثم عدد بسرور واضح أرزاء: للشؤم علاقة بالبلية والرذيلة والرزية والدنية، وكلها مؤنثات، يُقسم باليد اليمنى، وتُعمل قرون باليسرى.

سأل ساباتو كسباً للوقت:

- قرون.

- طبعاً، طبعاً، أما المسيحية فهي ديانة شمسية ومذكرة ترى في اليسار شيئاً شيطانياً.

توصل إلى نتيجة مفادها أن ذلك الرجل القزم كان يود إنقاذه أو أنه كان عميلاً للطائفة التي كانت تبحث عن الوسيلة التي تمنعه من الاستمرار في تحقيقاته. وجد نفسه على نحو مفاجيء، حتى بالنسبة إليه بالذات. يسأل إن كانت تلك المرأة التي اتت بالقهوة هي زوجته. ومأأن طرح السؤال حتى ذعر من الخطوة التي خطاها، ولكان كان الأوان قد فات.

اعتقد أنه لاحظ قسوة تكاد لاتدرك على ملامح ذلك الرجل، ولكنه استرد في لحظة ابتسامته المصطنعة:

أجاب كما لو أن الأمر يتعلق بسرّ، بشيء هزليّ، مقارباً صوته من ابتسامته:

ـ أجل،أجل إنها لكذلك، ولكنها خجولة جداً.

فكر ساباتو: كذاب.

قال الاستاذ مبتعداً عن كلّ اعتبار شخصي:

ـ يا للنساء المسكينات.

ضحك، ولكن كان واضحاً أنه كان يشعر باشمئزاز أصيل.

ـ يالها من عقوبات لغوية مضاعفة.....! منذ السنسكريتية، عجباً.

منتظم، تصحيح، صح، سديد، خا... خا.... خا..!

فُتح الباب قليلاً، وعاد يظهر طبق أكواب القهوة ثانية. كان قد أصابه الدوار، شرب القهوة بأسرع مايمكن، وأدعى أنه تأخر كثيراً ثم هرب. ودعه «شنيتزلر» عند المصعد كانت عيناه، عينا الجرذ الماكرة تنم عن فرح عامر.

لماذا...؟ لماذا؟ تساءل حين كان في الشارع.

صعد إلى شقة «بيبا».

ما أن دخل حتى قال:

ناوليني كأس ويسكي.

نظرت إليه بيبا بعينين متفحصتين.

- ماذا جرى لك؟

- لاشيء، أود أن أشرب كأس «ويسكي» وحسب، إنني متعب، متعب جداً.

- ظننت أنك «كيكي».

- لماذا؟

- لأنه سيأتي.

- نهض ساباتو ليذهب.

- لاتكن سخيفاً، أجلس في المقعد هناك في الخلف إن كنت متعباً جداً لن يزعجك أحد، سيأتي مع الاستاذ «غاندولفو» ولاشك أنه سيحتاج إلى رأي.

- غاندولفو؟

- شخص اكتشفه «كيكي».

- هذا يكفي، سأشرب الويسكي ثم أذهب.

- قلت لك يمكن أن تضطجع هناك في الخلف، ليس من الضروري أن تتحدث مع «كيكي» يهمني جداً أن تبدي لي رأيك.

استسلم ساباتو.

- أود أن أعرف إن كنت قد سمعت مرة شيئاً عن شخص يدعى «شنيتزلر».

ـ فيما عدا قراءة بعض حكاياه، لا، لم يقدمه أحد لي قط.

ـ لست مستعداً للهزل يابيبا، لاأتحدث عن ذاك. أتحدث عن الماني يعيش في «بوينس آيرس» ، هنا بيننا.

لا، لم يكن لدى بيبا أي فكرة. وشنايدر ألم يكن قد ذكره؟ هيا يا رجل، منذ سنوات لم أر تلك الشبكة الدولية. نظر إليها «ساباتو» بسخرية متعباً: «شبكة دولية» ماذا، ماذا جرى؟ لاشيء، لاشيء، والصبي «كوستا»؟

ـ ماذا؟

ـ ماذا يفعل، أين هو؟

ـ ماأدراني، في منزله الريفي في «ماسشويتز»، منذ ان تمكن من العودة. «فيانويفا» عنه. إلا أن يكون في هذه الفترة قد تحلل من زواج آخر. وكان في «كاراكاس» أو لندن.

قال «ساباتو» في دخيلته وهو يفكر.

ـ هكذا إذن، منزل «ماسشويتز» الريفي.

ـ ماذا تقول...؟

ـ لاشيء..

حينئذ وصل «كيكي» مع رجل صغير طوله متر ونصف، له وجه طفل حسن التغذية، وردي اللون، وسليم الصحة، يضع نظارتين ذهبيتين، نشيط، ضرب من ملاك غبي، لكنه طيب، على استعداد لمدّ يد المساعدة دوماً.

رأي الدكتور البرتو . خ. فاندولفو.

حثه «كيكي»: ـ قل ياأستاذ قل: كلنا آذان صاغية[1]

انسحب «س» إلى الطرف الآخر من القاعة معكر المزاج.

ـ كانت البشرية تعيش في حقبة قديمة جداً في النطاق السماوي، وكانت تشكل أسرة كبيرة جداً تحيط بالإله الأب. لم تكن للبشر أجسام، كانوا مجتمع ملائكة. وكان يُوَجِّه أولئك الملائكة رئيس روحي يدعى الشيطان، رئيس يتمتع بسلطة عظمى. كسلطة جنرال في زمن الحرب، إلاّ أن أطماع السلطة تضلل الكائنات من أي طبيعة كانت. وكونها كائنات روحية لايعني افتقارها إلى الطمع. أخذت الأطماع تخالط ضمير الشيطان الذي وصل به الأمر إلى أن يعتبر نفسه قادراً على كلّ شيء كالإله الأب ذاته، في حين كان في الواقع يفتقر إلى قدرة الخلق. وبدأ يعمل بمكر لكي يتمرد التنظيم الذي يرأسه، واعداً بمناصب وسلطة.

ـ مثل أي جنرال طموح في أي بلد صغير، أليس كذلك ياأستاذ؟

ـ لاأكثر ولا أقل. يتعين أن أقول إن الملائكة لم يكونوا جميعاً من أتباع الشيطان. لكن الذين هم من أتباعه كانوا أشد طموحاً، ولنقل، إنهم كانوا روحياً، أقل نقاء.

ـ ولكن أعذرني ياأستاذ، أفترض أن الإله الأب لايمكن أن يجهل المؤامرة. وأقول ذلك لأنه قادر على كلّ شيء.

ـ طبعاً لا. كان يعرفها، وتتبعها، وبدلاً من أن يخبطها، ترك تلك الفكرة تتأصل وتختمر، حرية الفكر والعمل، التي أرساها الإله الأب مقدسة كالخالق نفسه، لم يشأ الله أن يغلّ عقولنا وإرادتنا بالسلطة،

---

(١) وردت الجملة في الأصل باللغة الفرنسية(المترجم)

لأنه لو حرمنا من الحرية، لتوقف تطور ضميرنا الذي يجعلنا نتقدم في النظام الروحي. كان إذن يعرف مخطط الانقلابيين، لكنه استبق الأحداث فسبب انقسام اللانهاية إلى سماء وأرض.

ـ هاكم...! وما السبب ياعزيز الأستاذ؟

سترى. قسمت السماوات إلى مناطق لوضع الأسر المختلفة، بحسب طبيعتها الروحية. خصصت الأرض للكائنات ذات الأطماع الأنانية. استخدم الخالق لتحقيق هذه الفكرة أركانه. من بينهم الشيطان نفسه أو يهوه.

ـ نعم. إنه الاسم الذي أصبح معروفاً فيما بعد في الكتاب المقدس.

أولئك الأركان كانوا آلهة حقيقيين ـ ايلوهيم في العبرانية، ترجمت إلى الاسبانية خطأ، الله، بالمفرد وليس بالجمع.

قالت «بيبا».

ـ توضيح ياأستاذ.

ـ ولم لا.

ـ لقد قلت إن الشيطان ويهوه هما الكائن ذاته.

ـ بلا أدنى شك، ويتعين أن أقول لكن إنه من الضروري توضيح سرّ أساسي.إن العهد القديم ليس الكلمة المقدسة كما تؤكد العقائد الدينية كلها تقريباً، بما في ذلك الكاثوليكية. هنالك جزء واحد من الحقيقة فقط هو الذي تحدث عن حقبة التكوين. ماتبقى هو من عمل الشيطان الذي فرضه على الآباء الساميين الخاضعين لسلطته والذين كانوا يبشرون بأفكاره وأمثاله مدعين أنه الخالق الأعلى.

ـ مكر...! شيطانية، فظاعة.

ـ لقد قلت الحقيقة. إنها جرأة تجعل هذه الشخصية الجبارة الخفية فريدة من نوعها. يتظاهر بأنه هو الإله الحقيقي، ويجعل الإله يظهر كأنه الشخصية الشيطانية.

كان صوته صاخباً وتعليمياً: معلم مدرسة يشرح ـ بدلاً من عملية التقسيم ـ مؤامرة مريعة. كان صوتاً محايداً أو هادئاً، لم يكن يبدو أنه يبرهن على أن الشيطان يحكم العالم، بل على نظرية «فيثاغورث» في قاعة درس مشمسة ونظيفة في حين ينتظر جرس الاستراحة.

ـ اصبح بوسع الشيطان ممارسة تلك اللعبة منذ أن طرد من المنطقة السماوية لكي يتحول إلى إله الأرض، التي أخذت تحكم بوساطة أهوائنا وأنانيتنا وجهلنا، سترون الآن ماجرى لتربية المواشي.

سألت بيبا:

ـ ماجرى لأي شيء يادكتور؟

ـ لتربية الماشية، كان «هابيل» يمثل الملاك الذي يحرس الماشية، بينما كان «قابيل» يمثل الملاك الذي يحرس الزراعة. يهوه، وأعني الشيطان، وَسْوَسَ لقابيل أن يقتل أخاه. إنكم تتساءلون، ماالهدف.

ـ تماماً ياأستاذ.

ـ بسيط جداً. حين يقضي على رعاية الماشية، فإن هذه ستكون ضحية سهلة للذبح من أجل طعام البشر. وبهذا يلغي الغذاء النباتي الذي أقامه الإله الأب، لتحل محله منتجات الذبح.

قال «كيكي»:

ـ واضح. وبحيث أن قابيل يصبح راعي أكل اللحوم، لاوجود ـ في غيابه ـ لتجارة الملاحم.

ـ طبعاً لا، لقد كان هدف التغيير «تحييد الخطة الإلهية»، لأن الغذاء النباتي يحفظ الصحة، إلى جانب أنه يُغني روحانية البشرية. والغذاء الحيواني أو الجثثي ينقل الأمراض ويقّصر الحياة ويقسّي الوجدان ويضعف الحواس ويشجع الأهواء وينمي الأنانية، بالإضافية إلى أنه يشكل انتاجاً لاأخلاقياً، فكلّ مامن شأنه الاعتداء على حياة كائن، ليس أخلاقياً بل جريمة. إلى هذا الوضع يقود النظام اللّحمي، وهو الذي يحفظ الإنسانية في الجهالة المطلقة، ويمنعها من إمكانية تلمس الحقيقة والسمو روحياً.

ـ نظرية ممتعة ياأستاذ.

إنها ليست نظرية وإنما واقعة ثابتة، أمر آخر. نوح والطوفان، أنظروا كيف يؤكد كلّ شيء ما سبق. لما كان الشيطان ليس بقادر على خلق كائنات بشرية أو حيوانية فقد أقصى نوح وذريته، وعدداً معيناً من جميع أصناف المخلوقات لكي تتكاثر. كم أن البشر سذج حين يعزون مثل هذا العمل الفظيع الاجرامي الفظ إلى الإله الأب... إن الشيطان. طبعاً لم يكن يهمه قط إنقاذ أنواع النباتات، لكن الأرض التي كانت مملوءة بالبذور منذ زمن التكوين جعلت مملكة النبات تظهر من جديد بفضل جوهرها الروحي.

ـ خيبة أمل كبيرة للشيطان.

ـ طبعاً، مما يدلّ أيضاً على مدى استعداده لارتكاب الأخطاء. ولكن أعود إلى ماكنت أقول لكم «فان غرق أطلنتس»[1] و «خراب» و «سدوم

---

(١) أطلنتس: حزيرة خرافية يزعم أنها غارت في المحيط الاطلسي غربي جبل طارق (المترجم)

وعمورة»[1]، وقتل هابيل، والشرور التي انتشرت منذ ذلك الوقت، على وجه الأرض، إنما هي من عمل الشيطان. فالأب السماوي الذي هو جوهر الخير لم يكن قط، ولايمكن أن يكون أبداً، ذاتاً دموية وقاسية بوسعها أن تدمر بوحشية ما خلقته بالحب. إن العلماء والمهندسين الذين يعزون هذه الأعمال الفظيعة للإله يعيشون مخدوعين، يضللهم الشيطان.

كان يبدو أن فيه شيئاً مضحكاً من مسرح العرائس، يُخلّف انطباعاً بأنه لعبه يحركها أحد من أعلى (ولكن، مَنْ، ومِنْ أين؟) أو كأنه لعبة تبدو أنها تقول ماكان يقوله الآخر وجه جامد لايتحرك. كان فيه شيء مامصطنع أو غير حقيقي. ومع ذلك فقد كان المرء يشعر أن رسالته كانت حقيقية وإن كانت غامضة، مريعة وإن كانت مضحكة.

سألت «بيبا»:

- أمر جدير بالاهتمام ياأستاذ، ولكن كيف نعرف حقاً أن الشيطان وليس الإله الأب هو مرتكب هذه المساوىء؟ ألا يمكن تفسير كلّ هذه الفوضى بأنها من صنع «أب» سفاح؟

- لا، لأن الإله الأب كامل، وبالكمال يفترض الخير. ولكن هنالك برهان مثير حقاً. رواية الآشورين عن الطوفان تتفق تماماً والرواية اليهودية ولكنها تدلل على أن روح الشر هي التي تحكم الأرض.

قال «كيكي»

- بحيث أن الهيود بدأوا يكذبون منذ الطوفان، بدأوا بالصحافة سيئة النية. ياللفظاعة؟

---

(١) سدوم وعمورة: مدينتان أمطر عليهما الرب كبريتا وناراً فدمرهما حسب الرواية التوراتية في سفر التكوين، الاصحاح التاسع عشر (المترجم)

ـ لاشك ياسيد، إن نوح وجماعته أفادوا بعد الطوفان في مضاعفة الذرية ولذلك فإن قرابة الدم كان لابد منها، ويمكنكم أن تتصوروا إن كان ذلك النسل يمكن أن يقارن بأولئك العمالقة. فصل الشيطان من إحدى تلك الذراري واحدة وبثّ فيها أهواءه وأنانيته لكي يوجهها بحسب رغباته.

ـ اليهود.

ـ تماماً. وأختار أحد ممثلي تلك الذرية ليكونوا ناطقين باسمه على الأرض. يقول «يهوه» لإبراهيم: سأجعل من شعبك أمة عظيمة. فبهره بذلك وسيطر على إرادته.

ـ أرجو ياأستاذ أن لاتحمل كلامي على محمل سيء، إنما أود أن أعرف إن كنت معادياً للسامية.

ـ لا شيء من هذا ياسيد. لنقل تكريماً لهذا النسل الذي خدعه الشيطان، وأدت هذه الخدعة إلى إيجاد الرابطة بين أسرائيل والشيطان، رابطة استمرت عبر القرون بوساطة عهد الختان والطقوس ووصايا شيطانية أخرى، مثل الغفران يسبب أحداث مصر.

ـ أحداث مصر ياأستاذ؟

ـ طبعاً، أحداث شيطانية ولاشك. لقد رأينا من قبل كيف أن الشيطان ارتكب فظاعات كالطوفان وإغراق العمالقة وتدمير مدن بكاملها بالنار. هذا كي لانتحدث عن زنا المحارم والجرائم البشعة في سدوم، ولكن كلّ لايذكر أمام الأوبئة التي أرسلها فوق مصر: ضفادع وقمل وجراد وذباب وطاعون الماشية. مارأيكم؟ والآن فكروا ماذا جرى للمسيح. كان المسيح أحد الكبار الروحيين الذين يساعدون الإله الأب. الرسائل

التي استخدمها الشيطان ليحول الشعب العبراني إلى عبد له (مقابل الثروة والحماية) جعلت الإله السماوي يبعث المسيح للأرض. متقمصاً جسد عيسى (من هنا أتى اسم عيسى المسيح) لتحرير ذلك الشعب من تلك العبودية، وإن كانت منافع المهمة اتسعت لتشمل ماتبقى من البشرية، لأيقاظ الوجدان بعمل المخلص. ولو لم يكن الأمر كذلك لبقينا في جهالة مطبقة ولجهلنا السيطرة الشيطانية واختلط الأمر مع الألوهية وحين أدرك الشيطان المناورة، حاول في البدء إغواء ابن الله ليقدم له ملكوت العالم ومجده، مثلما كان قد أغوى وخدع الشعب اليهودي. ولكن لما كان المسيح قد رفض العرض باشمئزاز، فإن الشيطان لجأ إلى تخريب المهمة، بأبشع الطرق. خسارة المسيح فتحت أخاديد عميقة في الشعب العبراني ، وردة الفعل الصحيحة تلك، شكلت أكبر خطر على سيطرة الشيطان. عندئذ لجأ إله الأرض، إلى تقسيم رأي الناس وجعلهم يتهمون المسيح بالهرطقة، اختار يهوذا لتسليمه. المعدن الدنيء الذي كان الوسيلة الصالحة لإفساد ضمير هذا التلميذ، مثلما كان المعدن الدنيء وسيلة إفساد في كل العصور، ومثلما أفسدت الكنيسة نفسها مهمتها ذاتها، عندما جعلت ممارسة الشعائر الدينية تتوقف على المال. ولكنني أعود لمهمة المسيح، فتلك المهمة كانت في الواقع موجهة لإيقاظ الشعب اليهودي، فقد كان أكثر الشعوب خضوعاً لتأثير الشيطان. وإن كان لايعلم ذلك، تماماً كما لايزال الآن. ولذلك فإن المسيح تجلّى في جسد يهودي، كي يؤثر كروح في السلالة، ولكي يثير ردّ الفعل الذي كان يريد أن يكون حماسياً في ذلك الشعب ضد الخداع.

- ولكن، اسمح لي ياأستاذ، كيف لم يتمكن الأب السماوي من أن يتوقع أن تلك المهمة ستفشل؟ ألم يكن يعلم أن الشعب اليهودي سيصرّ على غيّه؟

- نعم، طبعاً، ولكنه كان فشلاً جزئياً، لأن «الحقيقة» ترسخت في

جزء كبير من الشعب المختار، وفي البشرية جمعاء. أما من تبقى، الشعب العبراني الذي ثابر على اعتقاده بيهوه، فمازال كما كان حتى الآن يتبع النصح الشيطاني.

لم يكن يصيح، ولكن «ساباتو» لم يتمكن من أن يفهم لماذا كان يخال أنه يصرخ. لقد كان صوته نافذاً: كالمثقب الذي يستخدمه لصوص الصناديق الحديدية ليلاً.

ـ ألا يبدو لك أيها الاستاذ، أن كونه نسلاً مختاراً يحبه إله الأرض، قد ألحق به أذى كبيراً؟ معسكرات الاعتقال.. الخ.

ـ هذه هي المسألة: لأن ذلك الشعب لم يلتزم بتعاليم دينه تماماً، أعني، العهود، قرر الشيطان معاقبته بالمطاردات والذبح ومعسكرات الاعتقال. لابدّ أنكم سمعتم أكثر من مرة مايقال من أن هتلر كان رسول الشيطان، معادياً للمسيح. كم من حقيقة تنطوي عليها تلك التأكيدات...!

سألت «بيبا».

ـ ألم تقتنع بعد ياأستاذ أن هناك براهين أخرى على عبودية اليهود للشيطان.

ـ كثيرة، كثيرة، تذكروا ذلك المقطع الذي يستشهد فيه شاؤول بكلمات المسيح، فيتحول منذ ذلك الحين إلى الرسول بولص، لكي يعظ بالانجيل بين اليهود والكفار:

«لكي تفتح عينيك، لكي ترتد من الظلمات إلى النور، من طاعة الشيطان إلى طاعة الرب».

ك كلمات المسيح في أنجيل القديس يوحنا عندما يقول لليهود:

«أنتم من أب من هو إبليس، وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا...» أوضح من ذلك مستحيل. ولقد قال الشيطان للمسيح: «كلّ هذا سأعطيه لك إن عبدتني صاغراً. وهذا مايفعله اليهود دون أن يعلموا. عبادة الشيطان، فكلّ طقوسهم تهدف إلى طلب ثروات مادية والصفح من ذنوبهم اليومية. الأب السماوي لايمنح أموالاً مادية، وهذا مايجب إلا يغرب عن بال المؤمنين من أي دين كانوا، بما في ذلك الكاثولك: حينما نطلب ثروات أو شروراً فإن الشيطان هو الذي يتلقى طلباتنا، وهو الذي يمنحها لمن لديهم استعداد للشر، وهكذا فإنهم يعملون كأدوات لنواياه الشيطانية. أول الأدوات الأساسية التي يستخدمها الشيطان لممارسة سلطته هي: علم الطب.

- علم الطب...؟

- نعم علم الطب، وثانيها الكهنوت، وثالثها الكاثوليكية، ورابعها اليهودية.

- هل تشرح لنا ياأستاذ، ذلك الأمر المتعلق بعلم الطب؟

- بكل سرور. إن الضرر الذي أحدثه الشطيان بوساطة الأطباء قد يكون هو أكبر كل الأضرار. لا الحروب ولا الأوبئة ولا الجراثيم والا الزلازل التي يرسلها يهوه تفوق الإبادة الفظيعة التي يقوم بها الطب بوساطة استهلاك اللحم. فبذلك قد استغلظ الوجدان الفردي وتضاعفت الأمراض.

- ولكن أسمح لي ياأستاذ. لماذا يود الشيطان أن نبقى مرضى، إن كنا حلفاءه؟ ألا نكون أنفع حين نكون أصحاء؟ إن جيشاً من الكسحان والعرجان ليس أفضل جيش في العالم.

- انظر أيها السيد. لايلائم الشيطان بأي حال من الأحوال، أن نكون أصحاء، لأن الصحة الجسدية هي صحة روحية أيضاً. ولأننا إن كنا أصحاء نكن حينئذ مؤهلين لرؤية الحقيقة. وعندما نأكل جثث إخواتنا الأدنى منا، لانكون قد ارتكبنا ضرباً من ضروب أكل لحوم البشر، لأنهم إخواننا وحسب، بل لأننا نستغلظ ونصبح على استعداد للخطيئة، مثلما يبرهن الفساد الجنسي الذي يسود بين أكلة اللحوم. ولكن لنعد إلى الجريمة التي نرتكبها ضد الحيوانات، فلدي خبرات مفيدة جداً. الحيوانات كالأطفال، تتعلم بوساطة لغة البشر. والنظام التربوي والتجارب الاختبارية التي أقوم بها قدمت لي نتائج رائعة، وتمكنت من البرهان على أن جميع الحيوانات، بلا استثناء تسمو وتتطابق مع البشر سريعاً بقدر ما تخضع لذلك النظام. ويجب أن لايستخدم في تلك التربية سوى اللغة البشرية التي تستجيب الحيوانات لها على نحو لايمكن وصفه إلاّ بأنه مثير للإعجاب. كلاب، عصافير، قطط، حمائم، دجاج، كلها تكتسب هوية من يعلمها.

سأل كيكي:

- هل هنالك لغة معينة ياأستاذ؟

- لا، أي لغة، أي لغة. يكفي الكلام معها، بدقة وصبر.

- أقول ذلك، لأن الالمانية أو الروسية لابد من أن تكون أصعب من الاسبانية، وبخاصة على الدجاجة مثلاً.

- لاشيء من هذا ياسيد. إنه أمر يثير الإعجاب. أقول لك إنه لمما يثير الإعجاب مدى قدرة كلب، أو دجاجة على الإجابة.

- ليس هنالك إذن مشكلات كما في نحو اللغة الألمانية أو الروسية؟

ألحّ على ذلك ياأستاذ، لا لأضع أبحاثك القيمة موضع الشك، ولكن لأنني أنا بالذات، واجهت حين أجبرتني أمي على تعلم الألمانية، مشكلات الفاعل والمفعول. أم الروسية، فكما قيل لي، حدّث ولاحرج.

ـ ليس هنالك أي مشكلات ياسيد: إنها مسألة صبر ومثابرة ممزوجة بالحنان. إن أولئك الذين يلجأون إلى الصفير والصيحات والأصوات الحلقية، لأنهم يعتقدون أن الحيوانات لاتفهم عندما يتحدثون بلغة صحيحة. يرتكبون خطأً جسيماً، هذا فضلاً عن ان الواجب يستدعي أن نرفع سوية إخواننا الأدنى منا، بوساطة أسمى وسائلنا، وهي اللغة. هل تعلِّم أولادك بالأصوات والصفير..؟

ـ لا.

ـ ها إنك ترى. الأمر نفسه ينطبق على إخواننا الأدنى. تشكل المملكة الحيوانية سراً عميقاً يسهر عليه الإله الخالق. ونحن نشعر بأن هذه المملكة مقدسة جداً، وذبح الكائنات التي تتشكل فيها إنما هو جريمة ورذيلة وعمل فظيع واعتداء على قانون التعايش الأرض وغايته التطورية. ماهي نظرتنا للوحش الذي يأكل الأطفال الذين لايستطيعون أن يتكلموا بعد؟ سأضيف كذلك إنما بينما يخرّب اللحم الوجدان، كما قلت لكم، فإن النباتات تهذبه.

ـ أية خضار معينة ياأستاذ؟ أقول لك لأنني أحب الخس.

ـ الخس؟ ممتاز ياسيد، ولكن ليس هنالك استثناء لأي نوع من النباتات. الخس، طبعاً، وكذلك السبانخ، والفجل، والجزر. كله جيد لتهذيب وجداننا. لاحظ الحيوانات أكلة الأعشاب كالحصان أو البقرة: إنها حيوانات هادئة بطبيعتها.

ـ والثيران ياأستاذ؟ أقول لأن المصارعة...

ـ طبعاً، والثيران أيضاً. بهذا النوع من الوحشية فقط يمكن أن يدفع حيوان نبيل مسالم إلى تلك الفظاعات، يتعين علينا أن نخجل لمجرد أن الجنس البشري يمكن أن يصل إلى هذا المدى من القسوة والوحشية. ليست الحيوانات هي السيئة، صدقني، وإنما الاسبانيون الذين يساعدون ويشجعون تلك الجرائم. أؤكد لك أن الحيوانات التي تأكل العشب هي مسالمة جميعها. قارن بين حصان ونمر أو نسر. إن اللحم يفسد الحواس ويجعل الكائنات التي تأكله عدوانية.

ـ وإذن فإن الحروب والجرائم هي نتيجة لأكل اللحم.

ـ يجب أن لايتطرق الشك إلى نفسك ياسيدتي. ولايجعلنا أكل اللحم قساة لانشعر بعذاب الآخرين وحسب، بل يشدنا إلى العالم المادي أكثر. وهذا هو هدف الخطة الشيطانية: منعنا من معرفة الحقيقة، الحيلولة دون تحررنا.

ـ وإذن فإن علم الطب ياأستاذ.

ـ بوسعي أن أتكلم أياماً عن الجرائم الفظيعة التي يرتكبها علم الطب سيء النية الذي يقوم على أساس أكل اللحم، وعلى فكرة الجراثيم والأمصال. يذكر العهد القديم في أحد مقاطعه أن يهوه، أي الشيطان، خلق آفات القمل والذباب والجراد ليعاقب مصر. كان المسيح، معلم المعلمين يشفي الأمراض فيطرد من المريض الروح النجسة، أي الشياطين، المسؤولين الحقيقيين عن الأمراض، وكلّ تلك الفظاعات التي يسميها الأطباء بكتريات ليست سوى بدع، ومخترعات شيطانية، ولاتهاجم الجراثيم إلاّ الذين يعيشون خارج القانون الإلهي. ولذلك فإن علم الطب لايشفي وإنما يمثل اللعبة الشيطانية بخلق وتشجيع الأمراض.

- هكذا إذن، إنْ عضّ كلبٌ مسعور أحدهم فيجب ألا يذهب إلى معهد «باستور» وإنما يجب أن يبحث عن أحد يطرد عنه الشياطين؟

- تماماً.

- وإن لم يجد من بوسعه فعل ذلك؟ أو إن لم يكن هنالك متسع من الوقت؟

- ستكون مصيبة، إنما هذا هو الأمر الوحيد الذي يمكن عمله. لننتقل الآن إلى الوسيلة الثانية التي ذكرت: الكهنوت، إنه الدعامة القوية التي تستند إليها القوة الشيطانية بسبب التأثير الذي يمارسه الكهنوت على جزء من البشرية.

- طبعاً، كمن يثق بالشرطة ويجد في نهاية المطاف أنها متواطئة مع اللصوص.. دور الشرطة...!

- لاأقل، ولاأكثر، ياسيدي، يكفي برهان واحد: الجميع يقومون بذلك من أجل المال. من التعميد الأول وحتى مسحة الموت الأخيرة، والمال هو وسيلة الشيطان التقليدية - عجباً، إنها الثامنة والنصف....! سأختصر الكاثوليكيون. إن سلوك معظم الكاثوليكيين يدلل على نكران مطلق لعقيدتهم. رهبان وكاثوليكيون يخربون الدين بوساطة نزعاتهم وأنانيتهم. هؤلاء وأولئك جشعون، همهم الثروة المادية ولايثنيهم أي شيء عن الحصول عليها. أما اليهود فقد قلت ما هو أساسي. الساميون متحالفون مع الشيطان، الذين يسمونه يهوه، بوساطة عهد الختان. وكما في جميع العهود الشيطانية فلا يمكن غياب الدم. ولكن يجب أن أوجز على الرغم من أنني، مع الأسف، يمكن أن أقول أشياء بالغة الأهمية. إن الحرب الحالية هي حرب شيطانية ضد الألوهية، حرب قاسية ولاترحم،هدفها «شيطنة» العالم، وهكذا تتحول الأرض إلى رأس جسر

للنزاع على السلطة الكونية. والإلحاد هو الخطوة الأولى لـ «شيطنة» العالم. وانتصار الشيطانية يساوي ضياعنا الأبدي، والحكم علينا بالبقاء في هذا الجحيم بوساطة التجسيد ثانية.

ـ ليحمنا الله...![1].

ـ استودعك الله ياسيدي. استودعك الله ياسيدتي. سوف نتابع في مناسبة أخرى الحديث عن هذا الموضوع الذي يجب أن يهمنا جميعاً.

خرج الدكتور «غاندولفو» من الشقة يقفز قفزاً.

قال «كيكي» وهو يرفع ذراعيه نحو السماء.

ـ التجسيد ثانية..! مستقبل جميل يتناسب وسلوكنا. تصوري نظام رتب عسكري معكوس: تبدئين برتبة مارشال ثم في رتبة أخرى يتعين عليك أن تعملي كلباً لدى أخرى برتبة عقيد. وبالبيروقراطية التي لابدّ من أن تكون موجودة. يموت أحدهم، ويبدو له أنه سمع أنه انتقل إلى رتبة «بربري»، يقف في الصف منتظراً قرنين أو ثلاثة، وعندما يصل دوره يبحثون في السجلات، يقلبونها رأساً على عقب، والنتيجة هي أن الرجل كان مخطئاً، سمع خطأ، كان يجب أن يذهب إلى صف الـ «بربريس» حسناً يا «بيبوشكا»، أنا ذاهب أيضاً. لقد ملأ هذا الأستاذ نفسي قلقاً. سأذهب تواً لأكل حصتي اليومية من الخس، أنها وجبة مقدسة، ولن أدعها لقاء أي شيء في العالم، وأنت دعي هذا الويسكي وألاّ فإنك ستنحطين إلى درجة البربريس.

ثم انحنى وهو ينظر حيث كان «ساباتو» وقال «يامعلم» . ثم ذهب.

ـ أيها الغبي...!

---

(١) وردت العبارة في الأصل باللغة الفرنسية(المترجم)

ـ إنه إنسان طيب، صديق «مابيل».

ـ لاأعني ذلك الرجل المسكين.

نهض، نظر بشرود، إلى بعض الكتب في المكتبة.

ـ ياللمسكين التعيس. كأنّ مؤلف كتاب «الزواج السعيد» يحاول أن يشرح لربات بيوت عاجزات، مخترعات، «ساد» الجنسية. وأنتم تتظاهرون بالخبث. تضحكون. بوسع الشيطان أن ينام قرير العين. يلعب بالحقيقة. ويجعل الآخرين يضحكون من شياطين تعساء كهذا.

ـ أتود أن تقول إن «غاندولفو» هذا يعلن حقيقته لاهويته.

ـ طبعاً، أيتها البلهاء..! أنتم تضحكون من مسألة الخس، ولكن من حيث الجوهر فإن الرجل مصيب. أتتذكرين ماذا كان «فرناندو» يقول؟

ـ فرناندو كانبرا؟

نظر إليها ساباتو بقسوة.

ـ أحدثك عن «فرناندو فيدال أولموس».

رفعت بيبا ذراعيها ونظرت نحو السماء بدهشة مثيرة للضحك.

ـ هذاماينقصنا. أن تستشهد بشخصيات رواياتك....!

ـ لاأرى مايمنع من ذلك. لقد هزم الرب قبل بدء التاريخ على يدي «أمير الظلمات»، أعني، من سيصبح فيما بعد «أمير الظلمات». إنني أحدثك بجدّ، انتبهي.

ـ لاضرورة لذلك فأنا أعرفك. ولكن ليس ماكان يبشر به الاستاذ

«غاندولفو» تماماً.

- دعيني الآن من هذا التعيس. هنالك احتمالات متعددة، ستفهمين. ماأن هُزم الرب حتى أشاع الشيطان أي الذي هُزم هو إبليس. وهكذا أدى به الأمر إلى أن يحط من قدره كمسؤول عن هذا العالم. إن الأبحاث في صفات الله التي يبتدعها هؤلاء اللاهوتيون البائسون فيما بعد، ماهي إلا ألاعيب لإثبات المستحيل: إن إلهاً طيباً يمكن أن يسمح بوجود معسكرات اعتقال حيث يموت أناس مثل «أديث شتين»، وابرياء يتحولون بفضل قنبلة هيروشيما إلى أشكال فظيعة. كلّ ذلك خداع مشؤوم. والحقيقة، الحقيقة التي لاشك فيها هي أن الشر يسيطر على الأرض. طبعاً، لايمكن خداع الناس جميعاً، إذ يوجد دائماً أناس يشكّون، ولذلك واجهوا طيلة ألفي سنة التعذيب والموت لأنهم تجرأوا على قول الحقيقة. شردّوا، وقتلوا، وعذبوا، وأحرقتهم محاكم التفتيش بالنار. والشيطان لن يبدد وقته عبثاً. ويكفي وجود هذه المطاردات لنعرف حقاً من يحكم العالم. شعوب بأسرها قتلت وشردت. تذكري الالبيجيون[1]. فمن الصين وحتى فرنسا نظفّت ديانات الدولة (منظمات شيطانية أخرى). الأرض من أي محاولة للوحي. ويمكن القول إنها حققت هدفها تقريباً.

- طبعاً، تقريباً. باستثناء الاستاذ «ألبرتوخ. غاندولفو» مثلاً.

- تابعي الضحك. إنهم أبالسة الشيطان الصغار. جعل شخص مثير للسخرية يعرض الحقيقة، إنما هو أسلوب للحكم على تلك الحقيقة بالتفاهة وعدم الجدوى. أشخاص مثل «غاندولفو» لايسمح لهم بالعيش وحسب: بل يشجعون على أن يتكلموا. لكنني اقول، مازالت هنالك مصادر

---

(١) الألبيجيون: طائفة دينية ظهرت في جنوب فرنسا في أواخر القرن الثاني عشر، وتنسب إلى مدينة «ألبي». أنكر اتباعها الشعائر الكنيسية والكهنوت، وقالوا بالثنوية آله الخير وآله الشر (المترجم)

للالتباس أشد شيطانية. بعض الطوائف التي لم يكن بالوسع القضاء عليها، أو لعل الشيطان لم يقض على معتقدها القديم، تحولت بدورها إلى مصدر جديد للكذب. خلق العالم المحسوس، كما يقول العرفانيون، شيطان يدعى يهوه. ولقد ترك الإله هذا الشيطان يفعل مايشاء وقتاً طويلاً، لكنه أرسل في النهاية «ابنه» ليحل مؤقتاً من جسم يهودي. وعلى هذا النحو يقترح تحرير العالم، من تعاليم موسى، رسول يهوه أي الشيطان ـ المضللة. وتذكري بالمناسبة مايقوله «بابيني» عن موسى «ميكيل انجل» أيكون ميكيل انجل، في السر؟ ولكنني أتابع الموضوع: إن سلم المرء بأن يهوه هو الشيطان، ولكن الهزيمة حلت به لدى وصول المسيح ودون في الجحيم (كما يفكر المسلمون وعرفانيون وآخرون) فإن الأمر الوحيد الذي يتوصل إليه هو تعزيز التزوير. يصبح الآن، تزويراً مضاعفاً. مازلنا في عالم مريع، هيروشيما ومعسكرات الاعتقال حصلت بعد مجيء المسيح، أتفهمين؟ بكلمات أخرى: كلما ضعفت الكذبة، فإن هذا الطراز من التعساء يعززونها. ويحكم الشيطان مطمئناً لبضعة ملايين من السنين، في حين يكون الآله الحقيقي موجوداً في الجحيم.

ـ وإذن؟

كانت نظرة بيبا ساخرة.

ـ أن النتيجة التي توصل إليها «فرناندو» لايمكن تجنبها. مازال أمير الظلمات يحكم، وهذه الحكومة تقوم بوساطة طائفة العميان.

فكر ساباتو طيلة تلك الليلة

وعند الصباح حين أخذ النور ينبلج، كان ـ حتى تلك اللحظة ـ قد تمكن من التغلب على جميع المخاوف التي كانت تكبله: يبحث عن «شنايدر» حيث كان. وسرعان ماحصل على أول خيط: منزل الصبي «كوستا»

الريفي.

ألقى نظرة على المفكرة: بقي يومان قبل أن يحلّ الأحد. خرج إلى الشارع، كانت السماء صافية، وكان الهواء جافاً. قطع ورقة، رفعها ثم تركها تهبط: إن الهواء يأتي من ناحية الشمال. قدر أن الحرارة سترتفع بعد يومين، ولكن من الصعب أن لاتغيّم وألا تمطر. يوم مشمس من أيام شباط / فبراير: سيكون الجميع في المسبح.

طمأنه القرار وبدأ يشعر بضرب من القوة التي افتقدها من شدة التأمل والنظر إلى الماضي.

كان كوستا ينظر إليه

على ذلك النحو المميز، برأسه المائل نحو الأدنى وأحد الجانبين قليلاً، وابتسامته السطحية التي تشكل قشرة خارجية لكياسة دبلوماسية، تخفي تحتها ـ بفضل التحكم بعضلات الوجه ـ قشرة ثانية تكاد لاترى، إنما يمكن لمراقب يعرفه جيداً أن يدركها، قشرة تنطوي على متعة ساخرة، وأسئلة يوجهها لنفسه، مثل «سيكون قد أمسك أول الخيط»؟ أو: «أيمكن أن يكون ساذجاً إلى هذه الدرجة»؟ وهو يفكر ولاشك، بالسذاجة التي تفترض وصوله إلى «ماستشويتز» في يوم عطلة نهاية الاسبوع حيث الشمس والمسيح، للتحري عن أمر حول «شنايدر». أسئلة كانت ولاشك من افتراضات «ساباتو»، ولذلك يمكن أن تكون حقيقية فعلاً، ويمكن أن لاتكون، بحيث أن ذلك الوضع لعضلات القشرة الثانية، التي كانت موجودة فعلاً (إذ لايمكن أن تختفي وراء الابتسامة المستهترة سوى مشاعر سخرية، وحتى حقد وكراهية)، وليس من الضروري أن يكون ناجماً عن وجود «شنايدر» في «بوينس آيرس»، وهو حتى الآن ليس سوى مجرد افتراض يحاول «س» فعلاً

أن يتأكد منه بتجسسه في المنزل الريفي، فيتحدث كما كان يفعل مع ذلك الشخص الذي يكرهه، وحتى أنه كان يدوّن ملاحظات عن سلبياته.

ـ شنايدر؟

قطبّ جبينه على ذلك النحو التساؤلي الذي انفرد به،و الذي لم يكن يلجأ إليه حين يسأل أو يسمع شيئاً عن مكيدة يدبرها وحسب، بل لكي يقوم بتأكيدات مثل: «لايبدو لي أن لينين كان ثوريا». تأكيدات كانت تخلق حوله هالة من الفطنة الغريبة، لأنه كان يطلقها بلا أي حجة كأنها أمور مسلّم بها لاتستحق المناقشة: ولكنها حين تقال بتلك الطريقة التساؤلية تقريباً، تبدو غضون وجهه قد خلت من دلالات تلك اللهجة القاطعة أو المحددة، وبقيت كأنها اقتراحات لمناقشة تالية لاتتحقق أبداً.

لا، لاشك أن «شنايدر» مايزال في البرازيل. لم أره منذ سنوات. وأما «هيدويج» فليست لديّ عنها أي فكرة، ولكن مما لاشك فيه أنها مازالت معه، أعني، في مكان ما في البرازيل.

كان «س» يفكر في كلمات «فرناندو».

ويتذكر تحذيراته. نعم، لم يحدث أي شيء مما كان يجب أن يقلقه. ظاهرياً..! فإن السذاجة التي أقدم عليها «فرناندو» ذاته، ليست أقل مما أقدم عليه هو. دور «دومينغيس» الغامض البعيد ، من حيث الظاهر، عن مصيره، عن عميان ونار. عاد «براونر» ظاهرياً إلى باريس في ١٩٣٨ من أجل الرسم وليس سوى ذلك، ولكنه عاد في الواقع ليواجه مصيره الدموي، لقد عاد إلى المكان الصحيح في الوقت الملائم لكي يقتلع القدح الذي طوح به «دومينغيس» عينه التي كان قد رآها في الحلم، ورسمها قبل سنوات معلقة ـ وهي تنزف دماً ـ بقطعة من جلده ـ

إن الناس يسيرون كأنهم نيام إلى مناطق يساقون على نحو مبهم إليها. والآن ماالذي يمكن ـ على سبيل المثال ـ أن يكون من قضايا المصير، وماالذي يمكن لم يكون من قبيل المصادفات في هذه المجموعة من المهرجين؟ كأنه يحاول أن يكتشف خلف وجوههم المزيفة، وأشكالهم المصطنعة، المعنى المريع، كأنه متخصص بالجاسوسية يحاول العثور على كلمات التدبير الحقيقية بين سطور رسالة امرأة ثرثارة تدور حول جلسة اجتماعية. كان «كيكي» يصيح ماداً ذراعيه الطويلتين على نحو مسرحي كأنهما شفرتا مروحة ويتساءل قائلاً: ماذا تتصورون العمة «تريزا» تقول، بعد أن قضت عمرها في دير «بيلار»، حين تموت وتصل إلى ذلك المكان فتجد أن الذي يدير الأمور ليس المسيح وإنما ـ لنقل ـ شخص له عدة أذرع. هكذا إذاً: رسائل مريعة يأتي بها أجلاف. كان ينبغي دراسة كلّ كلمة، كلّ إشارة، وينبغي أن لاتترك أي زاوية من زوايا أي واقعة، وأي خطوة من خطوات «شنايدر» أو أصدقائه بلا فحص وتمحيص. تذكروا «موباسان» مجنوناً. «رمبو» ينتهي به الأمر إلى الهذيان، هكذا كتب «فرناندو» «موباسان» مجنوناً. «رمبو» ينتهي به الأمر إلى الهذيان، هكذا كتب «فرناندو». ومجهولون آخرون كثيرون انتهت حياتهم: بين جدران مشافي الأمراض العقلية أو تحت التعذيب، أو اختناقاً في آبار مغلقة، أو ابتلعتهم مستنقعات، أو أكلهم النمل المفترس في أفريقيا، أو ازدردتهم التماسيح، أو بيعوا خصياناً كعبيد لسلاطين الشرق. نسي «فيدال أولموس» أن يذكر أشكال تعذيب خفية، وربما كانت ـ لهذا السبب ـ أشد رعباً.

وذهب «كيلي» نحو المسبح حيث كانوا يتفحصون وضع الجماهير في العالم الثالث، ثم ناقشوا بعض الأوضاع الشخصية لمن كانوا موجودين هناك، ولغائبين يمتّون بصلة للموجودين، ولغائبين لامن هؤلاء ولا أولئك:

ـ «بالحشيشة» تسير الأمور على مايرام، نتكلم أكثر، ونبكي إن شعرنا بالحاجة إلى ذلك.

ـ تقاسمنا كلّ شيء. تعارفنا، وبدأنا علاقة بلا مطالبات.

ـ أجرينا معالجة كزوجين. انفصلنا على نحو حسن، والآن نحن أصدقاء جدا.

إن حقيقة الأمر هي أنكم في هذه الحياة العاهرة ستثبتون أن هذه الأزمات ليست فردية، وأنها ليست سوى نتاج الجنون العام في المجتمع الاستهلاكي.

فكرت، الثورة ثانية، أصبح النقاش سياسياً في الواقع. وصدرت عدة أحكام:

ـ لاياسيد، يهمني أن أقبل كامرأة، وليس كمادة استهلاكية.

ـ إنها مسألة تمدن، ماتطالب به عالياً هو بنية تغييرية.

ـ حسناً، ولكن الأمر مختلف أن كنت ستقود جمهوراً.

ـ وأنت ماذا لديك ضد الثقافة الجماهيرية؟

ـ لأنك لاتستطيع أن تنسلخ عن الطبقة. هنالك تركيب ويجب أن تتحرك ضمنه.

ـ ولكن الانتماء إلى الطبقة العليا لايعني نكران الخداع. وليس مسألة آلية.

ـ نعم، ولكن هنالك كمّ يجب أن تأخذه بعين الأعتبار..!

- إن هربت من القواعد التي يفرضها عليك الوسط، فأنت معاقب.

وهكذا لاذت «كريستينا» بالصمت، ورأيتها كيف راحت تنسحب شيئاً فشيئاً إلى حيث كان الصبي «كوستا» تحت شجرة يقرأ «بلا يبوي».

قال لها الصبي انظري هذا الوجه

- يالها من امرأة مهترئة، لابد أنها تدخن كثيراً.

- قرأ الأسم: «ي . كورنهاوسن».

- وهذه التي تحت - أشار إليها الصبي» «ب . كورنهاوسن».

سألت «كريستينا»: إن كانتا شقيقتين.

- لا، يعيشان معاً، كزوجين.

- امرأتان زوجان؟

- إن الذي في الأعلى رجل وليس امرأة.

- إقرأ، إقرأ.

- «ليندا لوفيلاسي» ، ٢٢ عاماً (ولكن تبدو أنها ابنة ٤٠!) تؤكد تحت الصورة بأنها إن لم تصل إلى النشوة مرة واحدة يومياً في أقل تقدير، تصبح عصبية المزاج جداً. مشهورة بأنها مثلت في فيلم الدعارة «حنجرة عميقة». إن مجرد ذكر اسمها يجذب حشوداً إلى أي حفل. تسميها المجلات «فم الولايات المتحدة المفضل».

- سألت «فم، لكنه مريع.

نظر إليها الصبي بسخرية وطيبة، وتابع القراءة: تكتب الآن، على

أساس قاعدة من الخبرة القيمة، عموداً في مجلة «وي» تقدم فيه نصائح، بدءاً من الشذوذ الشرجي وحتى الحيواني.

ـ قال الصبي وهو يتفحص وجه «ليندا» إنهم حمير أكثر من الحمير، انظري وجه القس «تروي بريّ».

نظر إلى القس ووجهه مائل نحو اليسار.

ـ لابد أنه كان لاعباً ممتازاً بكرة القدم الأمريكية، ولكن من أولئك القساة المنطوين على أنفسهم، صليب مصارع على صدر فيلسوف بائس. لاحظي أناقة ملبسه، وحسن تصفيف شعره. نبذة عن حياته: منذ أن كان طفلاً كان يهوى طرزان. تزوج وأنجب طفلين، ثم أكتشف أنه لوطي. طلب الطلاق، وأسس الكنيسة المشتركة الخاصة باللوطيين. وصفه أحد الصحفيين بأنه «مارتين لوثر كينغ» الحركة. ورد هو على ذلك بقوله: «لست أدري إن كنت أقول ذلك، بل يكفيني إن دعوني «مارتين لوثر كوين». يقوم بنشاطات كبيرة بدءاً من مداخلات في معسكرات خدمات ومظاهرات وحتى أناشيد ومحاضرات في مدارس. أنشأ خدمة هاتفية للوطيين في الحالات الطارئة.

والآن فإن من ظننت أنهما أختان «كرونهاوسن»، تزوجا عندما كانا يحضران شهادة الدكتوراه في جامعة «كولومبيا». ـ وضعا كتاب «الدعارة والقانون». وكذلك «فن الإثارة الجنسية» ، موجز الـ ١٥٠٠ لوحة لمعرضهما الدولي في «سان فرانسيسكو»، وهو مؤسسة ليس هدفها الربح المادي.

«بيتي دودسون»، المعروفة بجهودها من أجل تحرير المرأة عبر الجنس، تولت إطراء الشذوذ والهرطقة الجنسية، منذ البدء وحتى الاستمناء، في عروض فردية. كانت من قضاة مهرجان «أحلام رطبة»

الذي اقيم في ١٩٧١ في «أمستردام». تدير ورشة لتطوير الجنس.

«آل غولدستاين» مؤسس «اللولب» و«الفتى» وهما مجلتان اسبوعيتان للوطيين، كان مسجوناً في «هافانا» على أساس أنه عميل المخابرات الأمريكية. ممثل في فيلم «ملحمة الدعارة» الأول الذي انتجته «اللولب». يدرس مادة الجنس الجديد في جامعة نيويورك.

تستعرض آراء.

«غولد ستاين»: لو خدعتني زوجتي لقتلتها، إنها أحد ممتلكاتي، فأنا أدفع نفقاتها، وإنني أملكها مثلما أملك سيارتي ولاأعيرها لأحد.

«القس بيري»: ولكن هل أنت واثق ياسيد «آل» أنك ناشر مجلة «اللولب»؟ ربما يتعين عليك أن تترل زوجتك وتقيم علاقات مع أحد ممتلكاتك، ولنقل مع مقعد.

قال الصبي إن هذا القس ليس سيئاً، فلديه حس دعابة.

«ي. كرونهاوسن» لاأفهم يا «آل» كيف يمكن أن تقول أشياء مشابهة، ثم تعتبر نفسك أحد رواد الثورة الجنسية؟

«غولد ستاين»: لكل شيء ثمنه، يجب ألا نخدع أنفسنا بأن زوجتك ليس لها ثمن أيضاً، مثلها مثل أي مغامرة أو سهرة حمراء، إنني أحاول أن أجعل زوجاتي يعرفن شروط البيع قبل توقيع العقد.

قلب الصبي عدة صفحات.

«ب . كرونهاوسن»: إنه أمر سهل، سنقضي لحظات حلوة. إن كان بوسعي أن أنقل رسالة إلى الفتيان، أقول لهم، إن الجنس يجب أن يكون للتسلية وليس للإنجاب.

«ي. كرونهاوسن»: الجنس الجماعي يمكن أن يكون مسلياً، كما أنه مثير. نحن الإثنين كثيراً مانكاد نموت من الضحك. عندما يكون ٢٠ شخصاً في سرير يمكن أن تحدث أمور مضحكة جداً. يسقط أحدهم، هرم ينهار.

«ب . كرونهاوسن»: لن أنسى أبداً عيد الربيع الأخير، بعض الذكور كانوا ينتقلون من غرفة إلى أخرى حاملين أجهزة تلفزيون متنقلة، يشاهدون مباراة «البيسبول» بينما كان الآخرون مستمرين في ممارستهم. «ي» وأنا لم نكن نصدق ذلك. بكل بساطة لا يمكن أن نصدق. أولئك كانوا يفضلون «البيسبول» على الجنس.

«بلاي بوي»: ماهي نسبة الرجال إلى النساء؟

«بروفسور بوميروي»: عموماً يأتي الناس زوجين، زوجين، ولكن أي جلسة مثالية يجب أن تضم من الرجال الضعف تقريباً. لأن النساء يتحملن أكثر.

«بلاي بوي»: والافلام؟

«بروفسور بوميروي»: إنها منتشرة، افلام مناسبة لطيفة جداً ومفصّلة، تفتقد إلى الانفعالات، تساعد الناس على تطوير آرائهم الخاصة.

«ي. كرونهاوسن»: أعتقد أن الأفلام لاتضطلع بدور هام في أكثر من ١٠٪ من الجلسات كلها التي شاركت فيها. والتأثير عموماً كان مثبطاً أكثر مما كان منشطاً. ثم إن كان المرء يملك كلّ الإمكانيات حوله، فمن يحتاج رؤية أناس يمارسون الجنس على الشاشة؟

«بلاي بوي»: ودور أجهزة الاهتزاز؟

الآنسة «دودسون»: نحن النساء نصطحب أجهزة اهتزاز في الليالي الحمراء، وكذلك نعرض اوضاعاً للمارسة واستخدام الأجهزة في الوقت ذاته، ليس سهلاً، ولها عيوبها.

«غولد ستاين»: يجب تصديق ماروته «بيتي» عن أجهزة الاهتزاز التي كانت لغزاً دائماً. فقد كنت لاتجدها إلا في مكتبات الدعار. إنما الآن لحسن الحظ أكثر المتاجر المرموقة في الجادة الخامسة تبيعها بثمن بخس. وقد لوحظ أنها الآن ليست مجرد أجهزة بسيطة، ولكن لها شكل القضيب، وهو أمر يكتسب أهمية بالنسبة للنساء اللواتي يكون أزواجهن بعيدين. اعتقد ان تجارة وسائل التسلية والتعزية تعتبر خطوة إلى الأمام بالنسبة للأمريكي المتوسط الحال. ولكن بالنسبة لمن يحتاج إلى رفيق عاطفي يجب اختراع جهاز تسلية مع مكبر صوت صغير يقول: «أحبك ياعزيزي».

«الآنسة ديفيس»: أنا شخصياً أجد تلك الأجهزة غير إنسانية. أنا أحب اللحم، وليس البلاستيك أو المعدن.

الآنسة «لوفيلاسي»: ذلك يتوقف على نوع جهاز الاهتزاز، وأنا شخصياً لاأفضل تلك الطويلة والرفيعة، وإنما تلك يمكن أن تحمل أدوات في الرأس. إنها رائعة فعلاً.

«بروفسور بوميروي»: لعل الناحية السلبية في ممارسة الجنس جماعياً هي خطر العلاقة العاطفية، خطر العثور على أحد (وهذا الخطر موجود دائماً) ممن يمكن الانسجام معه، ومن ثم الالتزام العاطفي. عندما أتحدث إلى مرضاي أؤكد على هذا الخطر بشدة. أقول لهم إن ذلك يعني على نحو أو أخر، اللعب بالديناميت، ذلك أن جانباً من حياة أحد الطرفين يجب إخفاؤه حينئذ عن أولاده، وحتى عن أصدقائه المقربين.

كان يحتقر نفسه لوجوده في ذلك البيت؟

ولوجود رابطة ما، مهما كان شكلها أو نوعها بينه وبينهم. ولكن، من يستطيع التباهي بتفوقه على الآخرين. قال أحدهم، توجد في كل مخلوق بذرة البشرية بأسرها، إن جميع الآلهة والشياطين التي تصورتها الشعوب وخشيت منها وعبدتها، موجودة في كل منا، وإذا مابقي طفل واحد فقط بعد كارثة كونية، فإن ذلك الطفل سيعود ثانية ليخلق ذلك النوع من الآلهة الخيرة والشريرة.

سار نحو المحطة وسط هدوء الليل، ثم اضطجع على الشعب قرب أشجار الكافور الكبيرة الساكنة، ينظر نحو سماء من حبر أزرق مسوّد، أخذت تعود إلى ذاكرته تلك النجوم منذ عهد المرصد، تلك النجوم المستعرة، تلك الانفجارات الفلكية التي ليس لها تفسير. كانت لديه أفكاره، أفكار الفلكي الفيزيائي المفتون بالهرطقات.

ملايين الكواكب في ملايين المجرات، كثيراً ماتكررت متموراتها وعمالقتها،و بشرها، بشر «نيندرثال» ومن ثم «غاليلي» في يوم من الأيام عثروا على «الراديوم»، وفي آخر حطموا ذرة «اليورانيوم»، ولم يستطيعوا السيطرة على الاتحاد، او لم يقدروا على منع الحرب النووية، حتى ينفجر الكوكب في جحيم كوني: النجم المستعر، النجم الجديد. وعلى مدى القرون أخذت تلك الانفجارات تشير إلى نهاية حضارات بلاستيك وحواسيب متتالية. وفي سماء تلك الليلة الهادئة المرصعة بالنجوم، كانت تصله رساله إحدى تلك الكوارث الهائلة التي حدثت هناك، عندما كانت الأرض ماتزال مرتعاً للديناصور يرعى في سهوب العصر الجيولوجي الوسيط.

تذكر صورة «مولينيللي» الحزينة، الوسيط المضحك بين البشر وآلهة تترأس الكوارث الرؤية. تلك الكلمات عام ١٩٣٨ حين كان يشير بقلمه

المقضوم: «أورانيو» و «بلوتون» هما رسولا الأزمنة الجديدة، يعملان كالبراكين الثائرة، يرسمان الحدود بين العصرين.

إلا أن تلك السماء المرصعة بالنجوم كانت تبدو بمنأى عن أي تفسير كارثي: تشيع هدوءاً وانسجاماً وموسيقى لاتسمع. العالم الافلاطوني، الملجأ الرائع. خلف البشر الذين ولدوا، وماتوا في كثير من الأحيان حرقاً بالنار أو تحت التعذيب، والامبراطوريات التي أنشئت بصلف وكان لابدّأن تنهار، بدت تلك السماء أنها تشكل الصورة الأقل كمالاً للعالم الآخر: الخالد الذي لايفنى، الكمال المطلق الذي لايتيسر إلاّ بتسنم تلك النظريات الشفافة إنما الجامدة.

وهو أيضاً كان يحاول ذلك الصعود. كلما كان يشعر بالألم، لأن ذلك البرج كان عصياً على الأذى، وكلما كانت القذارة تصبح أمراً لايطاق، لأن ذلك البرج كان بالغ النقاء، وكم كان يروعه الزمن العابر، لأن الخلود هو سيد ذلك النطاق.

يحبس نفسه في البرج.

ولكن جلبة الناس البعيدة كانت تطاله دائماً. كانت تتسلل من الفجوات وتصعد من داخله، لأن العالم لم يكن في الخارج وحسب، بل وفي زوايا قلبه الخفية، في أحشائه وأمعائه، وآجلاً أم عاجلاً كان ذلك العالم الذي لايفني سيبدو له سراباً محزناً، لأن العالم الذي نحسب حسابه هو هذا، إنه هنا: الوحيد الذي يلحق بنا الأذى والألم والبؤس،ولكنه الوحيد الذي يمدنا بالحياة كاملة، هذا الدم وهذه النار، وهذا الحب وهذا الانتظار للموت. الوحيد الذي يقدم لنا حديقة عند المساء، ولمسة يد من نحب، ونظرة محكوم عليها بالبلى، بلانا نحن: حار وقريب وجسدّي.

حل قد يكون ذلك العالم المنيع، العصي على قوى الزمن الهدام

موجوداً: لكنه متحف متجمد لأشكال متحجرة، وإن كانت بالغة الكمال، أشكال جامدة، لعلها صور ابتدعتها الروح المحض ولكن البشر غرباء عن الروح الخالصة، لأن مايميز هذا الجنس البائس هو النفس. هذه المنطقة الممزقة بين اللحم الفاسد والروح الخالصة، هذه المنطقة الوسيطة التي يحدث فيها أخطر مافي الحياة: ألحب والبغضاء، الأسطورة والخيال، الأمل والحلم. النفس الكئيبة والملتبسة تعاني (وكيف يمكنها ان لاتتألم...) تهيمن عليها نوازع الجسم الفاني وتطمح لخلود الروح، تتردد دائماً بين البلى والخلود، بين ماهو شيطاني وماهو رباني. كآبة وغموض يبتدع منهما في لحظات رعب ونشوة شعره الذي ينبثق من تلك المنطقة الملتبسة ونتيجة لذلك الالتباس ذاته: إله لايكتب روايات.

أراد عند الصباح أن يكتب.

ولكن كانت تعتور الطابعة عدة عيوب: مفتاح الهامش معطل، عجلة شريط الحبر معطلة ولاتعمل آلياً، بل يجب تشغيلها باليد، وأخيراً شيء ما في العجلة قد كسر.

وقرر يائساً أن يذهب إلى وسط المدينة، ليتسلى ويتمشى في الحي الجنوبي، يصمم وهو في شارع «ألسينا»، بين شارعي «دفنسا» و«بوليفار» على شراء محفظة أوراق، ليكتب بيده. شيء ما، جديد، رمزي يعينه على الكتابة في المقهى، على الرغم من رداءة خطه، ومن التعب الذي يجعله يكتب شيئاً غير مفهوم. لعله بذلك يقضي على الرقية السحرية.

يستقبله مستخدم متعب وفظ، يتضجر على نحو يكاد يكون واضحاً، لأنه كان يبحث عن محفظة أوراق صفاتها كذا.. وكذا، يلعنه ويخرج معكر المزاج. يقرر أن يذهب إلى مكتبة «المدرسة» في منعطف شارعي

«بوليفار» و «ألسينا». يتشجع حين يفكر بأنه يمكن أن يجد مايحتاجه في تلك المكتبة الكبيرة. ولكنه يرى عندئذ عبر شبكة نافذة منزل قديم فأرة ضخمة تتأمله وسط ظلمة القبو بعينيها الحمراوين الملعونتين باهتمام: تذكره باللقاء الصحفي مع الفتى «ديل بوستو» وبوطاويط حصن «دون فرانسيسكو راموس» ذي الشرفات في «تابياليس»: فئران مجنحة، نجسة وألفية. يحاول أن ينمي تلك الذكريات ويتجه إلى المكتبة بعزم. بعزم...؟ حسن، إلى حدّ ما. ولنقل، كي نكون دقيقين وموضوعيين، إنه يفعل ذلك بشيء من العزم. ويتجه، بالخوف الذي يخشى به البائعين دائماً، إلى فتى فارع القامة نحيل الجسم طويل الشعر، يحاول على الرغم من شعوره بأنه عرفه، أن يحافظ على لامبالاته، وأن يتجاوز الخجل الذي لابدّ أن تسببه تلك المعرفة. يفكر. يفكر بأن الأمور تتعقد، يخجل من أن يشرح مايحتاج إليه (شيء مفعم بالمواصفات، حجم كذا، ولون أسود من الخارج وأحمر من الداخل...الخ) ولكنه ما أن يتجاوز مقاومة الخوف حتى يقول له مايريد، وإن كان يتحفظ على التفاصيل لعدم توفر الجرأة.

يقول وهو يتعثر:

- محفظة أوراق بحلقات.

يعرض عليه المستخدم بعضاً منها، ليس هو ماكان يبحث عنه: لايريد محفظة أوراق كبيرة جداً بصفحاتها الضخمة كانها غطاء فراش، ولا صغيرة جداً لايتمكن أن يكتب فيها بارتياح، حيث يشعر معها كأنه ضمن صدريّة ضيقة. لم يقل له هذه التفاصيل طبعاً، بل اكتفى بالقول «إنه كان يريد شيئاً آخر».

يبدأ المستخدم بعرض محافظ ورق أخرى، ولكن لسوء الطالع، كانت

كلها أبعد ما تكون عن الطراز المثالي الذي كان في ذهنه. يفكر، إنها عادتي الملعونة في أن أدخل بدون أن أعرف بالتحديد ماأريد. بعدئذ يرى نفسه ملزماً على شراء أسوأ المخترعات التي لافائدة منها. يفكر بمرارة في الخزانة المخصصة لتلك الأشياء، مملوءة بقمصان لاتلبس، وجوارب قصيرة جداً، أو طويلة جداً، وأقلام رصاص ذات رؤوس رفيعة جداً، أو غليظة جداً، ومقصات أوراق بمقابض كتب عليها بالألوان «ذكرى نيكوتشيا». وزوج صنبوج لايتذكر كيف رأى نفسه مجبراً على شرائه، وتمثال برونزي ضخم «لدون كيخوته» قيمته ثروة صغيرة، وحتى كأس ازهار مطلي بالكروم، وجد نفسه ملزماً على شرائه من سوق دخل خطأ لكي يشتري منه حمالة مفاتيح. هذا، فيما يخص المنتجات المحفوظة. ولكن مايخلّف المرارة في نفسه هو تلك الأشياء التي يحملها معه بفضل الروح الأوروبية الاقتصادية الملعونة التي غرستها فيه أمة بقوة كالحساء ولكنها، كالحساء أيضاً، تترك شيئاً في الجسم، وإن شربه كرها: سروال رياضة يكرهه، سترة، منديل مريع، كي لايرميه في الشارع فقط، أو كي لايحفظه في متحف الأدوات المريعة ذاك، وذلك المنديل الزهري، بخاصة، الوسخ الموشي بورود صغيرة حمراء، الذي يرى نفسه من شدة اشمئزازه مجبراً على استعماله بحذر بالغ، حين لاينظر إليه أحد، ولذلك فإنه يواجه موقفاً صعباً حيث يتحمل خلال برهة طويل الرغبة في أن ينظف أنفه فلا يتمكن، لا لشيء إلاّ لأن الناس يحيطون به. عرض عليه بعض المحافظ التي كانت بعيدة جداً عما كان يحلم به في أيام التأمل الأخيرة.

قال على نحو مبهم:

- لا، أو، نعم طبعاً، ولكنني لاأعلم...

نظر إليه المستخدم مستفهماً، فضحك بكلّ قواه، إنما بدون أن يحدث

بعينيه، وأضاف:

ـ لست أدري... نعم، ليست سيئة.. ولكن ربما اصغر قليلاً. .. شيء من قبيل مفكرة كبيرة.

قال المستخدم بشيء من القسوة.

ـ آه، إذن أنت لاتبحث عن محفظة أوراق وإنما عن مفكرة.

وفي اللحظة التي استدار فيها البائع، أضاف يقول بخجل غامض:

ـ ولكن مفكرة تكون شبه محفظة.

التفت الفتى برأسه، فيما كان متجهاً نحو منضدة المفكرات، بدون أن يدير جسمه نحوه، ثم نظر إليه بقسوة واضحة، فقال ساباتو:

ـ نعم، نعم، ماكنت أود حقيقة هو محفظة أوراق.

تابع البائع السير حتى المنضدة وتمكن هو أن يرى من بعيد من خلال غطائها البلوري أن لاشيء مما كان معروضاً فيها هو مايحتاجه، ولكن ماحدث قد حدث.

راح المستخدم يخرج عدة محافظ كانت على نحو لايصدق غير مناسبة، ويعرضها عليه: لم يكن يعرف إن كان ذلك يعود إلى انه نسي ماكان قد بينه له حين قال «ماكنت أود حقيبة» هو محظفة أوراق أو إلى مجرد حماقة بائع أو إلى غضب خفي بسبب تردده. أخذ «ساباتو» يبدي أمارة سلبية وإن على نحو ضعيف، ولسوء الطالع فإن البائع، بدلاً من أن ينتقي أحجاماً أكبر، راح ينتقي أصغر فأصغر. وكان يمكنه طبعاً أن يوقف ذلك الهبوط بإشارة واضحة، ولكن بأي وجه؟ انتهى به الأمر إلى تقديم مفكرة صغيرة جداً، لاتنفع إلاّ لكتابة برقيات قصيرة جداً، أو

لبنات صغيرات، كتلك اللواتي يسرن بجد في الشارع بجانب أمهاتهن يقدن عربة صغيرة فيها لعبة من البلاستيك. مفكرة تفيدهن كي يسجلن فيها حاجات منزل اللعبة الصغيرة.

وافق على أن المفكرة جميلة جداً، حتى أنه تصنع - نفاقا - يعاين حلقاتها وليونة غلافها، والورق.

سأل:

- أهي من الجلد؟

وراح يفكر أن صفة محددة كتلك تدلّ على أنه لم يكن غير مهتم بشراء المفكرة الصغيرة.

قال الفتى بجفاء:

- لاياسيد، من البلاستيك.

- آه. عجباً.

وعاد يعاين الحلقات

وفيما كان يقوم بتفحصها - نفاقا - كان يشعر بأن جسمه يتصبب عرقاً. كيف سيقول له، على هذا المستوى من الأحداث، إن تلك اللعبة كانت عكس مايبحث عنه؟ وبأي وجه؟ وبأي عبارات...؟ كان للحظة، مستعداً لشرائها، كي يحفظها فيما بعد في متحف الأدوات العقيمة الذي أتى على ذكره. ولكنه شعر أنه لو فعل لكان إنساناً حقيراً. قرر حينئذ تجاوز ضعفه على نحو قاطع.

قال بصوت كاد لايسمع:

ـ حسناً، إنها جميلة حقاً، ولكن ماأحتاجه هو مفكرة كبيرة، محفظة أوراق تقريباً.

نظر إليه البائع بغضب وقسوة:

قال بجفاء:

ـ إذن، ماتبحث عنه إنما هو محفظة أوراق. روادته الريبة فأدرك مقدماً أن المحافظ ستكون أسوأ من المفكرات (التي كانت جميلة) لكنه أومأ على نحو غامض، فانطلق المستخدم بعزم بدا لساباتو بالغاً، وأتجه نحو الرف الذي صفّت عليه المحافظ الضخمة. وبعد تفكير واضح، بحث عن أكبرها، عن واحدة هائلة منفّرة، من المحافظ التي لابدّ انهم يستخدمونها في الوزارات لحفظ الأوراق الإدارية الكبيرة جداً.

وسأل على نحو بدا أمراً.

ـ واحدة كهذه كما أعتقد.

نظر كلّ منهما إلى الآخر طيلة ثانية، لكنها بدت «لساباتو» دهراً. مثال مدرسي تقريباً لتوضيح الفرق بين الزمن الفلكي والزمن الوجودي. كانت لحظة تثير الضحك: بائع فظ يحمل محفظة «ماموث»[1] منفرة أمام قروي خجول وخائف.

تمتم ساباتو بصوت يكاد لايفهم، وهمّة فاترة جداً.

ـ نعم.

وبجهد، قام المستخدم بلّف البضاعة الفظّة، وحضّر الوصل وسلمه إياّه: كان المبلغ كبيراً كالمحفظة، وقدر بمرارة وهو في طريقه إلى

---

(١) الماموث: ضرب من الفيلة المتعرضة (المترحم)

الصندوق أنه بذلك المبلغ يمكن أن يشتري ثلاث أو أربع محافظ من تلك التي كان يبحث عنها.

خرج تهيمن عليه أفكار مريعة: مما لاشك فيه أن كلّ شيء كان معاكساً.

عندما وصل إلى «سانتوس لوغارس» فتح الصرة الهائلة وحاول أن لا يعود لفحصها، ووضع المحفظة في خزانة الممتلكات المخيبة للآمال، بين سراويل ملونة بالأصفر، وكأس الازدهار المطلي بالكروم، ثم جلس بجانب منضدته واستغرق في الصمت بضع ساعات، إلى أن دعوه للطعام، بعدئذ شاهد أحد تلك المسلسلات التلفزيونية التي شجعته: بين طلقات وضربات على وجوه أشخاص على الأرض أشباه أموات. ومع ذلك فقد قرر أن يقوم في اليوم التالي بأمر حاسم.

أثناء الليل، اتجهت «أليخاندرا» نحوه وسط ألسنة اللهب، عيناها مذعورتان وذراعاها مفتوحتان مستعدة لتضمه إليها لتجبره على الموت محترقاً معها. وكما في المناسبة السابقة فإنه استيقظ وهو يصرخ.

نهض قبل الفجر وغسل وجهه وحاول أن يبعد هواجسه، ولكن استحال عليه أن ينصرف للكتابة كما سبق وقرر في الليلة المنصرمة. ظل مقتنعاً أن الصبي لم يقل الحقيقة في المنزل الريفي، وكانت تلك الكذبة سبباً آخر يدعوه لليقظة والحذر. كانت الطريقة التي لجأ إليها لإنكار وجود «شنايدر» في بوينس آيرس حيادية جداً. ولذلك فإن الحيطة تدعوه لمراقبة ذلك المقهى. وسرعان ماوعد «برونو» للقاء في «تيناسا» بدلاً من «روسيليون».

عندما وصل برونو إلى المقهى

وجد «س» كأنه غائب، كأنه مذعور من شيء مايعزله عن الواقع، فحين بدا أنه رآه لم يحيه. كان يراقب قطة شيطانية ناعسة، تجلس، تفصل بينهما عدة مناضد، تقرأ أو تتظاهر بأنها تقرأ كتاباً ضخماً. كان، وهو يتأملها ملياً. يفكر بالجحيم الذي يقوم غالباً بين العمر المسجل في السجلات المدنية، والعمر الآخر الذي ينجم عن المصائب والآلام. لأن الدم، فيما يقوم عبر الخلايا والسنين بدورته التي يفحصها الأطباء ويقيسونها بآلات، ويحاولون ضبطها بأقراص وضمادات، وفيما يحتفل الناس (ولكن لماذا...! لماذا..؟) بالذكريات السنوية التي تسجلها المفكرات، فإن الروح تعاني طيلة عشرات وآلاف السنين من فعل قوى لاترحم..... أو لأن ذلك الجسم، الذي يتحكم فيه بسذاجة، الأطباء، الفلاحون، الذين يطردون جوائح من فطور وسوس، أو يقضون عليها في أرض تخفي تحتها كهوفاً تقطنها تنانين، قد ورث الروح من أجساد بشر أو أسماك وطيور او زواحف فانية أخرى. ولذلك فإن عمرها يمكن أن يكون مئات أو آلاف السنين. ولان الروح أيضاً، كما كان «ساباتو» يقول، تشيخ حتى دون تلك التقمصات، بسبب زياراتها للكهوف الجهنمية ليلاً حين يخلد الجسد إلى الراحة. ولهذا فإنه يلاحظ عادة، حتى لدى الأطفال، نظرات ومشاعر او انفعالات لايمكن تفسيرها، إلا بوساطة تلك الوراثة الملتبسة، من وطواط أو فأر أو بذلك الهبوط الليلي إلى الجحيم الذي يكلّس الروح ويترك فيها شروخاً، في حين يبقى الجسم النائم فتياً، ويخدع أولئك الأطباء الذين يستشيرون مقاييسهم بدلاً من أن يدققوا في أمارات خفية في الحركات أو في بريق العيون. لأن ذلك الجفاف وذلك الهرم يمكن اكتشافه في رجفة ماأثناء المشي، في كبوة ما، وفي غضون معينة في الجبين، ولكن يمكن اكتشافه أيضاً، وعلى نحو خاص، في النظرة، فالعالم الذي تشاهده لايبقى عالم الطفل

البريء وإنما عالم وحش فظيع يبعث الرعب. ولذلك فإنه كان يتعين على رجال العلم أن يقتربوا من الوجه، ويحللوا باهتمام بالغ، وحتى بخبث الخطوط الدقيقة التي تأخذ بالارتسام عليه، وان يحاولوا أيضاً، الوقوع على بريق ما عابر في العينين، لأن العينين، من بين جميع المنافذ التي تتيح مراقبة مايحدث هنالك تحت، هما أشدها أهمية، وهما مصدر عظيم يستحيل توفره لدى العميان الذين هم بسبب ذلك، يحتفظون بأسرارهم المريعة. كان يستحيل عليه أن يدرس في الركن الذي كان فيه، تلك الأمارات في الوجه. ولكن كانت قد بقيت أمامه المصادر الأخرى، فيكفيه متابعة حركات ساقيها الطويلتين البطيئتين حين تستوي، ويدها حين تحمل اللفافة إلى فمها، لكي يعلم أن تلك المرأة تبلغ من العمر أكثر مما لايقاس، من عمر جسدها الذي لايتجاوز عقد العشرينات: خبرة آتية من «أفعى - هرة» ما، تعود إلى ما قبل التاريخ، بهيمة تبدي البلادة غدرا، ولكن لديها شهوانية الأفعى الخفية، مستعدة للهجمة الغادرة المميتة. لأنه كان يشعر، بقدر ماكان الزمن ينقضي والفحص يتم بدقة أكبر، أنها تراقب، بما تتمتع به فصيلة القطط من قدرة على رصد أي حركة مهما كانت، حتى في الظلام، والتقاط أصوات لاتعيرها حيوانات غيرها أي اهتمام، لكي تقدر تهديد الخصم، حق قدره مهما قل شأنه. كانت يداها طويلتين، وكذلك ذراعاها، وساقاها. وكان شعرها أسود فاحماً يصل حتى كتفيها، ينزاح ناعماً رجراجاً لدى كلّ حركة تقوم بها. كانت تدخن وتمتص لفافتها ببطء، إنما بعمق. كان في وجهها شيء ما يثير الغم، تمكن من أن يدرك أن سببه يعود إلى تباعد عينيها البالغ: كبيرتان، عميقتان، لكنهما متباعدتان جدّاً، مما يضفي عليها ضرباً من الجمال الوحشي. أجل، كانت هي أيضاً تراقبهما، عبر جفنيها المواربين كأنها ناعسة، بنظرات بطيئة خفية، تسترقها وكأنما لاتنظر، بل ترفع ناظريها عن الكتاب لكي تفكر، أو لكي تبتعد عن التيارات

العميقة، إنما الغامضة، التي يهجرها المرء حين يقرأ نصاً يجعله يفكر في الوجود ذاته. كانت تمد ساقيها بشهوانية وتلقي نظرة متعالية على بقية الناس الآخرين، وتبدو أنها تتوقف قليلاً عند «س» لتنكفيء ثانية إلى عالمها المنيع، عالم «الهرة ـ الأفعى».

أدرك برونو أن مادة غريبة قد سقطت في أعماق مياه صديقه العميقة، وكانت وهي تنحلّ هنالك تحت، تطلق روائح تفسخها التي تصل، ولاشك، حتى وعيه. مشاعر غامضة، ولكن «س» يشعر أنها دائماً نذير أحداث حاسمة، ينجم عنها أستياء وضرب من القلق كالذي تشعر به الحيوانات حين تقترب لحظة كسوف الشمس فقد كان ضربا من المفارقة أن يكون بوسعها أن تقوم بذلك، على هذا النحو وجفناها مسبلان، وتلك الأهداب الطويلة التي كان يجب أن تحمي أكثر ماتوفر من الضوء القليل آنذاك. كانت ترسل، على نحو مبهم وصامت إشعاعاتها نحو «س»، الذي كان يتعين عليه أن يدرك ذلك الحضور، ليس برأسه وإنما ببشرته، عبر نقاط التقاط دقيقة لاحصر لها، في أطراف أعصابه، كأنظمة رادار ترصد وصول العدو عند الحدود. إشارات كانت تصل في تلك اللحظات، عبر خطوط معقدة حتى أحشائه، ولكن (لقد كان يعرفها جيدا) لم تكن تثيره وحسب، بل توقظ حذره على نحو كئيب أيضاً. هنالك تمكن من أن يراه، كأنه منصرف لحراسة غريبة، حتى وقف فجأة ـ وبدون أن يحييه ـ قال كأنه يودعه:

ـ سنتحدث في يوم آخر عما قلته لك بالهاتف.

حين خرج

مرّ «س» قرب المرأة، فطوت الكتاب ووضعته جانباً (كأنما فعلت ذلك لكي يقرأ هو عنوانه) كان حجمه كبيراًوكان مجلداً لغلاف لمّاع

ملون، هو صورة يبدو أنها لوحة «ليونور فيني»: امرأة عارية وسط بحيرة هادئة، شعرها طويل، وخلفها أفق أحمر اللون، تحيط بها طيور فضية جارحة، ذوات عيون سمكيّة برّاقة استرعى انتباهه عنوانه «العيون والحياة الجنسية». ما أن اصبح في الشارع، حتى أخذ يفكر ملياً، منذ أن رأى «شنايدر» يدخل ذلك المقهى، ثم يتبعه الصبي مباشرة، لم يفارقه الخطر أو يتخلّى عن زيارته. والآن، حين تواعد و«برونو» حدثت واقعة جديدة ذات مغزى.

فكر: إن شنايدر حينما رآه يخرج من إذاعة «راديو ناسيونال» دخل مسرعاً إلى المقهى، ولكن ليس بالسرعة اللازمة كي لايعرفه. ومع ذلك، فإنه حين عرفه، تصور أن كلّ شيء كان معداً بمكر: كان قد تبعه، وانتظره في المنعطف كي يدخل إلى المقهى بسرعة مقصودة، إنما في الوقت اللازم الذي يتيح لـ «س» معرفته. لكن واقعة دخول الصبي كوستا بعدئذ زادت من خطورة الحادثة، لأنهما كانا يعلمان أنه سيذهب إلى «راديو ناسيونال» كيف؟

ثم - استمر يفكر - قدّر «شنايدر» أن «س» كان سيذهب للتحري في بيت الصبي الريفي. ومرة أخرى في مقهى «تيناسا» . يرسل إذن تلك المرأة كصياد وينتظر الخطوة التالية، التي حدثت.

طبعاً، كانت مجموعة من الافتراضات التي يمكن أن تستجيب إلى حقيقة، ولكن يمكن أيضاً أن تستجيب إلى مجموعة من المصادفات. فقد كان أمراً ممكناً أن لا يكون «شنايدر» قد تبعه، وأنه كان في ذلك المنعطف لسبب ما، وأنه كان يود فعلاً الهرب من لقائه.

ومع ذلك فإنه لم يستطع أن ينام تلك الليلة. والأمر الغريب هو أن جريمة «كالسن» كانت تعود إلى خياله، ولكن التفاصيل كانت تتغير.

فبإدارة أو حراسة أمريء مثل «شنايدر» لم يكن الأمر صعباً وحسب، بل قاسياً مشؤوماً. كان «كالسن» قد تحول إلى «كوستا» وفتاة الحي المسكينة إلى امرأة مقهى «تيناسا»، شقيقة وعشيقة كوستا. بينما كان «باتريسيو» يشهد على نحو غامض اللحظة التي كان فيها كوستا يغرز المخرز أولاً في عيني الفتى المقيد، ثم في قلبه، ويحركه بآلية شيطانية.

في اليوم التالي عند الساعة نفسها

عاد إلى «تيناسا» لأنه فكر أنها لو كانت تود لقاءه لفعلت، ولكنه أراد أن يكون واثقاً، ولذلك فإنه توارى قليلاً خلف باب أحد الأبنية الطابقية. وحين رآها آتية، خطر له أنها كانت قد درست الرقص، إلا أنه، فضلاً عما يمكن أن تكون قد انطوت عليه هذه المخاطرة، فقد لاحظ أمراً لايمكن تعلمه، لكنه مشترك بين السود جميعاً: كانت تتحرك ببطء وبإيقاع لابد أن يُذكّر بالسود، على الرغم من أنه لم يكن في وجهها أو بشرتها مايفترض أنها تمت إليهم بصلة. كانت طويلة القامة، تغطي عينيها نظارتان سوداوان جدّاً، وترتدي تنورة بنفسجية اللون وقميصاً أسود.

دخلت إلى المقهى ومكثت حوالي ساعة ثم خرجت. كانت تتردد في حركاتها. نظرت إلى مختلف الاتجاهات قبل أن تذهب في شارع «أجاكوتشو» باتجاه «لاريكوليتا».

تبعها من مسافة مناسبة إلى أن رآها تدخل إلى «لابيبيلا» حينئذٍ تأكد ماكان يفترض، فإن «لابيبيلا» كانت أحد الأماكن التي يرتادها عادة: كانت تبحث عنه. انتظر خروجها،وتبعها : حتى «تيناسا» ثانية.

تردد «س» برهة، ولكن قراراً عاصفاً اتخذ حينئذ في دخيلته، وكان من الصعب أن يميز ماينطوي عليه من سحر وشهوانية وعدم مسؤولية

في مواجهة الخطر. دخل واتجه نحوها وقال لها: «هاإنني هنا». فلم تندهش بل استمعت إليه بابتسامة خفيفة يستحيل إدراك معناها.

وهكذا بدأ الغرق في مستنقع فسفوري متألق، مع تلك النمرة الصامتة التي كانت تتحرك بالشهوانية المتعالية والمرنة لتلك الحيوانات، ولكن، كأنما كانت تسيطر على عقلها أفعى. كان صوتها حاداً، إنما كان يبدو أن صعوبات تعترضه عند عبور حنجرتها، كمن يسير في الظلام ويخشى إيقاظ من يترصد لتمزيقه حتى الموت. كان صوتاً قاتماً ودافئاً. أمر غريب: إن كان «شنايدر» وراءها، فلا يمكن أن يعرف هو أبداً. ولكنه شعر بأنه كان ينفّذ بتلك الأداة فساداً بطيئاً ومعقداً.

فكر في لحظة بأن هنالك أشكالاً كثيرة للعقاب. وفكر - إنما بعد زمن طويل - لعل أحد مظاهره ستكون تضحية «أغوستينا».

إيه ياإخواني

«خوخوي»، ٣٠ - تموت شقيقتان من شدة البرد عن عمر ١٣ سنة و ٩ سنوات. الضحيتان هما كاليكستا ونارسيستا جامبا، كانتا قد غادرتا وشقيقهما الأكبر المدرسة الوطنية رقم ٣٦ ليتجهوا إلى منزلهم، توقفتا إلى جانب الطريق من شدة التعب والبرد، وجلستا، بينما ذهب شقيقهما للبحث عمن ينجدهما، ولكنه عندما عاد مع بَغّال كانت الشقيقتان قد ماتتا من شدة الجليد، وربما كانتا، بحثا عن شيء من الحرارة، قد تعانقتا، وهكذا فاجأتهما النهاية.

قصّ ناتشو الخبر، وبحث عن علبة أحذية، كان قد كتب على غطائها بقلم أسود:

اضحك، فإن الرب يحبك
(في حال الحريق يرجى
انقاذ هذه العلبة).

أضاف الخبر الجديد إلى الكومة.

«لويس انجلس - كال». جون غرانت. من سكان هذه المدينة، عمره ٣٨ سنة ساءت أوضاعه من كثرة الديون، ولكي يسوي حالة ميزانيته اشترى وثيقة تأمين على حياة زوجته وابنتيه بمبلغ ٢٥ مليون دولار. ثم رتب لهن جميعاً رحلة بالطائرة لقضاء الاجازة، ووضع في الوقت ذاته قنبلة موقوتة في إحدى الحقائب. ألقي القبض عليه وهو يقبض قيمة وثيقة التأمين. كانت إحدى المضيفات التي غيرت رحلتها ولم تسافر، متواطئة.

نقدم خدمات مستمعيناً النشيطين وذوي الخبرة، الذين يستمعون إلى كلّ ماتود قوله، بلا مقاطعة، لقاء مكافأة معتدلة. عندما يصغي مستمعونا فإن وجوههم تعبر عن الاهتمام او الرأفة أو الجاذبية أو الفهم أو الكراهية أو الأمل أو اليأس أو الغضب أو الفرح، حسب مايتطلبه الحال. محامون وسياسيون ورؤساء نواد ووعاظ، سيجدون من الملائم التدرب على خطاباتهم أمام خبرائنا الذين، هم كالأشخاص الوحيدين، ليس لديهم أحد يتحدثون معه، بوسع أي كان أن يروي لهم بحرية، مشاكله العائلية أو الجنسية، وآراءه حول الأعمال والاختراعات بلا أي خوف من إفشاء أسرارهم. أرخِ العنان لعواطفك أمام مستمعينا، وسرعان ماستدرك الفوائد - ساوث ليسينين بيرو - ليتل روك - أركانساس.

ستوكهلم - فرانس برس - «غريوري بوديا بولسكي» ، عالم أجرى

له فحص نفساني في مشفى عسكري في موسكو، يُعتقد أنه سيبقى في المستشفى بعد الفحص، كما هي العادة في مثل هذه الحالات، ليخضع لمعالجة خاصة.

روما . ا. ف. ب. - روى المطران «هيلدر كامارا» أمام صحفيين وأعضاء مجلس الأساقفة الطريقة التي تنظم بها الشرطة البرازيلية دورات للجلادين. في الثامن من تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٦٩ حوالي الساعة الرابعة مساء شاركت مجموعة من مئة عسكري، معظمهم عرفاء من الأسلحة الثلاثة في أحد الدورس حيث عرضت صور التقطت أثناء جلسات تعذيب، وشرحت ميزات كلّ طريقة وبعد العرض النظري، قام عريفان وجندي بعرض عملي طبق على ١٠ سجناء سياسيين.

بوينس أيرس - وكالة تيلم - في صبيحة يوم أمس، سجل «دانييل فوينتس»، عمره ٢٥ عاماً على شريط، مبررات قراره. بعدئذ ربط آلة التسجيل بجسمه، وذهب إلى البهو في صدر الدار، ربط طرف شرط غليظ في عارضة السقف والطرف الآخر في رقبته، ثم صعد إلى طنف وأطلق رصاص على صدغه الأيمن «إذا مافشلت إحدى الطريقتين» كما جاء في التسجيل. عندما سقط بقي معلقاً بالشريط، كما وجده أبوه الذي هرع حينما سمع صوت الرصاص. وعندما علمت الفتاة التي جاء ذكرها في شريط التسجيل بالنبأ قالت «ولكن ياله من مجنون، عجباً!...».

بوينس أيرس. السيد «الفان. أي. ويليامس» يقترح، لحظة هبوطه من الطائرة وهو يبتسم، تنفيذ خطة دعاية واسعة لمواد إزالة العرق الجافة. صرح بتصميم، إن المستقبل هو لمزيلات العرق الجافة، وليس هنالك أي سبب لكي لايفهم ذلك السوق على هذا النحو. إنني لعلى يقين بأن حماسنا سرعان ماسيعطي ثمرات مشجعة.

صناعيون مختصون يخططون لانتاج عطور أو روائح تثير ذكريات مشاهد عزيزة أو تستحق الذكر: الاحساس بغابة صنوبر حين ماكان فيها أول مرة مع زوجته الحالية. ريف بعد المطر مباشرة، أو القاعة التي القى فيها المعني خطاب افتتاح الشركة، أو العيد السنوي للنادي.... الخ، يفكر بإنتاج أشباه روائح خضار، وأوراق خضراء، ولحاء شجر، وجلد خنزير وحصان يتصبب عرقاً، وتبغ،ومياه مالحة. وبعض الطعوم، كطعم الفحم المحترق، لإضافتها إلى اللحم المشوي كهربائياً، بحيث إنهم سيقومون بتقليد الطعم التقليدي للحّوم المشوية في الريف تماماً.
«ذي امريكان بيرفومير».

لانسين ـ تكساس ـ دادلاي مورجان، أسود متهم بالأعتداء على السيدة ماك كاي، طارده بيض غاضون ومسلحون، وبعد أن أوثقوه إلى عمود من المعدن، أعدّوا كومة كبيرة من الحطب والمواد القابلة للاشتعال، وحينما أضرمت فيها النار كان هنالك جمع بلغ حوالي ٥٠٠٠ شخص. ولما أصبحت قضبان الصنوبر حمراء وخزت عيناه برؤوسها. ثم حنجرته وأجزاء من صدره، في حين كان «مورغان» يصرخ راجياً أن يقتلوه بطلقة رصاص. كان الجمهور يصرخ كي يكون موته بطيئاً قدر الإمكان، وهكذا سحبت المواد المشتعلة كي لايحترق الأسود في الحال، مما جعله يتراجع ويصرخ من شدة الآلام. أصبحت رائحة اللحم المشوي لاتطاق، ومع ذلك فإن الجمهور كان يسعى كي لاتفوته التفاصيل. لم تتمكن السيدة «ماك كاي»، التي وصلت في سيارة تصحبها أربع صديقات، من الاقتراب بسبب الزحام. تمكن الأسود قبل أن يموت من أن يتمتم «قولوا لزوجتي وداعاً»، وبعدئذ انحنى رأسه ومات. وعندما أنجزت النيران مهمتها، اقترب كثيرون كي يأخذوا ذكرى: قطعة من الجمجمة أو العظام. حُمل المطاردون على الأكتاف والتقطت الصور وسط تهليل الجمهور.

لندن ـ يونايتد برس. السائحون الذين وصلوا خلال الصيف إلى جزر «فريسياس» تعين عليهم أن يشقوا طريقاً عبر الشاطىء حتى يصلوا إلى المياه، فقد كان الشاطىء مغطى بالزيت. النشيد الذي كتبه اللورد «بيرون» عن نقاء وزرقة بحر الشمال يصف مشهداً لم يعد له وجود. النفايات الصناعية التي تحملها خلال السنوات المائة الأخيرة، قنوات النتن الهولندية تشكل، حسب تصريحات المهندس لوك «الضريبة التي ندفعها لقاء التقدم». أكد «سير غيلمور جينكينس» أن نصف مليون طن من البترول تغطي سطح ذلك البحر. حموض، نشادر، شحوم ، منظفات، مياه مجاري، ومواد فحمية تصل إلى البحر يومياً،وحموض ونفايات زئبق، ونتيجة لذلك يموت في الشواطىء البريطانية وحدها ٢٥٠ ألف طير سنوياً. وبعد قليل سوف تقضي الصناعة على المياه البحرية بأسرها، أو تفسدها.

دبلوماسي أصيل فقط كان بوسعه مواجهة الأمر الواقع. فقد حددت المراسم، يوم الخامس والعشرين من أيار / مايو لتقديم التحية للرئيس بلباس «الفراك» والصدرية السوداء، والسفير الذي نعنيه لم يكن يعرف عادات البلد. ذهب يلبس «سموكن» وحينما وصل إلى المكان ورأى زملاءه بلباس «الفراك»، لم يبر ـ بفضل رباطة جأشه ـ أي ارتباك، ووقف في المكان المخصص له «مجلة صحيفة لاناسيون الاسبوعية ـ بوينس آيرس».

بوينس أيرس ـ صحيفة لاراسون ـ «ميكيل كيفر»، روماني عمره ٥٩ سنة، لديه مزرعة في «بامبا ديل إنفيرٌنو» ، في منطقة «تشاكو» حيث كان يعمل وزوجته «مرغريتا شميدث»، عمرها ٤٦ سنة وولديه خوان «خورخي» المتزوج من «تيودورا دييبول» عمرها ٢١ سنة. ولما كانت «تيودورا» ستضع قريباً، وكان الوليد سيشكل عبئاً، قررت الحماة

أنها ينبغي أن تجهض مما يوقع عقاباً شديداً بكنّتها، دون أن يجرأ الزوج على التدخل. ولما كانت العملية قد فشلت، واستجابة لنصيحة الأسرة تقرر قتلها بوساطة لسعة أفعى دست في سلّة ملابس، فأمرت السيدة «كيفر» كنّتها أن تبحث عن قميص في السلة فلدغتها الأفعى. ولما بدا ان السمّ أثّر ببطء، وخشية من أن لايكون أثره مميتاً. وكما روى زوجها للمحكمة، كانت من شدة العطش وفعل السم تطلب الرحمة. ولكن الحكم بالموت كان مقرراً. وللإسراع بذلك فإن الحماة خنقتها بمنديل لفّته حول عنقها.

باريس ا. ف. ب . قام «تور هيريد هال» في ١٩٤٧ بحملة «كون - تيكي»، وفي ١٩٦٩ بحملة «را». لاحظ في هذه الحملة الأخيرة اختلافاً واضحاً عن الأولى. في ١٩٤٧ كان المحيط صافياً تماماً، لم نر فيه، طيلة مائة يوم ويوم أي أثر ليد الإنسان على مدى ٣٤٠٠ ميلاً، ولكن في ١٩٦٩ لم يكن يمرّ يوم إلاّ ونبحر فيه بين متخلف أنواع النفايات. بين اوان بلاستيكية، وزجاجات بلورية،وعلب من تنك، وبقع بترولية. لم يكن الأمر أمر النفايات التقليدية التي كانت تتحول إلى أشكال أخرى مفيدة للحياة العضوية، وإنما تلك المواد الصناعية التي ليست جزءاً من تطور الطبيعة. وختم حديثه بجرس كئيب قائلاً: ليس لدينا أي قاعدة تدلنا إلى أين نريد أن نذهب، ومع ذلك فإننا مانزال نصنع.

نيويورك . ا. ف. ب. صرح الجندي «أرنولد و. ماك جيل» المتهم بالقتل. أنه لايعلم لماذا كلّ هذا الاستغراب لما يحصل في قرية فيتنامية، في حين أن مثل ذلك يجري بانتظام، كما يعرف تماماً الجنرالات الذين يقودون «البينتاغون» قال: أنا لم أفعل شيئاً سوى إطاعة أوامر «الكابيتان مدينا» وأضاف: ثم إن الأمر يتعلق بقرية كانت، في جميع الأحوال، تزعجنا.

بروموبيتش. يو. ب. - صرح «بيل كوربرت» امام القاضي أنه منذ ٧ سنوات لم يكلم زوجته، على الرغم من أنهما يعيشان تحت سقف واحد. وأكدت السيدة «كوربرت» الواقعة في المحكمة المحلية: «منذ سنوات لايكلم أحدنا الآخر، عندما يدخل أحدنا الغرفة يخرج الآخر، ولكننا قلّما نلتقي، على السلم أحياناً، أو أمام باب الحمام. وأضافت أنها حتى زمن قريب كانت تعدّ له الطعام، وتدعه على المنضدة وبجانبه رسالة مكتوبة: الشوربة تحتوي على ملح. المرق ساخن جداً، وما إلى ذلك من المعلومات. ولكن في الأيام الأخيرة، انقطع هذا الضرب من الإتصال.

طوكيو. ا. ف. ب. - في صبيحة يوم قصفت هيروشيما، يروي السيد ياسوجاماموتو - كنت ذاهباً أركب دراجة عندما سمعت هدير طائرات، ولكنني لم أعره إهتماماً، لأن ذلك كان في تلك الأيام أمراً معتاداً. ورأيت بعد مضي دقيقتين عموداً هائلاً من النار يرتفع وسط إنفجارات مروعة كأنها قصف ألف رعد في وقت واحد. انقذفت دراجتي في الهواء، وأما أنا فَطوّح بي خلف جدار. عندما تمكنت من أن أتسلق، رأيت فوضى مريعة، سمعت أطفالاً ونساء يصيحون بجنون، كأنهم جرحى أو يموتون وهم يصرخون. ركضت نحو منزلي، فوجدت في الطريق أناساً يضغطون على جروح كبيرة، وآخرين يغطيهم الدم والجزء الأعظم من أجسامهم محروقاً. وكان يبدو عليهم جميعاً ذعر لم أشهد مثيلاً له في حياتي وآلام هائلة لاتطاق. وكان يشاهد، بعيداً عن المحطة، بحر من النيران، أما البيوت فكانت كلها مهدمة. كان يملأني غماً، مجردُ التفكير بأنني الوحيد «ماسومي» وزوجتي. وعندما تمكنت في نهاية المطاف من الوصول، بين الأنقاض والنيران إلى ماكان منزلي، لم يكن هنالك جدران، كانت الأرض مائلة: كأن زلزالاً ضربها، وفوقها كوم من حطام الزجاج والأبواب والسقوف. كانت زوجتي جريحة تنادي إبننا الذي خرج لقضاء حاجة. بحثنا عنه في كلّ مكان، في الإتجاه الذي ذهب نحوه، إلى أن

سمعنا هناك كائناً عرياناً، بلا بشرة تقريباً، وشعره محترق أيضاً، يئن على الأرض ويكاد لايقوى على الحركة. سألناه وقد هيمن علينا الرعب من يكون، فتمتم البائس بصوت غريب يكاد لايفهم «ماسومي جاماموتو». وضعناه فوق لوح هو بقايا باب، بمنتهى الحذر، لأنه كان مجرد كتلة حية، ثم أخذناه إلى مكان للإسعاف، فرأينا من بعد ألف متر أن هناك صفاً طويلاً من جرحى ومحترقين ينتظرون رعاية أطباء وممرضات جرحى أيضاً. ولما كنّا نفكر أن ابننا لن يحتمل أكثر، رجونا طبيباً عسكرياً أن يعطينا شيئاً ما ليخفف من آلامه، فأعطانا زيتاً لكي ندهنه به ـ وهكذا فعلنا. سألَنا الصغير إن كان سيموت، فقلنا له بحزم لا، وأنه سوف يشفى قريباً. أردنا أن نأخذه إلى البيت ثانية ولكنه قال لنا ألاّ نحركه من مكانه. عندما حلّ الليل اطمأن قليلاً، ولكنه كان يطلب ماء بإستمرار. وعلى الرغم من أننا لم نكن ندري إذا ما كان الماء سيلحق به ضرراً، لكننا كنّا نسقيه. كان للحظات يهذي، ولم تكن كلماته مفهومة. وبعد برهة بدا أنه استعاد وعيه، فسألناه إن كانت هنالك حياة آخرة حقاً. كانت زوجتي مرتبكة ولم تتمكن من أن تجيب، لكنني قلت له، نعم، توجد حياة آخرة، في مكان جميل جداً حيث لاوجود للحرب أبداً. استمع إلى تلك الكلمات بإهتمام وبدا أنه اطمأن، ثم تمتم قائلاً: من الأفضل أن أموت إذن. وكاد لايتمكن من أن يتنفس، كان صدره يرتفع ويهبط كالكير، أمّا زوجتي فكانت تبكي بصمت كي لايسمعها. ثم أخذ ولدنا يهذي ولم يعد يطلب ماء. وبعد بضع دقائق، توقف، لحسن الحظ، تنفسه.

رسالة السيد ليبمان، أوربك، كولورادو، الموجهة إلى الأمين العام للأمم المتحدة والمنشورة في «نيويورك تايمز:

سيدي المحترم

أكتب إليك لأعلمك أنني قررت التخلي عن عضويتي في الجنس البشري، ولذلك بوسعكم الإستغناء عنّي في المعاهدات والمناقشات التي تقوم بها المنظمة في المستقبل. أحييك بإحترام.

كورنيليوس. و. ليبمان

من بين تلك القصاصات

اختار ناتشو ثلاثاً قرر ضمها إلى معرضه المقام على الجدار.

إعلان ضخم طوله عشرون سينتيمتراً، وعرضه عمودان، يحمل عنواناً: عند الله هاتف...! ٨٠٣٠٠١ ، خابر في حالة الطوارىء».

إعلان آخر بدا له ذا أهمية، كان منشوراً في «لاناسيون» قرب الأخبار الهامة: لاوحدة بعد الآن..! حلٌ لمستواك الإجتماعي، الإقتصادي والثقافي، للجنسين، إنسانية، تفهّم، خبرة، صدق وكتمان. «مكتب استرال» بإدارة اي. بارتينس بيسارو»، كورديا ٩٦٦ ، إسأل، واطلب موعداً، رقم الهاتف ٣٩٢٢٢٢٤ . بعد أن ثبت الإعلان على الجدار طلب الرقم المذكور وعندما أجابته آنسة «مكتب استرال، مساء الخير..» أجاب: غوا..! غوا..! غوا..!

ولكي ينتهي من عمله اليومي، علّق فوق صورة «أنويل» بلباس «السموكن» وهو خارج من الكنيسة، غلاف أحد أعداد مجلة «المختار» يحمل صورة كبيرة لـ «بول كلوديل» حيث ينظر الدبلوماسي الموقر، والشاعر الماورائي البدين بحدة ووقار، بعينين ثاقبتين محذرتين إلى القارىء قائلاً: اقرأوا المختار..! أتى التحذير مترافقاً وكلمات رصينة أصولية.

ثم قرر أن يذهب إلى حديقة الحيوانات.

سار «س» تلك الليلة طويلاً.

منتظراً الساعة التي يتعين فيها أن يلتقي «نورا»، حتى وصل إلى ساحة إيطاليا، حيث اتخذ طريقة في شارع «سارمينتو» متجهاً نحو «نصب الاسبان»»، يسير على رصيف حديقة الحيوانات على غير هدى. هذا التعبير الأخير انبثق حينئذ في ذهنه، مما يدلل، برأي «برونو»، على أن الكتّاب أيضاً ينساقون وراء عبارات شائعة سطحية ومزيفة. لأننا نسير دائماً بإتجاه ثابت، في مناسبات تحددها إرادتنا الواضحة، إنما في مناسبات أخرى، لعلها حاسمة في حياتنا أكثر، تحددها إرادة أخرى مجهولة، تخفي علينا نحن أيضاً، لكنها مع ذلك، جبارة لايمكن التحكم بها، وهي التي تجعلنا نسير قدماً نحو الأماكن التي يتعين علينا أن نلتقي فيها كائنات أو أشياء تكون أو كانت أو ستكون - على نحو أو آخر - حاسمة في مصيرنا، كما أنها تشجع أو تعيق رغباتنا الظاهرة، وتساعد أو تعيق قلقنا. والأمر الغريب حقاً، هو أنها كلما طال الزمن تدلل أحياناً على أنها مصيبة أكثر من إرادتنا الواعية. شعر «س» تحت قدميه بأوراق الموز الطرية التي تذروها الرياح في تلك الأمسية الكئيبة من أيام العيد في ذلك الحي بخاصة، حيث عاد الآباء أو المربيات بالأطفال الذين كانوا يتجولون في حديقة الحيوانات، وحيث أوى البحرة - الذين يجرون من شدة البرد والمطر - إلى حانات شارع «سانتافي» مع فتيانهم المعهودات أو العاهرات الوضيعات اللواتي يرافقنهم لشرب كوب ساخن من الشوكولاته مع الشطائر.

لم يكن يشاهد في ذلك الرصيف الموحش سوى طفل نحيل يقبض على قضبان السياج الحديدية بكلتا يديه وذراعاه مفتوحتان كالصليب، ينظر إلى داخل حديقة الحيوانات ساكناً، لايبالي، كما يبدو، بالمطر،

فهو لايرتدي سوى «بلوجينز» شحب لونه، وسترة رثة كبنطاله، لكنه يشكل صورة خرقاء، ومضحكة معاً.

وما أن اقترب قليلاً حتى أدرك أنه «ناتشو». فوقف كما لو أنه يرتكب فعلاً قبيحاً أو يفاجىء امرءاً أثناء قيامه بعمل من صميم خصوصياته، الخالصة، لكنه سرعان ماارتد مبتعداً، حرصاً منه على أن يدع الفتى يشاهد بشوق تلك الحديقة الهادئة، بحيواناتها المسكينة كأنها أشباح مسالمة. حتى توقف بعيداً، يراقبه من خلف شجرة موز، مفتوناً بحضوره وبوضعه الساكن المتأمل.

بينا ناتشو

كما كان في مرات أخرى كثيرة، عمره سبع سنوات، بعيداً عن منطقة القذارة والقنوط، يجلس على الأرض في ظلّ الجوسق الصغير، يحلّ رموزاً «رايوروخو»[1] ويحس بأنفاس «ميلورد» الهادئة، وهو مضطجع ممدد، بلونه البنّي كالقهوة بالحليب، ورقعه البيضاء كالكلاب الضالة، يغفو عند قدميه، يحلم، ولاشك، بتأملات القيلولة الهادئة. شعر بالأمان، لمعرفته أنه بجانب قوى جبارة فاضلة، وبخاصة «كارلوتشو» الجالس كعملاق ضخم فوق كرسيه القزم، يفكر بروية، ويشرب «الماتي» بكأس مطلية. ويستغرق في ساعة تأملاته الفلسفية، بتأملات لايمكن (كما يرى برونو) أن يعيقها أحد أبداً سواء وجود الفتى أو ميلورد، وإنما على النقيض من ذلك، فإن مايسهلها، بل ويشجعها أيضاً، أنها أفكار ليست من أجله وحده، وإنما هي، إذاً ماأخذت طبيعته بعين الإعتبار، من أجل البشرية بعامة وذينك البائسين بخاصة، وهكذا، بينما كان الفتى يقرأ «رايو روخو»، و«ميلورد» يحلم ولاشك بعظام شهية، وبتلك النزهات أيام الراحة في جزيرة «ماسيل» كان «كارلوتشو» مستغرقاً

(١) رايو روخو: تعني شعاع أحمر وهي مجلة أرجنتينية هزلية مسلية، (المترجم)

بأفكار أخرى حول وظيفة النقود، ودور الصداقة، وتعاسة الحرب.

حينئذ، وبدافع من ذكرى ما، أو فكرة أتت على ذكرها «المجلة»، رفع ناتشو ناظريه نحو صديقه، وترك المجلة مفتوحة علىالصفحة التي كان يقرأها وقال: «كارلوتشو» فرد العملاق ذو الشعر الأشيب والأكتاف العريضة، على نحو آلي، بدون أن يهجر تماماً الأفكار التي كانت في تلك اللحظة تدور في رأسه «ماذا..»

فقال الفتى كأنه يتذمر

- ولكن هل تسمعني، أم أنك لاتسمع؟

- أسمعك ياناتشو، إن أسمع.

- أي حيوان تود أن تكون..؟

كانا في مرات أخرى قد تحدثا عن النمور والأسود. كانت الفكرة العامة تقريباً: إن النمور كالقطط، والأسود كالكلاب. ياللعجب: كلاهما كانا يفضلان الكلاب. ولكن هذا السؤال كان أشد تعقيداً، و«ناتشو» الذي يعرف «كارلوتشو» حق المعرفة، لن يسأله سؤالاً بهذه البساطة.. لا ياسيدي.

- نعم، أي حيوان تود أن تكون.

لم يكن ينتظر رداً سريعاً، كان يعلم أن «كارلوتشو» منصف ولن يرد كفيما اتفق كي يخرج من المأزق، لم يكن الأمر أن يقول مثلاً، فيل، وكفى. لن يقدم جواباً زائفاً، أو ما من شأنه أن يكون مهيناً لأي نوع من أنواع الحيوانات، سواء كان طيراً أو ضاربة أو كائناً ما كان. ولذلك فقد كان السؤال كبيراً، وليس من قبيل العبث أن «ناتشو» كان قد فكر

فيه مراراً. كان مشروعاً استغرق في التفكير فيه طويلاً.

امتص «كارلوتشو» رشفة طويلة من «الماتي»، وكعادته حين يمعن التفكير ملياً، توقفت عيناه الزرقاوان على سقف ذلك البرج الأخضر الذي يطلّ على شارع «تشيكلانا»، بينما كان يتمتم قائلاً «لو تعين عليّ أن أكون حيواناً...»

فقال ناتشو وقد نفذ صبره.

- نعم

- انتظر، انتظر، هل تظن يا «ناتشو» أن الأمور بهذه السهولة؟ لو أن الأمور كانت سهلة.. انتظر قليلاص..

كان «ناتشو» يعرف تماماً أنه حين تنتفخ أوداجه فذلك لأنه كان يفكر بشدة. ولهذا فإن ذلك الإنتفاخ كان يجعله يستمتع أكثر، لأنه منذ وقت طويل، كان يعد السؤال، وهو متأكد أنه سيضع «كارلوتشو» في موقف حرج.. الآخرون طبعاً، لأن أياً منهم يمكن أن يجيب: فيل أو نمر، أو أسد، وانتهى الأمر.

أما «كارلوتشو» فكان مختلفاً، كان يتعين عليه أن يفكر بالجواب، ماله وماعليه، ويقول ما يعتقد إنه الحقيقة، لا أكثر ولاأقل «لأن ماهو حق هو الحق..»».

- سأصدقك القول أيها الفتى: لم أفكر بذلك من قبل قط، إطلاقاً، إطلاقاً، فأنت لديك كلّ سؤال..!

أبعد برجله «ميلورد» الذي كانت عادته الملعونة أن يقترب دائماً ليجلس تحت الصندوق الذي يضع عليه الابريق المملوء ماء مغلياً، ثم

عاد يركز نظرته على السقف الأخضر.

فألح «ناتشو» الذي كان يشعر بمتعة أعظم بقدر ما كان الزمن يمضي، وبقدر ماكانت تلك الأوداج تنتفخ أكثر:

- وماذا..؟

غضب، كان «ناتشو» يخشاه حين يغضب، فقد كان «كارلوتشو» نفسه يعترف عندما يستعيد هدوءه، أنه حين يغضب يكون أهلاً للقيام بأي شيء.

صرخ والشرر يتطاير من عينيه من شدة الغضب.

- ولكن ماذا تظن أنت..! لقد قلت لك أن تنتظر قليلاً، أم أنني لم أقل لك انتظر..؟ إيه..؟

انكمش ناتشو كله، وانتظر مرور العاصفة، نهض «كارلوتشو» وأخذ يرتب في زاوية قائمة، المجلات وألواح الشوكولاته وعلب اللفائف. كلّ شيء كان مصفوفاً كجيش منتظم ونظيف. فأي خلل كان يزعجه: لم يكن هنالك ما يمكن أن يثير امتعاضه أكثر من رؤية شيء غير منتظم. أخذ يستعيد هدوءه شيئاً فشيئاً، إلى أن عاد ليجلس على الكرسي الصغير.

- يجب أن تتعبني أنت أيضاً. أنظر، فإن هنالك عديداً من الحيوانات: نمور، أسود، فيلة، عقبان، نسور، ماعز، وما أدراني... كي لاأحدثك عن النمل أو القمل أو الفئران. فبرأيك يتعين أن تمسك وتحل كلّ شيء هكذا، بضربة واحدة.

امتص الماتي وهويفكر، وأدرك «ناتشو» أن التفكير أخذ يصل إلى

نهاية المطاف حين لمح ظلّ تلك الإبتسامة الضمينة التي أخذت ترتسم على وجهه، والتي كان هو يعرفها جيداً.

قال وهو يكاد يبتسم، كي يدخل السرور على النفس.

- لو كان يتعين عليّ أن أكون حيواناً.

نهض، وترك «الماتي» فوق الصندوق الذي كان يستخدمه كمنضدة مطبخ ثم اتجه نحوه، وأجابه بهدوء بالغ.

- سأصدقك القول يافتى: فرس النهر(١).

كاد «ناتشو» أن يقفز من مكانه، لم يكن ينتظر جواباً كهذا، كان شبه غاضب، لأنه فكر للحظات أن «كارلوتشو» أراد أن يسخر منه.

صاح:

- ولكن هل أنت مجنون؟

تأمله «كارلوتشو» بقسوة، فقد اكتسى وجهه بذلك الهدوء البارد الذي يسبق أسوأ سورات غضبه.

ثم سأل بجرس بارد

- وماعيب أفراس النهر؟ هات قل.

عاد ناتشو إلى تواضعه ولاذ بالصمت.

---

(١) فرس النهر: حيوان ثديي، جلده ثخين أسود عريان تقريباً، جسمه ضخم، طوله حوالي ثلاثة أمتار، وارتفاعه متران، رأسه كبير، أذناه صغيرتان وكذلك عيناه. وفمه ضخم وشفتاه كبيرتان جداً، وقوائمه قصيرة وذيله رفيع، يعيش في أنهار أفريقيا الكبرى، ويخرج من الماء أثناء الليل عادة ليرعى على الضفاف (المترجم).

ـ هات لنرَ، ستقول لي أنت الآن ماعيب أفراس النهر.

كان «ميلورد» قد تحفز وانتصبت أذناه وهو يراقب كأنه مذعور. أما «ناتشو» فتأمل «كارلوتشو» بحذر. حيث يتخذ صديقه مثل ذلك الموقف يكون خطراً، وأية كلمة خطأ يمكن أن تفجّر كارثة كبرى.

جروه على أن يتمتم وهو يراقب وجهه

ـ أنا لم أقل إن أفراس النهر سيئة

فاستمع إليه «كارلوتشو» وهو ينظر إليه ويتأمل ملياً ثم قال:

ـ إندفعت كحليب يغلي.

ـ أنا؟

ـ نعم، أنت، ستتنكر الآن أنك اندفعت كحليب يغلي.

ـ أنا لم اندفع. فكرت أنه يمكن أن يستهويك حيوان آخر. هذا، كلّ شيء.

هدوء «كارلوتشو» الجامد: لم يكن راضياً، فقد كان هنالك هرّ محبوس.

ـ والآن، ستقول لي ماعيب أفراس النهر.

قدر ناتشو الخطر. إن أنكر تماماً أيّ نية سيئة وأيّ فعل سلبي، فإن «كارلوتشو» سيظن أنه يكذب. أدرك أنه من الأفضل أن يذكر جانباً من العيب.

قال:

ـ وماأدراني.. إنها حيوانات قبيحة جداً.

ـ حسناً. وماذا أيضاً، لن تقول لي الآن، لأنها ليست جميلة، فهي ليست حيوانات من الطراز الأول.

ـ أعتقد أيضاً أنها غبيّة جداً.

رمقة «كارلوتشو» بنظرة تنم عن القسوة.

ـ غبيّة؟ ومن قال لك إنها غبية؟

ـ أنا.. لست أدري.. إخال..

ـ إخال.. إخال..! هكذا إذن، لأنه يبدو لك، فإنك تقرر أن أفراس النهر غبيّة؟ راقبه «ناتشو» كمن يقف أمام قنبلة يدوية ولايدري متى سينفجر. حاول أن يهدىء من روعه.

ـ حسناً، من يعلم، ربما ليس كذلك... ماأدراني

ـ ربما كذلك..! متى ستتعلم أن تكون رصيناً وأن لاتسوق حماقة بعد حماقة..!

باع بضع لفائف ورتب بقية الأسطول المنتظم ثم جلس. كان «ناتشو» يعلم أنه من الأفضل أن يدعه يهدأ شيئاً فشيئاً، وأن لايعود إلى رواية أي شيء عن أفراس النهر. كم من مرة بقيت محاطة بأعمق الألغاز، تأكيدات «كارلوتشو» حول النقود أو المدرعات، حول الأزياء النسوية أو المقليات بالدهن.!

ترك برهة طويلة تمرّ قبل أن يعود إلى موضوع الحيوانات. كان «كارلوتشو» أشبه مايكون بأنهار السهل الجبارة، بطيئة وهادئة من

حيث الظاهر، تبدو مياهها وكأنها لاتتحرك، ولكنها تخفي تيارات، من يجازف بالإقتراب منها، يغرق ويموت. هذا إن لم نتحدث عن القوة المريعة التي تكتسبها عندما تحلّ الأعاصير والطوفانات. كان «كارلوتشو» يكره وصف تأكيد ثم يرويه أنه ضرب من الطيش. صحيح أنه كان يلجأ للهزل أحياناً، ولكن حين كان يتكلم بجدّ، فإنه يستشيط غضباً إذا لم يحمل كلامه على محمل الجد. خلّفت في نفسه مرارة شديدة مسألة أفراس النهر، وبقي أياماً عديدة حاقداً: كان يلوذ بالصمت أو يجيب بإيجاز.

حتى عاد «ناتشو» ـ بعد أن كان كلّ شيء قد انقضى وأصبح بوسعهما أن يتحدثا ودّيا ـ إلى إعادة الكرّة، ولكن على نحو عام، حديقة الحيوانات، وأشياء من هذا القبيل.

قال «كارلوتشو» بحزم:

ـ لو أنني كنت حكومة لمنعت حدائق الحيوانات.

ـ لماذا يا «كارلوتشو»، إنني أحب أن أذهب إلى حديقة الحيوانات، أحب أن أرى الحيوانات، وأنت ألا تحب ذلك؟

ـ لا ياسيد، لاأحب ذلك أبداً، أصدقك القول يافتي: لو كنت حكومة لما منعت حدائق الحيوانات وحسب، بل لوضعت أولئك الذين يذهبون إلى أفريقيا للقبض على حيوانات مفترسة في السجن.

نظر إليه «ناتشو» مستغرباً.

ـ يسترعي ذلك إنتباهك، إيه؟

نهض لكي يبيع لفائف، ثم عاد ليجلس على الكرسي القزم.

شدد بحكمة.

- هكذا إذن، لوضعت في السجن أولئك الأوغاد كلهم. لِنَرَ إن كان يروقهم أن يكونوا خلف القضبان كالأسود أو النمور.

عاد نحو «ناتشو».

- وأنت أيروقك أن تكون في قفص؟

نظر إليه «ناتشو» مندهشاً.

- أنا..؟ طبعاً لا.

وقف «كارلوتشو» بهمة ووجهه متألق، وقال وهو يشير إليه بسبابته كمدع عام يوجه الإتهام.

- ها إنك تقول..! أترى؟ أترى كيف تكون الأمور؟ من فمك أدينك. هاأنت ترى..!

عاد ليجلس. هدأ. امتص الماتي، ثم استغرق في التفكير، وهو ينظر إلى السقف الأخضر.

- هذا هو حال الدنيا، ياللعاهرة.

ثم عاد يتملكه الغضب ثانية.

- قل لي يا «ناتشو» إن كنت لاتحب أن تكون في قفص، فكيف تعتقد أن أسداً أو نمراً يحب ذلك؟ إيه..؟ وهي حيوانات معتادة على العيش في الغابة وعلى الإنطلاق بحرية والتجول في الدنيا كلها. إيه..؟

لاذ «ناتشو» بالصمت.

فألحّ بشدة.

- إنني أكلمك.

- نعم يا«كارلوتشو»، ذلك صحيح.

بدأ «كارلوتشو» يعود إلى هدوئه، ولكنه بقي جالساً على كرسيه برهة طويلة لايتكلم. أتى بعد ذلك عدد من المشترين.

- لفائف.. لفائف..! تفضّل: وكذلك لو كنت حكومة لوضعت صانعي التبوغ في السجن. كلّ ذلك تجارة. في سن الثلاثين، عندما كان عمر والدي ثلاثين عاماً، قال له الطبيب «هيلغيرا»، انظر يا «دون ساليرنو»، إما أن تدع التدخين، أو تموت في غضون ستة أشهر.

- وماذا فعل والدك..؟

- والدي؟ ماذا تظن أنت. كان والدي قاسياً كالحديد. ترك التدخين وانتهى الأمر. هكذا تكون الرجال، وليس هؤلاء الذين يقولون لك الآن إنهم يستطيعون... وإنهم لايستطيعون.. ونعم.. ولا.. وأن التدخين... وأن العادة.. كلهم مخانيث.

- مخانيث؟

- عندما تكبر قليلاً سوف تعلم.

- هكذا إذن. ترك التدخين.

- كان المرحوم والدي صاحب كلمة، لم يمسك «سيكارا» واحداً بعد ذلك أبداً.

- «سيكارا»؟

ـ أجل يا ناتشو «سيكار»، أم أنك تظن أنه كان يدخن لفائف بمصفاة مثل أولئك المخانيث. لم تدخل بيتنا قط، لفائف أو مشروبات خفيفة. أؤكد لك ذلك.

كان «ناتشو» يضطرم بالشوق للعودة إلى الحديث عن أفراس النهر.

ـ ولكن قل لي يا «كارلوتشو»، إن لم تكن هنالك حدائق حيوان فإلى أين سيذهب الأطفال لرؤية الحيوانات.

ـ إلى أين..؟ لن يذهبوا إلى أي مكان.

ـ وكيف تقول إلى أي مكان؟ هكذا يتعين عدم رؤية الحيوانات المفترسة.

ـ لاياسيد. سوف لن يموت أحد إن لم ير أسداً مسجوناً في قفص. الأسد يجب أن يكون في الغابة. مع أبيه وأمه إن كان شبلاً، أو مع اللبوة، ومع أشباله عندما يصبح كبيراً. أما الأشخاص الذين يصطادون، فلو كان الأمر لي لوضعتهم في الأقفاص في حدائق الحيوان هات نرى، كيف يأكلون الفول السوداني في الأقفاص. هيا نرى.

نظر ناتشو إليه

ـ أنت تحب أن تتحدث معي. أليس كذلك؟

ـ نعم، طبعاً.

ـ حسناً. والحيوانات تتحدث أيضاً. ماذا تعتقد. أم أنك تظنها ـ لأنها تزأر ـ فهي لاتتحدث؟ أتعلم مايعني وجود دبّ في القفص يروح ويجيء، الدورة نفسها دائماً، من هنا إلى هناك ومن هناك إلى هنا، الأمر ذاته دائماً، وحيد دائماً، يفكر دائماً..؟

ثم راح ينظر إلى السقف الأخضر.

- يبدو ضرباً من الكذب أن لايكون قد انتبه إلى ذلك أحد. وبعد برهة صمت تابع يقول:

- إنني أحب أن أقوم بتجارب. أتعلم مافعلت في أحد الأيام؟

نَمّتْ ابتسامة عن أن تلك التجربة كانت ذات أهمية.

- أتعلم مافعلت؟. ذهبت إلى حديقة الحيوانات في وقت الصلاة تقريباً.

- في وقت الصلاة.. كيف؟

- ولكن نعم أيها الأبله، عند المغيب، حين يغلقون أبواب حديقة الحيوانات. أرأيت قضبان الحاجز المطلة على شارع «سارمينتو»؟

- نعم.

- نعم، كان الوقت عند المغيب، وكان الأطفال قد ذهبوا ليشربوا الحليب. والبوابون قد أغلقوا الباب. لم يكن هنالك أحد. ويجب أن ترى ماكانت عليه حديقة الحيوانات آنذاك. قمت بالتجربة.

- أية تجربة؟

- حديقة الحيوانات عندما لايكون هنالك أحد.

- وكيف كانت ياكارلوتشو؟

أطرق «كارلوتشو» وأخذ يخط رسوماً على أرض الرصيف بقشة مكنسة.

تمتم

ـ أمر محزن جداً.

ـ حسناً، لأن الأطفال ليسوا موجودين، ولأن أحداً لايقدم لها السكاكر والأكل، وما إلى ذلك.

رفع «كارلوتشو» رأسه وقد استشاط غضباً.

ـ متى تتعلم أنت؟ ألا تدرك أيها المغفل؟ عندما يكون الأطفال موجودين فإن الحيوانات تتسلى طبعاً. كيف لا. حسناً. دع السكاكر والفول السوداني والأكل. طبعاً فإنها تتسلى. بعضها أكثر وبعضها أقل ولكن الحيوانات جميعها تحب الأطفال. أتفهم؟ إنها تتسلى. لم يفهم «ناتشو». تفحصه كارلوتشو كأستاذ ينظر إلى تلميذ قاصر.

ـ لنفترض (إنه مجرد إفتراض) أن والدك يموت، ثم يأتي صديق فعلاً ليحدثك عن مباراة فريق «ريفر»، عن إضراب نقابات العمال، عن أمور كهذه، فإنك تتسلى. لاأقول لك إنهم يجب أن لايفعلوا ذلك إن كانوا يحبونك. حسناً، أمر طبيعي، إنه لشيء حسن.

كان «ناتشو» يحملق إليه.

ـ أنت لاتفهمني. أرى ذلك في وجهك.

فكر ملياً. أخذت أوداجه تنتفخ.

نظر إلى الفتى ليرى فيما إذا كان عقله قد استوعب الفكرة.

ـ هل فهمت؟ ليست المسألة هي أنني أعارض أن يذهب الأطفال إلى حديقة الحيوانات وقدمون الفول السوداني للفيلة أو الحلوى للقرود. ماأقوله لك هو إنه يتعين ألاّ تكون هنالك حدائق حيوان. ولهذا فإنني قمت بالتجربة.

أية تجربة؟

- رؤية الحيوانات عند الغروب، عندما يبدأ الليل يخيم، عندما تكون وحيدة، أقول وحيدة، بلا أطفال ولاسكاكر ولاأي شيء آخر. لاشيء من أي شيء أبداً.

عاد يخط رسوماً على الأرض بالقشة، وبعد برهة طويلة رفع راسه، وبدا للفتى أن عينيه قد أضناهما السهر.

سأل دون أن يعلم أكان ينبغي أن يفعل أم لا:

- وماذا رأيت يا «كارلوتشو»؟

- ماذا رأيت؟

نهض ورتب بعض العلب ثم أجاب:

- وماذا تخال أنني يمكن أن أرى؟ لاشيء. الحيوانات وحيدة. هذا مارأيت. جلس ثم أضاف قائلاً كأنه يحدث نفسه:

- كان هنالك حيوان كبيراً جداً. نوع لست أدري ماهو. كان يجب أن تراه. كان منطوياً على نفسه مطرقاً ينظر إلى الأرض، لاشيء سوى النظر إلى الأرض طيلة الوقت. وبقدر ماكان الظلام يحلّ كان شعوره بالوحدة يشتد. كان ضخماً. لم يكن يتحرك لكي يبعد ذبابة، كان يفكر. أتظن أن الحيوانات ـ لأنها لاتتكلم ـ فهي لاتفكر؟ إنها كالبشر: تعتني بالصغرا، وتداعب الجراء، وتبكي عندما يقتلون رفيقة العمر. ولذلك، هات من يعلم بماذا كان ذلك الحيوان يفكر. وسأقول لك إنها بقدر ما تكون أكبر بقدر ماأتألم من أجلها أكثر. لست أدري، الحشرات الصغيرة لاتروقني أحياناً، فلماذا نخدع أنفسنا. إنها مزعجة، كالبراغيث. ولكن

تلك الحيوانات الضخمة... أسد، مثلاً، فرس النهر. أتدرك ماأتعس أن لاتكون في الغابة أبداً. أقول، أن لاتكون أبداً في الأنهار الكبرى، وفي البحيرات؟.

ثم لاذ بالصمت.

ـ أوتعلم ماجرى بعد ذلك؟

ـ ماذا؟

ـ كلمته.

ـ من

ـ من سيكون أيها الأبله: ذاك الحيوان، الجاموس، ماأدراني.

ـ كلمته؟

ـ ولم لا؟. ولكنه لم يتحرك. طبعاً، لعله لم يسمعني. تصور، لم يكن بوسعي أن أصرخ من فوق السياج، كي لايعتقدون أنني مجنون.

ـ وماذا قلت له؟

ـ وماأدراني... أشياء.. ترهات.. قلت له: أيتها الدابة. ياداية فلم يرد.

ـ وبماذا كان بوسعه أن يرد؟

ـ لا، طبعاً. ولكن، في أقل تقدير، أن ينظر إليّ، ولكن لم يرد.

ـ لعله لم يسمعك.

- طبعاً، طبعاً، كان يتعين عليّ أن أتحدث بصوت خافت.

لاذ بالصمت، وبعد ذلك تحدثا عن أمور أخرى، ولكن «كارلوتشو» عاد في نهاية المطاف إلى الموضوع ذاته.

- أتعلم أمراً؟

- ماذا؟

- بوسعي أن أكون طبيباً، ولكن ليس بيطرياً.

- لماذا؟

- لهذا السبب ربما تتكلم فيما بينها. لاشك أنها تتفاهم كما نفعل نحن. لو كنتَ طبيباً وقال لك أحدهم يؤلمني هذا أو هذا أو ذاك، فذلك حسن. يمكن أن يرشدك، ولكن ما العمل مع فرس النهر كي تسترشد؟ أو مع أسد؟ فكر بملك الغاب هذا المهمل هناك، لايتمتع بقوه لكي يحرك رأسه، ينظر إليك بعينين حزينتين، يطلب عوناً، يمحضك ثقته.. أو لعله يهترىء من السرطان وأنت لاتعرف ماأصابه.

وأخذت أمسية الخريف تتحول ببطء، أولاً في الأماكن المغطاة أكثر من غيرها، في داخل حظائر الحيوانات، إلى ليل ينسحب بعدئذ متنامياً شيئاً فشيئاً نحو الأماكن العالية، في حين كان «ناتشو» يصمم على متابعة الرؤية عبر قضبان السياج، ليتصور فيلاً وربما هنالك أبعد، الجاموس ذاته الذي كان «كارلوتشو» في ذلك اليوم يتأمله أثناء تجربته والذي وجه إليه تلك الكلمة الصغيرة التي لم تلق جواباً.

فأي درجة من الرقة؟

وأي كلمات من الحكمة أو الوداد - فكر «برونو» أن «ساباتو» كان

يفكر ـ، أي حنو يمكن أن يلامس شغاف القلب الخفي الوحداني لذلك الكائن البعيد عند وطنه وعن غابته، المفصول بقسوة عن جذوره وسمائه وبحيراته العذبة؟ لم يكن أمراً عسيراً أن يستغرق «ناتشو» في التفكير ملياً بمثل ذلك البؤس، فيرخي في نهاية المطاف ساعديه ويضع يديه في جيبي بنطال الـ «بلوجينز» الخلفيتين، يركل بلا وعي حصوة ما، ويسير محدودب الظهر شارداً في شارع «الليبرتادور». إلى أين..؟ إلى أي وحدةٍ بَعْدُ..؟ وحينئذ عاد «س» يشعر في معدته بالإشمئزاز من الأدب، ذلك الاشمئزاز الذي كان يعاوده في كلّ يوم أشد مما مضى.

وعاد يفكر في «نيتشه»: ربما يمكن للمرء أن يتوصل إلى كتابة شيء حقيقي عندما يصل ذلك الاشمئزاز من الأدباء وكلماتهم إلى درجة لاتطاق: ولكن، إشمئزاز حقيقي كذلك الذي يمكنه أن يثير التقيوء لمجرد رؤية أحد تلك الإحتفالات التي يحييها الفنانون الذين يتحدثون عن الموت. في حين يتنازعون على جائزة بلدية. ثم، وعلى بعد مليون كيلومتر من كل أولئك (أولئك...؟) المغرورين التعساء الشياطين القذرين المنافقين، يبدأ بتنشق هواء نقي وبارد، وبالبقاء في ظروف تتيح الحديث بلا خجل مع أمّي مثل «كارلوتشو»، وعمل شيء مابالبدين: ساقيه، جسر صغير، شيء متواضع لكنه نظيف وصحيح، شيء مفيد.

ولكن، لما كان قلب الإنسان غاية لاتدرك ـ كان «برونو» يقول في دخيلته ـ فإن جسم «س» اتجه، وتلك الفكرة في رأسه، نحو شارع «كرامر» حيث سيلتقي «نورا».

مضى بعض الوقت

بدون أن تصله أخبار عن «شنيتزلر». وفكر بحماس أنه لن يحصل على شيء منه بعد الآن. إلى أن سمع، في أحد الأيام صوته عبر الهاتف

يزعق كفأر غريب. ماذا جرى لك يادكتور ساباتو؟ أكنت مريضاً..؟ كان يجب أن تهتم بنفسك. ألم يكن قد وعده بأن يقوم بزيارة أطول؟ وصله من أوكسفور كتاب عجيب... الخ. مضت بضعة أسابيع بدون أن يعرف ماذا يفعل، يتردد بين الخوف من أن يراه، والخوف من أن لا يراه، مسبباً على هذا النحو، هات من يعلم أي ردود فعل، حتى تلقى رسالة استهلت استهلالاً فاتراً قليلاً، بل لعله مضحك، حول صحته، وحول نوبات النقرس، والأعصاب المؤلمة في الوجه. يظهر الشلل الجنوني (ألم يكن يعرف؟) عادة من ناحية اليسار، الجانب الخاضع للتأثيرات اللاواعية. مدّ يده إلى جانب اليسار. كانت تطارده منذ زمن طويل فكرة غريبة: كان يقترب منه أمروٌ وبيده سكين كبيرة حادة الرأس ويمسك رأسه بيده من الرقبة، كما يفعل الحلاقون عادة، ويغرز بالأخرى رأس السكين في العين اليسرى، ليس في العين تماماً، وإنما بين الكرة البصرية وعظم المحجر. وما أن ينتهي من هذه العملية التي ينفذها بحذر بالغ، حتى يبدأ بإدارة السكين حول محيط المحجر إلى أن تسقط العين. تسقط عادة، على القدمين، ولكنها تتدحرج بعدئذ كالكرة لتصل إلى أماكن أبعد.

كانت تلك العملية تثير في نفسه شعوراً حياً ومقيتاً. فقد كان يبدأ الغم بالسيطرة عليه كلما شعر بأنها ستحدث. والأمر الغريب هو أنه كان من العبث في تلك الحالة، أن يفكر بأي شيء آخر، أو أن يحاول الهرب من العملية: كانت تتحدث حتماً. فمثلاً: كان في إحدى الليالي مع السيدة فلّوح[1] يتحدث عن رحلة ادواردو إلى اليابان، حين أحس بأن ذلك سيحدث. وقد رأت هي أنه شحب واضطرب.

سألت وهي تراقبه بإهتمام

---

(١) ادواردو فلوح عازف غيتار أرجنتيني مشهور جداً ليس في أمريكا الجنوبية، بل وفي الأوساط الفنية في أوربا وغيرها من دول العالم، وهو ابن مهاجر سوري من محافظة درعا (المترجم).

ـ هل أصابك مكروه؟

ومعلوم أنه لن يشرح لها ماكان يحدث. وهكذا فإنه أجاب كذباً: كلا لم يصبه أي شيء في اللحظة التي كان ذلك الشخص يفرز رأس السكين ليبدأ الحركة الدائرية التي سبق شرحها. تابعت السيدة فلوح الحديث عن أمر، لم يكن «ساباتو» طبعاً في حالة تمكنه من أن يعيره اهتمامه، ولكنه كان من الواضح أنها كانت تشك بشيء غريب. حاول أن يبقى قدر الإمكان رابط الجأش، على الرغم من أن حركة السكين حول محيط المحجر كانت أمراً مريعاً دائماً. وطبعاً، لم يكن الوضع مؤلماً جدّاً دائماً. قلما كان يحدث أن يجري الاستئصال أمام أشخاص آخرين. يكون أحياناً في السرير أو في ظلمة السينما، حيث من السهل أن لاينتبه أحد. وفي مرات نادرة جداً أجريت العملية في ظروف مزعجة كما في الحالة التي تروى الآن، فلم تكن السيدة فلّوح أمامه وحسب، بل كان هنالك أشخاص آخرون يشاهدون من بعيد.

كانوا، من جديد، يقتفون الأثر

كان يعتقد أن مشاركته كانت سرية، وأنه يبدو أمراً مستحيلاً أن يكون بوسع أحد الشك بذلك، لماذا كانوا هناك الآن يسألون؟ ماذا كان يعني ذلك الحديث بصوت منخفض في ذلك الركن؟ من الذين كانوا يتمتعون وعن ماذا؟ خال إنه يميز «ريكاردو مارتين» يتهامس مع «تشالو» و«ايلسا»، بينما يتطلعون مابين حين وآخر بغضب نحو المكان الذي كان فيه. ولكن الضوء كان خافتاً، ولم يكن من السهل أن يتوثق. دخل حينئذ شخص آخر، وكان بوسعه أن يقسم أنه «مورتشيستون» لو لم يكن يعرف أنه كان في جامعة «فانكوفر». انحنى نحو «انغواتيجي»، وهمس في أذنه شيئاً ما، وكان من الواضح أنهم كانوا يعلمون جميعاً بأمر خطير يتعلق بي. بعد ذلك وصل آخرون: كان يبدو كأنه مأتم،

ولكنه مأتم جسد مازال حياً وموضع شبهة. بدا له أنه مميز من بين الذين أتوا «سيو» مع «اليسيا»، «سيريا» و«كيكا» التي أتت مع «ريني». كان المكان يغصّ شيئاً فشيئاً، ويصبح الجوّ خانقاً أكثر فأكثر، والضجيج يزداد، لا لأنهم كانوا يتحدثون بصوت مرتفع (كانوا يهمسون دائماً) وإنما لأنهم أصبحوا كثراً. وصل بعد ذلك «ايريس شكاتشيرو»، و«أميل» وفي ركن واحد فقط، كمن ينتظر إصدار حكم عل الجريمة. كان الأمر قد انتشر، كان ذلك واضحاً، من تلك التي كانت تحاول أن تدخل وهي تتوسل؟ «ماتيلدي كيريلوفسكي» إنما الأولى، التي كانت في الكلية، عندما كانت صغيرة، كانوا يتدافعون، يضغط من كانوا يأتون، وكان كلّ شيء مقيتاً فعلاً، وبالنسبة إليه، حدّث ولاحرج. آل «سوينس»، «بن مولار» الدكتور «سافرانسكي»، «تشيكيتا»، آل «مولينس»، ليلى وخوسيه وآخرون كانوا مجرد ظنون افترضها، وليس صوراً واضحة.

حينئذ غاب عن الوعي، ولم يعد يعي شيئاً، ثم استيقظ وهو يصرخ.

مضت برهة طويلة قبل أن يتخلص من بقايا ذلك الكابوس، فانمحت شيئاً فشيئاً وجوه، نخرها السوس بفعل قوى الليل، ولكن بدا أن كآبته قد تضاعفت بدلاً من أن تخف وطأتها، لأنه كان يرى الجرمية تنتشر يوماً بعد يوم، عبر أرضه الليلية، الغاصة برجال شرطة، وتحقيقات تزداد صرامة يوماً بعد آخر.

نهض متعباً، غسل وجهه بماء بارد، وخرج إلى الحديقة. كان الصباح يشرق، وكانت الأشجار، على النقيض من الناس، تستقبل أشعة الصباح الأولى بوداعة ونبل الكائنات التي (يفترض) أنها لاتعاني من تلك المغامرة المشؤومة كلّ ليلة.

ظلّ جالساً برهة طويلة على حافة حجر، حتى دخل إلى مكتبه وغرق

في أحد المقاعد، ينظر نحو المكتبة. كان يفكر بكمية الكتب التي لن يعود لقرائها أبداً قبل موته. ثم نهض بعد لأي وأخذ مذكرات «وينينغر» التي كان يراقبها من مقعده، فتح الكتاب لا على التعيين، وقرأ كلمات «ستريند بيرغ» في المقدمة. «ذلك الرجل الغريب الغامض..! ولد مذنباً، كما ولدت، لأنني أتيت إلى الدنيا مزوداً بوعي شرير، بخوف من الجميع، جميع الناس، والحياة. أعتقد أنني ارتكبت أمراً ما، سيئاً قبل أن أولد.»

طواه وعاد يغرق في المقعد. رجع بعد برهة ليضطجع في السرير. عندما استيقظ كاد الليل يوشك أن يحلّ، ولم يكن قد تبقى سوى بعض الوقت للموعد مع سيدة «تيناسا». وعندما وجدها راوده شعور ينذر بالحذر: وسط الظلمة، بين الأشجار في شارع «كرامر» خال أنه رأى خيال «أغوستينا» العابر.

في اليوم التالي في «لابيلا»

أتاه «باكو» بورقة مطوية: الأبراج القوطية، وبرج إيفل (مجد الرجال الأكبر)[1] يبحثون رمزياً عن العمودية، يهربون من الأرض الأنثوية، الأفقية تفوقاً، السرير كذلك أفقي، رمز الجنس.

لم يكن بحاجة إلى أن ينظر، ولكنه لم يتمكن من أن يتجنب ذلك: هنالك كان في ركن من أركان المقهى، يراقبه فرحاً بعيني جرذ صغيرتين. أومأ إلى «ساباتو» وغمزه بعينيه كأنه يقول، كيف رأيت ذلك. كان ينتظر إشارة منه كي يأتي بسرعة، على الرغم من إنشغاله مع «ماك لافلين». ولكن «س» لم يفعل، وإن كان قد نظر إليه ببرود كاذب. استغرق بالتفكير في الرسالة وفي الإلحاف. كان من الواضح أنه يتابع، ذلك أنه لم يره من قبل قط في «لابيلا» ولكن هل كان يتابعه شخصياً أم كان في خدمته

---

(١) العبارة في الأصل باللغة اللاتينية (المترجم)

عملاء؟

سأل

ـ ماك، ماذا؟

كتب الاسم على منديل من الورق.

يلفظ «ماك لافلين»، أليس كذلك؟

ربما، هنالك مناطق في إرلندا تلفظه «ماك لاغلين»

طبعاً: كما لو أنه لايكفي التعسف الإنكليزي فيضاف إليه الجنون الايرلندي.

كنت أود أن أقوم بدراسة: الجنس، الشر، العمى.

نظر إليه «س» مستغرباً.

ـ إنه موضوع معقد، أنا نفسي لاأعرف شيئاً كثيراً، أقصد كلّ ماينطوي عليه التقرير.

أدرك ذلك. ولكن هنالك أمراً آخر، أخال أني قرأت في سيرة حياتك أن أجدادك الألبان حاربوا الأتراك في القرن الخامس عشر. أتعرف أسطورة مدينة العميان؟

تيقظ «س» كيف؟

ـ لاأعرف تماماً. يتعين عليّ أن أبحث عنها في تلك المنطقة: مدينة عميان تحت الأرض، فيها ملوك ورعايا: جميعهم عميان.

جمد «س» كالحجر: لم يكن يعرف. خيم الصمت وبدا أن مثلثاً سحرياً

قد تشكل خلال برهة: «ماك» الذي كان يحملق إليه بعينيه الزرقاوين، «س» ثم الدكتور «سنيتزلر» الذي كان يتابعه مراقباً كمن لايفقد أثراً. ألأنه ألف عملاً مسرحياً لايهبط إلى مستوى تقاليد الواقعية؟ (فكر «س» فيما بعد)، كان يتعين عليه أن يبعد كلّ الناس الآخرين بأكوابهم، ومقاهيهم، ومقاعدهم وندلهم وبقايا شطائرهم: كلّ ذلك كان زيفاً وضرباً من إخفاء الواقع الحقيقي، مما يبرهن على مدى مايمكن أن ينطوي عليه من كذب ذلك النوع من الواقعية. ثلاثة أشخاص في رؤوس زوايا مثلث، فوق خشبة مسرح مجرد يتفحصون، يرقبون بحذر.

إن ذلك كثير. قال لـ «ماك لافلين» إنه يعاني، مع الأسف، من صداع يكاد يمنعه من الكلام، وأنهما سيلتقيان، في يوم من تلك الأيام ثانية، وحين ذهب الفتى، لاحظ «س» أن الآخر كان يكتب بحرارة. بعد مضي بضعة دقائق بعث إليه بالنتيجة: «إنه ليبدو لي ياعزيزي الدكتور ساباتو أنك لاتود رؤيتي، وأنك أيضاً لاتكنّ لي مزيداً من الود. ياللأسف، كم أنا آسف..! لدينا كثير من الأمور المشتركة.. كان لدي الكثير كي أرويه لك، إنك قريب جداً من الحقيقة. لقد فقدت الأمل (يتعين عليّ أن أقول بصراحة، ويدي على قلبي) في زيارته ثانية لنشرب كوباً من القهوة. ولذلك فإنني أغتنم هذه المناسبة السعيدة لأبعث إليك ببعض الملاحظات التي أعتقد أنها تحظى بإهتمامك:

١ ـ التزايد الكبير في عدد سكان العالم.

٢ ـ ثورة الشرائح الدنيا.

٣ ـ تمرد النساء.

٤ ـ تمرد الشباب.

٥ ـ تمرد الشعوب الملونة.

كل ذلك ياعزيزي الدكتور، وما أدراك ماذلك كله، إنما هو مظاهرات الحيوي ضد العقلاني، أو مايجب أن يوصف بأنه يقظة اليسار. لافائدة ترجى من أن أشرح لك إنني لاأتحدث عن اليسار بالمعنى التافه الذي يقصده أولئك الشياطين التعساء، الذين ليست لديهم أدنى فكرة عن المشكلة الحقيقية، إنني أتحدث عن اليسار بالمعنى العميق، ذلك الذي يتصل بالقمع والغريزة في الجنس البشري. لقد قلته أنت أيضاً. على نحو ما. كم أنا قريبان..!

وإحدى شخصياتك قد عبرت عنه على نحو رائع في التقرير حول العميان. ولهذا بالذات فقد تابعتك في السنوات الأخيرة بإهتمام، أحببت أن أساعدك وأقترب منك، أن أساعدك روحياً. ولكن يبدو لي أنك لاتود مساعدتي. أقول لك بصراحة تامة: إنك تحزنني جداً..

لم يتمكن من متابعة القراءة، فذِكْرُ «فرناندو» جعله يجمد كالحجر. إنه لمن الممكن أن يكون «فيدال أولموس» قد ذكر كلّ تلك الأفكار حقاً، وهو «ساباتو»، ماذا كان إذن؟ أومأ لـ «كي يأتيه بكوب آخر من القهوة، في حين كان يتلافى النظر حيث كان ذلك الشخص. بعد أن تناول كوب القهوة الثاني، تمكن من أن يتابع القراءة: «بدءاً من عصر النهضة دفعت التقنية والعقل كلّ شيء إلى الأمام. انتهت الحرب الطويلة بين اللحاء الدماغي والدماغ الأوسط (ولكن ظاهرياً يادكتور..! ظاهرياً) بإنتصار اللحاء، وهل مكان الحيوي ماهو آلي: الساعة، الرياضيات، البلاستيك، ولكن الدماغ الأوسط الذي أخضع لايستسلم، ويقبع ملؤه الغضب والحقد، وفي نهاية المطاف، يهاجم المجتمعات المنتصرة بأمراض نفسية، جسدية، وعصبية، وتمرد جماهير، ثورة جميع المضطهدين (إنهم جنوده..!) سواء كانوا نساء، أو أطفالاً، أو سوداً، أو صفراً. اليسار كله. وحتى بالألبسة: تفرض الألوان الزاهية (نسائية)، الفن اللامعقول،

وفن الشعوب المتوحشة يصبح زيّاً، ترتدي جماعات الـ «هيبي» ملابس كالنساء، يتأنث العالم الأدنى. لاتنخدع بلفافة المرأة، وبالسراويل، وبالتصويت العام، والعمل في المكاتب: إنه مكيدة لجعلنا نعتقد بأنهم يقتربون منا. إنه شبيه إلى حدّ ما بما حدث للمشرق، الذي ينتمي أيضاً، بالمعنى العميق، إلى هذا اليسار لمقاومة حضارة الغرب الذكورية هذه، فالحضارة انتقلت إلى اليمين بتقنيتها، وحتى بأسلحتها النووية، وبترانزستور وماركسية، وبالبلاستيك، وبحسابات بالغة الدقة. وسترى: سينقلب الصفر ضدنا. لقد بدأوا يأتون بالبوذية، واليوغا، والكراتي. والمثقفون هم الأدمغة، جوهر هذه الحضارة الغربية ذاته، الذين أذعنوا كالعصافير. انتبه ياعزيزي الدكتور ساباتو...!»

فرغ من القراءة ولكن نظرته ظلت معلقة على الورقة. كان يعلم أن ذلك الشخص كان يراقبه. حاول أن يفكر بسرعة: من هو ذلك الدكتور «شنيتزلير»؟ أكان يدافع عن الحضارة الغربية؟ ولكن تلك الحضارة هي نتاج النور، وإذن فإنه لايمكن أن يكون عميلاً للظلمات، أم أنه كان يقول له كلّ ذلك لكي يموه، لكي يأخذه على حين غرة؟ أكان يحاول ألاّ يستمرّ في التوغل في عالم الظلمات لكي يثير فيه الإعجاب بنفسه كغربي وذكر؟

نهض، وحيّا الرجل من بعيد بإيماءة من يده، ثم بعد أن تجوّل قليلاً لكي يصحو، دخل إلى «لاكويفا» عند تقاطع شارعي «كينتانا» و«أجاكوتشو». وأخذ يخط على منديل من ورق ملاحظات آلية. كان ذلك يؤدي إلى نتيجة دائماً. أول كلمة كتبها كانت «شنيتزلر» وبعدها مباشرة تقريباً، كتب تحتها «شنايدر». كيف لم يكن قد انتبه من قبل؟ كان الإسمان يبتدئان وينتهيان بالمقطع الصوتي ذاته، وعدد مقاطعهما واحد. طبعاً يمكن أن يكونا إسمين منتحلين حقاً، ولكن، حتى وإن كانا كذلك فإنه أمر ينطوي على مغزى مجرد كونهما اختارا الأسمين بهذه

الصفات المتطابقة. هنالك إذن علاقة مابين الرجلين؟ كل منهما ـ وكما لو أن كلّ ذلك قليل لايعتد به ـ يمكن أن يكون قد أتى من منطقة مابين بافاريا والنساء، وكل منهما يثير سخرية وإحتقار النساء. ولكن، بينما كان واضحاً أن «شنايدر» عميل الظلمات، فإن شنيتزلر كان يدافع عن العلوم العقلانية.

بعدئذ استغرق في التفكير طويلاً بتلك العبارة «ولكن». أليس المر مجرد توزيع أدوار..؟

خرج وأخذ يتمشى حتى الساعة التي كان ينبغي أن يلتقي «أغوستينا» عندما أصبحا معاً، شعر بالهوة التي كانت قد انفتحت بينهما.

انقلبت هي إلى ثورة من غضب ملتهب

وشعر هو بأن العالم يتصدع

ويهتز من شدة غضبها وشتائمها

ولم يكن لحمه الذي مزقته مخالبها وحسب، وإنما وعيه

وهناك بقي كأنه فضلة من روحه

الأبراج التي انهارت

بالكارثة

وكلستها

واحترقت بألسنة اللهب.

أثناء ذلك

كان ناتشو يدرس بإهتمام ملامح السيد «بيريس» ناصيف:

الشبق والخسّة، النفاق والطموح الوضيع، النذاله والخبث، كلّ ذلك فضلاً عن قصّة شعر مدير شركة مشهور، قصّ الصورة وثبتها بين مجموعة من الصور الأخرى. ابتعد قليلاً، ونظر إلى المجموعة بعيني خبير. ثم نظر إلى الجدار المقابل: الأسود تتألق في ظهرها وروعتها.

اضطجع في السرير بعد أن وضع أسطوانة لفرقة الـ «بيتلز»، ثم راح يفكر وهو ينظر إلى السقف. كانوا منذ أن يولدوا يوسخون قمطهم، ويتقيؤون حليباً (أتعلمين أني أعطيته كل ماأستطيع) وكانوا يزدادون سمنة (انظروا ماأجمله، بينما هي تنظف لعابه بالصدرية) وكانوا يصبحون كباراً ويبلغون اللحظة السحرية الحقيقية الوحيدة، (أبرياء واهمون ومجانين) وبعد ذلك العصي، والنصائح، ثم المعلمات يحولنهم إلى قطيع من المنافقين (يجب ألا تكذبوا أيها الأطفال، لاتقضموا أظافركم، لاتكتبوا على الجدران كلمات بذيئة، يجب ألا تتغيبوا عن الدروس) وإلى قطيع من واقعيين، متسلقين، ومساكين (التوفير هو أساس الثروة)، دون أن تمر لحظة إلاّ ويأكل ويتغوط ويوسخ كلّ مايطاله. ثم المناصب، والزيجاب والبنون. ثم، ومن جديد، الصغير الهائل يتقيأ الحليب أمام دهشة الذي كان صغيراً هائلاً يتقيأ الحليب أيضاً، لكي يبدأ الطعام ثانية. حرب، نزاع على المقاعد في الباصات، وفي المناصب الإدارية، حسد، وإفتراء، وإرضاء لمشاعرهم بالدونية، يشاهدون عرض دبابات وطنهم (يشعر القزم بالقوة) و... الخ.

نهض وأخذ يسير. «جوليا، جوليا، طفلة المحيطات تنادين»[1] حين وصل إلى منعطف شارعي «مندوسا» و«كوندي»، جلس على الرصيف

(١) وردت في الأصل باللغة الإنكليزية (المترجم)

ونظر إلى الأشجار تواجه الشقق: الأشجار النبيلة الرائعة الصامتة. «جوليا عينا محارة بحر، إبتسامة عاصفة تناديني[1]. تلك اليابانية البغيضة، تلك اليابانية القذرة كان يجب أن تدمر كلّ شيء. بدأت القطارات شحن المواشي الحية، بدأ الليل في خلية النمل الكبرى بخروج أسراب النمل من مكانها والرقم الصغير مازال على الظهر، بعد قضاء سبع ساعات في حمل أوراق وملفات، تقول صباح الخير ياسيدي، عفوك ياسيد «مالفيسينو»، مساء الخير ياسيد «دولغوبول» السيد «لوبريتي» هو من يود أن يراك، وتنحني أمام النملات الأعلي مقاماً وتمسح أحذيتها وتبتسم من غبائها، وبعدئذ تجر نفسها جرياً إلى «المترو» لتسافر كالسردين المعلب تتدافع ويدوس بعضها بعضاً، وتتنازع على نحو وضيع على المقاعد، تسافر كالسردين المعلب، تشم وتشعر بالحياة كأنها رحلة لانهاية لها بين «المترو» ومكتب لا حد له، مع زيجات، وهدايا من مكاو وساعات منضدة، ثم الوليد، وليدان (هذه هي صورة الصغير الأكبر، أنظر ماأمرحه، لن تصدقني إن رويت لك ماأجابك) وديون، تأجيل في الترقيات، إجتماعات في المقهى، كرة قدم وسباقات خيل يومي السبت والأحد، ووجبات تعد هاربة المنزل، «لم أتمكن من أكل وجبة» رافيولي» كالتي تعدها أم البنين، قط»، ثم يحل يوم الاثنين ثانية، والقطار، والمترو للوصول إلى المكتب.

والآن يعودون في القطار كالمواشي الحية. تبدأ الليلة بخيالات ظل من نعاس وجنس، أولاً بطبعة الساعة الخامسة من صحيفة «لاراسون»، سرقات وجرائم تستكمل في طبعة الساعة السادسة، ثم التلفزيون، والنعاس حيث كلّ شيء ممكن. الأحلام كلية القدرة التي تتحول فيها النملة إلى بطل من أبطال الحرب العالمية الثانية، إلى رئيس مكتب، إلى الشخص الذي يصرخ بشجاعة، ليس لأنك الرئيس سوف يكون بوسعك

---

(١) وردت في الأصل باللغة الإنكليزية (المترجم)

أن تدفعني، إلى دون جوان لايقهر بين فتيات الوزارة إلى هدّاف ليس له مثيل في فريق نادي «ريفر»، إلى فانخيو، إلى مالك سيارة «سبورت»، إلى سقراط، أرسطاطاليس، وأونانسيس.

مرت القطارات

وحل الليل. نهض وأخذ يسير نحو المنزل.

«جوليا، رمل نائم، سحابة صامتة»

وجد أخته مستلقية على السرير تنظر إلى السقف.

صامت وكئيب

راح يراقب من النافذة. كم من هول كالذي يهيمن عليهما يوجد في تلك اللحظة، وكم من وحيد مجهول في تلك المدينة؟ كان يشعر خلفه بالحقد الآخر، حقدها هاهي. اتجه نحوها: دلّ وجهها قاسي القسمان، وفكها المشدود، وشفتاها الكبيرتان على أن حقدها قد بلغ الزبى، ولم يبق سوى القليل حتى ينفجر ذلك المرجل المحتقن بالحقد. صرخ ناتشو، بلا قصد منه تقريباً بل مدفوعاً بوطأة عذابه الذي لايطاق، متسائلاً ماالذي فعله بها هو. قال هو، وشدد بغضب، وأشار بيديه إلى صدره. ولماذا كان يتعين عليها هي، تحديداً هي، أن تكنّ له الحقد.

وأدرك قلقاً أن «أغوستينا» كانت تنهض كي تذهب. فأمسك بذراعيها.

- إلى أين تذهبين..!

كان السؤال أقرب مايكون إلى الصياح.

طأطأت رأسها، ورأى «ناتشو» كيف كانت تعض على شفتيها حتى سال الدم منهما. ثم اقتربت من جدار وأسندت إليه إحدى قبضتها، لا

لأنها تود أن تتكىء عليه، بل كأنها تود أن تلطمه بها.

ثم قالت بعد برهة صمت طويلة.

- ليس في الحياة مطلق، وإن لم يكن هنالك مطلق، فكلّ شيء مباح.

كانت تبدو كأنها لاتكلم شقيقها بل تحدث نفسها بصوت منخفض، لكنه مفعم بالحقد. بعدئذ أضافت تقول:

- لا، ليس كذلك، ليس الأمر أن كل شيء مباح، إننا مجبرون على فعل كلّ شيء، على تدمير كلّ شيء، على تلويث كلّ شيء.

كان شقيقها يحملق إليها مندهشاً، ولكنها كانت منصرفة عنه إلى أفكارها وقبضتها متقلصة مستندة إلى الجدار. وسرعان ماأخذت تصرخ فجأة أو تعوي وهي تخبط الجدار بكلّ ماأوتيت من وقوة.

عندما هدأت، ذهبت إلى سريرها، جلست على حافته وأشعلت لفافة.

قالت:

- كلفني غالياً تعلم ذلك.

اقترب منها «ناتشو»، وعندما أصبح أمامها صاح:

- ولكنني لن أوافق أبداً..!

- ذلك أسوأ أيها الأحمق! وهذا هو أكثر مايثير حنقي.

ثم صرخت، أيها الحيوان، وانقضت عليه وراحت تضربه بقبضتيها ورجليها حتى طرحته أرضاً.

عادت بعدئذ إلى حافة السرير وأخذت تبكي، ولكن لم يكن بكاء هادئاً،

بل جافاً، وحشياً، غاضباً.

وعندما هدأت، مكثت تنظر إلى السقف. كان وجهها يبدو كأنه الهمج قد دمروه: حرائق، واغتصاب، ونهب. ثم بحثت عن لفافة فأشعلتها بيد ترتعد.

ـ أرى أنك وضعت صورة السيد «بيرس ناصيف» بين صورتي ساباتو» و«كامو». كنت أعتقد أن فكرتك كانت أن تضع فقط صورة أولئك الذين يثيرون الاشمئزاز ممن يتحدثون عن المطلق. كان الأمر، إن لم تخني الذاكرة، أحد تلك العهود التي تتعلق بالخنازير الكبار. وليس بمجرد حشرات.

طيلة زمن خاله ناتشو دهراً، كان يسمع فقط، تيك.. تاك، الساعة. ثم. بعد ذلك أجراس إحدى الكنائس.

تمتمت أغوستينا وهي تفكر.

«بيريس ناصيف»، ينبغي أن تفكر جيداً.

حينما وصل إلى منزله

همهمت «لوليتا» مثلما أخذت في الأيام الأخيرة تفعل، ولكنها في هذه المناسبة كادت تعضه، ووجد نفسه مضطراً لتهديدها بعصى، وإن كانت رغبته فعلاً هي قصم ظهرها لو أنها أصرت.

فكر، أن لدى الكلاب غريزة سرية. متى كان يتصرف كلب هكذا مع أحد أفراد الأسرة؟ كان يحاول أن يعرف في أي مناسبة أو حدث، عندما نبحته، ولكنه لم يتمكن من التوصل إلى أي نتيجة.

حتى وجد نفسه أمام «بوسطن»: كيف كان قد وصل إلى هناك؟ كان في زمن مضى يتردد على ذلك المقهى، حين كان يذهب ليتجاذب أطراف الحديث مع فتيان الجامعة. ولكن، الآن؟

طلب كأساً من الـ «خينيبرا»، وكما في مناسبات كئيبة أخرى، ركز انتباهه على بقع الجدران العتيقة. وبقدر ماكان يستغرق في تأملها راحت تتراءى له مغارة ظن أنه رأى فيها ثلاثة أشخاص بدت له وجوههم، أوضاعهم، نوع القبو الذي كانت تمارس فيه الشعائر، كلّ ذلك. كان يبدو أنه يشكل طقساً خطيراً خال إنه عاشه في حياة ماسابقة.

تعب بصره من الإصرار على إكتشاف التفاصيل، وبخاصة، الكاهن الذي كان يترأس الطقوس. أغمض عينيه، استراح قليلاً، على الرغم من أن قلقه كان يشتد، ثم عاد، وهو مقتنع بأنه كان لأولئك صلة بحياته، إلى التدقيق في ملامحهم، حتى تكاملت التفاصيل مشكلة وجهاً شريراً معروفاً، وجه من كان يبذل، بلا جدوى، قصارى جهده لإبعاده عن حياته: وجه «ر».

ماأن وجد مفتاح سر ذلك اللّغز، حتى تكشف له الوجه حالاً. أغمض عينيه ثانية، ولكنه شدّ هذه المرة، عليهما كما لو أنه ينفي الذكرى، فعاد ينبثق الرعب الشهواني لتلك الليلة من عام ١٩٢٧ .

ولكن ذلك لم يكن أكثر ماهو مدهش في الأمر الذي قد يعزوه فيما بعد إلى نزوعه للعثور في بقع الجدران على مايدور في نفسه من هواجس. المفارقة كانت، دخول «ر» إلى المقهى في تلك اللحظة تماماً، كما لو أنه كان يتلصص وينتظر لحظة فراغه من حلّ رموز اللوحة السحرية. لم يكن قد رآه منذ ١٩٣٨ .

جلس قريباً، وطلب «خينيبرا» أيضاً، شربها، ودفع الحساب بدون أن يبدي أي محاولة ليكلمه.

شعر «س» بأنه تلاشى، لقد كان يتبعه، ذلك واضح، ولكن، لو صح ذلك، لماذا لم يقترب منه لكي يغيظه كما في أيام مخبر كوري؟. فكر أن ذلك الرجل كان يقود عدداً لايحصى من أخصائيي الملاحقة، وأن حضوره الصامت ذا المغزى، كان أحد الأشكال التي يلجأ إليها للتحذير، ولكن في هذه الحالة، ماذا؟

فكر ببطء وهو مشتت الذهن في تلك المفارقة المريعة، حتى أدرك، أو ظن أنه أدرك أنه يجب أن يعود إلى أقبية شارع «أركوس».

عندما رأى الدار القديمة ثانية، محاطة بالأبنية الشامخة الحديثة، شعر بأنه يرى مومياء في سوق لبيع أدوات مطلية بالكروم. كانت لافتة كبيرة معلقة على طول الحاجز الحديدي تعلن الحكم بعرضها للبيع بالمزاد العلني. وفيما كان ينظر إلى تلك الفضلات القذرة النتنة، ويتذكر كيف عرف «ر». فكر أنه لم يكن قد اعترض سبيله ثانية، لكي يدعوه إلى إلقاء آخر نظرة على مجموعة صور عائلية سوف يحرقها أناس لايبالون وحسب: شعر بأن الأمر يتعلق بشيء أعمق بكثير وأشد رعباً.

ألقى نظرة على الباب. كان مغلقاً وعليه سلسلة معدنية وقفل صدئان كالحاجز الحديدي القديم. كان شبه واثق أن أحداً لم يفتحه طيلة تلك السنوات كلها، من النزاعات والخلافات الإرثية، ولماذا..؟. والأكثر رجحاناً أن دون «أمانمسيو» لم يكن ليرغب في أن يراها، حتى من الشارع.

ثم طوف ناظريه بباب مدخل العربات. قطعة فنية معدنية رائعة سرقتها تلك المجموعة المتواطئة من اللصوص وتجار العاديات الذين يوجد

كثير منهم في «بوينس آيرس» والآن حلّ مكانها صفقان من الصفيح، صدئان يهتزان، كتبت عليهما عبارة «يحيا بيرون». وكانا مربوطين بسلك معدني يمر عبر ثقبين من ثقوبهما.

بحث في شارع «خورامنتو» عن متجر لبيع أدوات حدادة، واشترى كماشة قاطعة، ومصباحاً كهربائياً ثم راح يتمشى منتظراً حلول الليل. وصل إلى شارع «كوبا» قادماً من شارع «خورامنتو» ودخل إلى ساحة «بلغرانو» حيث ظلّ هناك جالساً على مقعد، مسحوراً بالكنيسة التي كانت تنفذ إلى زوايا خفية من روحه، بقدر ماكان الغسق ينحسر والليل يتقدم، أخذ يشعر بأنه وحيد، لايرى ولايسمع شيئاً من الجلبة التي تخيم في مثل تلك الساعة على ذلك الحيّ من المدينة. كان غسقاً مشؤوماً تتقدمه آلهة خفية شريرة وتجوبه الوطاويط التي بدأت حياتها الليلية: طيور ظلمات نشيدها زعيق فئران مجنحة، رسل الآلهة المريعة، نذر الرعب والكوابيس اللزجة، أشياع «كهنوت» الكهوف، وملوك الفئران والزواحف.

استسلم لرؤاه مُلْتَذّاً بها، فبدا له أنه يشهد تجليّ إله الظلمات الأكبر الذي يحفّ به أركان بلاطه من زواحف وصراصير وأبناء مقرض وضفادع وضباء وأبناء عرس.

حتى صحا على الجلبة اليومية وأضواء النيون وضوضاء السيارات. فكّر أن الظلام أصبح كافياً كي لاينتبه أحد في شارع «أركوس» المظلل بالأشجار إلى مايفعل. ومع ذلك فقد ضاعف من حذره، انتظر ابتعاد أحد المارة وراقب مدخل البيوت الكبية ذات الشقق المسكنية. وكان سيبدأ بقص السلك عندما بدا له أن طيفاً بديناً يعرفه جيداً خرج من أحد تلك البيوت، وكما لو أنه كان مختبئاً حتى تلك اللحظة، ثم ابتعد بسرعة.

وقف مشلولاً من الذعر.

إذا كان ذلك الطيف العابر هو الدكتور «شنايدر» فأي صلة كانت توجد بينه وبين «ر»؟ لقد فكّر أكثر من مرة أن «ر» كان يحاول إرغامه على الدخول إلى عالم الظلمات، لدراسته مثلما فعل «فيدال أولموس» في زمن آخر. وكان «شنايدر» يحاول أن يمنعه، أو إن سمح، فما ذلك إلا كي يكون العقاب معدّاً على مدى طويل.

بعد مضي برهة عاوده الهدوء ففكر أنه كان مضطرباً جداً، وأنه ليس من الضروري أن يكون ذلك الطيف هو الدكتور «شنايدر» الذي لايمكن، فضلاً عن ذلك، أن يجني أي فائدة من الظهور أمامه لو كان يراقبه في الظلمة، كما كان يفعل في مناسبات أخرى كثيرة.

قصّ المسلك ودخل، وحرص على أن يعيد صفق الباب إلى مكانه.

كان القمر في ليلة الصيف تلك، يضيء، مابين فينة وأخرى، عبر السحب السوداء ذلك المشهد الحزين، تقدم يتملكه شعور متزايد بالقوة في الحديقة التي التهمها سرطان هائل: بين النخيل والمانغوليا، وبين الياسمين والصبار وأشجار ملتفة أخرى شكلت فيما بينها حلفاً غريباً، في حين كانت تنمو أعشاب كبيرة كأنها تتسول وسط أنقاض معبد لاتعرف طقوسه أبداً.

استغرق بتأمل أطلال تلك الدارة بأفاريزها المتساقطة وشبابيكها التالفة أو المنتزعة والزجاج المحطم.

اقترب من منزل الخدم الصغير. لم يكن يقوى، أثناء ذلك في أقل تقدير، على أن يحوّل عينيه نحو نافذة الدار الكبيرة، فجلس على الأرض وأدار إليها ظهره، ليشاهد النفايات، وتتنازعه الأفكار والمخاوف،

لأنه كان يعلم أنه بعد الإنتهاء من رؤية تلك المجموعة العتيقة من الصور، يتعين عليه أن يواجه الرعب، ولعله ـ لأنه كان واثقاً من ذلك ـ استغرق في تذكر «فلورنسيو» و«خوان باوتيستا»، كلاهما صورة مبكرة تجسد «مارسيلو»: البشرة الكامدة ذاتها، والشعر الأسود، والعينان الواسعتان السوداوان الرطبتان، وكلاهما، ماأن ينمو شعر ذقنه حتى يهرع إلى المشاركة في مراسم دفن «الكونت أورغاس»[1]. فلورنسو يفكر بأشياء أخرى، بمنظر هادىء، في منطقة أخرى (في قارة أخرى، في كوكب آخر). «أهبل قليلاً» كما كان يقول ببداهة أهل الريف في ذلك الزمان. كانت شخصيته تتناقض ـ على الرغم من أن الملامح الجسمانية كانت واحدة ـ مع شخصية أخيه الأصغر الواقعية الرصينة. وحينئذ فكر من جديد بأن «مارسيلو» قد ورث سجيته وطبعه ليس من والده «خوان باوتيستا»، وحسب، بل من عمه «فلورنسيو»، وكما لو أن أحداً من أفراد الأسرة سيستلم مهمة المحافظة على تقليد لافائدة ترجى منه: لكنه رائع.

نظر ملياً إلى شجرة الكافور التي تسلقها «نيقولاس» في تلك الأمسية في ١٩٢٧ لكي يقوم، كعادته بمحاكاة القرد. وتذكر كيف توقف عن الصياح فجأة، وكيف صمت الجميع، وشعر هو بذلك الحضور وراء رقبته، ودار ببطء جداً، ورفع رأسه وهو يعرف بالتحديد المكان الذي يأتي منه النداء، فرأى عندئذ في النافذة هناك في الأعلى وإلى اليمين صورة «سوليداد» الساكنة.

وكان من العسير، بسبب ضعف الضوء، تحديد الإتجاه الذي كانت توجه نحوه نظرتها التي تصيب بالشلل. ولكنه كان هو يعرف.

بعدئذ، اختفت شيئاً فشيئاً، واستأنف الجميع نشاطهم السابق، وإن

---

(١) دفن الكونت أورغاس: لوحة مشهورة للفنان الفريكو (المترجم)

لم يكن بتلك اللامبالاة التي كانت تهيمن عليهم قبل دقيقة واحدة.

لم يرو لأحد قط، باستثناء «برونو»، الوقائع المتعلقة بـ «سوليداد» وإن كان لم يقل له شيئاً عن الطقس الفظيع. والآن، فيما هو جالس في الحديقة، بعد مايقارب ربع قرن من الزمان، كان يشعر أو يهجس بأن الحلقة تضيق. كان يتذكر تلك الليلة، ويتذكر «فلورنيسيو» يداعب وهو شارد أوتار «الغيتار»، وكميات البطاطا المقلية التي أعدها «خوان باوتيستا»، ونيقولاس يغني دائماً ساقية خمارة سانتلوسيا» إلى أن صاحوا» كفى، وتمكنوا من أن يناموا. هم وليس هو طبعاً.

كان قد روى لـ «برونو» كيف عرفها في بيت «نيقولاس» في تلك القاعة التي تتصدرها صورة «روساس» الزيتية. كانا يدرسان نظرية مثلثات هندسية عندما شعر وراء.

ظهره بوجود أحد تلك الكائنات التي ليست بحاجة إلى أن تتكلم كي تتصل بالآخرين. وكان قد التفت ورأى لأول مرة العينين الرماديتين والفم المشدود والملامح الصارمة ذاتها التي كانت لسلفها، ابنة زنا ورثت منه كلّ سماتها. كان «نيقولاس» قد انعقد لسانه كأنه يمثل بين يدي عاهل مستبد. سألت عن شيء ما، بجرس ينطوي على غطرسة خفية، وأجاب «نيقولاس» بصوت لم يكن قد سمعه منه من قبل قط. ثم انسحبت بعد ذلك بصمت مثلما كانت قد أتت. تأخرا بعض الوقت قبل أن يعودا للنظرية، ومكث «س» قلقاً يهيمن عليه إنطباع يظن الآن، بعد أن نضج، أن بوسعه أن يلخصه كمايلي:

لقد ظهرت في القاعة لكي تجعله يعرف أنها كانت موجودة، كانت حاضرة، تعبيران تردد مرات لاتحصى حتى قرر أن يستخدمها معاً، وإن كان يعلم أنهما لايعنيان الأمر نفسه، وإنه لمن الممكن أن يتناقضا

على نحو مريع. ولكنه تمكن أن يميز ذلك بعد مضي حوالي أربعين عاماً، عندما روى الأمر أول مرة لـ «برونو» وكما لو أنه كان في ذلك الحين قد التقط صورة وحسب، وأصبح أخيراً، بعد زمن طويل، قادراً على تفسيرها.

حلم في ليلة النظرية الهندسية أنه كان يتقدم في سرداب تحت الأرض، وأن «سوليداد» كانت في نهايته عريانة تتألق وسط الظلمة.

ولم يستطع منذ تلك الليلة أن يركز إنتباهه على أي شيء آخر سوى الحلم، حتى حل الصيف وتمكن في نهاية المطاف من أن يصل إلى دارة شارع «أركوس»، حيث كان يعلم أنها كانت تنتظره.

هاهو الآن هناك يرتعد في الظلام، ينتظر أن يستغرق رفاقه الثلاثة في النوم، لينهض ببالغ اليقظة، ويخرج حاملاً حذاءه بيده كي ينتعله حين يصل إلى الحديقة.

سار بحذر نحو باب الدارة الكبيرة الخلفي. الباب الذي يقع وسط الواجهة الكبيرة التي تحيط بالغرفة الشتوية.

كان الباب كما تصور غير مقفل. وعبر ألواح الزجاج، كان ضوء القمر الذي ينعكس على البلاط الأزرق والقرمزي فيكتسي ألواناً غريبة، يضيء الغرفة كلما أتاحت له السحب ذلك. وما أن ألفت عيناه تلك العتمة، حتى رآها واقفة عند عتبة السلم الذي يؤدي إلى الطبقة الأعلى. كان النور المتقطع والعابر يضعها في عالمها الصحيح. كان قد قال لـ «برونو» مرة إن «سوليداد» كانت تبدو كأنها تأكيد تلك العقيدة القديمة التي تزعم أن أسماء الناس تحدد مصائرهم، ولقد كان اسمها يتطابق مع ماكانت فعلاً[1] كانت منغلقة على نفسها ووحيدة، وكانت تبدو كأنما

(١) سوليداد تعني باللغة الاسبانية عزلة أو وحدة (المترجم)

تحتفظ بسرّ إحدى تلك الطوائف الجبارة الدموية الذي يعاقب على إفشائه بالعذاب والموت. كان عنفها الداخلي مكبوتاً تحت ضغط كالمرجل. ولكنه مرجل تغذية نار جليدية. لقد تبيّن له أن التناقض كان فيها وليس في اللغة المزعزعة التي يمكن أن توصف بها. كان صمتها يوحي - أكثر من كلماتها (أو صرخاتها الجنسية) التي لاغنى عنها - بوقائع لاتخصّ ماندعوه عادة «أمور الحياة» وإنما ذلك النوع الآخر من الحقائق التي تسود عالم الكوابيس. كانت كائناً ليلياً، أحد سكان الكهوف، وكانت لها نظرة الأفاعي التي تصيب بالشلل، وشهوانية الأفاعي ذاتها أيضاً.

اكتفت بالقول:

- هيا بنا

واتجهت نحو أحد الأبواب الجانبية، ودخلا إلى غرفة إنتظار. كانت تحمل بيدها اليمنى فانوساً قديماً مما يؤكد أن كلّ شيء كان معداً من قبل. وصلت إلى أحد الأركان ودلته على غطاء قبو.

هبطا على سلم من اللبن، فشعر شيئاً برطوبة الأقبية الترابية الباردة. اتجهت، بين مختلف أنواع الأمتعة، نحو مكان آخر دلته فيه على غطاء آخر فرفعه، وهكذا استأنفا هبوطاً آخر على سلم من اللبن الكبير يعود إلى العهد «الكولوني» شبه مهدم بسبب فعل الرطوبة طيلة ماينوف على مائتي سنة. وكانت خيوط غريبة من الماء ترشح وتسيل على طول الجدران لتشكل ذلك القبو الثاني المخيف.

لم تتح له ندرة ضوء الفانوس أن يرى ماكان هناك، ولكن صدى وقع الأقدام الخافت الذي لم يكن يسمع سواه في الأرجاء العميقة والفارغة، جعله يميل إلى الإفتراض أنه لايوجد أي شيء هناك سوى السلم الذي أفضى إلى سرداب ضيق محفور في الأرض، وحتى بدون

أن تحميه جدران من اللبن. كان النفق يكاد لايتسع إلاّ لمرور شخص واحد. كانت هي تسير في المقدمة بفانوسها، وكان بوسعه هو أن يرى من خلال ردائها الشفاف جسمها البض يتلوى بجلال.

كان ـ أكثر من مرة ـ قد قرأ في صحف ومجلات، حول أنفاق «بوينس أيرس» السرية والمهنية في المعهد الـ «كولوني»، التي اكتشفت أثناء بناء خطوط قطارات «المترو»، وناطحات السحاب. ولم يكن قد رأى أحداً يقدم تفسيراً مقبولاً. كان يتذكر على نحو خاص النفق الذي يبلغ طوله حوالي كيلو متر ونصف، الممتد بين كنيسة «المعونة»، و«لاريكوليتا» ومقابر «مربع الأنوار» والسراديب التي تصل بين تلك الأنفاق والبيوت القديمة، التي تعود إلى القرن الثامن عشر: كانت كلها تشكل متاهة لم يستطع أحد أن يفسر ماهي الغاية منها.

انقضى ماينوف على نصف ساعة وهما يسيران، وإن كان يصعب عليه أن يقدر الوقت تماماً، لأن الزمن في ذلك الواقع لم يكن يبدو له أنه يتسم بوقع الزمن في النور والحياة العادية. وعلى نحو ما، بدت له تلك المسيرة الصامتة الجنونية خالدة وهو يتابع السير في منعطفات وتفرعات ذلك السردات. وكانت تثير دهشته، ثقتها وهي تسير في الطريق الذي يؤدي إلى المكان الذي كانت تقصده، في حين كان يفكر بجزع، أن من لايعرف التفاصيل الحقيقية لتلك المتاهة لايمكنه أبداً أن يعود لرؤية شوارع «بوينس آيرس»، لأنه سيضل إلى الأبد بين أبناء مقرض وأبناء عرس والفئران التي كان يحس بها (أكثر مما يراها) تتراقص بسرعة أمامها متجهة نحو جحورها المنيعة المثيرة للإشمئزاز.

حتى أدرك في نهاية المطاف أنهما وصلا إلى المكان المقصود، حيث كان يرى في العمق ضياء باهتاً. اتسع النفق ووجد أنهما أصبحا في نهايته وسط مغارة مساحتها تقارب مساحة غرفة، مبنية على نحو

يثير الدهشة بجدران من اللبن الكبير، في أحد أطرافها سلم يكاد لا يرى، وعلى أحد الجدران فانوس كتلك التي كانت تستخدم في عصر نائب الملك «فيرتيس»، كان هو مصدر ذلك الضياء الباهت.

كان في الوسط فراش من القش كأنه فراش سجن موضوع فوق الأرض لكنه يوحي بأنه مايزال يستخدم حتى ذلك الحين كما كانت هنالك بعض المقاعد الخشبية الخشنة مصفوفة أمام الجدران. كان كلّ شيء مشؤوماً ويوحي بأن المكان سجن وليس أي شيء آخر.

عندما أطفأت «سوليداد» فانوسها شعر «س» بوقع أقدام امرئ يهبط من السلم. وسرعان ماتمكن من رؤية رجهه قاسي القسمات، وعينيه التين تريان في الظلمة: لقد كان «ر»..! لم يكن قد رآه منذ أن غادر «روخاس» لكي يدرس في «لابلاتا». كان يتذكر دائماً عذاب الدوري الأعمى وها إنه يراه الآن أمامه. في حين تصور (ورغب) أن لايعود لرؤيته أبداً.

أيّ علاقة يمكن أ، تقوم بين «ر» و«سوليداد»؟ ولماذا كان موجوداً هناك كأنه ينتظره؟ وخالجه فجأة شعور بأن شيئاً ما مشتركاً يوجد بين «سوليداد» وبينه، هو تلك الطبيعة الليلية المريعة والساحة في الوقت ذاته.

قال بذلك الصوت الخشن الساخر الذي كان يمقته.

- لم تكن تعتقد أنك ستعود لرؤيتي ثانية، إيه..؟

كان الثلاثة في ذلك الكهف يشكلون مثلث كابوس. نظر إلى «سوليداد» فوجدها أشد صرامة من أي وقت مضى، تجللها هالة من عظمة ووقار لاتتلاءم مع سنها.

ولو لم يكن صدرها يتحرك أكثر فأكثر لأمكن أن يظن أنها تمثال: تمثال يهتزم بالخفاء. كان «س» يلمح تحت ردائها جسمها، جسم امرأة أفعى.

سمع ثانية صوت «ر» يقول له وهو يؤميء برأسه نحو الأعلى:

- إننا تحت سرداب كنيسة «بلغرانو» أتعرفها..؟

ثم أضاف بلهجة ساخرة:

- تلك الكنيسة المستديرة، كنيسة «الحمل بلادنس».

بعدئذ أضاف بصوت خاله «س» مختلفاً، وينم عمّا يشبه الخوف (مما يعتبر ضرباً من المفارقة):

- سأقول لك أيضاً إن هذه هي إحدى عقد عالم العميان.

ثم أضاف بعد برهة صمت يقول:

- هذه ستكون مركز واقعك من الآن فصاعداً. كلّ ماتفعله أن تجهضه سوف يقودك إلى هنا. وعندما لاتعود بمحض إرادتك فسنتولى نحن تذكيرك بواجبك.

ثم صمت، وراحت «سوليداد» تنضو عنها الرداء بحركات بطيئة طقسية، وبقدر ماكانت ترفع ثوبها شيئاً فشيئاً بذراعيها المتصالبين المرفوعين نحو الأعلى، كان جسمها يبرز، ردفاها العريضان وخصرها النحيل، وسرتها. ثم، أخيراً نهداها اللذان كانا يهتزان مع حركاتها.

وما أن أصبحت عريانة حتى ركعت على الفراش أمام «س»، ثم ألقت جسمها ببطء نحو الخلف، وفتحت ساقيها ومدتهما نحو الأمام.

شعر «س» أن مركز الكون كان في تلك اللحظة هناك.

تناول «ر» فانوس الجدار الذي كان ينشر رائحة زيت محترق نفّاذ وكثيراً من الدخان، وبعد أن طاف بالكهف وقف بجانب «س» وأمره بقوله:

- والآن أنظر مايتعين عليك أن تراه.

قرّب الفانوس من جسم «سوليداد» فأضاء أدنى بطنها الذي كان حتى تلك اللحظة مظلماً، فرأى «س» برعب سحري أن لديها، بدلاً من الفرج، عيناً ضخمة رمادية خضراء تنظر إليه برجاء وشوق شديد.

قال «ر»

والآن، سيتعين عليك أن تفعل مايجب أن تفعله.

وأخذت تتحكم فيه منذ تلك اللحظة قوة غريبة، فشرع، وهو مايزال ينظر إلى العين العمودية وهي تنظر إليه، يتعرى، ثم ركع أمام «سوليداد»، مابين ساقيها المفتوحتين، وبقي هكذا برهة ينظر برعب وسادية إلى العين الجنسية العابسة.

استوت هي عندئذ، يشع منها بريق وحشي، وانفرج فمها كضارية مفترسة، وطوقه ساعداها وساقاها وضغطت عليه بقوة ككلابات من لحم، وأجبرته شيئاً فشيئاً، كأنها كماشة لاترحم على مواجهة تلك العين الضخمة التي كان يحس بها هناك تحت، تقاوم هشة لينة حتى انفجرت. وفيما كان يشعر بذلك السائل البارد يسيل، بدأ يدخل في كهف آخر أشد غرابة من ذلك الذي كان يشهد الطقس الدموي، العمى الفظيع.

والآن، بعد خمسة وأربعين عاماً، كان ثانية في الدار القديمة في

شارع «أركوس» (عندما لاتفعله بمحض إرادتك، فسنتولى نحن تذكيرك بواجبك). كان قد حذره في تلك الليلة من العام ١٩٢٧ وذكره في العام ١٩٣٨ في باريس حين ظن هو أنه يمكن أن يلجأ إلى عالم العلوم النيّر، والآن مالبث أن أكد بصمت، حين.. حين ماذا؟

لم يكن يعرف، وقد لايتوصل إلى حلّ اللغز أبداً. ولكنه أدرك أن «ر» كان يبحث عنه في الـ «بوسطن» لكي يصوغ تحذيره. وهكذا وجد نفسه بين فضلات الحديقة القديمة.

لم يكن يقوى حتى تلك اللحظة على النظر إلى واجهة الغرفة الشتوية. كان كل شيء من حيث الظاهر يتكرر: ليلة الصيف، الحر. القمر وسط سحب عاصفة مشابهة.

ولكن ماكان يعترض هو التعاسة والعواصف، النفي والخيبة، البحر والمعارك، الحب ورمال الصحراء. وإذن، ماذا كانت تلك العودة تحمل حقاً من العودة..؟

هات من يعلم إن كان بسبب مزاج «ماريا دي لاسوليداد»، أو اللغز الذي كان يحيط بها دائماً، أو بسبب شيء ما موجود فعلاً، كان لضوء القمر ذلك الثبات المشؤوم المخادع. أخذ يحل أنه لم يكن في حديقة دار قديمة ـ لكنها معروفة ـ في «بلغرانو»، وإنما في أرض كوكب مهجور، هجره الناس إلى مناطق أخرى من الكون هرباً من لعنة. هربوا من كوكب لم يكن فيه ولن يكون فيه أبداً شمس، لكي يتلقوا دائماً ضوء القمر الأزرق. لكنه قمر له ـ بفضل بقائه الدائم ـ قدرة خارقة، ويتصف بكآبة مطلقة وبعنف سادي لكنه جنسي حزين.

أدرك أن الساعة قد أزفت.

نهض وسار نحو الواجهة ذات الزجاج المحطم التي تهدمت بفعل الزمن والإهمال.

فتح الباب الصدىء بقوة وأخذ يسير نحو الأقبية، شاقاً بمصباحه الكهربائي طريق الزمن الآخر.

كان يعلم أن شيئاً ما كان بإنتظاره في نهاية تلك المتاهة، ولكنه لم يكن يعرف ماهو.

الصعود

كان أصعب من النزول بما لايقاس، لأن الممر كان لزجاً، وسرعان ماشعر بالرعب من الإنزلاق فجأة نحو الهوة الطينية التي كان يتصورها موجودة هناك. ما أن تمكن من الوقوف على قدميه حتى ترك لغريزته أن تقوده بإتجاه النور الضئيل الذي كان يتسلل من بعض الشقوق في الأعلى. وهكذا راح يصعد بحذر، شيئاً فشيئاً، يحدوه أمل كان يتعزز بقدر ما كان النور يزداد. ومع ذلك، فكر (وأثارت تلك الفكرة الغمّ في نفسه)، لم يكن ذلك ضوءاً يمكن أن يأتي من يوم مشمس، وإنما من سماء مضاءة بإحدى شموس منتصف الليل التي تنير المناطق القطبية ببرود، وعلى الرغم من أن تلك الفكرة لم تكن تستند إلى أساس منطقي، فقد أخذت تترسخ في عقله حتى تحولت إلى مايمكن أن نسميه أملاً مثبطاً: كالشعور الذي يمكن أن يراود من يعود إلى وطنه، بعد أن تشرد زمناً طويلاً في أماكن مريعة فيوسوس له الشك بكآبة متنامية أن الوطن الذي يعود إليه يمكن أن يكون قد دمر أثناء غيابه بفعل كارثة غريبة، وشياطين خفية تتسم بالقوة.

كان في ذلك الصعود الصعب يرتعد بشدة، وإن كان ارتعاده، يعود أيضاً إلى تلك الريبة التي كانت تعتصر قلبه. كان يتوقف ولكن لايجلس،

لا لأن الممر كان طينياً وحسب، بل لما كانت تثيره في نفسه من خوف، الجرذان الضخمة التي كان يشعر بأنها تمر بين ساقيه، والتي توصل في إحدى اللحظات إلى أن يلمحها بين الظلال: مثيرة للإشمئزان، عيونها شريرة، صخّابة وشرسة. عندما شعر بأنه كان يقترب من النهاية، أخذ يقينه بالكارثة التي تنتظره يتوطد، ذلك أنه بدلاً من أن يشعر بجلبة بوينس آيرس المعهودة تزداد شيئاً فشيئاً، بدا له كأن الصمت يشتد أكثر فأكثر، لمحت عيناه في نهاية المطاف ماكان يبدو أنه مدخل قبو أحد البيوت. ولقد كان كذلك، وعبر حفرة مفتوحة في جدار من اللبن المتفتت بفعل الرطوبة والزمن دخل إلى ذلك القبو حيث تمكن في البدء أن يلمح كميات من أشياء مختلفة مختلطة بالأرض الطينية، كانت مياه المطر قد جرفتها، فعلاً عن أنقاض وأخشاب تالفة، وأعشاب نمت وارتفعت بحثاً عن النور بين الشقوق العليا.

تسلل بين الأكوام الاسفنجية كي يبحث عن المخرج الذي يقوده إلى طبقة البناء الأرضية كائناً ماكان ذلك البناء. كان السقف مبنياً من حجارة ولعله لذلك لم يكن قد انهار. وكانت هناك فجوة كبيرة يدخل منها النور الذي يضيء ذلك القبو قليلاً: نور جعله يفكر بإحتمال أن لايكون في الأعلى، البناء الذي افترضه من قبل، وإنما قطعة أرض ما، تقوم عليها أنقاض بناء قديم والفجوة لم تكن جزءاً من السقف المبني بالحجارة، بل يمكنه أن يجزم الآن أنها جزء من باب خشبي قديم قد اهترأ وتشقق، قدّر أن ذلك الباب لابد أن يؤدي إلى سلم لم يتوصل إلى تبيّنه بعد، فقد كانت القمامة متجمعة بكثرة. حاول أن يصعد فوق إحدى تلك الأكوام، ولكن هبط تحت قدميه شيء لم يكن صلباً وإنما اسفنجاً هشاً، وخرج قطيع من جرذان ضخمة، كانت تقفز وهي في حميا جنونها فوقه، وتتراكض بين ساقيه وتلامس جسمه وتصل حتى وجهه. كان يقاومها بيديه ويحاول ببالغ الاشمئزاز والقلق أن يصدها ويبعدها عن

جسمه. ولكن لم يتمكن من منع أحدها من الوصول إلى وجهه: وفي خضمّ الصياح أحس بجلده المثير للإشمئزاز على خده، وللحظة التقت عيناه بعينيه الحمراوين الشريرتين البراقتين. لم يتمكن من المقاومة، وخرجت من حنجرته صرخة حادة خنقتها دفقة من قيء، وكما لو كان يصرخ وهو يوشك على الغرق في مستنقع مياه قذرة تثير الاشمئزاز، فالقيء لم يكن من طعام (فهو لايتذكر أنه أكل منذ زمن طويل) وإنما من سائل مخاطي لزج ظلّ يسيل ببطء كأنه لعاب كثيف يثير الاشمئزاز، تراجع بدافع غريزي، ووجد نفسه ثانية في الأسفل، في الفجوة التي كان قد دخل منها إلى القبو، أو إلى ماكان في زمن قديم قبواً. ركضت الفئران هاربة إلى مختلف الإتجاهات. وتوفرت له برهة من الراحة، اغتنمها ليمسح فمه بكم قميصه وينظف بقايا القذارة. مكث واقفاً كالمشلول من الرعب والاشمئزاز. كان يشعر أن عشرات، وربما مئات من الجرذان تراقبه بعيونها الألفيّة من جميع أرجاء ذلك الكهف. وعاد يهيمن عليه قنوط شديد، فقد كان يشعر بأن سيستحيل اجتياز ذلك السور من القمامة الحيّة. ولكن بدا له أن خيار البقاء في ذلك المكان أشد رعباً فعاجلاً أم آجلاً سيتغلّب عليه النعاس، لينهار وسط الطين ويقع فريسة الجرذان التي تترصده. مدّه هذا الخيار كي يستأنف الصعود النهائي وحفزّته قناعته بأن ذلك الحاجز من القذارة والجرذان هو آخر ماكان يفصله عن النور، فعضّ على أسنانه كالمجنون وقفز نحو المخرج وتسلق بسرعة أكواماً من القاذورات، وداس على جرذان صاخبة، يلوّح بذراعيه بلا كلل لكي يتجنب هجومها أو تسلقها على جسمه كما جرى من قبل، وهكذا تمكن من الوصول إلى الباب الخشبي المهترىء الذي تحطم تحت وقع ضربات رجليه.

كان يخيم على المدينة صمت شديد

كان «ساباتو» يسير بين الناس، لكنهم لاينتبهون إليه، كما لو أنه كائن حيّ يعيش بين أشباح. كانوا جميعاً يتابعون طريقهم بصمت، لايبالون، ولايبدون أي إشارة تدلّ على أنهم رأوه أو سمعوه.

استقل حينئذ القطار إلى «سانتوس لوغاريس».

وحينما وصل إلى المحطة، نزل، وسار نحو شارع «بونيفاسيني»، فلم ينظر إليه أو يحيّه أحد. دخل إلى بيته وبدرت إشارة واحدة تدلّ على حضوره: نجت «لوليتا» كالخرساء وانتصب شعرها. أسكتتها «غلاديس» غاضبة: إنك مجنونة، تنبحين ألا ترين أنه ليس هنالك أحد. دخل إلى مكتبه. كان «ساباتو» جالساً خلفه، كما لو أنه يفكر ملياً بمحنة ما، ورأسه مثقل بين كفيه.

سار نحوه حتى أصبح أمامه واستطاع أن يرى أن عينيه كانتا تنظران إلى الفراغ بذهول وحزن.

قال

- إنني أنا.

ولكن لم تبدر أيّ إشارة أيضاً تدلّ على أن الآخر سمعه أو رآه. ولم تنبس شفتاه بأي شيء، ولم يبد من جسمه أو يديه أيّ حركة أو سكتة.

كان الاثنان وحدهما، معزولين عن العالم، ومعزول أحدهما عن الآخر أيضاً.

ولاحظ فجأة أن بعض العبرات أخذت تنهمر من عيني «ساباتو» الجالس، وشعر عندئذ، مذعوراً أن خيوطاً باردة من الدموع تسيل على

خديه هو أيضاً.

كانوا يخرجون من المترو بالمئات

يتعثرون، ينزلون من الباصات، يتزاحمون، ليدخلوا جحيم محطة «رتيرو»، حيث كانوا يعودون ليتكدسوا في القطارات. كان «مارسيلو» يفكر بشفقة ساخرة، عام جديد، حياة جديدة، وهو يرى أولئك الذين يبحثون بقلق عن أمل مناسب مع قطعة حلوى وزجاجة خمر، وصفارات وصيحات.

نظر من مقعده إلى ساعة البرج: كانت تشير إلى التاسعة. وطبعاً، هاإنها آتية، صامتة ولكنها كاملة. قالت وهي تريه عقدة الصرة الخضراء «للهدية»، وضحكت من واقع الدعابة: «سيزار فاجيخو» مُجَلَّداً. مجلدٌ الماني في «لالوسيلا». لم يبق من هؤلاء أحد. كان شعرها الفضّي تقريباً يميزها بسرعة وسط الظلال. قال وهو يلامس يدها الناعمة بينما يستلم الصرة، «أورليك». مكثا جالسين كغريقين في جزيرة صغيرة وسط خضم محيط تهب عليه عاصفة مجهولة وغريبة.

تمشيا نحو منطقة المرفأ. كانت هنالك باخرة مزينة بالأعلام، مصابيحها مضاءة جميعها استعداداً لإطلاق صفارتها عند حلول منتصف الليل.

أيؤمن هو بما يقال عن الحياة الجديدة؟

سألته على نحو متقطع. وكانت تفسر دائماً بإستقامتها المعهودة في الكشف عمّا يعتورها من عيوب: «تعلم أنني بقيت أتلعثم حتى العاشرة من عمري».

كان الحديث بينهما صعباً كصعود مريضين في دور النقاهة قمة

«اكونكاغوا».

كانا يتهربان من كلّ ماهو شخصي، ويحاولان دراسة نصوص الكلية، وكان ذلك كأنما لايتحدثان، ولكنهما كانا يترجمان معاً من الألمانية: «ريلكي» «تراكل». وذلك لم يكن سهلاً: كيف يمكن تصحيح أخطاء «مارسيلو» من دون إزعاج، من دون أن يبدو ذلك، بأي شكل من الأشكال، ضرباً من المباهاة؟. ولكن طبعاً، أنت ابنة ألمانيين. كان هو يتمتم رغبة منه في أن يبرر لها. أو تلك الأغاني، إنها أفضل مع الموسيقى، هل تعلمين؟ يسجلون الكلمات آلياً. ولكنه كان يترنم خجلاً، فيخطىء بالنغمات وبالألمانية أكثر مما هو لازم، ويجعلها أسوأ مما كان بمقدوره أن يفعل. وكانت تقول له برقة أرجو المعذرة يا «مارسيلو»، ولكن ليس هكذا. كانت تصوب الخطأ برقة، كان «شومان» يثير عواطفهما بنشيد الصداقة والرجولة، الجندي الذي يوشك أن يموت ويطلب من رفاقه أن يأخذوه إلى الوطن، لكي يدفن هناك، ليكون قريباً عندما يدعوه امبراطوره ثانية، أغنية المعركة والكآبة والوفاء في نواح نائية. كان ينوي في عتمة الساحة، أن يقول إنها كانت رائعة بشعرها الطويل الفاتح فوق القميص الأسود. ولكن كيف يمكن أن يقول لها شئياً طويلاً وخاصاً مثل ذلك..؟ وهكذا تمشيا صامتين حتى تمكنا من رؤية الباخرة من قرب: الأضواء والزينات كانت تدلّ على أن هناك أيضاً أشخاصاً يودون أن يكونوا سعداء، وأنهم ينتظرون الصافرات وسحر تلك الساعة، الساعة التي تقسّم الحياة وتخلف وراءها آلام وبؤس وخيبات أمل عام مضى. ثم رجعا وعادا يجلسان على المقعد ذاته، حتى قالت هي إن الساعة تقارب العاشرة، وأنها يجب أن تكون في «لالوسيلا» قبل الحادية عشرة. نعم، طبعاً، سيذهب هو إلى منزل والديه..؟

نظر إليها «مارسيلو»، إلى منزل والديه..؟ في الواقع.. «باليتو» كان

وحيداً.. وهو...

نهضا، دائماً هي أطول منه قليلاً، وحينئذ داعبت «أورليك» وجهه بيدها وقالت له «عاماً جديداً سعيداً» بذلك الجرس الساخر قليلاً الذي اعتاده لإخفاء مشاعر رقيقة خلف عبارات عامة، وكأنما يخفيانها بين إعلانات وتزيينات. ثم، ولأول مرة - ولآخر مرة أيضاً - قربت شفتيها من شفتي «مارسيلو» وشعرا أن شيئاً عميقاً جداً بدأ مع تلك اللمسة الخفيفة. رآها تبتعد نحو المحطة بقميصها الأسود وبنطالها الأصفر، وفكر بأنه ليس ممكناً ألاّ تكون، في أقل تقدير، فخورة بجمالها: جمال منظر خفيّ وسريّ في مكان لايظهر حتى في أية نشرة سياحية، ولم يكن قد تلقى (ولن يتلقى) ذلك المس المفرط والنفاق. سار في شارع «ليبرتادور» بإتجاه منزل والديه، حتى نظر إليه من الرصيف المقابل. أجل، كانت المصابيح تضيء. لابدّ أن يكون قد حضّرا كلّ شيء، ولعلهما كانا يأملان في أن يرياه، حتى ولو دقيقة واحدة. فكّر إن لم يكن ضرباً من الخسة والعجرفة ألا يذهب، فيحزن حتى أمه المجنونة الغافلة. تردد طويلاً وهو يفكر في كلماتها المتقاطعة وشعرها المشعث وفي أخطائها. بيكير..؟ مالأمر بيكير..؟ ولماذا كلّ تلك الضجّة. فحينما كان طولها هكذا، كانت تلقي من الذاكرة شعر بيكير..؟[1]. بيكيت ماما..! بيكيت..!، كانت «بيبا» تنهرها بقوة ثقافتها ودفتها، ولكن الأمر كان، كمن يود أن يوجه ضربة فعالة إلى كيس من القطن: بيكر..! بيكر..! عجباً..! كانت تصرّ وهي منكبّة على كلماتها المتقاطعة.

نظراً ملياً إلى تلك الطبقة السابعة: ثم عبر الشارع، لكنه تابع سيره في «لاس هيراس» لكي يستقل الباص ذي الرقم ٦٠ . كانت جميعها تمر غاصّة بالركاب، ولكنه تمكن في نهاية المطاف من أن يتعلق بأحدها.

---

(١) بيكر: شاعر رومانسي إسباني عاش في أواخر القرن المنصرم، اشتهر في إغراقه في التشبيب بالنساء (المترجم)

نزل في شارع: انتدبيندنسيا»، ذهب إلى متجر فاشترى زجاجة «سيدرا» مثلجة، وقطعة من الحلوى. لقد كانت الهدية في جيبه. ستكون مفاجأة سارة لـ «باليتو». (تنقصني كلمات يامارسيلو، هذه هي المسألة، لو كان لدي قاموس..) حسناً، وهاهو، وإن كان صغيراً مثل احتياجاته. احتياجاته الرائعة: نَسْخَ عشر كلمات في اليوم على كراس، ثم تسجيلها هنا (كان يشير إلى جبينه). كان القائد يقول لهم دائماً إن الأمر ليس إطلاق النار وحسب.

سار في شارع «اندبيندنسيا» نحو «الباخو» ولكنه عندما عبر شارع «بالكارسي»، وفي اللحظة التي كان سيدخل فيها إلى البناء، اندفع عدة رجال نحوه. بدا له الأمر غير معقول إلى حدّ لم يفكر معه بأن يركض. وكان أمراً لافائدة منه أيضاً لو فعل: كانوا يحيطون به من كلّ جانب. شعر بضربة هائلة في أسفل بطنه وأخرى على رأسه. وضعوا في فمه خرقة، ثم أغلقوا عليه صندوق سيارة كان محركها مستعداً للإنطلاق. حدث كلّ ذلك خلال بضع ثوان. شعر وهو في الصندوق مصعوقاً من الألم، كيف كانت السيارة تنطلق في شوارع ومنعطفات، وتتابع السير في شوارع طويلة ثم تعود لتنعطف إلى أن خيم الصمت شيئاً فشيئاً.

أخرجوه من صندوق السيارة وطرحوه أرضاً وتناولوه بعدة ركلات على كليتيه وخصيتيه، وفيما كان يتلوى من الألم وصرخاته تختنق في حلقه بسبب الخرقة القذرة التي حشروها في فمه، سمع أحدهم يقول للآخر:

- أعطني لفافة.

بعد أن أشعلا لفافتيهما، قادوه في ممرّ وهبطوا عدة دركات، وهنالك بدأ يسمع صراخاً: صراخ مَنْ يسلخ حياً.

قال أحدهم

ـ هاك اسمع.

تابعا السير في ممرّ يتلقى ضوءاً خافتاً من مصباح شاحب. كانت الرائحة شديدة، كأنها رائحة مرحاض وبراز. فتحوا زنزانة وألقوا به على الأرض. كان الظلام لايتيح له أن يرى، ولكنه كان يشم رائحة براز.

ـ اذهب وتذكر، لأنك سوف تحتاج إلى ذلك.

راح يألف شيئاً فشيئاً تلك العتمة. كانت الرائحة فظيعة. سمع فجأة أنيناً. فأدرك حينئذ أن جسماً آخر كان ملقى على الأرض. وبعد برهة سمعه يتمتم ببضع كلمات من قبيل «بيدريرا» أو «بيريرا» أو «فيريرا»، ثم قال بعد، «هوغو». وأضاف، شيء ذو أهمية. وتمكن «مارسيلو» بعد لأي ومحاولات عديدة أن يفهم ماكان يودّ أن يقول له: إن خرج في يوم من الأيام حياً من ذلك الجحيم فليقل للرفاق إنه لم يبح بشيء. وأضاف أخيراً أرجوك ياأخي.

دخل اثنان بمصباح كهربائي

اقتربا أولاً من الذي قال إن اسمه «بيريرا» أو «بيدريرا» فتفحصاه من قرب وقال أحدهما: «ابن ألف عاهرة، إنه يعرف شيئاً، إنني متأكد..» وركله بشدة، ثم اقترب من «مارسيلو».

قالوا له

ـ هيا

عندما أخذوه إلى الممر سمع ذلك العويل ثانية.

أدخلوه دفعاً وركلاً إلى غرفة كان فيها منضدة كأنها منضدة عمليات، عرّوه من ملابسه، فحصوا جيوبه: حسناً، مفكرة أرقام هواتف، ديوان شعر، المخنث: إلى مارسيلو» بمناسبة نهاية هذا العام ١٩٧٢ ، دائماً، دائماً. «أورليك». هكذا إذن «أورليك» إيه؟. أولئك كانوا يعتقدون أنك خَنِثٌ. وقاموس صغير في جيب المعطف:

- انظر «توركو»... انظر هذا الإهداء: إلى «باليتو»، آمل أن يجد فيه فائدة، مع محبتي، «مارسيلو». إلى «باليتو..! وليس سواه. وكيف كان ذلك الأحمق يبدو أنه لايعرف الألف باء..!

قال آخر كانوا ينادونه «البدين»، حسناً كفى ضياع وقت، هيا للعمل. وضعوه فوق المنضدة الرخامية، فردوا ذراعيه وساقيه كالصليب وأوثقوا معصميه ورسغيه بحبل ربطوه بالمنضدة، ثم ألقوا عليه سطلاً من ماء بارد وقربوا رأس المهماز، عرضوه أمامه وسألوه إن كان يعرف ماهو.

قال الـ «توركو» ضاحكاً

-إنه إختراع أرجنتيني. ويقولون بعدئذ إننا نحن الأرجنتينيون لانعرف سوى تقليد الأرجنتين... صناعة وطنية، نعم ياسيد، وبكلّ فخر.

اقترب منه البدين الذي كان يبدو أنه يتمتع بسلطة أكبر، وقال له:

- هنا ستروي كلّ شيء، كلّ ماتعني كلّ شيء. وبقدر مايكون ذلك قبل أن يكون أفضل. لسنا على عجلة من أمرنا: يمكن أن نبقيك يوماً أو اسبوعاً. دون أن تموت. إننا نعرف ماذا نفعل. ولذلك فمن الأنسب لك، قبل أن نبدأ، أن تقول لنا عدة أشياء. وأحذرك بأن صديقاً آخر لـ «باليتو» موجود لدينا هناك. أسمعت ذلك العويل؟ باح بأشياء كثيرة، ولكن نريد

أن نعرف ماتعرفه أنت. ولذلك هيا ابدأ: كيف عرفته، ماذا قال لك، صلاته، إن كنت تعرف الـ «روبيو» و«كاتشيتو». لقد هرب باليتو بالأموال.

أين اختبأ؟ أنت تسكن معه، إنك صديقه الحميم، ذلك أمر نعرفه. لافائدة ترجى من نكرانك أي شيء من هذا. مانود أن نعرفه هو أشياء أخرى، بمن يتصل، من يرى، من كان يتردد على غرفة شارع «انتديبندنسيا»، ومن هي «اورليك»؟.

لم يكن يتردد على الغرفة أحد. «أورليك» مجرد صديقة، وهو لم يسأل «باليتو» عن أي شيء قط.

أكانا قد ذهبا ليسكنا معاً هكذا بلا سبب؟ أين عرفه..؟ ألم يكن يعرف أن «باليتو» كان مع مقاتلي «تشي»؟، لا لم يكن يعرف شيئاً من هذا.

هكذا إذن، وجده في أحد الأيام مصادفة في الشارع، وقررا أن يسكنا معاً؟

لم يجب «مارسيلو».

ألم يعرّفكما أحد؟ أعجبك وجه ذلك الأبله؟ من كان الواسطة؟ لماذا أتى «باليتو» ليسكن في بوينس أيرس؟ أين رأيته أول مرة؟.

في مقهى تقاطع شارعي «ريفا دافيا» و«اسكويناغا»

نعم، حسن جداً، ولكن يرتاد ذلك المقهى آلاف الرجال والنساء، فلماذا اتصل به؟ هل كان يعرف من هو الـ «روبيو»..؟

لم يجب «مارسيلو».

حسناً، فليبدأوا إذن.

وضعوا المهماز في اللثة أولاً وشعر كأنما غرسوا دبابيس تتأجج ناراً. تقوس جسمه بقوة وصرخ. ما أن توقفوا حتى هيمن على روحه خجل شديد لأنه صرخ. لم يقاوم، وفكر مذعوراً إنه لم يقاوم.

ـ انظر هذه عيّنة، عيّنة مجانية، إنه البدء. أرأيت الذي كان مطروحاً في الزنزانة؟ هيا، لن نُضَيّع المزيد من الوقت. إننا نعرف الكثير، لاتقلق. ولاتدع جسمك يتشوه إلى الأبد لكي تحافظ على أسرار. فمع الزمن ستبوح بها. وعلى كلّ حال فسوف تتعب. هات. قل أولاً كيف تعرفت «بالو».

ـ في مقهى منعطف شارعي «ريفادافيا» و«اسكويناغا».

ـ نعم، لقد قلت ذلك، أصدقك، ولكن كيف؟ اقترب منك فجأة وقال لك إنني أود أن نعيش معاً؟

ـ اقترب مني ليطلب إشعال لفافة.

ـ وأنت فعلت.

ـ طبعاً.

التفت البدين وسأل إن كان أحد عثر على لفائف وكبريت في جيوبه. لا. قاموس صغير وديوان شعر وعقار للربو، مفكرة أرقام هواتف وستماية بيسوس تقريباً.

التفت البدين وقال برقة:

ـ أرأيت؟ من المناسب ألاّ تكذب هنا. لالفائف ولاكبريت لديك. أقول ذلك من أجلك: لاتكذب.

لقد استنفدهـا.

مـاذا

اللفائف

اللفائف والكبريت معاً؟

ضحكوا.

هـات قل: أي نوع من اللفائف تدخن، قال «جوكي كلوب».

جوكي كلوب؟ كم ثمنها..؟

لم يستطيع أن يجيب. لم يكن يعرف. وضعوا خرقة قذرة في فمه.

- هيا، ارفعوا الشدّة.

وضعوا المهماز على الحالب وتحت الإبط وعلى أخمص القدمين. كان جسمه ينتفض بوحشية.

- توقفوا. حسناً. أرى أن رأسك يابس أيها الأحمق. سوف تدمر حياتك لقاء لاشيء. عندما تتغير الحكومة سنبقى نحن هنا. وأنتم أيضاً، أو من ينجو منكم. تكلم أيها الصبي.

أخرجوا الخرقة من فمه.

- تعرف أن الـ «روبيو» كان هناك في أحد الأيام، وأنك تعرفت الـ «روبيو» بوساطة طالب حقوق إسمه «أد البيرتو»، «أد البرتو بلاسيوس». هـاإنك ترى أننا نعلم أنك متورط، وترى أيضاً أن آخرين تكلموا.

لبث «مارسيلو» مذعوراً، لايمكن أن يكون الـ «روبيو». لم يبق سوى

«بلاسيوس».

قال:

- ليس صحيحاً.

رمقه البدين بنظرة استحسان:

- أنظر. سأقول لك شيئاً: نعلم أيضاً أنك أنت لست مقاتلاً وأنك لست أهلاً لقتل ذبابة، إننا هنا نعرف أكثر بكثير مما يمكن أن تتصور. إننا لانعذبك من أجل هذا: نعذبك لأنك تعرف أشياء ويجب أن تقولها. إننا نعلق آمالاً كبيرة على شخص من أمثالك. لهذا السبب بالذات، لأنك تحب الشعر، ولأنك رقيق. أتعلم؟ حذار. لاتفهم على نحو خاطىء. لاتظن أنني أتمتع بتعذيبك. لا، فأنا لديّ أسرة أيضاً. وماذا تظننا نكون: وحوشاً لاأمهات لنا؟

كان وجهه ينم عن شيء من الطيبة.

- حسناً، والآن، لقد تكلمنا بصراحة. لقد أدركت الآن أننا لسنا كما يحاولون أن يصفونا. لنتحدث بهدوء. قلت إنه اقترب منك لإشعال لفافة، وأنت قلت له نعم، وأعطيته كبريتاً، أليس كذلك؟

- بلى.

- ولقد برهنا أنك كنت تكذب

- نعم

- ولقد رأيت أنه لافائدة ترجى من الكذب. إننا نتوصل دائماً إلى معرفة المرء حين يكذب. لنعد إلى مقهى «ريفادافيا» و«أسكويناغا». هذا

صحيح، نعرف. كيف بدأت العلاقة؟ هنا اقترب منك وبدأ يتحدث عن المقاتلين؟ وأنت تعلم جيداً أن المقابل لايحدث أحداً عن ذلك إن لم يكن موضع ثقته المطلقة. فلماذا كان يثق بك أنت، بامرىء لايعرفه؟ لماذا حدثك عن القتال؟

لا أبداً، لم يكن يعرف من هو «باليتو». لم يكن يعرف سوى أنه من «توكومان».

وأنه اشتغل في مصنع، وأن المصنع أغلق، وأنه بقي عاطلاً بلا عمل، وأنه اشتغل أخيراً في معمل «فيات»، وأنه أصبح عاطلاً عن العمل ثانية.

ولكن لم يشرح له قط لماذا بقي عاطلاً بلا عمل؟

لا.

وأيضاً لماذا أذهب إلى بوليفيا

وهكذا إذن، لايعرف أن «باليتو» انضم إلى مجموعة من المقاتلين هنا؟

لا.

ألم يكن يذهب إلى الغرفة شخص عمره حوالي ٢٧ عاماً، طويل القامة، يضع على عينيه نظارتين، شعره أسود مجعد، يعرج قليلاً. كانت تلك صفات الـ «لونغو». ذعر.

أصبح متأكداً الآن: لقد كان «بلاسيوس» هو الذي تكلم. لا. لم يكن قد رأى ذلك الشخص قط.

نظر إليه البدين بصمت طويلاً. ثم التفت وقال:

ـ أعطوه بكلّ ماأوتيتم من قوة.

حشروا الخرقة القذرة في فمه وسمع الـ «توركو» يقول: «هذا سيغني حتى أرز بالحليب»[1].

بدأوا باللثة، ثم الحالبين وأخمص القدمين والخصيتين. شعر أنهم ينتزعون اللحم بكماشة تتأجج. وسرعان ماأخذ يرى كلّ شيء أبيض وبدأ قلبه ينبض في صدره كمن يضرب بقبضته على باب غرفة مغلقة فيها كلاب مسعورة تمزقه إرباً. وهكذا حتى توقف التيار.

ـ أخرجوا الخرقة.

أين كانت الأسلحة؟ من كان الرؤساء؟ أين يقطن الـ «لونغو»؟ هل له علاقة بالهجوم على «كاليرا»؟ من كان يذهب إلى مقهى منعطف شارعي «باسو» و«سان خوان»؟

لم يكن بوسعه أن يتكلم. وكان يشعر بلسانه كأنه قطعة من قطن منفوش. تمتم بشيء ما فاقترب البدين يصغي إليه.

ماذا تقول.

ـ تمتم، ماء.

نعم، سوف يقدمون له ماء، ولم لا. ولكن يتعين عليه أن يجيب أولاً.

فكر في «باليتو»، في تلك الطفولة البائسة في الكوخ وبمعاناته في بوليفيا. وفي صمت «غيفارا» الصبور. كانت حياة «باليتو» في تلك اللحظة تتوقف على كلمة واحدة يقولها. لم يكن قد فعل أي شيء ذي قيمة قط. لم يكن قد فعل أي شيء لتخفيف عذاب أو جوع طفل بائس

---

(١) أرز بالحليب: أغنية أطفال في الأرجنتين. (المترجم)

واحد فقط. ومالفائدة منه حقاً؟

أراه البدين زجاجة «كوكاكولا» مثلجة.

هل سيتكلم؟

لم تبد من مارسيلو أي أمارة.

فتح الآخر الزجاجة وأفرغ محتواها الفوار على جسم «مارسيلو».

أمر البدين غاضباً.

- ضعوا الخرقة في فمه وأعطوه بالشدة القصوى.

بدأ الرعب ثانية، حتى أصبح كلّ شيء أسود، وفقد الوعي. وعندما أخذ يثوب إلى رشده، كأنه ينهض ممزقاً من تحت أنقاض مستعرة، سمع كلمات لم يفهمها جيداً، شيئاً عن دكتور، وعن حقنة. أحس بإنتفاخ في ناحية ما، ثم سمع بعدئذ «يجب التوقف بعض الوقت».

بدأوا يتكلمون فيما بينهم عن الأحد، وشاطىء في «كيلمس»، ضحكوا كثيراً، تذمروا من ضياع حفلة رأس السنة، سمع أسماء: الـ «توركو»، بيتريجو» أو «بوتريجو» البدين، الرئيس. وبدأ الصراخ والعويل في غرفة مجاورة.

قال أحدهم، لماذا لاتحطموه؟ اقترب منه امروٌ وقال له: أتسمع؟ إنه صديقك «بلاسيوس»، لم نضع الخرقة في فمه لكي تسمعه، فيما بعد ستراه.

كان رأسه محشواً بقطن، ويستعر بالكحول. كان يشعر بعطش لايستطيع إحتماله، بينما كان يسمعهم يقولون: «هذه الجعة ليست

مثلجة كما يجب أن تكون». وتتابع العويل. «باليتو» بعظامه الملتصقة بالجلد، الكوخ، القائد، الإنسان الجديد.

قال أحدهم لاشك أنه البدين.

ـ هيا ياشباب، إلى العمل. الدكتور يقول إن هذا يجب أن ندعه بعض الوقت. فكوا وثاقه ورموه على الأرض.

هاتوا الفتاة و«بوسّو»

أتوا بهما يجروهما من شعرهما.

أجلسوا «مارسيلو» على الأرض أمام الجدار وأجبروه على أن ينظر: كانت هي ابنة تسعة عشر أو عشرين عاماً، وكان هو أكبر منها قليلاً. كان شكلهما يوحي بأنهما عاملان فقيران.

عرّوا المدعو «بوسّو» من ثيابه وشدوا وثاقه إلى المنضدة التي لقي «مارسيلو» عليها العذاب، بينما أمسك الآخرون بالفتاة. قال البدين لـ «بوسّو» إنه لمن الأنسب له أن يتكلم قبل أن يشغّلوا الآلة ويغتصبوا الخطيبة.

ـ إننا نعرف أنكما من جماعة «لوس مونتوس»[1]، فقد اعترف «كاتشو» بكلّ شيء. الإعتداء على معسكر «التيفري»، وسرقة مستشفى «سان فرناندو»، ومقتل العريف «ميدينا». والآن فإنك ستروي لنا بعض التفاصيل الباقية: تكلم عن الإتصال مع مجموعة «كوردبا».

أي إتصال؟ هو لايعرف شيئاً من ذلك؟

أمرهم:

---

(١) المونتينيروس: حركة ثورية كانت منتشرة في الأرجنتين وبعض دول أمريكا اللاتينية (المترجم)

- أبدأوا

أخذ مارسيلو يرى ماكانوا قد فعلوه به من قبل، تكرر الرعب ذاته، التقلصات الفظيعة ذاتها.

- توقفوا.

قرّبوا الفتاة

- ماسمك؟

- «استير»

غنى أحدهم قائلاً: ياستير الصغيرة لقد فعل بك الرجال السوء[1]

قال له البدين صه الآن.

- أين عرفتها

- في المعمل

- ماعلاقتها بك

إنها خطيبتي

- لاشيء يمت إلى السياسة بصلة، أليس كذلك؟

- لا، لا شيء من هذا، إنها خطيبتي وحسب.

- لم تتحدثا عن السياسة قط.. أليس كذلك؟

- يتحدث الناس كلهم عن السياسة في هذه الأيام.

---

(١) أغنية تانغو أرجنتينية (المترجم)

- آه. حسناً. وهي تعلم أنك كنت مع «لوس مونتوس» كما أتصور.

- أنا لست من «لوس مونتوس».

ضحكوا بشدة.

- حسناً، حسناً، سوف لن نناقش ترهات. عرّوها من ملابسها.

صرخ «بوسّو» لاتفعلوا ذلك. كانت صرخته كالوحش، نظر إليه البدين بمجاملة باردة وسأله:

- هل ستمنع أنت ذلك؟

حدّق به «بوسّو» وقال

- حقاً، لاأستطيع الآن أن أفعل شيئاً. ولكنني إن خرجت من هنا في يوم من الأيام أقسم بأنني سوف أبحث عن كلّ منكم وأقتله.

مكث الجميع بلا حراك برهة. كانت وجوههم تنم عن فرح عارم. التفت البدين نحوهم وقال لهم ماذا كانوا ينتظرون إذن، انتزعوا ثيابها مزقاً. لم يكن بوسع «مارسيلو» إلاّ أن ينظر مذعوراً كما لو أنه أصيب بضرب من سحر جنوني. كانت الفتاة عفيفة فقيرة ولكنها تمتاز بالجمال الهندي المتواضع لفتيات مدينة «سانتياغون ديل استيرو». نعم، حقاً. إنه يتذكر الآن الكلمات القليلة التي قالتها: كانت لهجتها تدلّ على أنها من تلك المدينة. وبينما كانوا ينتزعون ثيابها، كانوا يصرخون ويضحكون بعصبية، حتى أن أحدهم، وكان ضخماً وقذراً. صاح، أنا أولاً.

وفي الوقت الذي انقضّ عليها بجنون ولعابه يسيل. ذلك الذي كان يدعونه الـ «توركو»، وفيما كان الآخرون يصيحون ويمسونها

ويغتصبونها ويستمنون، والفتى الذي شدّوا وثاقه إلى المنضدة يصرخ آه ياأستير..!. فقَدَ «مارسيلو» وعيه، ولم يعد منذ تلك اللحظة يشعر بالزمان ولا بالمكان. وسرعان ما وجد نفسه ملقى في زنزانة (الزنزانة ذاتها..؟)، ورائحة البراز والبول نفسها، ثم سرعان ماكان يُعذّب فوق المنضدة، أو يتلقى اللكمات على بطنه أو خصيتيه. كان كلّ شيء ملتبساً، الأسماء التي يذكرونها، الصيحات، الشتائم، البصقات على الوجه. شعر في لحظة أنهم كانوا يجرّونه من شعره في الممر شبه المعتم، ويلقونه ثانية في تلك الزنزانة العفنة اللزجة. ظنّ أنه وحيد، ولكن سرعان مابدا له، عبر عينيه المنتفختين اللتين كان يشعر أنهما خرجتا من محجريهما وأصبح كل شيء أمامهما كخيال ظل مشوش، أنه لمح شخصاً آخر يجلس على الأرض.

تمتم الآخر بشيء ما، لم يكن يعرف. لقد اتهموه بأنه عضو في الـ «ف. ا. ر»[1] الـ «فار»؟ وقال نعم، الجميع. كان خائفاً جداً. ماذا ترى أنت؟

تمتم مارسيلو

- نعم

- نعم، ماذا، سأل الآخر.

إن كل شيء على مايرام ويجب أن لايقلق.

لاذ الآخر بالصمت. سمعا العويل ثانية ثم أعقبه الصمت (الخرقة في فمه، فكر مارسيلو) شعر بأن الآخر يجر نفسه نحوه.

---

(١) الـ «فار»: حركة ثورية أرجنتينية ظهرت كغيرها من الحركات الثورية في عقد الستينات وانتشرت في أوساط الشباب من مختلف الطبقات (المترجم)

سأله

ـ ماسمك

ـ مرسيلو

ـ عذبوك كثيراً؟

ـ تقريباً

ـ غنيت

ـ طبعاً.

صمت الآخر ثانية، ثم قال: أود أن أبول ولكن لاأستطيع.

يغفو، كحلم فوق صحراء ملتهبة، محفوفة بأطراف من نار، حتى توقظه الضربات. يعودون ثانية. كم مضى من الوقت؟ يوم أم يومان؟ لا يعرف، يود أن يموت ولاشيء سوى ذلك. يجرّوه من شعره إلى مكان مُضاء، ويبدأ التعذيب ثانية ليروه كتلة مشوهة من قروح، وقذارة.

ـ ألا تعرفه. إيه:

إنه البدين ثانية بصوته البارد كالجليد.

يبدو له أنه يعرفه، عندما أبدى الآخر إيماءة شيء بدا أمارة صداقة. وعندما يعرف من هو. يغمى عليه ثانية. يصحو في الغرفة ذاتها، لقد أعطوه شيئاً، لعله حقنة ما.

يأتون بإمرأة حبلى، يفحصها طبيب، يمكنهم أن يعذبوها، يقول سوف تفقدين الجنين أيتها العاهرة. يضعون المهماز على نهديها، في

فرجها، في شرجها، في إبطها، يغتصبونها. ثم يضعون عصا في فرجها، بينما يسمع صراخ وعويل آخر بجانبها.

يقول البدين

- إنه زوجها

يشعر بأنه سيتقيأ، ولكنه لايستطيع. ليقل إن كان يعرف تلك المرأ الحبلى، إن كان يعرف «بوسو» و«استير»، عندما كان قد رأى «كاتشيتو». كان كلّ شيء يختلط، ولم يعد يفهم شيئاً. ويتابعون تعذيب تلك المرأة، يقولون لها إنهم سيجعلونها تضع فوق منضدة التعذيب، وانهم سوف يقتلعون الجنين.

يقول لها البدين إنهم سيقطعونه إرباً إن لم ترو كلّ شيء. إن لم تقل ماكان «باليتو» يفعل في الأسابيع الأخيرة. أكان طويل القامة، أنمش الوجه؟ أكانوا ينادونه الـ «كولورادو»؟ أكانت تعرف هذا الآخر؟ أكانت رأته مع «باليتو» في مقهى شارع «انديبيندنسيا»؟ فكوا وثاق المرأة وبدأوا تعذيبه، عندما يغمى عليه كان يصحو ثانية وهو على الأرض الإسمنتية في الزنزانة. كلّ شيء يبدو مظلماً. وسرعان مايأتي أصحاب المصباح الكهربائي. يبحثون عن الآخر. يقول أحدهم وهو يضيء المصباح، ابن العاهرة. انظر من أين تمكّن أن يأتي «بشفرة الجيليت» هذه؟ ابن العاهرة، ويجرّونه، ويأخذونه، ويبقى وحيداً.

يود أن يبول، ولكنه لايستطيع: يغمى عليه من الألم، يحلم حلماً غريباً، من الطفولة: صور نقية في حظيرة خنازير. يوشك أن يصحو ويجد نفسه يرتل صلاة، إنه راكع بجانب سريره الصغير يطلب من الطفل عيسى وأمه بجانبه تقول له، إلى النوم الآن، الطفل عيسى، أجل، ويتمتم فجأة: ياإلهي لماذا تخليت عني..! وسرعان مايشعر بالخجل،

يفكر في تلك المرأة الحامل، ولقاء «أورليك»، في حديقة «رتيرو»، يبدو له على بعد قرن من الزمان، في كوكب آخر. لقد أصيب الله بنوبة جنون، وعالمه كله قد تحطم مزقاً، بين عويل ودماء، بين لعنات وأشلاء ممزقة. ويعود للتفكير في «توريبيو» ويعود ليكرر صلاة الطفولة، كما لو أنه يستطيع أن يستمد شيئاً من القوة في ذلك الجحيم. أين كان الله..؟ ماالذي يود إثباته بالعذاب وبإغتصاب مخلوق بائس مثل استير؟ ماذا كان يعني؟ ربما كان يود أن يقول شيئاً للجميع، إنما لم يكن بوسعهم إدراكه. يكون في تلك الساعة، فتيان متشابكة أيديهم بأيدي خطيباتهم، وتباشير سعادة، وضحكات، والبواخر تطلق صفاراتها أو لعلها أطلقتها، عام جديد، حياة جديدة، أم أن أياماً عديدة قد انقضت؟ أي يوم يكون ذلك ياترى؟ كان الوقت هناك ليلاً دائماً. إيه، نعم، كان الآخر قد قال له إنه اعترف بكلّ شيء، ولكنه اعترف بأكاذيب، اتهم أشخاصاً أبرياء. وكانوا قد جعلوه يوقع على شيء ما، بدا له أنه بكى على الرغم من أنه لم يكن بوسع أحد أن يعرف هناك كيف يميز الدموع عن سواها. ماذا؟ لقد انتحر بشفرة جيليت؟ والنساء، فكر، والنساء: «مارتا ديلفينو»، «نورما موريللو»، «أورورا مارتينس»، «ميرتا كورتيس» «روسا فابيخو»، «إيما ديبينيديتّي»، «إيلينا داسيلفا»، «ايلينا كودان»، «سيلفيا أوردا مبيللتا»، «إيرما بيتانكورت»، «غابرييلا جوفري». كان يبدو عرض أشباح في الجحيم. فكر، الشهداء المسيحيون، أن تزدرده الضواري لم يكن شيئاً يذكر أمام كلّ ذلك. ثم عاد يهذي، واختلطت جميع الأسماء والعصور. ويعود أصحاب المصباح الكهربائي ويجرونه من شعره إلى غرفة التعذيب.

يقول البدين:

ـ حسناً، انتهى الآن كلّ شيء، ستبوح الآن بكل شيء، وإلا لن تخرج

من هنا حياً.

وضعوه ثانية فوق المنضدة، كانت الغرفة عابقة بالدخان، وكانت هنالك صيحات، وضحكات وشتائم. كلّ شيء ينقلب إلى جحيم ملتبس. سنثابر العمل أيها المخنث حتى تدلي بكلّ شيء. يعتصرون خصيتيه، يضعون المهماز في فمه. في شرجه، في حالبه، يضربونه على أذنيه. يشعر بعدئذ أنهم يأتون بامرأة، يعرّونها من ثيابها ويضعونها فوقه، ويضعون المهماز على جسميهما معاً، وينعتون المرأة بكلمات فظيعة، ويلقون عليهما سطولاً من الماء، ثم يحلّون وثاقه ويضربونه وهو على الأرض. يغمى عليه، وعندما يصحو، يكون الطبيب ثانية، والحقنة. يقول، لا يتحمل أكثر من ذلك. ولكن يبدون جميعهم كقطيع ضوار غاضبة. يمسكون به، يَغُطّون رأسه في إناء مملوء بالبول، وعندما يظنون أنه سيموت، يخرجون رأسه من الإناء. وتتكرر الأسئلة نفسها، لكنه لم يعد يفهم شيئاً. لقد اختفى كلّ شيء في أرض تضطرم بزلازل وحرائق، تعود، ثم تعود، بين صراخ ملتهب. وسرعان ما يشعر قبل أن يفقد وعيه بضرب من الفرح الشديد: يفكر. سوف أموت.

إن الملوك السحرة في تلك الساعة هم في الطريق

قال ناتشو في دخيلته بسخرية مريعة. رأى أخيراً من موقعه في الظلمة التي كانت توفرها له أشجار شارع «الليبرتادور»، سيارة السيد «بيرس ناصف» الحمراء تقف وينزل منها هو «وأغوستينا». كانت الساعة حوالي الثانية صباحاً، دخلا مباشرة إلى إحدى الشقق السكنية.

مكث في موقعه يراقب حتى الساعة الرابعة تقريباً، ثم انسحب بعدئذ، متجهاً، كما يفترض، إلى بيته. كان يسير ويديه في جيبي بنطاله محدودب الظهر مطأطىء الرأس.

عند الساعة ذاتها تقريباً

كان جسد «مارسيلو كارّانسا» عرياناً تستحيل معرفته، ملقى على أرض ممر مظلم. سأل من يُدعى بالبدين إن كان مايزال حياً. اقترب أحدهم منه، لكنه أشمأزّ ولم يلمسه لأنه كان مغطى بالبصاق والدم وبقايا القيء.

ـ وماذا؟

ركله على كليتيه، ولكنه لم يسمع أي شكوى.

فقال بحزم

ـ أنا أعتقد أنه انتهى

ـ حسناً ضعوه في الكيس.

أتوا بكيس من الخيش، وضعوه فيه، وربطوه بحبل، وذهبوا لشرب كأس من الخمر. ثم عادوا. أخذوا الكيس إلى السيارة ووضعوه في الصندوق، وساروا بإتجاه نهر «رباتشويلو» التفوا حوله حتى وصلوا إلى مكان حرق القمامة، حيث توقفوا. أخرجوا الكيس، وعندما وضعوه على الأرض، ظن أحدهم أنه لاحظ حركة. قال: «يبدو لي أنه مازال حياً..». قربوا مسامعهم وسمعوا حقاً، أو بدا لهم أنهم سمعوا أنيناً، ضرب من التمتمة. أخذوا الكيس حتى ضفة النهر. ربطوا به قطعاً كبيرة من الرصاص، وحملوه، وبعد عدة حركات إلى الأمام ثم إلى الخلف، طوحوا به إلى الماء. مكثوا برهة ينظرون إليه في حين قال أحدهم: «أنظر كم تطلب من شغل». استقلوا السيارة، وقال آخر إنه يطيب له أن يشرب كوباً من القهوة ويأكل شطيرة من اللحم.

ـ كم الساعة الآن؟

ـ لم تبلغ الخامسة بعد.

ـ حسناً. لنعد إذن، لم يحن وقت فتح المحلات بعد.

كان البيت الصغير يبدو بائساً أكثر من أي وقت مضى

وصرير الباب الحديدي الصدىء أشد وقعاً مما كان في أيام وحدة أخرى أخف وطأة. استقبله «ميلورد» بالإصرار الذي كان يستحيل أن يتخلّى عنه حين يبقى حبيساً لوحده في تلك الدار. نحاه «ناتشو» بقدمه وهو شارد، ثم استلقى على السرير. كان ينظر إلى السقف ويداه متشابكتان تحت رأسه. كان يود أن يسمع فرقة الـ «بيتلز» للمرة الأخيرة. نهض بعد لأي، ووضع الاسطوانة.

جوليا، جوليا، فتاة المحيط، تناديني

جوليا، عينا محارة بحر، ابتسامة عاصفة، تناديني

جوليا، صوت نائم، سحابة هادئة.

كان جالساً على الأرض مطأطىء الرأس، يشعر بأن عينيه قد انتفختا، حتى تناول الـ «بيك ـ أب» بضربة هائلة من قبضته فحطمه.

نهض، ثم خرج، وأخذ يسير في شارع «كوندي» باتجاه سكة القطار، يتبعه «ميلورد» خفية. عندما وصل إلى المعبر في شارع «مندوسا» توقف برهة، ولكنه سرعان ماتسلق الكومة القذرة، بين النفايات والأواني الصدئة، ثم جلس فوق العارضة بين قضيبي سكة القطار، ومن موقعه هنالك فوق، كانت عيناه الغائمتان تتبينان أول بشائر الصبح الخجولة، وقد أخذت تستقر بتواضع صامت كسحابة فوق زجاج نوافذ الأبراج المشيدة بين بقايا البيوت الصغيرة القديمة، أو فوق سطح بعيد تلك

النوافذ التي تفتح ببطء، وبضرب من الأمل المتجدد في البيت الذي حملوا إليه التابوت. وتمتم، جوليا جوليا فتاة المحيط، وهو ينتظر القطار، ويفكر بأمل مريع، لايمكن أن يتأخر. أحس في تلك اللحظة بلسان الكلب يلامس يده الممدودة، فأدرك أنه كان يتبعه من بعيد، صرخ بقوة، وبصوت كان مفعماً بالغضب الشديد: «دعني أيها الأحمق..» ثم ضربه. نظر إليه ميلورد» وهو يهمهم وعيناه تغصّان بالألم. وفيما كان «ناتشو» يتأمله، تذكر مقطعاً من كتاب بغيض: قدتكون الحرب خطأ وأمراً غير معقول، ولكن الفصيل الذي ينتمي إليه المرء، والأصدقاء الذين ينامون في الملجأ بينما هو يحرسهم، ذلك، مطلق «داركانخيلو» مثلاً، وربما كلب.

صرخ وهو يفكر بمؤلفه

ـ ابن ألف عاهرة..!

وتملكته نوبة جنون أشد من ذي قبل، قائد نحو ذلك الحيوان، وراح يركله بغضب حتى تهاوى فوق سكة القطار وهو يبكي.

عندما تمكن من أن ينظر إليه ثانية، كان واقفاً هناك، عجوز لافائدة ترجى منه.

قال له بما تبقى لديه من سورة غضبه، من ألسنة اللهب التي تقوم هنا أو هناك بعد الحرائق الكبرى:

ـ عد إلى البيت أيها الأحمق.

ولكن، بما أن الكلب لم يتحرك ومكث ينظر إليه بتينك العينين (ألماً..؟.. لوماً؟) فإن «ناتشو» أخذ يهدأ شيئاً فشيئاً، حتى طلب منه راجياً، بصبر موحش، وصوت خافت أن يذهب، وأن يدعه لوحده. كان صوته مفعماً بالحنان، وعلى الرغم من أنه لم يجرؤ فقد كان يود أن يقول له «سامحني

أيها العجوز..».

حينئذ هجر «ميلورد» ماكان يراوده من قلق، وحرك في نهاية المطاف ذيله، ليس بقوة ولا بفرح، وإنما ببقايا فرح قديم، كتلك الفُتاة التي تبقى على الأرض بعد الحفلة.

نزل «ناتشو» وحينما أصبح قريباً منه صفق له وتوسله أن يذهب. نظر إليه «ميلورد» برهة بشيء من عدم الثقة، ثم أخذ يبتعد ممتعضاً، يعرج، ويلقي، مابين حين وآخر، نظرة إلى الخلف.

عاد «ناتشو» يصعد بين أوراق قذرة وقمامة، وعاد أيضاً ليجلس على العارضة بين قضيبي سكة القطار، وأخذ ينظر من جديد، عبر عينيه الغاصتين بالدموع، الأشجار والمصباح الزئبقي، وشارع «كوندي»: أجزاء من واقع ليس له أي معنى، الجزاء الأخيرة التي يراها.

ثم اضطجع فوق سكة القطار، وأغمض عينيه لتنأى به الظلمة عن خيال الظلّ ذاك، فبدأت الجلبة الخفيفة تتسم بالوضوح حتى ظن أنه يسمع صوتاً، فكر أنه يكون صوت فأر. ومأأن فتح عينيه حتى أدرك أنه كان «ميلورد» بدا له أن عينيه المفعمتين بالألم تبتزانه، فعاوده الغضب وراح يضربه ويشتمه ويهدده، حتى هدأ ثانية، وقد هيمن عليه التعب والشعور بالهزيمة أمام الكلب، وعندئذ سمع ضجيج القطار فشرع ينزل ببط ويسير نحو البيت، يتبعه «ميلورد» من قرب.

دخل إلى الغرفة وأخذ يخرج ملابسه ويضعها في كيس. فتش في الصندوق الذي يحتوي كنز طفولته عن عدسة مكبرة، وشعار كان لـ «كارلوتشو» وكرتين من الزجاج، وبوصلة صغيرة ومغناطيس معدني. وتناول من الرف «الصياد الخفي» وانتزع من الحائط صورة فرقة الـ «بيتلز» عندما كانوا مايزالون متحدّين، وصورة طفل فيتنامي يركض

وحيداً في قرية تلتهما النيران. وضع كلّ ذلك في الكيس مع أوراقه المكتوبة. خرج إلى صحن الدار، وضع أشياءه على الدراجة، النارية، وربط الكلب فوق الكيس. وشغل محرك الدراجة، ولكن خطرت في ذهنه عندئذ فكرة. أوقف المحرك، ونزل، فك الحمل، وعندما أخرج ملف الأوراق، وضعه على الأرض وأضرم فيه النار، وراح ينظر كيف كان أولئك الباحثون، عن مطلقات جعلوها تعيش (وتتألم)، في صفحاتهم يتحولون إلى رماد، إلى الأبد كما ظن في تلك اللحظة.

كان قد بدأ يعد كلّ شيء حينما وصلت «أغوستينا»، ودخلت إلى غرفتها، صامتة، كمن يسير وهو نائم.

مكث شقيقها جالساً فوق الدراجة كالمشلول لايعرف مايتعين عليه أن يفعل. نزل وهو يفكر ملياً، ودخل ببطء إلى الغرفة. كانت «أغوستينا» مستلقية على السرير بملابسها، تنظر نحو السقف وهي تدخن.

اقترب «ناتشو» وتأملها طويلاً عابساً متجهماً، حتى صرخ في وجهها فجأة، «ياعاهرة» وكرر العبارة بغضب عدة مرات، وانقض عليها راكعاً فوق السرير وجسم شقيقته بين ساقيه، وأخذ يوجه اللكمات إلى وجهها بقبضتيه، دون أن تبدي هي أي محاولة للمقاومة، بل استسلمت جامدة مسترخية كدمية من قماش، مما زاد من سورة غضب شقيقها، فأخذ عندئذ ينزع ثيابها ويمزقها خانقاً. وعندما خلفها عريانة بدأ يبصق وهو يصرخ ويبكي: على وجهها أولاً، ثم ـ بعد أن فتح ساقيها ـ على فرجها، وأخيراً، ولما كانت هي لاتبدي أي مقاومة بل تنظر إليه وعيناها الغاصتان بالدموع مفتوحتان على مصراعيهما، تهاوت يداه وانهار فوق جسم شقيقته، وهو يبكي. ومكث هكذا طويلاً، حتى تمكن من أن ينهض، ثم خرج. شغّل محرك الدراجة وانطلق في شارع «مونروي». كان هدفه مايزال ملتبساً جداً.

يوم السادس من كانون الثاني/يناير ١٩٧٣

استيقظ «ناتاليسيو بارآغان» متأخراً جداً ورأسه محشو بحطام من زجاج ودبابيس. مكث ينظر إلى السقف طويلاً، ولكن بدون أن يراه. كان يحاول التفكير بأمر ما، ولكنه لم يكن يعرف بأي شيء كان يود أن يفكر. وكتلك الأنابيب التي يصيبها الصدأ بفعل الزمن والحموض، كان تفكيره يوشك أن يمر في أقنية ضيقة جداً، كرشح مياه طينية مملوءة بالتخثرات. وكان سينهض ليعد «ألماتي» حينما هبطت على ذاكرته فجأة كشعاع في ليلة حالكة مضطربة، ذكرى الرؤيا.

ضغط على رأسه بكلتا يديه ومكث طويلاً خائفاً يرتعد.

ثم نهض، وفيما كان يعد «الماتي» عاودته ذكرى الوحش الذي ينفث ناراً، على نحو أقوى وأشد رعباً، فألقى بالماتي على الأرض وخرج يجري في الشارع.

كان يوماً مشمساً سماؤه بالغة الصفاء. كانت الساعة حوالي الحادية عشرة، وفي أيام الأعياد يخرج الناس من مكان إلى آخر، مع أطفال يعرضون ألعابهم، أو يشربون «الماتي» ويتحدثون أمام الباب. حدق «بارّاغان» في وجوههم وحاول أن يصغي إلى أحاديثهم، ولكن لم تكن ملامحهم ولاكلماتهم تنطوي على أي شيء ذي مغزى: كانت كأحاديث أيّ يوم عيد في حي «لابوكا».

وقف في منعطف شارعي «براندسن» و«بيدررو دي مندوسا» ذاته، واستند إلى الجدار نفسه الذي استند إليه في الليلة الماضية، ونظر نحو السماء ذاتها بين السواري. كان يبدو له ضرباً من الكذب أن يرى تلك السماء الصافية بلا غيوم، ولاشيء آخر غير مألوف، بينما يسير الناس هناك لايبالون.

قرر أن يذهب إلى دكّان الحذّاء «نيقولا»، كان كعادته يشتغل، سواء أكان اليوم عيداً أم لا. تحدث وإيّاه قليلاً.. عن أي شيء؟.. لاشيء يتسم بالأهمية. ولكن كان من الواضح أنه لم يَرَ أي شيء غريب تلك الليلة، ولم يرو له أحد أنه رأى شيئاً.

وعند المساء، بعد أن باع الصحف التي يستلف ثمنها من «بيرلينخيري» ذهب إلى المقهى. كانوا يتحدثون عن إحتمالات الفوز في مباراة «بوكا» مع «راسينغ»، ولكنه مكث هو صامتاً كالأخرس، وكأس خمرة القصب أمامه على الخوان، كان ينتظر حلول الليل بخوف يداريه حذراً، ولكنه كان يتجلى (أمر غريب) بقشعريرة في بشرته كلها، وببرودة في بدنه ورجليه، على الرغم من أن اليوم كان يوم صيف.

تمشى قليلاً في تلك الأنحاء، ولكنه عاد في الليل إلى المقهى حتى ساعة الإغلاق: الثانية صباحاً. فبدأ عندئذ مسيرة الليلة السابقة نفسها، عَبَرَ شارع «الميرانتي براون» وتابع السير في شارع «برانسن» ووصل إلى رصيف المرفأ وهو ينظر بإهتمام نحو السماء. وعند منعطف شارعي «براندسن» و«بيدرودي مندوسا» استند إلى الجدار، الجدار ذاته، وأطبق جفنيه. كان قلبه يخفق بشدة، وكانت القشعريرة تسري في بشرته على نحو لايطاق، وكانت يداه تقطران عرقاً بارداً كالثلج.

قرر في نهاية المطاف أن يفتح عينيه وينظر إلى الأعلى. نعم، كان هناك تنين، ينفث ناراً من فتحات أنوفه، وعيونه تقطر دماً، ويكشف عن غضب صامت، ولهذا فقد كان مريعاً جداً: كأنما أحد يهددنا أثناء وحدتنا وبصمت مطلق، دون أن يتمكن إنساناً آخر من إدراك الخطر المريع.

طوف عينيه، وحين أوشك أن ينهار، التفت إلى الجدار. ومكث هكذا

زمناً طويلاً، حتى تمكن من أن يستجمع قواه، ليذهب بإتجاه النزل، وعيناه مثبتتان على رصيف الشارع.

عاودته في اليوم التالي، ظاهرة اليوم السابق الغريبة ذاته: كانوا يتحركون جميعاً من ناحية إلى أخرى كما لو لم يحدث أي شيء، كانوا يتحدثون عن الأمور نفسها (السياسية، وكرة القدم) ويكررون الدعابات ذاتها في مقهى «تشيتشين». وكان «بارّاغان» ينظر إليهم صامتاً مذهولاً، لايجروء على أن يقول ماكان في زمن آخر قد قاله. وعندما عاد إلى غرفته حرص على أن لاينظر نحو السماء.

وهكذا انقضت بضعة أيام، وفي كل مرة كان يشعر بتعاسة أشد وبؤس أبلغ، ويحس بأنه كان يرتكب فعلاً معيباً وضرباً من الخيانة أو الجبن، حتى خطف بصره في إحدى تلك الليالي عندما دخل إلى غرفته المظلمة، بريق كان يعرفه تماماً، رأى وسط البريق محيا المسيح ينظر إليه بمزيج من الشفقة والقسوة، كمن ينظر إلى طفل يحبه، وهو يراه يرتكب فعلاً شنيعاً. ثم اختفى بعد ذلك.

كان «ناتاليسيو بارّاغان» يعرف تمامً ماكان يأخذه عليه. فمنذ خمسة عشر عاماً مضت تجلّى له، وكان يبشّر في الشارع وفي مقهى تشتشين. كان قد أعلن أن النار ستطال «بوينس آيرس»، وكان الجميع يسخرون منه ويقولون له: «هات أيها المجنون، هات أرو ماقاله لك المسيح..». كان يروي لهم وكأس خمرة القصب بيده، ويقول، ستأتي أيام دم ونار، في حين يهدد بسبابته متوعداً من كانوا يضحكون ويدفعونه، وكان يقول إن العالم سوف يتطهر بالدم والنار. وحينما حصد الموت في تلك الأمسية من حزيران/ يونيو ١٩٥٥ آلاف العمال في ساحة «دي مايو» وقتلت زوجة «باراغان» ممزقة بالقنابل، وحينما أضاءت حرائق تلك الليلة سماء «بوينس آيرس» الرمادية، تذكر الجميع

المجنون «بارّاغان» الذي لم يعد منذ ذلك اليوم الحزين، ذلك الإنسان التافه الطيب نفسه: أصبح صامتاً، وعيناه تبدوان كأنهما تحتفظان بسرّ رهيب، وانكفأ على نفسه كأنه يعيش في كهف منعزل: كان هناك في أعماق نفسه من يقول له إن ذلك لم يكن شيئاً يذكر، وأن أحزاناً أكثر وأكبر لابد أن تنفجر في يوم ليس ببعيد، لتطال الناس، كلّ الناس. ولذلك كان يمكث صامتاً، بينما الفتيان الجدد الذين كان يتوارث بعضهم عن البعض الآخر عادة السخرية من «بارّاغان»، كانوا الآن يلوذون بالصمت حين يدخل.

لم يعد يعظ، أصبح متجهماً منعزلاً.

ولكن عندما تجلى له التنين عرف أن الأيام آتية أنه يتعين عليه أن يقوم بواجبه.

ولذلك فإن المسيح كان يعرف ماذا يعني بتلك النظرة التي تعبر عن الشفقة والحزن الشديد. نعم لقد كان مذنباً، كان يعيش على الحسنات ويبيع الصحف التي يستلف ثمنها من «بيرلينخيري» وكان مجرد صعلوك، بل وأكثر من ذلك، فإنه كان يحتفظ بسر الرؤيا.

فكر في ذلك اليوم عند المساء، وهو على رصيف المرفأ طويلاً، ثم دخل إلى المقهى وطلب كأس خمرة القصب، والتفت حيث كان «لويا كونو» و«بيرلينخيري» والمشوه «اوليفاري» والأعرج «أكونيا» وقال:

أيها الفتيان، لقد تجلى لي المسيح ليلة أمس.

كانوا يتحدثون عن مباراة فريق «راسينغ» فخيّم صمت كصمت الأموات. توقف الفتيان عن لعب «البليارد» وحملقوا إليه جميعهم باهتمام، فقال:

- ولكن قبل ذلك، عند الفجر رأيت من منعطف شارعي «بارندسن» و«بيدرو دي مندوسا» شيئاً آخر.

نظروا إليه جميعاً، فقال «بارّاغان» بصوت يرتعد:

- في السماء، من تلك الناحية، كان يغطي نصف القبة السماوية وذيله يصل حتى الأرض. توقف، ربما كان خائفاً أو خجلاً، ثم قال بصوت خافت:

- تنين أحمر ذو سبعة رؤوس، كان ينفث من فتحات أنوفه ناراً.

خيم صمت طويل، ثم أضاف «ناتاليسيو بارّاغان» بعد ذلك يقول:

- لأن الأيام قريبة، وذلك التنين يبشر بالدم، ولن يبقى حجر فوق حجر. وبعد ذلك سيقيد التنين بالأصفاد.

جرذ ذو أجنحة

راقب «ساباتو» بدون أن يتمكن من فعل أي شيء، كيف أخذت رجلاه تتحولان إلى رجليّ وطواط (ولم الصياح؟ كي يقوم الناس حين يصل بقتله بالعصي اشمئزازاً؟)، لم يكن يشعر بألم، ولابتلك الدغدغة التي يمكن أن تنجم عن تقلص وجفاف الرجلين. ولكن ضرباً من الإشمئزاز كان ينتابه بقدر ماكان التحول يشق طريقه: في القدمين أولاً، ثم الساقين، ثم، شيئاً فشيئاً، الجذع: وبلغ اشمئزازه أشده حين تشكل جناحاه، ولعل ذلك يعود إلى أنهما كانا من لحم فقط. وبلاريش. ثم، أخيراً، الرأس. حتى تلك اللحظة كان يتابع التطور بناظريه وعلى الرغم من أنه لم يكن يجروء على أن يلمس بيديه اللتين كانتا ماتزالان يدي بشر، أيّ جزء من الوطواط، إلاّ أنه لم يستطع إلا أن يرى بذهول مريع، مخالب الجرذ الضخمة، والجلد المجعد كأنه جلد مخلوق عمره ألف سنة، فيما بعد،

كان أشد ماأثار دهشته، كما قال، نمو الأجنحة الغضروفية الضخمة. ولكن، عندما وصلت العملية إلى الرأس، وبدأ يشعر كيف استطال أنفه وكيف كان الشعر الطويل ينمو على الأنف ذي الحاسة الجبارة، بالغ ذعره حدّاً لايوصف. مكث كالمشلول في السرير بعض الوقت، حيث فاجأته عملية التحول. حاول أن يحافظ على هدوئه ويرسم خطة. كان أحد أهداف الخطة أن يلوذ بالصمت، فالصياح لن يؤدي إلاّ إلى حضور أناس كانوا سيقتلونه بقضبان حديدية بلا رحمة. نعم، كان هنالك أمل ضئيل في أن يفهموا أن تلك الكتلة القذرة الحية كانت هو نفسه، ذلك لأنه ليس منطقياً أن تكون قد حلّت محلّه على نحو لاتفسير له.

كانت الأفكار تفور في راسه، رأس الجرذ.

استوى أخيراً، وحاول وهو جالس أن يهدىء من روعه، ويتناول الأمور كما كانت. وبكثير من الحذر، كما لو كان أمام جسم غريب ليس جسمه (وكما لو كان الأمر على نحو ماكذلك) تحرك ليجلس في الوضع الذي يتخذه الإنسان عادة لكي ينهض من السرير: يعني أنه اضطجع على جانبه وترك رجليه تمتدان نحو الأرض. فأدرك حينئذ أن ساقيه لاتصلان إلى الآرض. فكر أن تقلص العظام أدى إلى أن تصبح قامته أقصر، ولكن ليس على نحو بالغ، وهذا مايفسر تجعد الجلد كثيراً. قدر أن قامته يمكن أن تصل إلى متر وعشرين سانتيمتر تقريباً. نهض وتأمل المرآة ملياً.

مكث طويلاً لايتحرك. كان قد فقد رباطة جأشه، وهاهو الآن يبكي بصمت من شدة الرعب.

يحتفظ بعض الناس في بيوتهم بفئران، كالمختصين بالتشريح من أمثال الدكتور «هوساي»، ممن يجرون تجاربهم على تلك المخلوقات

المثيرة للإشمئزاز، ولكنه هو، كان دائماً من أولئك الذين يشعرون بإشمئزاز لايقهر لمجرد رؤية فأرة. ويمكن إذن، تصور ماكان يشعر به أمام جرذ طوله متر وربع، بالجناحين الغضروفيين الهائلين، والجلد المتجعد المنفّر لتلك الحيوانات الفظيعة. وهو في داخله..!

كان بصره قد أخذ يضعف، واقتنع فجأة أن ذلك الضعف لم يكن ظاهرة عابرة، وليس نتيجة انفعاله، بل إنه سيزداد شيئاً فشيئاً حتى يبلغ العمى المطلق. هكذا كان: فبعد ثوان - وإن بدت تلك الثواني قروناً من الكوارث والكوابيس - بلغت عيناه درجة العمى المطلق. مكث مشلولاً. وإن كان يشعر بقلبه ينبض بشدة وجلده ينتفض من البرد. ثم اقترب شيئاً فشيئاً يتلمس طريقه إلى السرير، وجلس على حافته.

مكث هكذا بعض الوقت، حتى وجد نفسه لايقوى على المقاومة، بل يطلق فجأة صرخة مدوية ومريعة، يطلب النجدة ناسياً خطته وماتخذه من احتياطات معقولة. ولكن لم تكن صرخته صرخة إنسان وإنما زعيق جرذ هائل مجنح غريب يثير الإشمئزاز. أتى الناس، وكان ذلك أمراً طبيعياً، ولكن لم تبدر أي بادرة استغراب. سألوه ماذا جرى له، وإن كان يشعر بأنه ليس على مايرام، وإن كان يرغب بكوب من الشاي.

لم يدركوا أنه تحول. كان ذلك واضحاً.

لم يجب، لم يفه بأي كلمة. فكر بأنه لو تكلم فلن يجني شيئاً، بل سيجعلهم يظنون أنه مجنون. وقرر أن يحاول البقاء حياً بأية وسيلة كانت، ويحتفظ بسره، رغم الظروف المريعة.

لأن الرغبة في الحياة: لاتحدها شروط، ولاترتوي أبداً.

كلمتان لم يكن «برونو» يودّ أن يفكر فيهما معاً أبداً. وكما لو أنه بذلك السحر الساذج يمكن أن يوقف الزمن. السحر الذي كان ينزع إليه، بقدر ما كانت السنون تمضي، وبقدر ماكانت تجرّ ـ كهبّات ريح آب/ أغسطس الباردة حين تدفع الأوراق الجافة والمضعضعة ـ ماكان يودّ هو أن يحتفظ به إلى الأبد.

سار على غير هدى، لكنه سرعان ماوجد أنه يمشي في شارع «ريوكوارتو» حتى رأى البرج الزهري منتصباً أمام أفق سماء خريف رمادية: ليس الخريف الكئيب وحسب وإنما الحزين الغامض مثل «اليخاندرا» و«فرناندو». ذكّرته دار آل «أولموس» بذلك السيد الغريب «فالديمار»[1] وقد أوقفه المنوم المغناطيسي على حافة الموت، بأحشائه وآلاف الديدان تنتظر، حتى صدور همسة من شبه الجثة ترجو من عتبه الباب المشؤوم، بفارغ الصبر، وبحق السماء أن يسمح له بأن ينتهي مرة واحدة. وحينئذ، عندما يحطم الساحر الرُقية وينهار الجسم نحو الموت والتفسخ الآني، لينطلق قطيع الديدان كجيش من كائنات فظيعة ودقيقة لكنها مسعورة لاترتوي ولاتشبع.

كانت المداخن الضخمة وجسور «رياتشويلو» تتناقض مع تلك الدارة التي تنتمي إلى عصر آخر، مثلما يتناقض الواقع الصارخ مع الخيالات المبهمة، ولكن، إن كان ذلك واقعاً. فما الذي كانت تعني إذن تلك الدارة الكالحة المهدمة؟ ثم، ماذا كان هو نفسه وقد انقبضت روحه واستغرق يفكر ملياً في كلح تلك الجدران الوردية الخضراء؟ إبن، حفيد، حفيد حفيد بحارة ومحاربين قساة. أكان شبحاً مثل «دون بانشو أولموس» ومثل الـ «بيبي» بالكلارينيت التافهة، ومثل «اسكولاستيكا» برأسها

---

(١) شخصية إحدى قصص الكاتب الأمريكي ادغار آلين بو (المترجم)

الذي لم يتخط تفكير أسلافها؟ لماذا ـ إن لم يكن الأمر كذلك ـ كان يشعر على ذلك النحو بنهاية تلك الدارة الكئيبة، ونهاية سكانها الغامضين؟ لماذا كان في ذلك الخريف في «بوينس آيرس» يشعر هو أيضاً أن زمن شوارع موحشة وأوراقاً جافة يقترب؟ كان يرى وجوده الآن كله، كرحلة خاطفة نحو العدم. «سانت ـ اكسوبري»، أجل، لقد شجع «مارتين»، وآخرين غيره من بائسين وتائهين في خضم الفوضى والظلام. ولكن، هو نفسه:؟

والده والده

مرة أخرى، ومن يدري كم مرة أخرى أيضاً سيعود ليقول «بابا يموت. نيقولاس». ولكنه كان يعرف إنه لم يكن يعني «نيقولاس»، وإنما اخوتك، ففي ذلك النظام الصارم، يتعين على الصغير أن يطيع الكبير بلا قيد أو شرط، وهكذا فإن «نيقولاس» كان يعني تراتبياً واقتصادياً: نيقولاس ـ سيباستيان ـ خوانشو ـ فيليبي ـ بارتولومي ـ ليليو. كما كان ينطوي أيضاً على توبيخ ضمني يقول، إنه كان من الضروري إعلامك بذلك ـ والبحث عنك بعيداً، لأنك كنت غريباً دائماً عن بيتنا وعن مصيرنا، وأنت تعرف أن والدنا لم يساوره العزاء قط، وهو ينتظر الآن عودتك قبل فوات الأوان. على الرغم من أن أحداً، سواء في البرقية أو في أيّ محادثة أخرى، لم يقل كلمة واحدة تتصل بتلك المشاعر، تمشياً مع القانون الذي كان يأمر بإخفاء العواطف العميقة. ولذلك فإنهم عندما كانوا يلتقون أناساً آخرين اعتادوا على نظام أخف وطأة، كانوا يظهرون سطحيين في عواطفهم، لأنهم كانوا لايعبرون بصراحة إلاّ عن الإنفعالات التي يربطون بينها وبين وقائع ليست بذات أهمية. وهكذا، بينما كان بوسعهم التعبير بعبارات طويلة عن حزنهم لسقوط البَرَد أو إنتشار الجراد الذي يؤدي إلى الإضرار بمحصول أحد الأصدقاء، فإنه كان

يبدو لهم أمراً ذا وقع حسن، التعبير عن الأسى لوفاة أحد الأبناء. وكان العجوز «باسّان» بوجهه قاسي القسمات يقول في مثل تلك الحالات، كعادته، «إنه القدر». وهو تعبير لم يسمعه أحد قط يأتي على ذكره حين يتعلق الأمر بفقدان محصول، وكما لو أن تلك القوى الكبرى الجبارة التي تعمل بإسم ذلك «القدر» يجب ألا نستنجد بها عبثاً، أو من أجل صغائر الأمور.

بعد خمسة وعشرين عاماً، الأشياء والناس

كلهم كانوا سواء، وكلّ شيء، كان مختلفاً، لأن ذلك القطار البسيط بقيت عرباته ذاتها، والسكة ذاتها، والأبنية ذاتها، واللون ذاته، استهلك أكثر وشاخ أكثر، ولكنه لم يستهلك أو يشيخ كالناس الذين عاشوا وعانوا في الفترة ذاتها. ذلك لأن الكائنات البشرية ـ فكر ـ تبلى أكثر من الأشياء وتختفي أسرع. ولذلك فإن مقعداً هزازاً بسيطاً بقي محفوظاً في العليّة يذكّر بموت الأم التي كانت تستخدمه. ولكن، بنوع من تأثر أبله، لأن آنية خزفية ـ أياً كانت شهدت حباً عظيماً، وتلألأت موارة بالألق الجبار الذي يضفيه الهوى على الأشياء البسيطة التي كانت شواهده والتي تصر بالعناد الأخرق الذي تصرّ به الأشياء على البقاء، تعود بعدئذ إلى التفاهة لأنها من طبيعتها: كئيبة، حمقاء وكتزيينات خشبة المسرح، بعد أن يكون سحر المسرحية وسحر الكواليس قد انتهى.

أجل، مازالت تلك العربات هي نفسها، ولكن الناس هم الذين تغيروا، أو إختفوا، وبصورة خاصة فإنني أنا مختلف.

كوارث عديدة كبرى قد دفنت في روحه وتراكمت كمدينة فوق أخرى مثلما دفنت الأرض والحرائق والجائحات مدن طروادة التسع. وعلى الرغم من أن الذين كانوا يقيمون فوق الأنقاض القديمة، يبدون كأنهم

يعيشون كالجميع، فقد كان يسمع من تحت أحياناً همسات خافتة، أو يعثر على بقايا عظام وأنقاض قصور كانت في يوم ما شامخة، أو إشاعات أو أساطير حب فانية.

وبقد ما كان ينأى عن «بوينس ايرس»، كانت المحطات تبدو أقرب إلى بنيان محطة «لابامبا». كمشروعات الرسوم المتتالية لرسام يبحث عن الهاجس الذي يتخبط في أعماق ذاته:

متجر جدرانه من اللبن الخام على الجانب الآخر من شارع ترابي، عمال بالسراويل والقبعات السوداء ينكشون أسنانهم بقش جاف وهم يفكرون، عربة، خيول مربوطة أمام متجر القرية، مستودعات من التوتياء، عربة خيل ذات غطاء أسود، مساعد ناظر المحطة يرتدي كمي قميص، ويده اليمنى ممسكة بسلسلة جرس المحطة.

حتى بدت، في نهاية المطاف، محطة «سانتا آنا»، فأثارت طفولته بقوة جامحة، لأن ذلك الموضع في مزرعة «سانتا بريخيدا» كان آلي «أولموس» وكانت «خورخينا» خلف ذلك الخادم البدين الأمهق الذي يضحك دائماً ويقول، ولكن ياله من أمر، أليس كذلك؟ ويضرب بكف يده على سروال ركوب الخيل، ويومىء برأسه الأصلع؛ رجل ليس له أيّ مزية، لكنه دام في ذاكرته، لالشيء إلاّ لأنه رأى خلفه، قرب امرأة تدعى «سانتاريتا»، لأول مرة في حياته «خورخينا»، خجولة نحيلة بشعرها المخضب بالحمرة. أجل، كانت تلك الحقول قد ارتبطت بالأشخاص الذين كانت لهم أهمية بالغة في حياته، على الرغم من أنه كاد لايبقى الآن من «سانتابريخيدا» سوى بقايا، وعلى الرغم من أن تلك الستمائة هكتار التي كانت تتقلص في أثام طفولته لم تعد ملك آل «أولموس» ولا «باردوس» وإنما ملك أناس مجهولين غرباء لايبالون بمصير أولئك الناس. تلك الحقول التي قضت فيها غارات الهنود على «بريخيدا» الصغيرة، تلك

السهول التي جابتها في أيام أخرى خيول «الكابيتان أولموس»، والتي خرج منها كي لايعود أبداً، هو وولديه «سيليدونيو» و«بانشيتو» عندما التحقوا بجيش «لاقاجي» أصبحت الآن بعيدة عن دمه وعن مصيره، كشوارع «بوينس آيرس» التي تحمل أحياناً أسماء أسلافه، ولكن يجوبها بشر على عجالة من أمرهم ولايبالون، أتوا من مختلف أصقاع العالم ليجمعوا ثروة، كانوا في كثير من الحالات يعتبرون أن حياتهم هنا أشبه ما تكون بإقامة عابرة في فندق.

لقد بدأ القطار الآن هبوطه، راسماً خط الإنعطاف نحو الغرب بعد أن خلّف وراءه حرش «سانتا آنا»، وسرعان ماسيظهر برج الكنيسة، وبعد ذلك بقليل المطحنة: صوامع مطحنة «باسّان» وبيته وطفولته. وحينما وصل، في نهاية المطاف إلى «كابيتان أولوس» وجدها كما كانت، وشعر بأنه كان في تلك السنوات العديدة يعيش في ضرب من الأوهام، في خيال ظلّ باطل، لاوزن له ولاقوام، وأن الوقائع التي كان يعتقد أنه شهدها قد تلاشت مثلما تتلاشى - حين تصحو - حيوية الأحلام وقوتها وتتحول إلى أجزاء خيال ظلّ ملتبسة لتصبح بعد كلّ ثانية تمضي وهماً من الأوهام ولقد كان ذلك الشعور يحمله على التفكير بأن الأمر الحقيقي فعلاً كان طفولته، إن كان الحقيقي هو مايبقى مطابقاً لذاته: جزءاً من الخلود. وهكذا، لما كانت الحياة اليومية، تصبح حين نستيقظ، مشوبة بالعيوب، ولانعود من كنّا قبل الأحلام، فإن العودة إلى الطفولة تصبح مشوبة بالحزن والآلام التي عشناها. وإن كانت الطفولة هي الخلود، فإن ذلك يحول دون أن نراها كما يجب أن ترى: نقية وشفافة، بل عبر زجاج قذر، معكرة وملتبسة، وكما لو أن النوافذ التي يتاح لنا في بعض اللحظات الإطلال منها على خلودنا لها زجاج أخذ يؤثر فيه مرور السنين، فاتسخ بفعل العواصف والزوابع وطين وعنكبوت الزمن.

وكمن ينظر من الظلمة نحو مكان منير، بدأ يتعرف وجوها لاتتعرفه: «ايرينيو ديّاس» بعربته ذات الغطاء الأسود نفسها، لكنها اهترأت وكمد لونها، السمسار «بنغونا» ينتظر كعادته وصول القطار، ثم العجوز «ميدينا» الجالس كصنم. لقد كان عجوزاً حين كان هو طفلاً، وبقي كما يبدو، في موقعه نفسه مثلما رآه آخر مرة منذ خمسة وثلاثين عاماً: يفكر رابط الجأش، لجميع الهنود، لايلحق بهم أي تغيير بعد سن معينة، كما لو أن الزمن يمر بجانبهم وليس بهم، وينظرون كيف يمضي وهم يدخنون السيكار الهندي ذاته. كان صامتاً بجلال غامض، كصنم أمريكي، وكما لو أنه ينظر إلى نهر يجرف مجرد أشياء تافهة.

ألم تعرفني

رفع العجوز ناظريه ببطء. وشعر «برونو» أن عينيه الصغيرتين الغارقتين بين عظام محجرية تحف بهما غضون وسط قناع من رق مخيف، كانتا تتفحصانه بهدوء وثقة. كان «مدينا» الذي أَلِفَ رؤية العالم بإهتمام، ولاهم له سوى مراقبته، والاحتفاظ بتفاصيله الدقيقة في نفسه (على نحو من صمت ساخر خفي)، ينتمي إلى ذلك الجيل من أدِلاَّء سهول «لابامبا» الذين كانوا يميزون في تلك السهول الموحشة، أثر حافز حصان من بين آلاف وكان بوسعهم إرشاد جيش بمجرد طعم عينيه، ومثلما تبقى الخطوط العامة بعد أن يمحي وجه مرسوم بقلم الرصاص لأنها هي الخطوط الأكثر اتقاناً، فقد أخذت تتكشف أمام عينيه ملامح «برونو» الطفولية، وعندئذ، صعدت قناعة حازمة لاتلين من أعماق ذاكرة «مدينا» المبهمة، وشقت طريقها عبر خمسة وثلاثين عاماً من الغياب والأمطار والموت والأعاصير والأحداث، لتجعل شفتيه تتحركان على نحو يكاد لايرى، بينما بقيت تقاطيع وجهه جامدة لاتتحرك كي تحول دون استشفاف أية عاطفة أو مشاعر، إن كان يوجد في قلب

ذلك الرجل أي أثر لعاطفة أو مشاعر:

- أنت برونو باسّان

ثم عاد إلى جموده، لاتتحرك أحاسيسه أمام الأحداث البسيطة التي تجري في العالم، بعيداً عن عاطفة وإنفعال ذلك الإنسان الذي لم يعد كما كان من قبل طفلاً بل أصبح الآن رجلاً.

سار في الشوارع الترابية، وعبر الساحة بين أشجار الآكاسيا والنخيل ثم رأى في نهاية المطاف المطحنة، وسمع وقع آلاتها الرتيب. رمز مريع:مسيرة الأشياء اللامبالية، وفي خضمها يحتضر الإنسان الذي أنشأها بحب وأمل.

موت «ماركو باسّان»

- قال خوانشو:

- إنه ينام الآن

سمع لأول مرة، وسط العتمة، تلك الحشرجة الخرساء والتنفس القلق المتقطع. وعندما أخذ يألف شيئاً فشيئاً تلك الظلمة، لمح ما كان قد تبقى: كومة من عظام في كيس من لحم معتّل متعفن.

- أجل، تكاد الرائحة لاتطاق ولكنك سوف تألف ذلك.

نظر «برونو» إلى أخيه. كان معبوده عندما كان هو، برونو، طفلاً: بقبعته المستطيلة، ومنكبيه العريضين على تلك الفرس الرقشاء بذيلها الطويل. وحينما ذهب، قال والده «لن يدخل هذه الدار أبداً» وكما لو أنه يدلل عدم ثبات ذلك النوع من الكلمات أمام قوة رابطة القربى والدم. لم يكن «خوانشو» قد عاد وحسب، إنما هو الذي يعتني الآن بأبيه ليلاً

ونهاراً.

تمتم، بعد أن صحا من حلم المخدر الذي كان لابدّ أن يختلف عن أحلامه القديمة، مثلما يختلف مستنقع قذر يغص بالبهائم المفترسة عن بحيرة رائعة تزورها الطيور.

ـ ماء ياخوانشو

رفعه بذراعيه قليلاً وسقاه بملعقة كاالأطفال.

ـ لقد أتى «برونو»

فتمتم بلسانه الذي كان كخرقة بالية.

ـ إيه، كيف؟

ـ برونو، لقد عاد «برونو».

ـ إيه، كيف؟

نظر إلى الأمام بكلّ وجهه كأنه أمى

فتح «خوانشو» ستار النافذة قليلاً، فرأى «برونو» حينئذ مابقي حياً من ذاك الرجل القوي الجبار. بدا أن عينيه الغارقتين في محجريهما ككرتين زجاجيتين خضراوين متصدعتين وقائمتين، تومضان ببريق ضئيل، كلهب ضعيف تغذيه جذوة صغيرة.

ثم تمتم أخيراً

ـ برونو

اقترب «برونو»، وانحنى محاولاً أن يعانقه، فشعر بالرائحة الفظيعة.

تمتم على نحو متقطع كأنه ثمل

- ها أنت ترى يا «برونو»، إنني حطام

كان صراعاً استغرق أياماً عديدة، قاوم أثناءه بالقوة ذاتها التي واجه بها كلّ العقبات. أن يموت، ذلك كان يعني أن يخرّ مهزوماً، ولم يكن قد أقر بالهزيمة من قبل قط. كان «برونو» يقول إنه من طينة أولئك الذين شيدوا مدينتهم، البندقية، يصارعون ضد الماء والوباء، ضد القراصنة والجوع. كان مايزال يحتفظ بالصورة الصارمة لوجهه «خاكوبو سورانزو» الذي رسمه «تينتو ريتو»

كان يتساءل إذا ماكان ضرباً من الدناءة والجبن، خروجه ليتسلى، ويجوب شوارع القرية، بدلاً من أن يبقى مع والده يشم رائحته في كلّ حين، ويعتني به مثل «خوانشو». ثم، كان يقول في دخيلته بجبن، وعبر أجزاء من أفكار لم تجروء على أن تتجمع سوياً، ليس في نسيان الرعب أي عيب، ولكنه سرعان ماكان يفكر بأن خروجه، في جميع الأحوال، هو ضرب من الخيانة، على الرغم من أن والده لن يعاني قليلاً أو كثيرً، فهو غائب عن الوعي لايتذكر شيئاً. وكان حينئذ يعود إلى بيته خجلاً، ليقدم قسطاً من التضامن، بعض الوقت، في حين كان «خوانشو» يتابع من مقعده الحشرجة ذاتها، يساعده ويستمع إلى هذيانه الطويل غير المعقول.

صاح فجأة:

- خوانشو، لقد أضرموا النار بالسرير.

وكان يشير وهو شبه جالس، إلى ألسنة اللهب قائلاً:

- هناك من ناحية القدمين.

كان ابنه يخفف مسرعاً ويطفيء الحريق مستخدماً يديه، بتلك المبالغة التي يلجأ إليها الممثلون الإيمائيون عندما يتعين عليهم جعل الآخرين يفهمون بالإشارات فقط. فكان عندئذٍ يطمئن بعض الوقت.

ثم كان السرير ينكسر، ويجب تدعيمه. كان «خوانشو» يأتي بالخشب، ويستلقي على الأرض يدعم السرير. وكان أيضاً يبتعد عن المخدة مذعوراً، يشير بسبابته إلى أناس، ويتهمهم بالجبن، ويضيف كلاماً غير مفهوم. وكان «خوانشو» ينهض، وينهر الدخلاء بصوت عال، ويدفعهم ويطردهم.

كان العجوز يتمتم فجأة بصوت خافت كما لو أنه يروي له سرّاً:

- خوانشو

وكان الابن يقترب ويضع أذنه قرب فم أبيه الذي تخرج منه الرائحة الكريهة، وكان الأب يهمس في أذنه.

- لقد دخل لصوص، إنهم مقنعون كالجرذان، ولقد اختبأوا الآن في خزانة الملابس، «غافينيا» هو الرئيس. أتتذكر؟ ذلك الذي كان رئيس مخفر الشرطة أثناء حكم المحافظين لصّ، وغد. يعتقد أنني لم أعرفه وهو مقنع كالجرذ.

كان يستعرض وجوهاً ومعارف قديمة، وكانت ذاكرته قد عادت حية ومضحكة بآن واحد، لكنها مشوهة جدّاً بسبب الهذيان والمورفين.

- و «دون خوان»..! من كان بوسعه أن يقول إن الأمر سينهي به إلى أن يصبح أجيراً..! برغم الثروة التي استطاع أن يجمعها..!

كان يشير إليه، ويومىء برأسه ويضحك بشيء من خيبة الأمل

الساخرة، كما لو أنه يودّ ألا يصدق. وكان ابنه يبحث بنظرته.

ـ هناك، يَحُسّ الحصان.

وكان «خوانشو» يقول

ـ آه،

ـ أرأيت؟ «دون خوان أو ديفرد». من كان بوسعه أن يقول..

كان يروي القصة بشكل طبيعي خلال برهة طويلة، لأنه كان من ناحية، يرى أهوالاً وأشباحاً، وكان من ناحية أخرى يتصرف بتعقل ويتحدث مع أناس ماتوا منذ عشرين سنة مضت، بالشكل الطبيعي الذي يقول فيه بعدئذ إن حنجرته قد جفّت ويحتاج إلى قليل من الماء.

عندما كان «برونو» يعود من الشارع، كان شقيقه يروي له وهو يضحك، ماحدث مع والده بذلك المزيج من الحنو والبساطة الذي يروي به الأب تصورات طفله، ولكن كان الهذيان يبدأ وكان خوانشو يعود إلى حركات التمثيل الإيمائي السحرية، في حين كان برونو ينسلّ إلى الممر حيث كان إخوته يتحدثون عن محاصيل، ومبيع وشراء حقول وحيوانات. كان «برونو» يصغي إليهم، ويود أن يدخل إلى ذلك المجتمع، فيتذكر حين كان صغيراً أنهم كانوا يوكلون إليه كيل القمح بالمكيال. كان إخوته يحملقون إليه، وكان يذكر أسماء: فافوريتو، بارليتا[1]، فينكر إخوته بإباء: منذ مايزيد على عشرين حولاً لم تكن موجودة. وكان أحدهم يتوقف عن التدخين، ويذهب لبرهة إلى غرفة نوم الوالد، ليقوم بواجبه، كي يعود حزيناً.

ـ و «دون سييرا»

---

(١) من أصناف القمح التي كانت تزرع في الأرجنتين حوالي العام ١٩٢٤ (المترجم)

كانوا ينظرون إليه بسخرية وجحود.

ماذا.

كان يتذكر.

كان الكبار يحتكرون بعض الذكريات، وكانوا لايقبلون أبداً أن يشارك الصغار بها، و«برونو» بخاصة، ولكن أجل، طبعاً، كان يتذكره: بديناً بطيناً بتينك الأذنين الهائلتين اللتين ينبت عليهما شعر طويل أبيض.

لم يكن يكفي. نظر بعضهم إلى البعض الآخر في مشاورة صمتة، وحملق «نيقولاس» إليه بقسوة طويلاً، كأستاذ يفحص تلميذه، وطلب إليه أن يذكر الصفة المميزة لـ «دون سييرا».

فأصروا بقولهم. هكذا.

فكر «برونو» بقلق. كانوا ينظرون إليه بدهاء القرويين؛ الصفة المميزة لـ «دون سييرا». لاأكثر من ذلك، هذا ماكانوا يودون معرفته. كان الصمت مطبقاً، وكان «برونو» ينقب في ذاكرته بفارغ الصبر.

الساعة ذات الأغطية الثلاثة؟

لا ياسيد

كان يراه بوضوح آتياً بعربته، ينزل والسوط وحزامه مشدود تحت بطنه الضخم يرتدي قميصاً، يتعرق، ويحتقن وجهه، وقبعته السوداء مرتدة نحو رقبته، ينتعل حذاء من قشر القنب موشى، وملوثاً بالروث.

هل يستسلم للهزيمة؟

لم يكن يعرف. إن لم تكن الساعة ذات الأغطية الثلاثة، لم يكن يعرف.

قالوا بازدراء

ـ الساعة ذات الأغطية الثلاثة...!

ـ وما هي؟

شعر «برونو» بأنهم كانوا ببساطة، قد نصبوا له شريكاً.

وماذا

تلك المأثرة المميزة الشهيرة.

نظر الكبار بعضهم إلى البعض الآخر: خاصة أخرى من خواص اللعبة أن يدعوا الشكوك تعشش في نفس المفحوص. كان «برونو» يتأمل ملياً أولئك الرجال الكبار، ذوي المناكب العريضة والشعر الأبيض، منتظراً صدور حكم، بدون أن يدرك كلّ ماكان ينطوي عليه من لامعقولية.

أصدر الكبير الحكم بوقار: تضليل الانكليزي «أو دونيل».

ـ تضليل الانكليزي «أو دونيل»؟

بالغ «برونو» باستغرابه، كي لايستسلم نهائياً للهزيمة. كما لو أنه في حال وجود تلك الصفة فعلاً، فإنها، مع ذلك، ليست أمراً جوهرياً، يسمو إلى مصاف المأثرة المميزة في قانون «آل باسّان».

نظر «نيقولاس» إلى رفاقه: أكان بوسع أحد تصور العجوز «سييرا» لايكذب على الإنكليزي «أو دونيل»؟. فأكدوا. فأكدوا، أبداً، أبداً.

ـ انكم تقدمون لي مجرد دعابة.

حاول «برونو» أن يكتشف بريق سوء في عيونهم.

التفت «نيقولاس» نحو «ماركو» الأصغر (خمسة وأربعون عاماً) وأمره بقوله:

- إن كان الوالد نائماً، فليأت «خوانشو».

ارتاب «برونو» فقال:

لحظة.

رافق «ماركو». كان يخشى أن يطلعوه على ماجرى. كان التعب يبدو على «خوانشو»، بعد أيام من النعاس والعذاب.

قال نيقولاس:

- أنت لم تسمع، قل لهذا ماهي المأثرة المميزة التي كان يعرف بها «دون سييرا»

- رواية أكاذيب للانكليزي «أو دونيل».

عاد «ماركو».

- لقد صحا، يريد ماء.

ذهب «خوانشو»، وعادت الحقيقة التي كان يحتفظ بها بصمت تحت الذكريات الغضة - كالحرب الدائمة أثناء البرهة القصيرة الحلوة التي يقوم فيها الجندي بقراءة الرسائل وفضّ الغلاف عن الأشياء الصغيرة - لتنبثق بقسوة. صمتوا، ودخنوا بصمت طيلة برهة. كانت تسمع أنات، كان «نيقولاس» ينظر إلى الخارج ويفكر. بماذا كان يفكر ياترى؟

خرج «برونو» إلى الشارع.

كان كلّ شيء، بدءاً من إسم القرية، مرتبطاً بالناس الذين كان لهم وزن في حياته:

«أنا ماريا أولموس»، إبنها «فرناندو»، «خورخينا». وعلى الرغم من أنه كان يود أن يذهب إلى الدار القديمة التي كانت أصل تلك القرية، كان شيء ما يمنعه، فكان لايهتدي إلاّ إلى اللفوالدوران قريباً منها. كانت الأسماء في الشوارع الترابية توقظ ذكرياته: متجر «سالومون»، دكان الحذّاء «ليبوناتّي»، منزل الدكتور «فيغروا»، جميعة صاحب الجلالة «فيتّوريوعمانويل» للمعونة المتبادلة.

ولكن ذكريات الطفولة كانت تحضر «برونو» دائماً كوقائع غير مترابطة، ولهذا ليست حقيقة، لأنه كان يتصور الحقيقة متدفقة وحيّة، كنسيج ينبض، في حين كانت تلك الذكريات تبدو كأن بعضها غير مرتبط بالبعض الآخر، ساكنة، صالحة لذاتها، كلّ واحدة في جزيرتها المنعزلة الغريبة، مثلها مثل الصور في عدم واقعيتها، ذلك العالم، عالم أناس تحجروا حيث يوجد إلى الأبد، طفل ممسك بيد أم لم تعد موجودة (تحولت إلى تراب ونبتة)، في حين إن الطفل ليس ذلك الطبيب العظيم، أو البطل الذي تصورته الأمر، وإنما مستخدم مغمور يقلب أوراقاً، ويجد الصورة ويتأملها مليّاً عبر عينيين قاتمتين. ولذلك فإنه كلما كان يحاول إعادة بناء الأجزاء البعيدة في حياته، كان كلّ شيء يبدو مَمْحُوّاً، ويكاد لا يميز هنا أو هناك سوى وقائع أو وجوه، لم تكن أحياناً، ترتقي إلى حد تبرير استمرار حياته. فكيف يفسر أنه كان يتذكر بمثل ذلك الوضوح شيئاً ليس له أية أهمية حاسمة في حياته كوصول ذلك المحرك الضخم للمطحنة؟ حسناً؟ حسناً، «بمثل ذلك الوضوح».. لم يكن الأمر كذلك أيضاً، لأنه حينما كان يستعد لتحديد ذلك المشهد بكلمات، كان يدرك أنه يصبح أقل تحديداً، وأن خطوطه العامة تتبخر، وأن كلّ شيء يفقد قوامه، كما

لو كان بوسعه أن يمرر ذراعه عبره بدون مانع أو عائق. لا، لم يكن يعرف، لم يكن بوسعه تقديم تفاصيل: حينما كان يستعد كان المشهد يتبخر، كما تتبخر الأحلام حين نصحو، ثم، إنه كان أمراً مستحيلاً استعادة الذكريات بدون العثور على مفتاح السر، الكلمة السحرية، كانت كأميرات تنمن نوماً طويلاً ولا تستيقظن منه إلاّ بعد أن تتردد الكلمة السرية على مسامعهن. هنالك في الأعماق كانت تغط في النوم ذكريات سعادة ورعب؛ وفجأة، سرعان ماكانت تكفي أغنية ما، أو رائحة ما، لتحطيم الرقبة ولجعل الشبح يبرز من مقبرة الأحلام. أيّ لحن، أيّ جزء ملتبس من لحن سمع في تلك الأمسية من الوحدة في حديقة لوكسمبورغ؟ كانت الأغنية آتية من بعيد من عالم مفقود، وفجأة يرى في «كابيتان أولموس» في ليلة صيف، في ضوء أحد تلك الفوانيس الكبيرة الساطعة. من كان هناك؟ رأى فقط انبثاق صورة «فرناندو» يقطع طرفي الضفدع الخلفيين ثم جهوده المضحكة ليهرب بالطرفين الباقيين على سطح أرض جافة. ولكنه كان شبحاً ملتبساً بلا لحم ولا وزن، كان ضرباً من «فرناندو» بلا عينين محددتين ولا شفتين لحميتين، كان فكرة تقريباً: ذعر، اشمئزاز. وكان ذلك التنين قد انبثق من منطقة تخيم عليها الظلال لكي يبتر طرفي ضفدع بسبب أغنية. كم كان ذلك السادي غريباً، فقد بقيت الأغنية والضفدع مقطع الأوصال يعيشان معاً. كانا متحدين إلى الأبد، خارج الزمن، في زاوية مظلمة من زوايا نفسه. لا، لا يستطيع أن يتذكر طفولته بمنطق ولا بإنتظام، كانت ذكرياته تنبثق على غير هدى من عمق مظلم ومحايد، ولا يتمكن من إقامة رابطة زمنية فيما بينها، لأنه كان يستحيل عليه أن يحدد أياً من تلك الأجزاء التي تطفو كجزر صغيرة في محيط لا يبالي كان يسبق وأيها كان يلي، فلم يكن للزمن فيما بينها أي معنى، لأنه لم يكن مرتبطاً بحياة أو موت وبأمطار أو صداقات وببؤس أو حب. وهكذا فإن وصول تلك الآلة المبهمة يمكن أن يكون سابقاً لعملية البتر

المَريعة أو لاحقاً لها، فقد كان يمتد بينها المحيط الرمادي الذي ليس له بداية ولانهاية ولاسببية الأشياء التي سقطت في خضم النسيان الأبدي.

حينئذ استسلم خوانشو في ذلك الصراع غير المتكافىء للهزيمة، تعرض لأزمة تخللتها صرخات، وإرتعاشات، وكان يتعين معالجته بحقنة لكي ينام. وأدرك العجوز غيابه حالاً. وتصور من أعماق البئر التي كان يناقش فيها أنهم أخذوه إلى «برغامينو»، وأنهم قتلوه هنالك ثأراً. تمتم قائلاً، لقد أخفوه؟ لماذا أخفوه؟ إيه..؟.. لماذا؟. كان يبكي، وإن لم تكن في عينيه دموع، لأن جسمه فقد ما كان فيه من سوائل، ولكن كان يُستنتج من الجلبة ومن اهتزاز جسمه المميز أن ما كان يخرج من ذلك الجسم الذي كاد يكون جثة، هو بكاء: بكاء جاف وضئيل. نوع من بكاء شبه جثة. أين كان «خوانشو»؟ إيه؟ أين كان؟ في «برغامينو». تمتم ثانية قبل أن يدخل في نوبة اعتبر الجميع أنها النوبة الأخيرة: كان يتعرق كما لو كان أحد يحاول خنقه، كان يتقلب بشدة في السرير، وكان يخرج من فمه أنين وأجزاء كلمات متقطعة. كان يرفع الغطاء ويصرخ، حتى تصلب وجهه فجأة، وكان يتعين الإمساك به حتى لايلقي بنفسه من السرير. ثم خرجت من فمه الذي كان كحفرة تؤدي إلى بئر عميق أسودينشر رائحة كريهة، إتهامات للأعداء الذين قتلوا ابنه. وأخيراً همد، كأنما تهاوى على نفسه.

نظروا إليه جميعاً. اقترب نيقولاس ليتأكد إن كان مايزال يتنفس. لقد تغلب على الأزمة مرة أخرى. كان كيساً من عظام ولحم يتفسخ، ولكن روحه كانت تقاوم، تلوذ بالقلب، الملاذ الأخير الذي بقي لها بعد أن تهاوى نحو الموت ماتبقى من الجسم البائس.

تمتم بصوت يكاد لايسمع، وقد انهارت قواه، فقرب «نيقولاس» إذنه

من شفتيه وحل رموز الرسالة: «ماأتعس أن يموت المرء». كان هذا مايبدو أنه قاله. ثم استأنف بعد ذلك القتال، كمحارب يجمع فلول قواته المشتتة المهزومة ليعود بها إلى المعركة المستحيلة (إنما الرائعة).

فكر «برونو»، قواته. ولكن كاد لايبقي لديه سوى القلب. ذلك القلب الضعيف المتعب. ولكنه كان هناك، وكان في كلّ خفقة ضعيفة يثبت أنه كان مايزال هناك بجانبه، مازال بعد يقاوم.

ذلك الجسم المنهار شهد لحظة إشراق، عرف «برونو»، وابتسم له بحزن، بدا أنه يودّ أن يكلمه. اقترب «برونو» من فمه ولكنه لم يتمكن من أن يفهم شيئاً، وإن كان والده يشير إلى جسمه، إلى بقايا جسمه.

كان «برونو» قد بقي معه موقتاً. بدا له أنه لمح فينظرته التي أصبحت الآن أكثر هدوءاً، بريق ابتسامة لايصدق، مزيج من رضى وسخرية. بدت منه إشارة أخرى، فقرب برونو أذنه فسمعه يتمتم «خوانشو». كان يحاول أن ينام. ثم استغرق يفكر، وعاد بعد برهة يتمتم، كيف، كيف؟ أرض..؟ أية أرض..؟. بدا أن مزاجه قد تعكر، بذل جهداً كبيراً، كلمات لارابطة بينها. لايمكن أن يفهمها غريب أبداً، ولكن «برونو» تمكن من أن يرتبها في سياقها الصحيح كمن يتقن لغة قديمة، ويحل رموز نص كانت بعض أجزائه غير مفهومة: من الحصة التي ستكون من نصيبه، جزء كان يود أن يكون من أجل قطعة أرض.

هوسه القديم: الأرض التي توطد.

بدا أنه يبتسم لوعد الابن التائه. بعد ذلك طلب حضور «خوانشو» كان يود ماء، كان يجب أن يضطجع على الجانب الآخر. حاول «برونو» عبثاً، لكنه أومأ إليه بإشارة نفي. كان ينبغي إيقاظه.تمكنا معاً من أن يضعاه على الجانب الآخر. شعر «برونو» لأول مرة في حياته بأنه مفيد

حقاً، شعر بأنه شقيق «خوانشو» أكثر من أي وقت مضى، وأدرك بشيء من التواضع الحنون أنه، هو الذي عرف أراضي ومذاهب، وقرأ كثيراً من الكتب حول الألم والموت، كان أدنى مرتبة من ذلك الأخ الذي لم يفعل ذلك قط.

أومأ العجوز بإشارة أخرى، فاقترب «خوانشو» من أذنه، ثم وافق، فبدا أن الوالد نام حينئذ مطمئنا. نظر «برونو» إلى أخيه.

- الحديقة

وما أمر الحديقة؟. كانت تسليته. ألا يعلم؟ ينبغي عزق الأرض. كان يجب أن تحرث هذا هو كلّ مافي الأمر.

رأى أن شقيقه كان يستعد للخروج إلى الفناء الخلفي. كيف، ألن ينام؟ إلى أين سيذهب؟

- لقد قلت لك إنني يجب أن أعزق الأرض.

نظر إليه «برونو» مذهولاً، ولكنه سوف لن يراها أبداً. فهذه الحديقة، وكلّ شيء آخر سوف يختفي إلى الأبد.

- لقد نام مطمئناً لأنني وعدته.

لاذ «برونو» بالصمت وهو يتأمله ملياً: لقد هدّه التعب المضني ليلاً نهاراً، وشاخ أكثر.

- ولكن أرسل أحداً آخر، أحد العمال

- لا، أبداً. لم يكن يود أن يمس الحديقة أحد.

ماأن خرج شقيقه حتى جلس على مقعده. كان يشعر بأنه تافه ومذنب

لأنه شعر بالاشمئزاز، لام نفسه لأنه كان يحاول أن ينسى تلك الآلام في القرية، لأنه كان يفكر في أشياء أخرى، ولأنه كان يقرأ في تلك الأيام صحفاً، وكتاباً. كلّ ذلك كان ضرباً من الطيش، حتى التفكير بأشياء عميقة كالقدر والموت، كان يفكر فيها بشكل عام ومجرد، وليس فوق ذلك اللحم المعذب في ذلك اللحم، ومن أجل ذلك اللحم.

وعندما عاد أخوه تخلّى عن المقعد، ومكثا صامتين يسمعان الأنين، بقـ.يا هذيان. كان برونو يتأمل من الخلف منكبي خوانشو المثقلين، وشعره الأبيض، ورأسه المائل نحو الأمام من شدة التعب. وشعر للحظة بالرغبة في أن يمد يده ويضعها على كتفيه، على الكتفين اللذين حملاه حين كان طفلاً، ولكنه أدرك أنه لن يكون أهلاً للقيام بذلك أبداً.

ـ حسناً سأعود إلى الحديقة. راقبه أنت.

حينما جلس على المقعد شعر بالفخار الذي لابد أن يشعر به خفير يحل محل رفيقه في موقع خطر. ولكن ماأن بدأ ذلك الشعور يأخذ طريقه إلى نفسه، حتى شعر بالخجل.

حين خيم الليل، كان إخوته الكبار يأتون مابين حين وآخر، ذهب «خوانشو» قسراً ليتابع نومه الذي كان قد قطعه. وهكذا قضى «برونو» لأول مرة في حياته، الليلة بكاملها إلى جانب إنسان يحتضر. وأدرك أنه بدأ الآن يصبح رجلاً، لأن الموت هو وحده الذي يعد للحياة حقاً، فموت إنسان تربطه بآخر أواصر حميمة يتيح فهم حياة وموت كائنات أخرى مهما كانت بعيدة، حتى وإن كانت من أبسط الحيوانات. سقاه ماء، بل وتمكن من حقنه بجرعة مورفين.

تحدث بلغة أهل البندقية، حول أمور ربما كانت تعود إلى أيام طفولته، لأنه كان يذكر أسماء لم يسمع بها من قبل قط. وكلمات حول دفة مركب،

أو شيء من هذا القبيل. وسرعان ماأصبحت ملامحه كئيبة. كان في لحظات أخرى يقاتل أعداء، ويتقلب في سريره، ثم سمعه يترنم، فعادت أساريره عندئذ تعبر عن السعادة: اقترب من شفتيه فسمع بقايا مشوهة من «أجراس سان جيوستو» تلك الأغنية التي كان يرددها أبناء تريستا والتي كان يغنيها له حينما كان هو طفلاً.

وبعد يومين بدأت سكرة الموت.

صدمت «برونو» اللامبالاة المهذبة والإيماءات الرتيبة التي قام بها الكاهن أثناء مسح الزيت والصلوات، لأنه شعر بكلّ جوارحه، بمهابة المسحة الأخيرة: كان والده هو الذي يودع الحياة إلى الأبد، تلك الحياة التي عاشها ببسالة وعناد.

أشعلت شمعتان أمام صورة «سان ماركو». علق «خوانشو» في رقبته أيقونة القديس الفينيسي. وفي تلك اللحظة أطمأن العجوز على نحو غريب، حتى مات.

سار في شارع «الميرانتي براون»

ولكن حين وصل إلى منعطف شارع «بينسون» وجد أن مقهى «تشيتشين» القديم قد تغير: حلت «الفورمايكا» محل رخام المناضد، جلس مذعوراً كأنه شبح دخيل في مكان لايمت إليه بصلة، بعد غياب دام حوالي عشرين عاماً، عدد كبير من أولئك لاذين كانوا يتحدثون عن كرة القدم قد ماتوا، والفتيان الذين كانوا يرهقون المجنون «بارّاغان» أصبحوا الآن رجالاً، ولعلهم تزوجوا، وأنجبوا. وتشيتشين اين تشيتشين؟. فالنادل الذي استقبله كان حديث العهد لم يكن يعرفه، فبدا له أنه كان في بيته مريضاً، أو أنه مات. والمالك؟ كان يدعى «مورينتي» ذلك الإسباني الذي كان يشرف على صندوق النقود. وصورة فريق

«بوكا» وكذلك صورة المغني «غارديل» والفارس «ليغيسامو» قد اختفت من المرآة الكبيرة.

رجل من زمن آخر

توقفت نظرته أمام عجوز نحيل القامة، شعره قد ابيضّ وأنفه معكوف وحاد جداً، وعيناه على طرفي وجه ضيق، تضفيان عليه مسحة من عصفور، عصفور كئيب فقد شيئاً ما. كانت رقبته طويلة جداً، وحنجرته بارزة، وكان يضع بين شفتيه نكاشة أسنان، كلفافة مطفأة، ينقّلها ما بين حين وآخر من زاوية إلى أخرى. كان ينظر إلى الشارع كأنه ينتظر شيئاً، كما لو أنه يجلس إلى منضدة محطة قطار، ينتظر بفارغ الصبر، مابين لحظة وأخرى وصول شخص ما. كان وجهه ينمّ عن ذلك الحنين القلق، ولكن شفتيه المشدودتين من طرفيهما نحو الأسفل كانتا تدلان بمرارة على أن ذلك الإنتظار يكاد يكون عبثاً. لم يكن هنالك أدنى شك: إن ذلك الرجل هو «هومبرتو. خ. داركانخيلو» الذي كان معروفاً بين أناس عصره باسم «تيتو». كانت قد غابت «كريتيكا»[1] المطوية تحت إبطه، وغاب تشيتشين الذي كان يمسح الأقداح ويعدد بطلب منه، أسماء فريق «بوكا جونيور» في ١٩١٥

سألوه من منضدة قريبة بصوت عالٍ:

ـ وأنت يا «دون هومبرتو» مارأيك

فأجاب «كاركانخيلو» كرهاً. بأي شيء؟

ـ بذلك الذي قاله المعلق بالتلفزيون

---

(١) «كريتيكا» جريدة شعبية كانت تصدر في عقد الثلاثينات في الأرجنتين. (المترجم)

فأدار رأسه الهزيل

- ماذا؟ «أرماندو»..؟

نعم، تصريحات «البرتو خ. أرماندو».

تأملهم برهة، ولاذ الجميع بالصمت كأنهم أمام قاض لايرحم ولكنه عادل. لم يجب «تيتو» بأي شيء. عاد ينظر إلى شارع «بينسون» وغرق ثانية في ذلك العالم وحيداً، بينما قال أحد الذين طلبوا حكمه (الأعرج أكونيا؟ لوياكونو..؟) بجرس انتصار: «أرأيت؟ أرأيت؟». بأي شيء كان يفكر؟ لاشك أن العجوز قد مات، كان يراه (كان يتصوره) جالساً بجانب باب النزل على كرسي القش، بعكازه ذي العقد، وقبعته الرثة الخضراء، يتمتم، «إيه، نعم». يحرك رأسه كما لو أنه يروي بالإشارة شيئاً يثير الشجون، لمستمع خفي، «هكذا كانت الأمور».

أيّ أمور؟ قليلة. هي ذاتها دائماً: ذلك البحر الذي كان يتأمله من أعلى الجبل، ومزماره بيده، وأعياد الميلاد مع الثلوج، أولئك الرعاة يعزفون على مزاميرهم. كان يرى «تيتو» يشرب الماتي بجانبه، ويسأله على نحو تمتزج فيه السخرية بالعطف، ماذا كان يغني الرعاة. وكان العجوز يغمض عينيه بخجل وحياء وينشد:

ليلة الميلاد

يوم عيد كبير

ولد فيه سيدنا

في مزود وضيع[١]

---

(١) وردت في الأصل باللغة الإيطالية (المترجم)

هذا ماكانوا ينشدون، إيه، نعم... وكان هنالك كثير من الثلج أيها العجوز؟ إيه، نعم... الثلج. وكان يمكث مفكّراً بتلك الأرض الخرافية، في حين كان «تيتو» يومىء بطرف عينيه «لمارتين» ويبتسم بشيء من ألم يخالطه الحياء وضرب من سخرية كئيبة:

- أرأيت يافتى؟ القصة ذاتها دائماً. لايفكر بأي شيء آخر، القرية دائماً، آه لو أنني كنت ميسوراً..

ولاشك أنه الآن قد مات. وأتت عربة من البلدية لأخذ جثمانه الصغير، يرافقه «تيتو» إلى مستودع مجهول ذي رقم في مقبرة «تشكاريتا» لكي يتفسخ بين جدران من اسمنت. ليس في تراب قريته البعيدة أمام بحر أجداده القدماء، وإنما هنا في القبو الأرضي الرابع من مقبرة اسمنتية، ذات قبور مرقمة.

عاد «برونو» ينظر إلى «داركانخيلو»، ويتفحص في وجهه ذلك الحنين إلى المطلق، ذلك المزيج من السذاجة والريبة والطيبة، ذلك القصور عن فهم عالم يزداد فوضى وجنوناً يوماً بعد يوم، عالم لم يعد فيه لاعب كرة القدم يكافح محبة بقميصه وإنما محبة بالمال. عالم لم يعد فيه «تشيتشين» يقدم الشراب في المقهى، عالم يكاد فيه «بوكا» يكون ذكرى مؤلمة، عالم أصبح فيه ذلك النزل الذي كان يعج بالدجاج والخيول، زنزانات من الحديد والإسمنت لامكان فيها للعربة القديمة المتعبة، ولعل راية «بوكا» أيام زمان مضى، مازالت في غرفته، إلى جانب صورة «تيسوريري»[1] المهداة إليه، وإلى جانب ذلك «الفونوغراف». ولكن، لاشك أن هذه الكنوز بقيت حية، على نحو يثير الحزن، مثل صاحبها تماماً، في غرفة لم يعد يسمع فيها صياح الديوك عند الصباح، ولايشم أريج الـ «غليسينا» ممزوجاً برائحة الروث.

(١) تيسوري: حارس مرمى نادي بوكا حوالي العام ١٩٢٥ (المترجم)

خرج وسار في الشوارع التي كانت قد تغيرت أيضاً، أين تلك الممرات وتلك البيوت ذات الأسيجة الحديدية والدهالين، أين...؟

وعادت إلى ذاكرته أبيات من قصيدة شعرية شعبية:

لطخ الاسفلت بضربة واحدة

الضاحية القديمة

التي شهدت مولدي(١)

لم يكن قد تبقى شيء في المدينة الشبح المشيدة فوق الصحراء: عادت لتصبح صحراء أخرى، بتسعة ملايين إنسان لايشعرون بأي شيء خلفهم، وليس لديهم أشباه الخلود كما توجد لدى شعوب أخرى كنصب ماضيهم الحجرية، لاشيء.

سار على غير هدى

كان الوقت بعد منتصف الليل

عندما عاد إلى دار آل «أولموس»، اقترب بهدوء كأنه يقترب من إنسان نائم لايود أن يصحو، يرغب بالمحافظة على حلمه كما يحافظ على شيء هش جداً ومحبوب. فكّر، إيه لو كانت العودة إلى فترات زمنية معينة من الحياة أمراً ممكناً، مثل العودة إلى الأماكن ذاتها التي انقضت فيها والتي استمع فيها منذ ثلاثين عاماً مضت إلى صوتها الرصين وهي تتلو شعر «ماتشادو» ثم التقاط البرهة من مجرى الزمن الخفي، إنما الحتمي، تلك الواقعة التي بقيت حية أو كادت، في ذكرى تزداد إبهاماً يوماً بعد يوم.

---

(١) مقطع من أغنية تانغو أرجنتينية مشهورة (المترجم)

لقد كانت حياته جرياً وراء أشباح وأشياء وهمية، أو من أجل ماهو أقل من تلك الأشياء التي يعتبرها الناس الواقعيون وهمية؛ ولأن كلّ شيء فيه كان كضياع الحاضر لكي يدعه يتحول إلى ماض، إلى ذكرى تثير الشجون، إلى حلم ضال يستنجد به ـ كما كان في تلك اللحظة يفعل، إنما عبثاً ـ حين لايكون بوسع أحد أو أي شيء أن يعود، حين لايستطيع الكائن الذي أحببناه في تلك الأيام تلمس وجنتنا، كما كانت «خورخينا» تفعل منذ ثلاثين عاماً مضت، في ليلة شبيهة، في تلك الحديقة التي كان الآن يراها وحيدة. كان يشعر بأنه فاشل، وكان يشعر بذلك الفشل، ممزوجاًبشعور بالذنب، ربما كانت تثيره في نفسه ذكرى ذلك الرجل النشيط الفظ، الذي كان والده: وأحد من أولئك الرجال الذين واجهوا ببسالة، هذه الحياة العابرة القاسية، والتي هي في كلّ لحظة من لحظات الحاضر، رائعة. لكنه هو، كان دائماً، مفكراً يقاسي بألم من الإحساس بالزمن ينقضي ويأخذ معه كلّ ما كنا نود أن يبقى خالداً. وكان، بدلاً من يكافح معه، يستسلم للهزيمة مسبقاً، ويصرّ بعد ذلك على تذكره بكآبة، يستنجد بأطيافه ويتصور أنه، على نحو ما، يثبتها في شعر أو رواية. ويحاول ـ والأسوأ من هذا أنه يتصور أنه يحاول ـ القيام بتلك المهمة التي تفوق قدرة قواه، وهي أن يحقق جزءاً من خلود، في أقل تقدير، وإن كان جزءاً صغيراً ومألوفاً وبسيطاً جداً، لكنه أيضاً مثير للشجون كثيراً كشاهدة قبر، عليها بعض الأسماء وكتابة ذات مغزى، يود أناس آخرون، رجال ونساء آخرون من أيام أخرى آتية، حزينون ومنصرفون للتأمل مثله ولأسباب أخرى مشابهة، أن يوقفوا جريان أيامهم السريع ليشعروا، وإن لبضع لحظات، هم أيضاً، بوهم الخلود.

«خورخينا»

تمتم وهو يلامس بحنان ذلك الحاجز الصدىء، ويتأمل تلك

«الماغنوليا»، كما لو أن أنقاض الحديقة يمكن أن تشهد حضور روحها وظهور جسمها بتلك الغضون الخفيفة في جبينها التي كانت تبدو كأنما تسأل عن معنى الحياة وعن الأوهام وإحباط الوجود، ولكنها تكاد تكون غريبة بما تنطوي عليه جميع أسئلتها من حياء وتواضع. وتمتم ثانية «خورخينا»، وهو يتطلع نحو الظلال.

بين أشلاء جسدك

بين ديدان جائعة مسعورة

هنالك روحي أيضاً ستكون

كساكن من سكان الأرض المدمرة القدماء

بلا سكن وبلا وطن

كيتيم يبحث عن الناس الأحباب

بين صرخات مجهولة

وأنقاض.

تسكّع حتى الصباح، ثم عاد إلى بيته وحاول أن ينام، كان نومه قلقاً ومرهقاً. وفجأة حلم بأنه كان وحيداً، في مكان مبهم، كان يبدو أن أحداً يناديه. لكن تميز ملامحه كان أمراً بالغ الصعوبة بسبب نقص الإضاءة وطبيعة جلده المجذوم الذي كان يتساقط مزقاً. أدرك أنه كان جثة حاول أن تجعله يفهم: إنها جثة والده.

استيقظ مكتئباً، وقلبه يتقطع ألماً.

واقتحمت فكرة الفشل عقله ثانية. وكذلك فكرة خيانة الأصل الذي انحدر منه فشعر بالخجل من نفسه.

سلوك غير متوقع يقوم به برونو لدى نهوضه

توجه إلى محطة «تشاكاريتا»، وهي مكان في «بوينس آيرس» كان يجتنبه بألم دائماً، منذ ذلك العام ١٩٥٣ الذي مات فيه والده. والآن بعد عشرين سنة أخرى، كان يشعر بأنه مدفوع إلى العودة إلى قريته. ماذا كان سيفعل؟ ماذا كان يريد؟.

رحلة إلى كابيتان أولموس، ربما الأخيرة

شهد أحلاماً حاول بعد زمن طويل تفسيرها. ولكن كيف لا يستطيع أحد تفسير معنى الأحلام؟

سمع وهو شبه نائم، «كابيتان أولموس» وخال أنه كان العجوز «دون بانشو» يهمس بذلك من جسده المحنط.

نظر. لا، لا لا أحد، لابدّ أن يكون «مديناً» قد مات أخيراً وكذلك أيضاً، بالتأكيد، السمسار «بنغوا» أو ربما تعد هنالك أعمال سمسرة.

سار نحو الدار التي ولد فيها ببطء، وشعر ثانية بالانفعال الذي خَبَره حينما كان والده يموت، لدى سماعه ضجة الآلات الرتيبة، فيتوقف بعيداً. شعر بأنه سوف لن يدخل إلى الدار، ولن يرى من بقي من إخوته، على الرغم من أنه لم يدرك في تلك اللحظة لماذا، فاتجه نحو الساحة، وجلس في أحد تلك المقاعد القريبة من شجرة النخيل التي كانوا يختبئون فيها في ليالي الصيف. «سينما ـ مسرح كولون»: من الأبدية كان ينظر إليه «وليام س. هارت» و«ايدي بولو»، كراعيي بقر، كعضوين في شرطة الفرسان الملكية الكندية.

توجه بعد ذلك إلى المقبرة: بيوت اللبن القديمة، المطلية باللون الزهري أو السماوي، وأسيجة الصبار.

كان عند المساء يحل رموز الكتابات، أسماء قطنت طفولته، أسر انقرضت، التهمتها «بوينس آيرس» أعوام الثلاثينات، عندما كانت كلّ تلك القرى تتأثر بالأزمة، يهجرها سكانها ويخلفون فيها موتاهم وحيدين أكثر من أي وقت مضى.

آل «بينيا»، ها هنا، ضريح «اسكولاستيكا»، الآنسة الأكبر، هكذا، نعم العانس الغريبة، زاخرة بالزينات والزخارف. وآل «برادوس»، وآل أولموس» الذين قاوموا منذ قرن مضى غارات هنود سهول «لابامبا»، وأيضاً آل «مورّي».

ذكرى حب

جون مورّي

الذي فارق هذه الحياة

في ٢٥/ ١/ ١٨٨٢

عن عمر بلغ ٤٠ عاماً

شاهدة وضعتها زوجتك وأولادك

حتى رأى في نهاية المطاف شاهدة قبر والدته قليلاً إلى الجانب:

ماريا زينو دي باسّان

ولدت في البندقية في ١٨٧٠

ماتت في هذه القرية في ١٩١٣

وقبر والده بجانب قبرها وقبر إخوته. مكث برهة طويلة هناك، ثم أدرك أن لافائدة ترجى من ذلك، وأن الوقت متأخر جداً ويجب أن يذهب.

أيتها الحجارة الشامخة

إلى أي أوطان صمت عائدة

شهود العدم

شهادات المصير النهائي

لسلالة قلقة وحزينة

مناجم مهجورة

شهدت في زمن آخر

انفجارات

والآن عناكب.

بدأ يسير نحو المخرج، يري أو يلمح أسماء أخرى تعود إلى طفولته: «اوديفرد» «مورفي»، «مارتيللي»، حتى ذهل حين رأى فجأة شاهدة تقول:

أرنستو ساباتو

أحب أن يدفن في هذه الأرض

مسمع كلمة واحدة على قبره

سلام

اتكأ على حاجز حديدي صغير وأغمض عينيه. وبعدئذ، حين عاد ثانية ليفتحهما خرج من المقبرة يخالجه شعور لاينطوي على أيّ شيء مأساوي: فأشجار السرو الحزينة، وصمت الليل الذي كان يقترب، والهواء الذي يعبق برائحة سهول «لابامبا»، وتلك الإيماءات الخفية من

عهد الطفولة (كإيماءات مسافر يذهب إلى الأبد ويلوح مودعاً من نافذة القطار) كلها كانت تمده بذلك الشعور من الإطمئنان الكئيب الذي يشعر به المرء عندما يكون طفلاً، حين يضع رأسه في حضن الأم وهو مايزال مغمضاً عينيه الغاصتين بالدموع، بعد أن كان يعاني من وطأة كابوس.

فكّر، «سلام»، أجل، ذلك كان بالتأكيد، ولعله كان ذلك فقط مايحتاجه ذلك الرجل. ولكن لماذا رآه مدفوناً في «كابيتان أولموس» بدلاً من «روخاس» قريته الحقيقية..؟ وماذا كانت تعني تلك الرؤيا..؟ رغبة أم نذيراً مبكراً أم ذكرى ودّ لصديقه؟ ولكن كيف يمكن اعتبار تصوره ميتاً تصوره ميتاً ومدفوناً ضرباً من الوداد؟ وفي جميع الأحوال، وكائناً ماكان، فلا شك أنه سلام، ذلك الذي كان يتوق إليه ويحتاجه، وما يحتاجه كلّ مبدع، مَنْ ولد ترافقه لعنة عدم الاستسلام لهذا الواقع الذي تعين عليه أن يعيش فيه، مَنْ يرى أن العالم مريع أو على نحو مأساوي عابر وناقص. لأنه ليست هنالك سعادة مطلقة، فكّر. ونكاد لانحظى إلاّ بلحظات عابرة وهشة، والفن هو طريقة لتخليد (رغبة في تخليد) تلك اللحظات من الحبّ أو النشوة، ولأن آمالنا جميعاً تتحول عاجلاً أم آجلاً إلى وقائع خرقاء، لأننا فاشلون جميعاً، على نحو أو آخر، وإن انتصرنا في أمر، نفشل في غيره، لأن الخيبة هي المصير الحتمي لكلّ كائن ولد لكي يموت؛ ولأننا وحيدون جميعاً، أو ينتهي بنا الأمر في يوم من الأيام لنصبح وحيدين: المحبون بدون المحبوب، الأب بدون أولاده، أو الأولاد بدون الوالدين، والثوري النقي في مواجهة التطبيق المادي المحزن لتلك الأفكار المثالية التي كان طيلة سنوات مضت يدافع عنها بعذاب وتعذيب مريع، ولأن الحياة كلها ليست سوى مفارقة أبدية، ومن نلتقيه في طريقنا لانحبه حين يحبنا هو، أو نحبه نحن حين لايودّ هو أن يحبنا، أو نحبه بعد أن يموت، حين يصبح حبنا عبثاً لافائدة ترجى منه؛ ولأن لاشيء مما ذهب يعود، فالأشياء، والناس والأطفال، ليسوا من كانوا من قبل،

ودار طفولتنا ليست كما كانت مخبأ كنوزنا وأسرارنا، والوالد يموت قبل أن يقول لنا كلمات ربما كانت بالغة الأهمية، وحين نفهمه لانجده بيننا، ولانستطيع شفاء أحزانه القديمة ولاتعويض المفارقات السالفة، ولأن القرية قد تغيرتِ والمدرسة التي تعلمنا فيها القراءة لم تعد تحتوي اللوحات التي كانت تلهمنا الحلم، وحلّ التلفزيون محل السيرك، وساحة الطفولة أصبحت صغيرة على نحو يثير السخرية حين نعود إليها.

إيه ياأخي - فكّرَ بكلمات طنانة لكي يهزأ بحياء أمام نفسه من أحزانه - فإنك حاولت، في أقل تقدير، أن تفعل مالم تتوفر لديّ القوة لفعله أبداً، مالم يتجاوز لديّ مجرد المشروع الخامل، إنك حاولت تحقيق ماحاول تحقيقه ذلك الأسود المعذب باغاني الـ «بلوز» في الغرفة الوضيعة من مدينة قذرة ومريعة؛ كم أنني أفهمك حتى أود رؤيتك مدفوناً مستريحاً في ذلك السهل الذي اشتقت إليه كثيراً، ولكي أحلم أن فوق نُصُبتك كلمة صغيرة تحفظك في النهاية من الألم والوحدة..!

قادته خطواته في الليل نحو بيت طفولته الذي أصبح الآن لآخرين. كان يوجد نور في الداخل. من كان أولئك الناس ياترى..؟

أتكون الروح غريبة في الأرض؟

إلى أين تتجه خطاها؟

صوت الأخت القمري عبر الليل القدسي يسمعه الزائر

الحزين

في زورقه الليلي

في المستنقعات القمرية

بين أغصان متعفنة، بين جدران مجذومة

الذي يهذي هو الآن ميت

يدفن الغريب.

ياأخت الحزن العاصف

أنظري!

زورق كئيب يبحر

تحت النجوم

وجه الليل الصامت

كان أحدهم قد قال، لما كان لايوجد شعر إحتفالي، فربما يمكن الحديث إذن عن الزمن، وعما لايمكن إصلاحه. وقيل مرة أيضاً (ولكن مَنْ، متى؟) إن كل يوم من الأيام سيصبح ماضياً منسياً وممحياً، حتى الأسوار المنيعة والخندق العظيم الذي يحيط بالحصن بالذي لايقهر.

(انتهى)

الفهـــرس

٣٠٠٠ ط ١ / ٥ / ١٩٩٦